الجمهوريّة الجزائريــة الدّيمقراطيّة الشّعبيّــة
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

كلية أصول الدين
الأديان
الرقم التسلسلي: .....
رقم التسجيل: 03/د/أد/ع م أ/15

قسم: العقيدة ومقارنة

تخصص: عقيدة

الرؤية الكونية التوحيدية عند بديع الزمان النورسي

دراسة تحليلية نقدية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم
تخصص: عقيدة وفكر إسلامي معاصر

إعداد الطالبه
الدكتورة
حدة ميهوب

إشراف الأستاذة
الزهرة لحلح

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
أ.د/ احسن برامة	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
أ.د/الزهرة لحلح	أستاذة التعليم العالي	مشرفة ومقررة	الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
أ.د. أحلام بلعطار	أستاذة التعليم العالي	عضوا	الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
أ.د/ علي خضرة	أستاذ التعليم العالي	عضوا	الشهيد حمة لخضر/ الوادي
د/ زكريا سعيدي	أستاذ محاضر أ	عضوا	أبوبكر بلقايد/ تلمسان
د/ ع الجليل بن سالم	أستاذ محاضر أ	عضوا	أبو بكر بلقايد/ تلمسان

السّنـة الجامعيّـة: 1447/1446 هـ - 2024/ 2025 مـ
الجمهوريّة الجزائريــة الدّيمقراطيّـة الشّعبيّــة
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

كلية أصول الدين
الأديان
قسم: العقيدة ومقارنة

الرقم التسلسلي: .....
تخصص: عقيدة

رقم التسجيل: 03/د/أد/ع م أ/15

الرؤية الكونية التوحيدية عند بديع الزمان النورسي

دراسة تحليلية نقدية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم
تخصص: عقيدة وفكر إسلامي معاصر

إعداد الطالبه
الدكتورة
حدة ميهوب

إشراف الأستاذة
الزهرة لحلح

أعضاء المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
أ.د/ احسن برامة	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
أ.د/الزهرة لحلح	أستاذة التعليم العالي	مشرفة ومقررة	الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
أ.د/ أحلام بلعطار	أستاذة التعليم العالي	عضوا	الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
أ.د/ علي خضرة	أستاذ التعليم العالي	عضوا	الشهيد حمة لخضر/ الوادي

د/ زكريا سعيدي	أستاذ محاضر أ	عضوا	أبو بكر بلقايد/ تلمسان
د/ عبد الجليل بن سالم	أستاذ محاضر أ	عضوا	أبوبكر بلقايد/ تلمسان

السّنـة الجامعيّـة: 1447/1446 هـ - 2024/ 2025 مـ

إهـــداء

إلى الذين تمنّوا أن يكتمل هذا العمل ويتحقق الحلم

والديَّ الكريمين

زوجي وأولادي

إخوتي وأهلي وأحبابي

زملائي وأصدقائي

إليكم أنتم الّذين سعيتم معي ليهُون كلُّ عسير

ودَعوتم لي دومًا بالتوفيق والتّيسير

أهدي هذه الثمرة.

شكر وعرفان

الحمد لله حمدًا يُعبّر عن عظيم الشكر، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد وعلى آله الطّاهرين وصحابته الطيّبين، وبعد:

أوّلا نشكر الله سبحانه وتعالى الذي أنعم علينا بفتح أبواب العلم، وألهمنا إتمام هذا العمل، ونسأله أن يكون نافعًا لنا وللآخرين، وأن يكون خالصًا لوجهه الكريم.

إنّ كلّ جهد فردي هو ثمرة عمل جماعي، وتطبيقًا لما قاله النبي صلى الله عليه وسلّم "من لا يشكر النّاس لا يشكر الله" فإنّنا نتقدّم بالشكر الجزيل لكلّ من ساهم من قريب أو بعيد في إتمام هذا العمل.

نتوجّه بالشكر العميق لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، والقائمين عليها، وأخص بالذكر "الأستاذة الدكتورة الزهرة لحلح" التي تفضّلت بالقبول أن تكون مشرفة على هذا العمل، وعلى جهودها الكبيرة، ودعمها لموضوع البحث، وتفانيها في التوجيه والتصويب والتعقيب المقترن بهامش معتبر من الحرية، ثمّ زادت على ذلك حتّى خرج هذا العمل في حلّته هذه فلها منّي الشكر والعرفان.

كما أثني على أعضاء لجنة المناقشة الموقرة الذين تفضّلوا بمراجعة هذه المذكرة وقدّموا ملاحظاتهم القيّمة وتوجيهاتهم المفيدة فجزاهم الله خير الجزاء.

وفي الختام أعبّر عن امتناني لكلّ من أسهم في تعليمي حرفًا، ولكلّ من كان له فضل عليّ لست أحصيه وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبيّنا الأمّي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

مقدمة

مقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصّمد، الذي لم يلد ولم يولد، خَلقَ الإنسان فأكرمَهُ، ونَعَّمه، وفي هذا الكون الذي ينبض بالحياة اسْتَخلفه، وأَنزلَ عليه الوحي والرسالات فهداه وأرشده، فما كان من هذا الإنسان إلّا أن عَبَد وشَكَر وسَجَد، أو كفَر وأشركَ واستَبدّ. والصّلاة والسلام على سيّدنا محمد أكرم الرُّسل، الهادي إلى أقوم السُبُل وعلى آله وصحبه، ثم قلْ:

أهمية الموضوع:

مقدمة

يُعَدُّ الإنسانُ محورًا أساسيًا في فكر الأستاذ سعيد النورسي، حيث يمنحه قيمةً غالية ويرفعه إلى مكانة عالية وتتجلى هذه المكانة من خلال ما ورد في "رسائل النور" التي تدور حول مفهوم الإنسان، وتُظْهِره على أنه كيان يتألف من عقل وقلبٍ وحواس وأعضاء وأجهزة ووجدان ولطائفٍ روحانية، وقد نُفِخَت فيه روحٌ زادت من رفعة مكانته وكرامته. كما يربط الأستاذُ النورسي الإنسانَ بالكون والقرآن من خلال التفكُّر والتأمل، مؤكِّداً أن الإنسان قد زُوِّدَ بجميع الأجهزة الجسمانية والروحانية واللطائف المعنوية لتكون استعداداتٍ لهذا التفكر، ولتكون تلك العلاقة التأملية التفكرية المصانة بعقيدة التوحيد النقية، قادرةً على تشكيل رؤية كونية واضحة الأصول، متينة الأسس، تصل بصاحبها إلى أسمى الغايات.

والرؤية الكونية هي تعبير عن مجمل الانطباعات والتصورات والمواقف التي يحملها أو يظهرها الأشخاص حول الله والإنسان والكون والحياة، وبعبارة أخرى هي محاولة تفسير الإنسان للكون من منطلق علمي أو فلسفي أو ديني، ولذلك توجد أنواع مختلفة من الرؤى الكونية، فمنها الرؤية الكونية العلمية والإنسان هو المركز فيها وهي أضيق الرؤى وأكثرها تبدلا لأنها قائمة على العلم النسبي و المتغير ولذلك فهي ظرفية، ومنها الرؤية الكونية الفلسفية والكون هو المركز فيها وهي أوسع وأشمل من الرؤية العلمية ولكنها تفتقر إلى الدقة وهي قابلة للتغيير أيضا و تكتسب السمات العامة لطبيعة الفلسفة التي تنطلق منها فإما أنها تعطي لحياة الإنسان معنى أو تقذف به إلى العمى، وتقوم هذه الرؤية على اليقين الجازم في تصورها عن العالم. أما الرؤية الدينية فإن مدارها ومركزها هو الله، وتستمد مضامينها من الدين، وتندرج الرؤية الكونية التوحيدية الإسلامية تحت هذا النوع، وقد اكتسب كلُّ شيءٍ من خلال سرّ التوحيد قيمةً أعمق وأغلى، حيث يتجاوز قيمته الذاتية المحضة، وتُصبح الأسرار المغلقة للأسئلة المحيِّرة حول منشأ الموجودات ومسيرها وغايتها واضحةً بفضل هذه الرؤية؛ إذ إنّ جمع مزايا الكون وكمالاته لا تظهر إلا من خلال سرّ التوحيد؛ فبدونه تتحوّل كل هذه المزايا والكمالات إلى أضدادها.

فهذه الرؤية التي تقوم على التوحيد تجعلنا نستيقن أن الله هو خالق هذا العالَم و قد جعل له نظاما يسير عليه وأن كل المخلوقات خُلقت لغايات محددة وقد حفَّها الله بالعناية و الرحمة وجعل فيها قابلية للاستجابة للتغيير والتأثير تبعا لقانون التسخير للإنسان الذي خصَّه بالتكريم والاستخلاف، وتضعنا الرؤية الكونية التوحيدية أمام شبكة من العلاقات واضحة المعالم من المنطلق إلى

مقدمة

المسار إلى المصير لأن هذا العالم ستكون له نهاية و مرجع الإنسان سيكون إلى خالقه الذي سيحاسبه على ما قدمه في الحياة الدنيا وينال ما يستحقه من ثواب أو عقاب.

فمن ابتعد عن حقائق الإيمان وأنوار القرآن، وانغمس في المادية، يُصابُ في أعماقه بمرضٍ معنويٍ يُذْهِبُ بصيرَته ويُطفئ نورَ قلبه. ورغم اكتشافاته العلمية وإنجازاته المادية إلاَّ أنَّه يبقى عاجزًا عن فهم أسرار الحق لأنَّ عقلَه قد تحوّل إلى مجرد عينٍ مادية لا ترى ما يراه القلب ولا تستشعر بما يجده الوجدان الحي. وكلما زاد بُعْدُه عن نور الإيمان، مات قلبه، وتحولت غفلته إلى طبيعة جامدة، وهذا الطاعون المعنوي يُعرِّض المبتلى به للغضب الإلهي.

وحقيقة الرؤية الكونية التوحيدية أو النظر الإيماني التوحيدي عند الأستاذ النورسي ليس مجرّد ارتباط شكلي أو اعتقاد نظري، بل هو انخراط وجداني عميق في مسلك العبودية الخالصة، حيث يجتمع الإيمان والعمل معًا ويُتَرْجَم واقعيا في سلوكيات إيجابية وبنَّاءة. وبِفِعْل الإيمان أيضا، يجني الإنسانُ ثمارَ التفكر والتأمل، ومن خلال العمل، يجني ثمار الخدمة والعطاء. ويتم هذا بتوطيد العلاقة مع الله الواحد الأحد، والاعتصام بحبل التوحيد المتين، وهذا ما يمنح المؤمنَ قوة معنوية هائلة، ويفسّر فعالية الدرس التوحيدي الذي يحوّل الإنسان من الضعف إلى القوة، ومن الشك إلى اليقين، ومن الجمود والتقليد إلى الحركية والتفعيل.

لقد أبدع الأستاذ النورسي في شرح قدرة الإيمان والتوحيد على كشف الأبعاد الحقيقية لماهية الإنسان ووجوده. ففي هذا السياق، يتحوّل الكون في نظر النورسي إلى كتاب مفتوح يُقْرَأ بمعاني القرآن، ومعرض إلهي تُشاهد فيه آيات الله، حيث يتَبَدَّى الإنسانِ كأرقى ثمرة في شجرة الخلق. وتتحول حركةُ الكائنات وتغيُّرَاتُها من فوضى عمياء إلى نَظْمٍ بديع، ومن عبثٍ لا هدف له إلى معانٍ سامية تتجلى عليها معاني الأسماء الحسنى للخالق سبحانه وتعالى. كل ذلك يجعل الكون كتابًا للحكمة الإلهية، ويرتقي بالإنسان من حضيض الحيوانية إلى أَوْجِ الخلافة، بقوة ضعفه، وبقدرته الكامنة في عجزه، وبشوكة عبوديته، وبشعلة قلبه المؤمن.

الإشكالية:

إنّ نظام الإسلام بجانبيْه العقائدي والتشريعي، يُمثل منظومة فكرية تحتاج إلى إدراك واعٍ وتفعيل مستمر، لتكون نبراسًا يهدي العقول والقلوب نحو الفهم الصحيح للوجود وغاياته. وكما أن للشريعة مقاصدها تهدف إلى تنظيم الحياة

مقدمة

البشرية على أسسٍ قويمة، فإن للعقائد أيضًا مقاصدا وأبعادًا حضارية ووجودية بالغة الأهمية والأساس المتين لكل ذلك هو عقيدة التوحيد النقية، التي يُعتبر إحياؤُها في القلوبِ والنفوسِ السبيلَ الأمثل لانطلاق العقول نحو التأمل في تفاصيل الكون، وفهم غاياته ومآلاته من منظار هذه العقيدة الراسخة.

من خلال هذه الرؤية الكونية التوحيدية، ينبعث نور القدرات الخلَّاقة والمكتسبات الفعّالة للمسلمين وتؤهلهم للقيام بدورٍ فعّال في إصلاح واقعهم وبناء مستقبلهم، واستعادة مكانتهم المرموقة بين الأمم. إنهم أُمَّةُ الخَيْرية والوَسَطِيَّة، ولكنْ حين يغفلون عن سرّ تميزهم ومنبع قوتهم، أو يستبدلونها بما هو أدنى، تتراجع مكانتهم وتفسد أحوالهم، ويَضِلّون عن طريق النهوض الذي خُلقوا لأجله.

وبناء على ما تقدم تطرح إشكالية مفادها: **ما هي مضامين ومبادئ الرؤية الكونية التوحيدية عند سعيد النورسي؟ وما هي القيمة المعرفية والعملية لهذه الرؤية، وكيف أسهمت في إيجاد مخرجٍ لأمةٍ كانت تتخبط في أزمات متعددة؟ وهل تحمل هذه الرؤية في طياتها من الفعالية ما يجعلها قادرةً اليوم على إحداث تغيير إيجابي في واقع الأمة، وتحقيق نهضة جديدة تعيد لها مجدها وعزها؟**

أسباب اختيار موضوع البحث

لقد اجتمعت جملة من الأسباب الذاتية والموضوعية التي ساقتنا نحو اختيار هذا الموضوع. وها هو بيانها:

أولاً: الأسباب الذاتية

1. لقد استوقفني موضوع "الرؤية الكونية التوحيدية" منذ مراحل دراسية سابقة، حيث شغلتني المفاهيم الجوهرية التي ترتبط بها مثل "التوحيد"، و"الإنسان"، و"الكون". هذه المواضيع ليست مجرد مجالات معرفية عابرة، بل هي أصول تتداخل فيما بينها لبناء التصور الإسلامي للوجود والحياة. بمرور الوقت، نما بداخلي شغفٌ عميق لاستكشاف هذا الحقل المعرفي.
2. إن اختيار الأستاذ "بديع الزمان سعيد النورسي" موضوعا لهذه الدراسة كان نتيجة مطالعة رسائله التي تظهر عليها ملامح رؤية كونية تستمد قوتها من جوهر التوحيد. فكلمات النورسي ومكتوباته كانت شعاعات ولمعات تنير الآفاق لتجعلنا نبصر إشارات الإعجاز التي تنتشر في الأنفس والآفاق، فتُرشد العقل والقلب إلى معاني التوحيد في أعمق صورها.

3. استوقفني فكر النورسي لأنه لم يكن مجرد فكرٍ تنظيري، بل كان فكرُه ورسائلُه نتاج المعاناة والمحن التي عاشها في تلك الحقبة الزمنية الحرجة، وقد أدرك مخاطرها وأهدافها، فكان لابد من التصدي لشبهات الأعداء وهجماتهم التي تستهدف اقتلاع الإيمان من القلوب، فاستطاع أن يحول تلك التحديات إلى مصادر قوة زادته دفعا للسير في طريق الدعوة والإصلاح، مجسدًا بذلك مثالًا حيًا للعمل الإيجابي البنَّاء الذي ظلّ يوصي طلبته به ويدعو إليه في رسائله.

إن الدراسة التفصيلية لفكر النورسي ورؤيته الكونية التوحيدية ليست مجرد اهتمام أكاديمي، بل هي محاولة لفهم كيفية التوفيق بين الإيمان والعقل، بين العقيدة والواقع، وكيف يمكن لهذه الرؤية أن تكون إطارًا منهجيًا يُمكّن المسلمين من مواجهة التحديات الفكرية والروحية في عصرنا الحالي.

ثانياً: الأسباب الموضوعية:

1. موضوع الرؤية الكونية التوحيدية يطرح نفسه بقوة على المستوى الفكري والإنساني، حيث يسعى للإجابة على أكثر الأسئلة تعقيدًا وأهمية، تلك التي شغلت ولا تزال تشغل الفكر الإنساني عبر العصور، مكتسبة أهميتها من ارتباطها بالمصدر، والمسار، والمقصد، والمصير.
2. إضافة على ذلك، فإن مواجهة الرؤى المخالفة للرؤية الكونية التوحيدية في الجوهر والمظهر صار ضروريًا، خاصة تلك التي تعارضها وتناقضها. إذ يلزم تقديم الرؤية الكونية التوحيدية وإظهار أحقِّيتها باعتبارها الأنسب للأمة الإسلامية وللإنسانية جمعاء. فمن يرى الحقائق من منظور التوحيد يختلف تمامًا عمن يراها من منظور الشرك أو الأسباب أو الطبيعة. فالمسافات بين زوايا النظر بعيدة للغاية، وكذلك الأهداف والغايات. فكم من غاية عظيمة لدى أتباع مذهب ما، لا يكاد يراها أتباع مذهب آخر، أو قد يرونها ولكن يعدونها بسيطة أو سخيفة لا ترقى إلى مستوى استحقاق الاهتمام أو حتى الالتفات لها.
3. كما أن للإنسان مكانة مهمة في الرؤية الكونية التوحيدية، وقيمته مستمدة من قيمة ما فيه من الصنعة العالية، والصبغة الغالية، وتجليات الأسماء الحسنى، وشرف التكريم ومهمة الاستخلاف، والعناية الإلهية، والترغيب في اتباع الطريق المستقيم، والتزويد بأسباب العزة والتمكين من أجل الصمود في أزمنة المحن والفتن واستنهاض الهمم. فاستحضار هذه القيم وبعثها في

النفوس صار ضرورة مُلحة في هذا الزمن الذي انصهرت فيه الأمة وتفرقت بين باقي الأمم، وانطمست معالم الهوية الإسلامية وأصولها.

4. إن اختيار النورسي من هذا الجانب تحديدًا هو كونه عالمًا مفكرًا، عايش فترة زمنية صعبة من كل النواحي، إذ حُورب فيها الدين الإسلامي عقيدة وشريعة، بل واتُهم بأنه سبب التخلف ولذا وَجب التعجيل بإقصائه كليًا من جوانب الحياة، واستبداله بالنموذج الغربي الذي قُدس آنذاك وفُرض على الناس بالإكراه. لكن النورسي لم يستسلم لهذا الوضع الصعب، ولم ينعزل في قمة جبل يعصمه من ذلك الوباء، بل صَدَع بكلمات الحق ودافع عن الدين الإسلامي وردّ الشبهات التي أثيرت حوله، وفضح المؤامرات التي حيكت ضده، وجعل مهمة إنقاذ الإيمان هدفًا أسمى يعيش من أجله أو يموت في سبيله.
5. تقدم رسائل النور مشروعًا دعويًا وتربويًا ونهضويًا وإصلاحيًا متكاملًا، ومردّ ذلك الفكر النوري هو رؤية كونية توحيدية مستمدة من عقيدة التوحيد ذات الأثر الإيجابي البنّاء والفعّال. انطلقتْ منها كقاعدة صلبة وقوة دافعة للإصلاح، وهذا ما نسعى إلى بيانه وكشف تفاصيله في فصول هذه الرسالة.

أهداف البحث:

نسعى من خلال هذا البحث إلى تحقيق مجموعة من الأهداف التي تعكس أهمية دراسة الرؤية الكونية التوحيدية عند بديع الزمان سعيد النورسي، وهي كالتالي:

1. بيان تفاصيل الرؤية الكونية التوحيدية عند الأستاذ النورسي، التي عرضها في رسائله بأسلوب لافت الاهتمام من حيث المنهج والمضمون. كما نحاول أن نبين كيف عكس النورسي من خلال رسائله فهما عميقا لعقيدة التوحيد وعلاقتها بالكون مع بيان الأساليب التي اعتمدها في تقديم هذه الرؤية.
2. بيان فاعلية عقيدة التوحيد وقدرتها على صياغة رؤية كونية تتسم بالوضوح والشمول وتستوعب تفاصيل الوجود وتضبط العلاقات بين الموجودات وتفتح مغاليق أسرار الكون والوجود فيحصل الإنسان على الأجوبة الشافية لكل ما استشكل عليه وأثار دهشته.
3. بيان أن الأستاذ النورسي قد حركه "حس اندهاشي" قوي فكان ينتبه إلى وجود أسرار عجيبة في الأنفس والآفاق ولذلك شَغَلَتْهُ الأسئلة المصيرية واستحوذت على مشاعره ومداركه وكان ينظر ويعيد النظر ليحصل على الجواب لتلك الأسئلة التي تهجم عليه.

4. استخراج الفوائد التي مازالت تحقِّقُها رسائل النّور إلى اليوم وأثرها على الأمة الإسلامية، وكيف اجتهد الأستاذ النورسي في تشخيص الداء ووصف الدواء وفتح آفاق واسعة للنظر إلى الوجود بمنظار التوحيد فقد كان مهموما بالأمراض التي أصابت الأمّة في زمانه وكانت له قراءة استشرافية، وتفاءل أيضا بمستقبل "رسائل النور" والدّور الإيجابي الذي ستُؤَديه.
5. كما نسعى إلى لفت انتباه الباحثين للاهتمام بفكر النورسي وتشجيعهم على دراسة رسائل النور واستكشاف موضوعاتها المتنوعة فهي مجال خصب للدراسات والأبحاث.

الدراسات السابقة:

إنّ الدراسات التي تُعْنى بالرؤية الكونية التوحيدية لا تحمل هذا العنوان تحديدا بالضرورة، وإنّما يكون مدارها هو عقيدة التوحيد ومضامينها وأبعادها، لذلك نجد الكثير من المؤلفات تحتاج إلى الاطلاع عليها ودراستها بجدية واهتمام حتى تتحقق لنا الفائدة المعرفية المرجوّة منها، ومن أهم هذه المؤلفات:

- مفاتح النور للأستاذ: فريد الأنصاري، وهو مشروع معجم مجزأ شامل للكلمات المفتاحية لكليات رسائل النور وقد صرح بذلك المؤلف الأستاذ فريد الأنصاري في مقدمة الكتاب، وفي ثناياه ركز المؤلف على مصطلحات مخصوصة من بينها: التوحيد، الإنسان، الكون، القرآن. وقد فصل في اشتقاقاتها وضمائمها وقيمتها الاصطلاحية، وكل هذه المصطلحات ترتبط مباشرة بموضوع دراستنا التي سيتم التعمق من خلالها أكثر في كل تفاصيل هذه المصطلحات وبيان العلاقة المباشرة بينها وثمراتها في الحياة الدنيا والآخرة لبيان القيمة المعرفية والعملية لها.

- من قضايا القرآن والإنسان للأستاذ: زياد خليل الدغامين، و قد ركز فيه على بيان جوانب تكريم الإنسان في القرآن الكريم و تحدث عن أبعاد الآخرة في واقع الإنسان، و كل هذه المحاور لها علاقة مباشرة بموضوع دراستنا خاصة فيما يتعلق بمكانة الإنسان في الكون و مظاهر تكريمه و يتضح ذلك أكثر بتركيزنا في هذه الدراسة على بيان العلاقة بين تكريمه في الدنيا وتوجيه غريزة حب البقاء التي فطر عليها لأنه توجد حياة أخرى تليق بتكوينه و تكريمه و رغباته، ولا يليق بها أن تنحصر في الحياة الدنيا التي جُعلت لغايات محددة، ولكنها تنتهي بالموت الذي كشفنا عن حقيقته وحاولنا تصحيح نظرة الإنسان إليه كما بينها النورسي خاصة بالنسبة للمؤمن الذي يليق به أن يتطلع إلى حياة باقية ينعم فيها بالسعادة الأبدية وتتحقق فيها كمالاته الإنسانية.

- الإمام النورسي متكلم العصر الحديث للأستاذ: محسن عبد الحميد، وقد ركز فيه على السمات التي تميز بها عصر النورسي وخطورة الأفكار الوافدة و الرائجة آنذاك خاصة

مقدمة

تلك التي أنكرت وجود الله وعالم الغيب و أنكرت الشريعة أصلا ورفعت من شأن الخطاب الإنساني والقوانين البشرية وقالت بنسبية الأخلاق، و لذلك كان لابد من مواجهة ذلك الغزو الحضاري الذي روج لرؤى فاسدة من حيث المنطلقات والأهداف وتقديم الفهم الإسلامي الشمولي وذلك ما نجح النورسي في القيام به لأنه كان المتكلم الذي يجيد الحديث بلسان عصره، وهذه التفاصيل كلها تلتقي مع موضوع دراستنا خاصة ما يتعلق بإدراك النورسي لتحديات عصره وخطورة الفكر الوافد وانشغاله بصياغة رؤية كونية توحيدية من خلال ربط المسلم بالجانبين المعرفي و العملي الذي يبنى على التصور الإسلامي الصحيح للخالق الواحد و حقيقة الكون و مكانة الإنسان و رسالته الوجودية.

- بالإضافة إلى بعض الرسائل الجامعية التي تدور في فلك رسائل النور ومنها: السلوك الروحي عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي للأستاذ: سراج الدين محمد نبيه، وهي رسالة دكتوراه مطبوعة في كتاب بهذا العنوان، وقد ركز فيها على مباحث مخصوصة من أهمها التوحيد والعبودية، وهذا ما يلتقي مع بعض فصول وجوانب دراستنا، ولكننا فصلنا أكثر فيما يخص التوحيد وبراهينه ومقتضياتهن وربطنا ذلك بالعمل الإيجابي والممارسة العملية وضبط منطلق الرؤية الكونية من زاوية التوحيد. ورسالة دكتوراه أخرى مطبوعة بعنوان: البعد الإيماني في فلسفة الحضارة عند الإمام بديع الزمان سعيد، وقد ركز فيها المؤلف على الجانب الحضاري القائم على البعد الإيماني، وهي رسالة قيمة عالج فيها المؤلف الوضع الراهن للأمة الإسلامية ومقومات النهوض التي تملكها وهنا تتقاطع مع موضوع دراستنا في الجانب الإيماني والتوحيدي، وكذلك في الموقف من الحضارة الغربية التي فصل النورسي في كيفية التعامل معها باعتدال.

مصادر ومراجع البحث:

اعتمدنا في هذه الرسالة ابتداءً على كليات "رسائل" النور للأستاذ سعيد النورسي، وهي:

الكلمات، اللمعات، الشعاعات، المكتوبات، المثنوي العربي النوري، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، صيقل الإسلام، الملاحق في فقه دعوة النور، وسيرة ذاتية.

كما اعتمدنا على مؤلفات أخرى اهتمَّ أصحابها بدراسة بسيرة النورسي وفكره الأسس، وأهمها:

- نظرة عامة عن حياة بديع الزمان النورسي وكتاب رحلتي مع رسائل النور كلاهما للأستاذ: إحسان قاسم الصالحي مترجِم رسائل النور إلى العربية.
- النورسي متكلم العصر للأستاذ: محسن عبد الحميد
- رَجُل القرآن وصناعة الإنسان للأستاذ: عبد الحليم عويس

مقدمة

- حقيقة مقاصد رسائل النور استمداداتها وامتداداتها للأستاذ: عمار جيدل.
- النورسي في رحاب القرآن للأستاذ: سليمان عشراتي.
- في آفاق النور للأستاذ: أديب إبراهيم الدباغ.

واعتمدنا أيضا على مراجع أخرى في العقيدة والفكر الإسلامي، ومنها:

- التوحيد مضامينه على الفكر والحياة للأستاذ: إسماعيل راجي الفاروقي.
- القرآن نسخة من الإنسان للأستاذ: طه كوزي.
- أزمة الحداثة ورهانات الخطاب الإسلامي للأستاذ: عبد الرزاق بلعقروز.
- نظام الإسلام العقيدة والعبادة للأستاذ: محمد المبارك.

وغيرها من المراجع التي سيأتي ذكرها في ثنايا الدراسة.

منهج البحث:

تفرض طبيعة الدراسة وموضوعها أنواع المناهج التي يجب استخدامها، ولذلك فإن موضوع دراستنا يحتاج إلى مناهج عدّة لاستيعابه، وأهمها:

- **المنهج التاريخي:** يعتبر المنهج التاريخي أساسيا لفهم الجوانب التي تتعلق بأهم الأحداث التاريخية في حياة الأستاذ النورسي والتي ساهمت في تكوين شخصيته وبلورة فكره وتحديد مساره، كما أثّرت بشكل مباشر في إنتاجه الفكري الذي ارتبط في أحيان كثيرة بالأحداث التاريخية وكان استجابة مباشرة لها، ومن خلا هذا المنهج تحديدا يمكننا وضع الفكرة في إطارها التاريخي إدراك سياقاتها.

- **المنهج التحليلي:** إن حاجتنا إلى هذا المنهج ماسَّة إذ لا يكفي عرض ما كتبه الأستاذ النورسي أو ما أُلِّف حول شخصيته وسيرته وفكره ورؤيته، بل يجب تحليل المضمون ومناقشته وإعمال الفكر فيه وتفكيك الوحدات المعرفية المتعلقة بالموضوع خاصّة أنّ أسلوب الأستاذ النورسي في رسائله يتطلب تكرار القراءة نفسها من أجل بلوغ الفائدة المرجوة، فالأستاذ النورسي صرّح بفائدة ذلك، وكان يرى أن الفتح لا يأتي بتكرار القراءة فقط، بل يحتاج أيضا إلى تهيؤ وإفراغ البال من الشواغل، وكلّ هذه العوامل تساعد على تحليل المضمون، فهو أدرى بمحتوى رسائله. أي إنّ الأستاذ النورسي حثّ منذ تأليف "رسائل النور" على توفير أسباب الاستفادة منها، ورغم أنّ كلّ الناس يستفيدون من رسائل النور على اختلاف مستوياتهم ولكن درجات تلك الفائدة ومراتبها تتفاوت بين من قرأها قراءة عادية ومن قرأها مستعينا بمنهج التحليل وأدواته حتى يتمكن من تذوقها.

- **المنهج الاستقرائي:** من أجل استقراء الأفكار من مصادرها الأصلية وذلك بالعودة إلى مؤلفات النورسي خاصّة، وما أُلِّف حول فكره عامّة من كتب وما نُشر من أبحاث ومقالات تفيدنا في موضوعنا هذا.

- **المنهج النقدي:** من أجل تقييم الأفكار من الناحيتين الإيجابية والسلبية، خاصة أن الظروف التي عايشها النورسي كانت تضج بالأفكار الخطيرة التي واجهها سواء في تركيا أو خارجها، وقد عرضنا الكثير منها في هذه الدراسة.

صعوبات البحث

عند الخوض في غمار هذا البحث، واجهنا صعوبات وتحديات معتبرة تعكس مدى عمق وتعقيد الموضوع المختار، أُولى هذه الصعوبات تتعلق بتشعب موضوع الرؤية الكونية التوحيدية فهو موضوع شاسع تتداخل فيه مختلف جوانب العقيدة والفلسفة وعلوم أخرى، وهذا التداخل يفرض علينا عدم إغفال أي منها مع أن بدايتنا في هذا الحقل المعرفي ليست صِفْرية لأننا قد تعرضنا لهذا الموضوع في دراسة سابقة فهوَّن علينا بعض المشقة في هذه العملية البحثية.

إضافة إلى ذلك فإن بديع الزمان سعيد النورسي يشبه بحرا عميقا من الأفكار وتتميز رسائل النور بصعوبة في الأسلوب وليس صعوبة في اللغة، ويحتاج الباحث فيها إلى قراءتها مكتملة لأن ذلك يهيئ القلب للحضور ولابد أن تكون قراءتها جادة وليست من باب المطالعة العابرة لأن ذلك سَيَحُول دون تذوُّقها وهذا ما يجب أن يُصَحَّح في علاقة الباحث الأكاديمي مع رسائل النور، فهي نسيج مترابط من الأفكار، والأستاذ النورسي لم يقدِّم رؤية جامدة أو مقتصرة على جانب واحد بل نسج أفكاره عبر رسائل كثيرة تغطي جوانب عديدة في هذه الحياة، مما يجعل من الصعب تجميع خيوط هذا النسيج المتماسك دون المساس بروح الأفكار وأصالتها.

خطة البحث:

تمَّ تقسيم خطة هذه الأطروحة إلى أربعة فصول تتكامل فيما بينها في للإحاطة بجوانب الموضوع وتفاصيله. هذه الفصول سُبِقت بمقدمة تبرز أهمية الدراسة وتضعها في سياقها العلمي، وتلي تلك الفصول خاتمة جُمِعت فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها. وفيما يلي حوصلة لكلّ الفصول بعناوينها الرئيسة والفرعية وأبرز محتوياتها:

الفصل الأوّل، بعنوان: ترجمة النورسي وظروف عصره. وقد تمّ تقسيمه إلى أربعة مباحث، خُصِّص أوّلُها لسيرة النورسي ومراحل حياته، وثانيها لعرض وتفصيل ظروف عصره وتحدياته. وثالثها خُصّص لرسائل النور من حيث تعريفُها ومُهِمَّتُها، ثم أهم الخصائص التي تتميز بها تلك الرسائل. أما آخرها فهو مبحث خاص بمعالم الرؤية الكونية التوحيدية عند النورسي.

يليه الفصل الثاني الموسوم ب: تجليات عقيدة التوحيد في الرؤية النورسية. وقد تم تقسيمه إلى أربعة مباحث أيضا، المبحث الأول بعنوان: التوحيد من منظور رسائل النور. والثاني بعنوان: براهين التوحيد. والثالثُ بعنوان: ثمرات التوحيد، والرابع بعنوان: مقتضيات التوحيد.

ويتبعه الفصل الثالث بعنوان: ـالإنسان من منظور رسائل النور. وينقسم إلى ثلاثة مباحث هي: الأوّل بعنوان: الإنسان بين الماهية والوجود، والمبحث الثاني بعنوان: الغاية من خلق الإنسان. أما المبحث الثالث فقد عُنْوِنَ بـــ: وظائف الإنسان.

ثم الفصل الرابع الموسوم بـ: مشاهدات سائح يستنطق الكون ويستشعر الحياة. وتم تقسيمه إلى ثلاثة مباحث، أولُّها بعنوان: موقف النورسي من الفلسفة الغربية، وتقديم. والمبحث الثاني بعنوان: النورسي بين الكتابين المنظور والمسطور، ثم المبحث الثالث بعنوان تجليات الأسماء الحسنى على الكون والحياة.

وينقسم كل مبحث إلى مطالب وفروع تفصيلية. وفي نهاية هذه الدراسة خاتمة بأهم النتائج التي توصلنا إليها بعد التعمّق في هذا الموضوع والإجابة عن إشكاليته.

الفصل الأول: ترجمة النورسي وظروف عصره

تمهيد

المبحث الأول: سيرة النورسي ومراحل حياته.

المطلب الأول: اسمه ونسبه ونشأته.

الفرع الأول: هوية النورسي ودلالات ألقابه.

الفرع الثاني: نسب النورسي ودور أسرته في تكوينه.

المطلب الثاني: رحلاته في بحر المعرفة.

الفرع الأول: إشراقات النبوغ منذ الصبا.

الفرع الثاني: مسالك التحصيل العلمي وتفتح المدارك.

المبحث الثاني: ظروف وتحديات عصره.

المطلب الأول: الظروف السّياسية وأوضاع الحكم.

الفرع الأول: أوضاع الحُكم والخلافة.

الفرع الثاني: موقف النورسي من تعطيل دور المشيخة.

المطلب الثاني: الحياة الثقافية والدينية والاجتماعية.

المبحث الثالث: ماهية رسائل النور

المطلب الأول: رسائل النور من منظور مؤلّفها.

المطلب الثاني: ظروف تأليف رسائل النور.

المطلب الثالث: خصائص رسائل النور.

المبحث الرابع: معالم الرؤية الكونية التوحيدية عند النورسي.

المطلب الأول: إحاطة النورسي بتحديات عصره.

المطلب الثاني: مدار الرؤية الكونية التوحيدية وأبرز انشغالاتها.

الفصل الأول: ترجمة النورسي وظروف عصره

تمهيد:

عند الحديث عن النورسي، نتأمل مسيرة فكرية وروحية امتدت عبر الزمن، حيث تجسدت فيها معانٍ شتى وأبعاد لم تتضح إلا من خلال انغماس عميق في بحر التجارب والتحولات. فحياته ليست مجرد توثيق لأحداث أو شخصيات، بل هي قصيدة غامضة كتبتها الأيام على صفحات التاريخ، تضيء بعض جوانبها وتركت الأخرى مغمورة بالرموز والدلالات.

إن النشأة الأولى، حيث تشكلت أولى ملامح الإدراك، كانت محاطة بأصداء من الماضي العريق وتيارات فكرية متلاطمة، سلكت خلالها الروح طريقًا شاقًا في رحلتها نحو الحقيقة. وبمرور الزمن، وبين مد وجزر الواقع السياسي، كانت هناك لحظات تاريخية تتراقص بين الظل والنور، تترك أثرًا عميقًا على فكر النورسي، فتنبثق من تلك الصراعات رؤية تجاوزت حدود الزمان والمكان، رؤية تشع منها أنوار تعكس أبعادًا معرفية وتربوية جديدة.

ومع تطور هذه الرؤية، نجد انعكاسات واضحة لأثرها في كتابات النورسي، حيث تجلت كنوافذ تفتح على عوالم فكرية وروحية واسعة. لقد كانت تلك الكتابات بمثابة صدى لصراع داخلي بين ما عاشه النورسي وما استنبطه من حقائق مطلقة، صراع بين المحن التي واجهها والمِنح التي وُهِبت له.

وفي عمق هذا الفصل، سنحاول استكشاف تلك الخطوات الفكرية التي رسمت للنورسي خارطة طريقه نحو الخلود الفكري، وسنبحث بين السطور عن رموز تلك الرؤية الكونية التي تجاوزت تحديات الزمن وأضحت منارة لمن تاه في دروب الحياة.

المبحث الأول: سيرة النورسي ومراحل حياته

تمهيد:

في مسيرة النورسي، تتداخل الأحداث والشخصيات لتشكل لوحة معقدة من التجارب التي ساهمت في صياغة رؤيته الفريدة. تلك الرؤية التي انبثقت من أعماق واقع مليء بالتحديات والصراعات، حيث لم تكن حياته مجرد تراكمات زمنية، بل مراحل متعاقبة أثّرت في تكوينه الفكري والعلمي. فمن نشأته في كنف أسرته التي حملت في طياتها إرثًا عريقًا، إلى رحلاته العلمية التي كانت بمثابة انعكاس للبحث المستمر عن الحقيقة، نجد أن كل خطوة في مسيرته لم تكن إلا تعبيرًا عن سعي لا يهدأ نحو الارتقاء بالذات وتجاوز حدود الواقع المحيط.

أَمَّا النَّسق المعروف والمألوف في كتابة التراجم والسّير فلا حاجة له في هذا البحث، لأنّ مُجَرَّد سَرْد الوقائع والأحداث وما يتعلّق بجوانب شخصيته فقد سبقنا إليه طَلَبة النور والمهتمين بحياة الأستاذ النورسي، وسنكتفي ها هنا بما يفي بحاجة البحث،

وسنوجز كثيرا من المسائل والوقائع والأحداث، خاصة أنّ حياة الأستاذ النورسي مليئة بالأحداث والتقلّبات والتحدّيات والصّعوبات وقد كانت سيرته الذاتية كما دوّنها طلبتُه كافية لإيفاء حياة الأستاذ حقَّها.

لقد عايش الأستاذ النورسي سقوط الخلافة، والترويج للإلحاد ومعاداة الدين وإقصائه من الحياة ونسعى من خلال هذا الفصل أن نبين جهود النورسي لمواجهة ما نتج عن ذلك السقوط وتلك الأفكار من تحولات في كُلّ نواحي الحياة، واستجابته السريعة والفعالة ضد محاربة الإيمان بالله وتشويه حقيقة الدين الإسلامي الدّين وأحكامه وتعاليمه.

(لقد جاء على موعد مع التاريخ؛ ليكون به ما أراد الله لهذه الأمّة، من إنقاذ الإيمان في الحاضر، وبناء الأمّة للمستقبل! وقَطْعًا لَمْ يَكُنْ خروجه ببلاد الخلافة الإسلامية عبثًا، أو صدفة، بل كان بِعثة تجديد، وقَدَرًا مَقْدُورًا! مازال يمتد في أُفُقِ هذه الأمّة، ومستقبلها بتجليات شتى! اقْرأ هذه القصة التي يحكيها عن نفسه مُبَينا نقطة البدء تحت عنوان:

رؤيا صادقة حول إعجاز القرآن).[1]

فحوى هذه الرؤيا أنه قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى وإبان نشوبها رأى الأستاذ النورسي نفسه تحت "جبل آرارات"*، وإذا بالجبل ينفلق انفلاقا هائلا ويقذف صخورا عظيمة وصلت إلى كل أنحاء الأرض، فغشيته الرهبة، ورأى والدته بِقُرْبه فأخذ يطمئنها ويقول: "لا تخافي يا أمّاه إنه أمر الله، إنه رحيم، إنه حكيم" وبينما هو في تلك الحالة إذا بشخص يخاطبه قائلا: "بيِّنْ إعجاز القرآن". فأفاق من نومه، وأدرك أنه سيحدث انفجار عظيم وسيكون القرآن الكريم مستهدفًا من أعدائه، وسيتولى القرآن الدفاع عن نفسه وأنّ إعجازه سيكون هو حِصنُه، أمّا الأستاذ النورسي فسيكون دوره هو بيان نوع من هذا الإعجاز في هذا الزمان.[2]

المطلب الأول: اسمه ونسبه ونشأته

الفرع الأول: هوية النورسي ودلالات ألقابه

لعل أول ما يلفت السامع عن هذه الشخصية هو لقب "بديع الزمان" الذي يقترن باسمه كلما ذكر، ولذلك ارتأينا بيان أصل ذلك اللقب والألقاب الأخرى التي اقترنت باسمه في مراحل مختلفة من حياته.

---

[1] فريد الأنصاري، مفاتح النور، ط1، دار سوزلر للنشر، إستانبول-تركيا، 2004، ص10.

[2] سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ترجمة إحسان قاسم صالحي، ط3، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1434ه، 2013م، ص139.

*جبل آرارات: أعلى قمة جبلية في تركيا, عبارة عن بركان نائم تغطيه الثلوج, يقع شمال شرق الأناضول بالقرب من الحدود مع إيران وأرمينيا وأذربيجان.

إنّ هوية الأستاذ النورسي الشخصية كما ذكرت في سيرته الذاتية هي كالآتي:
(الاسم واللقب: بديع الزمان سعيد، اسم الوالد: ميرزا. اسم الوالدة: نورية، تاريخ الولادة: 1293-مسقط الرأس: قرية "نُورسْ" التابعة لناحية "إسباريت" المرتبطة بقضاء "خيران" من أعمال ولاية بتليس"**)[1].

إنّ العام 1293 المذكور أعلاه بالتقويم الرُّومي، وهذا التقويمُ شمسيٌّ كان معمولا به في أواخر عهود الدولة العثمانية موازاة مع التقويم الهجري القمري: ويوافق هذا العام 1294ه والعام 1877 م.

لقد كان لَقَبُ "بديع الزمان" من أبرز الألقاب التي اقترنت باسم سعيد النورسي في حياته وبعد مماته، حتّى إنه أصبح يُعرف به، ويُطلَقُ عليها أحيانا منفردا دون ذكر اسمه الحقيقي، وقد أُطلق عليه هذا
اللقب في سن صغيرة؛ وذلك لذكائه الخارق وقوة ذاكرته وتَميُّزه عنْ أقرانه وعَمَّنْ يكبرونه سنًّا في مجالات العلم والمعرفة.

وبتواضع العلماء وعدم حُبّه للمدح واهتمامه بجوهر الأمور بدل قشورها لم يكن الأستاذ النورسي راضيا عن هذا اللقب ولذلك فقد بيّن رأيه وموقفَه منها قائلا:

(إنّ هذا الفقير، الغريب، النورسي، الذي يستحق أن يُطلق عليه اسم "بدعة الزمان" إلاّ أنّه اشتهر -دون رضاه- بـــ "بديع الزمان". فهذا المسكين يستغيث ألَمًا من حُرقة فؤاده على تدنّي الأُمّة ويقول: آه..آه..آه...وا أسفى).[2]

ومع مرور الوقت وانتشار هذا اللقب في أوساط طلَبَتِه ومُؤَيِّدِه وحتى أعدائه ومُخالفيه، صار سعيد النورسي يُذَيِّلُ مقالاته ويمضيها باسم "بديع الزمان". في إحدى المرات أنكر عليه البعض ذلك لأنّ هذا اللقب يومئ إلى المدح، رغم أن الأستاذ معروف عنه نُفورُه من هذه التصرّفات، إلاّ أنّه آثر أن يوضح سبب تصرُّفه ليُسْقِط من الأذهان كلَّ فكرة أو قناعة أو شُبهة حول ذلك اللقب، وقد كان جوابه كالآتي:

(كلاّ، ليس للمدح! وإنّما أريد أن أُبَيِّن بهذا الإمضاء تقصيري، وتعليلي هو: أنّ البديع يعني "الغريب" فأخلاقي غريبة كمظهري، وأسلوب بياني غريب كملابسي، كلها مُخالِفة للآخرين، فأنا أرجو بِلسان حال هذا العنوان عدم جعل المحاكمات العقلية والأساليب المتداوَلة والرّائجة مقياسا لمحاكماتي العقلية ومحكًا لأساليب بياني)[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص52.

** بتليس: إحدى محافظات تركيا، تقع في شرق الأناضول.

[2] سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ص81.

[3] سعيد النورسي، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط3، دار النيل، القاهرة، مصر، 1434ه، 2013م، ص81.

*سعرد: إحدى محافظات تركيا، تقع في الجنوب الشرقي على حدود بتليس من جهة الشمال.

وقد كان أحد شيوخه وهو "المُلاَّ فتح الله أفندي" الذي تلقى عنه العلوم في الصِّغر في مدينة "سعرد"* هو أوّل مَنْ أطلق عليه هذا اللقب. أمّا قبل ذلك فقد أُعْجِب به العلماء وبنبوغه وسعة اطّلاعه ومناظرته لهم في شتّى المسائل وقد اجتمعت فيه قوة الذكاء وقوة الذاكرة، وكثيرا ما كان يُفحِمُهم
بردوده وإجاباته فلقّبوه بـــ "سعيد المشهور" وهو لم يتجاوز بعدُ سِنّ السادسة عشرة.[1]

كان هذان اللّقبان هما أكثر الألقاب ذيوعًا، ولهما أسبابُهما العلمية والمعرفية المتعلقة بشكل مباشر بمكانة الأستاذ النورسي بين علماء عصره. أمّا هو شخصيا، فقد أطلق على نفسه ألقابا أخرى هي: "سعيد القديم" و"سعيد الجديد" و"سعيد الثالث".
من خلال قراءة رسائل النور يظهر أن الأستاذ سعيد النورسي ميَّز فيها بين شخصية "سعيد القديم" و"سعيد الجديد".
(وهُما لَقبان لهما مدلولهما في حياة النورسي التي تنقسم إلى فترتين متباينتين اكتنفت حياتَه، وذلك عندما كان منشغلا بالسياسة والحضارة الأوربية وما فيها من فنون وعلوم وفلسفة، وهذه هي مرحلة "سعيد القديم". ثم التحول عنها وعدم الانشغال بها (أي الانشغالات السابقة) وقام بالتركيز على حقائق الإيمان فغرسه في نفوس أفراد المجتمع التركي لحاجتهم إلى ذلك.)[2]. فالشخصية الأولى هي التي أطلَق عليها الأستاذ النورسي شخصية "سعيد القديم" وهو الرّجل الذي كان توجُّهه سياسيا وواكب الأحداث التي وقعت آنذاك، وانخرط في الصراع السياسي، وكان ذلك قبل الأربعين منْ عمره. أمّا الشخصية الثانية فهي التي أطلق عليها لقب "سعيد الجديد" في هذه المرحلة كان شعاره هي عبارته المشهورة: "أعوذ بالله من الشيطان من السياسة!" وقد حدث له انقلاب فكري وقلبي جعله يتحول إلى ذلك الرجل القرآني الذي تفرّغ لمهمة إنقاذ الإيمان ولبناء المنهج القرآني في المجتمع.[3]

لقد حدث هذا الانقلاب الفكري في حياة الأستاذ سعيد النورسي عندما سمع أنّ أوروبا تحيك مؤامرة خبيثة حول القرآن الكريم، لأنها أدركت أنّه الحصن المنيع الذي يحول بينها وبين أهدافها، وأنّ المسلمين ما داموا متمسكين بالقرآن فإن أهداف أوروبا تبقى مؤجلة، ومشاريعها ومخططاتها لن يُكتب لها الانتصار والغلبة.

---

[1] عاصم الحسيني ومحمد بسام حجازي، سيرة إمام مُجدّد: قبسات من حياة الإمام العلاّمة بديع الزمان سعيد النّورسي، ط1، دار الأنوار، اسطنبول، تركيا، 2018، ص21، 22.
[2] أشرف عبد الرافع الدّرفيلي، الحرية مفهومها وصُوَرُها عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2014، ص24.
[3] فريد الأنصاري، مرجع سابق، ص11.
*وليم إيوارث غلادستون: 1809 - 1898سياسي بريطاني تولى رئاسة حزب الأحرار سنة 1868 وصار رئيسا للوزراء. أنظر الموسوعة الثقافية ص 252.

إنّ هذه المؤامرة أكّدها واقعيا تصريح وزير المستعمرات البريطاني آنذاك "غلاديستون" *بقوله إنّه ما دام القرآن بِيَد المسلمين فلن نحكمهم حُكما حقيقيا، فَلْنَسْعَ إلى نزعه منهم.

فكان جواب الأستاذ سعيد النورسي أقوى من ذلك التصريح الخَبيث، إذْ أَعْلنَ: (لَأُبَرْهِنَنَّ للعالم بأنّ القرآن شمس معنوية لا يخبو سَنَاها ولا يمكن إطفاء نورها)[1] فهم النورسي الرسالة الإستراتيجية الغربية على لسان رئيس وزراء بريطانيا العظمى والتي حدّدت الطريق العسكري والثقافي سبيلا للاستيلاء على بلاد المسلمين، وسارت السياسة الغربية بالاتجاهين، الهيمنة العسكرية ولكن تسبقها الهجمة الثقافية وذلك بتسريب شتى الأفكار التي يمكن أن تُفسد عقائد المسلمين وأفكارهم وتوجهاتهم للإصلاح.[2]

أما اللقب الأخير الذي أطلَقَهُ الأستاذ سَعيد النورسي على نفسه فهو "سعيد الثالث" وقد بدأت هذه المرحلة بعد خروجه من سجن "أفيون"* سنة 1949 واستمرت حتى وفاته سنة 1960.

إنّ كثرة الألقاب التي أطلقت على الأستاذ النّورسي من معاصريه، والتي أطلقها هو على نفسه ارتبطت بشكل مباشر بمميزات شخصيته، ومميزات عصره، كما ارتبطت الألقاب التي أطلقها على نفسه بمراجعاته الشخصية وقراءاته لمستجدات المراحل التي عاش فيها وما تخللها من أحداث مفصلية، وهذا يعكس بشكل جليّ وعيه وإدراكه وفطنته الدائمة، فقد ربط حياته وإنجازاته بأحداث عصره.

الفرع الثاني: نسب النورسي ودور أسرته في تكوينه

تلعب الأسرة دورا فعالا في توجيه سلوك البناء وتوجهاتهم، وقد تتفطن الأسرة إلى قدرات الأبناء فتنميها وتضعهم في الطريق الأنسب، وقد كانت أسرة بديع الزمان النورسي هي الحاضنة الأولى التي انطلق منها نظرا لما تميزت به من التدين والصلاح.

وُلد الأستاذ سعيد النورسي في أسرة كُردية، عُرِفت بالصلاح والتقوى، متوسطة الحال تشتغل بالزراعة وتربية المواشي، عُرف والدهُ "ميرزا" بشدة ورعه وكان يُلَقَّبُ بـــ "الصوفي ميرزا" وكان لا يطعم أولاده إلاّ حلالاً، وعُرف عنه أنه كان يُكَمِّمُ أفواه مواشيه إذا عاد بها من المرعى لألاّ تأكل من مزارع الآخرين، أمّا أمّه "نورية" فكانت امرأة صالحة ومن شدّة ورعها وحِرصها على صلاح أولادها كانت لا ترضعهم إلاّ على طُهر ووضوء.

---

[1] سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ص82.

[2] ليث سعود جاسم، الإمام النورسي والتعامل الدعوي مع القوميات، ط1، دار سوزلر للنشر القاهرة-مصر، 2004، ص54.

أمّا ترتيبه بين إخوته فهو الرابع من بين سبعة إخوة، وهم:
درية، وخانم، وعبد الله، ثم محمد، وعبد المجيد، ومرجان.
ومن خلال المصادر الموثوقة ونقلا عن لسان الأستاذ سعيد النورسي، فإنّ أصوله وأجداده وعائلته من ولاية "إسبارطة"* الواقعة غربي تركيا...[1]

أما بخصوص نسبه، يَذكُر بعض الباحثين أنّ نَسَبَ الأستاذ سعيد النورسي ينتهي إلى أهل البيت، فمن جهة الأب ينتهي إلى سيّدنا "الحَسَن" رضي الله عنه، ومن جهة الأم ينتهي إلى سيّدنا "الحُسين" رضي الله عنه.

وهذا ما ذكره أيضا "أورخان محمد علي" واستند في ذلك على كتاب "الشّهود الأواخر" "son sahitler" .

لقد أثيرت هذه المسألة عندما ادّعى الخبراء في إحدى المحاكمات التي حوكم فيها الأستاذ سعيد النورسي أنّ طلاّب النور - وهم طلبة الأستاذ النورسي- سيصدّقونه حتّى لو ادّعى أنّه "المهدي" لشدّة تعلقهم به وحبّهم وإخلاصهم له.

ولكن الأستاذ سعيد النورسي فنّد ذلك الادّعاء حيث قال: (إنّني لا أستطيع أن أَعُدَّ نفسي من آل البيت حيث إنّ الأنساب مختلطة في هذا الزمان بما لا يمكن تمييزها، بينما "مهديُّ" آخر الزمان سيكون من آل البيت)[2]

ويؤكّد الأستاذ ذلك في موضع آخر من "سيرة ذاتية" إذ قال: (لا أنتسبُ إلى سلالة معروفة -شافعي المذهب - أحد مواطني الدولة العلية العثمانية.)[3]

إنّ هذه المسألة تحتاج إلى تدقيق، وقد قام بذلك الأستاذ إحسان قاسم الصالحي مترجمُ رسائل النور إلى العربية بِبيان تفاصيل أكثر وأدق حول نسب الأستاذ، وقد ذكره بالتفصيل في هامش إحدى صفحات "سيرة ذاتية"، ومفادُه أن شهودًا كثيرين نقلوا أن الأستاذ النورسي قد ذكر في مجالسه الخاصة أنّ نَسَبَه ينتهي من جهة الأب إلى الإمام "الحسن" ومن جهة الأم إلى الإمام "الحُسين" رضي الله عنهما. أمّا في رسائل النور فلا نجد تصريحا بذلك، بل نجد العكس وذلك حفاظا على الإخلاص وتجنُّبًا لأيّ مقام معنوي.

كان الأستاذ سعيد النورسي كثير الحرص على الإخلاص، شديد النفور من افتتان الناس به، ونسبة الكرامات والمقامات إليه، ويؤكد دائما أنّ الخلاص يكون بالإخلاص

---

[1] أورخان محمد علي، سعيد النورسي رَجُلُ القدر في حياة أمّة، ط3، دار موزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2006، ص8.

*إسبارطة: مدينة تقع جنوب غرب تركيا عند نقطة تقاطع بحر إيجة مع البحر الأبيض المتوسط, و تلقب ب: مدينة الورود.

[2] سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ص56.

[3] المصدر نفسه، ص52.

فلا نجاة من دونه، أمّا المقامات الشخصية فإنّ مفاتنها وأضرارها تفوق فوائدها، وكان يُغلّب مصلحة العامّة على مصلحته الشخصية، ويتنازل عن استحقاقات كثيرة لشخصه في سبيل الخدمة.

يوضح الأستاذ موقفه من كلِّ ما يُنسَبُ إليه من مقامات وألقاب بقوله: (فَلَئِنْ كان قبول المقامات المعنوية يفيد الشخص والمقام فائدة واحدة، فإنّه يلحق ألف ضرر وضرر بالناس عامّة وبالحقائق نفسها...إنّ حقيقة الإخلاص تمنعني من أن يكون وسيلة إلى كسب شُهرة لبلوغ مراتب مادّية ومعنوية، لذلك أرجّح الاتصاف بالخدمة على نيل المقامات).[1]

نشأ الأستاذ سعيد النورسي في أسرة متديّنة محافظة تتبع الطريقة النقشبندية وكان والداه "المُلا ميرزا" و "نورية" حريصين على صلاح أبنائهم وطلبهم للعلم، ويذكر الأستاذ سعيد النورسي كثيرا من المواقف والقصص التي توضّح أنّ والديْه كانا مَدْرَسَتَهُ الأولى وبقي أثرهما التربوي والعلمي والرّوحي ملازما له حتى بعد ما عَاشَهُ من أحداث ومحن وكلّ تنقلاته ومن لَقيهم وعَاصَرهم من علماء وطلبة علم.

لقد أثنى الأستاذ على والِدتِه في كلّ مقام ذكرها فيه رغم أنّ السنوات التي قضاها معها في صغره كانت قليلة، ثم حِرمانه منها بعد سنوات الأسْرِ والحرب ولكن فضلها عليه كان عظيما ومباركا، ويذكر فضلها عليه بقوله: (أُقسم بالله إنّ أرسخَ درْسٍ أخَذْتُه، وكأنّه يتجدَّدُ عليَّ هو تلقينات والدتي رحمها الله ودروسها المعنوية، حتى استقرت في أعماق فطرتي وأصْبَحَت كالبذور في جسدي، في غضون عمري الذي يناهز الثمانين).[2]

على الرغم من أنّ أسرته كانت تشتغل بالزراعة، فإنّ ذلك لم يمنعها من الاهتمام بالعلم، وتربية أبنائها ليكونوا علماء، فإذا كان حال الأمّ كما ذكرنا، فإنّ الأب أيضا كان شغوفا بطلب العلم ومجالسة العلماء، فقد كان يستضيف علماء قريته في منزله في ليالي الشتاء الطويلة، وكانت تدور بينهم مناقشات في مسائل علمية عديدة، وكان النّورسي محظوظا بمُجالستهم، إذْ لم يُعامَل معاملة الصغار، ولم يُمنع من حضور تلك الجلسات المباركة، بل كانت مواعيد علمية ينهل منها ويُشبع شغفه بكثرة السؤال والاستماع.[3]

---

[1] سعيد النورسي، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم صالحي، ط3، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1434هـ-2013م، ص332.

[2] سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ص59.

[3] أشرف عبد الرافع الدرفيلي، البُعد الإيماني في فلسفة الحضارة وعند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2015، ص26.

لقد كانت أسرة الأستاذ سعيد النورسي هي مدرسته الأولى، وبفضلها عَرَف ما أودَعَهُ الله في فطرته من حبِّ التعلّم والاطّلاع ومُجالسة العلماء، واستغلال أوقاته في التحصيل العلمي، وهذا ما مهّد بشكل مباشر لرِحلته في طلب العلم التي ستغيّر مجرى حياته من طفل صغير في قرية بعيدة إلى عالِمٍ سيكون بديع زمانه.

المطلب الثاني: رحلاته في بحر المعرفة

الفرع الأول: إشراقات النبوغ منذ الصبا

ظهرت على "سعيد" الطفل الصغير مخايل الذكاء والنّبوغ، حيث كان مُحبّا للاستطلاع وكثير السؤال، يرغب في معرفة أسباب ما يراه وما يخطر على باله، وكانت اهتماماته وانشغالاته أكبر من سِنِّه.

(يروي عن نفسه أنَّه حدّث خَيَالَهُ في عهد الصّبا، أيُّ الأمْرَيْن تفضّل؟ فكان هناك خياران، الأوّل هو قضاء عمر طويل وسعيد مع سلطنة الدنيا وأبّهتها على أن ينتهي إلى العدم، أما الاختيار الثاني فهو

وجودٌ وبقاءٌ مع حياة اعتياديّة شاقّة؟ فرغَب في الثاني وأعرض عن الأوّل).[1]

لقد شغلته مشكلة الوجود والعدم، ومسألة الحياة والموت في مرحلة مبكّرة من حياته، وهي مسألة فلسفية عميقة شغلت الفلاسفة والمفكرين، كما أنّ فكرة الخلود التي تحدث عنها بقوله: "إنني لا أريد العدم، بل البقاء حتى وإن كان في جهنّم" دليل على وعيه وإدراكه أنّ تفضيل المتعة الفانية وإن طالتْ، مخالفُ فطرة الإنسان التي تنظر إلى الوجود نظرة سطحية وكأنها رحلة مؤقتة ومآلها الفناء. لقد أدرك النورسي أهمية وجوده وأبعاده، ورَسَمَ مسارَهُ مبكّرًا، وكأنّه كان مُطَّلعًا على ما سيُعانيه مستقبلاً جرّاء أفكاره ومبادئه، ولكنّها قناعة وإيمان فقد كان دائما يردّد: "يا باقي أنت الباقي".

الفرع الثاني: مسالك التحصيل العلمي وتفتح المدارك

تَلَقّى الأستاذ سعيد النورسي علومه الأولى في المدارس والكتاتيب التي كانت منتشرة آنذاك في المناطق الشرقية، فتنقّل بين العديد من المدارس، وكان يتلقى أيضا عن أخيه "المُلا عبد الله" في عطلة نهاية الأسبوع لأنّه كان يدرس في مدارس أخرى في المناطق الشرقية، وقد تأثر الأستاذ سعيد النورسي بأخيه "المُلا عبد الله" كثيرا، وكان قدوته في طلب العلم ومن شيوخه الأوائل.

شدّ الأستاذ سعيد النورسي في صغره الرّحال إلى القرى المجاورة لـ "نُورس"* حتى وصل إلى قرية "طاغ" ودرس في مدرسة الملا "محمد أمين أفندي"، ولكن

[1] إحسان قاسم الصالحي، نظرة عامة عن حياة بديع الزمان سعيد النورسي، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة- مصر، 2015، ص14.

تركها وعاد إلى قريته، وبعد مدّة ذهب إلى قرية "برمس"، ثمّ إلى مراعي شيخان" ثم إلى قرية "خيزان".[1] وكلها قرى متجاورة في المناطق الشرقية.

استمر الأستاذ سعيد النورسي في تنقّله بين المدارس، فذهب إلى "بتليس" سنة 1888م، والتحق هناك بمدرسة الشيخ "أمين أفندي" ولكنه لم يلبث فيها طويلا لأن الشيخ رفض تدريسه لِصغر سنّه فأوكله إلى شخص آخر، ممّا حزّ في نفسه، فتركها وقصد مدارس أخرى، حتى وصل إلى مدرسة في قضاء "بايزيد" التابعة لولاية آغري**، فعكف في هذه المدرسة على قراءة أصعب المتون والكتب والحواشي، وكان منقطعا عن العالم، يقضي معظم أوقاته في القراءة، وبعد ثلاثة أشهر أخذ إجازته العلمية من الشيخ "محمد جلالي". بعد حصوله على الإجازة العلمية، توجّه سنة 1889 إلى مدينة "شيروان" ثم إلى "سعرد" حيث مدرسة العالم المعروف "فتح الله أفندي" الذي تعجّب من اطّلاع "سعيد النّورسي" على أهم الكتب، وتنبّه إلى ذكائه الخارق وامتحنه في قوّة حفظه فزاده دهشة وذهولا فقال: إنّ اجتماع الذكاء الخارق مع القوّة الخارقة للحفظ شيء ناذرٌ جدًّا، ولم يلبث أن انتشرت أخباره، وذاع صيتُه فأقبل علماء المدينة يجادلونه ويحاولون إحراجه بأسئلتهم ولكن لم يكنْ لهم ذلك، إذ أفحمهم جميعا. لم تكن هذه نهاية رحلته في طلب العلم، بل واصل تنقّله بين مُدُنٍ أخرى، وتعمّق في مختلف العلوم كعلم الكلام والمنطق والنحو والتفسير والحديث والفقه، وحفظ كثيرا من أمهات الكتب، وفي سنة 1894 ذهب إلى مدينة "وان"* بدعوة من واليها، والتقى هناك ببعض أساتذة العلوم الحديثة، وتبيّن له قصوره في هذه العلوم، فأقبل على تعلّمها بشغف، فأتقنها وتمكّن منها، وفي هذه المدينة أيضا سمع بتصريح "غلادستون"، فزلزل هذا الخبر كيانه ونذر حياته وجهده وعلمه لإظهار إعجاز القرآن وأنه شمس معنوية لا يخبو سناها ولا ينطفئ نُورها، وقرّر إنشاء "مدرسة الزهراء" في شرقي الأناضول، ولتنفيذ مشروعه شدّ الرحال إلى وُجهة جديدة وبعيدة إلى عاصمة الخلافة "إستانبول".[2]

كانت مرحلة التعليم التي قضاها الأستاذ سعيد النورسي متنقلا بين القرى والمدن الشرقية ذات فائدة عظيمة، وستظهر ثِمارُها لاحقًا في تعامله مع تحدّيات عصره ومجتمعه ودينه، فلقد كتب الله له أن يُحصّن نفسه بالعلوم الدينية والدنيوية في مقتبل

*نورس: هو اسم القرية التي ولد فيها الأستاذ بديع الزمان و صار يطلق عليه لقب "النورسي" نسبة إليها.

[1] إحسان قاسم الصالحي، نظرة عامة عن حياة بديع الزمان سعيد النورسي، ص 26 - 27.

**آغري: محافظة تقع في شرق تركيا.

[2] إحسان قاسم الصالحي، نظرة عامة عن حياة بديع الزمان سعيد النورسي، ص15-19.

*وان: محافظة تقع في شرق تركيا.

العمر، لأنّ ما ينتظره بعد سفره إلى "استانبول" سيجعله ملزما بتحمّل أمانة عظيمة وجهاد طويل إلى أن يلْقى رَبَّهُ، كيف لا، وهو الذي أفزعه سماع تصريح وزير المستعمرات البريطاني، فشدّ الرّحال إلى العاصمة لمقابلة السلطان وسعيًا منه لتنفيذ مشروع "مدرسة الزهراء" وإصلاح التعليم، وهناك لن يسمع، بل سيرى بأمّ عينيه وبقلبه الغيور على دينه وأمّته، حالَ دولة الخلافة وما يُحاك ضدّ الإسلام والمسلمين.

المبحث الثاني: ظروف وتحديات عصره

وُلد الأستاذ سعيد النورسي وعاش مُقتَبل عمره في شرقي تركيا متنقلا بين المدن طالبا للعلم، متفرغًا لتحصيله، وقد ظهرت عليه علامات الفطنة والذكاء والتّميّز في الفهم والسّلوك، وكُتب له أنْ يُسافر إلى "إستانبول" ليقدّم عريضةً للسلطان "عبد الحميد" يطلب فيها فتح المدارس التي تعلّم العلوم الحديثة بجانب المدارس الدينية في شرقي الأناضول، فلم يكن راضيا عن نظام التعليم هنالك.

كانت هذه هي نيّة الأستاذ، وكان مشروعه "مدرسة الزهراء" علميا بامتياز، لكن القدر ساقَهُ حيث لم يكن يدري، ففي عاصمة الخلافة، اندهش واصطدم بواقع مرير، وأوضاع صعبة، ومكايد شيطانية حيكت بإحكام ضدّ الدّين والدولة.

(يصفه أحد الكتّاب بعد مجيئه إلى "اسطنبول" فيقول: "إنّ ذكاءً خارقا قدْ ترعرع بين صخور الشرق، قد طلع اليوم في آفاق "اسطنبول"، دعا علماء البلد ووُجهائها فور وصوله إلى "اسطنبول" إلى اجتماع، وأفهمهم الغاية التي جاء من أجلها وطلب مساعدتهم في الشؤون العلمية والمادية وقد لاحظ المجتمعون به ذكاءه النادر، ونظرته الثاقبة، وفكرته السليمة فأعجبوا به).[1]

حين غادر الأستاذ سعيد النورسي شرقي الأناضول، وتوجه إلى "إستانبول" لم يكن يشغل باله سوى أحوال الناس في تلك المناطق والذين لم يستفيدوا من المدارس التي تمَّ فتحها هناك، سوى الطُلاّب الذين يتكلمون اللغة التركية، أما الذين لا يعرفون التركية فليس أمامهم إلاّ الالتحاق بالمدارس الدينية.[2]

إنّ الأسباب المباشرة التي جعلت الأستاذ سعيد النورسي يسعى جَاهِدًا لإصلاح نظام التعليم وإنشاء "مدرسة الزهراء" وإصلاح الأوضاع العامّة لأهالي المناطق

[1] عاصم الحسيني ومحمد بسام حجازي، مرجع سابق، ص25-26.
[2] أورخان محمّد علي، مرجع سابق، ص34.

الشرقية هي التي حرّكت فيه غيرة المسلم على دينه من الأعداد ورفض الظلم من الحكّام.

كان الأستاذ النورسي يرى أنَّ العلوم الدينية هي ضياء القلب، والعلوم الحديثة هي نور العقل، وتتجلى الحقيقة بامتزاجهما، ويكون ذلك سببا دافعا لتعلو َهِمَّة الطالب. أمَّا إذا افترقت تلك العلوم عن بعضها، تولَّد حتما التعصب في العلوم الدينية، وغرقت العلوم الحديثة في الشبهات. كما كان يدعو ويسعى لأنْ يكون للطالب نصيب من تلك العلوم الحديثة -ولو كان قليلا- لأنه كان يريد أن يحوز الطالب من العلوم الحديثة على القَدْر الذي يؤهله لفهم الحقائق القرآنية وإدراكها، فتتوضح له الأمور أكثر فأكثر ويصير العلم راسخا ويقينيا لديه، وهو من هذا المنظور يرى أن العلوم الحديثة خادمة لحقائق القرآن، ومحال أن تتعارضا، ويستحيل أن تكون الحقائق العلمية مخالفة لحقائق القرآن.[1]

(كما لابد أنْ يدرك المتخصصون في العلوم الشرعية أن َتلك العلوم قد تكون أداة فنية لمعرفة الحُكم الشرعي- المراد الإلهي- لكنها قطعا غير كافية لتنزيل الحكم على الواقع البشري الذي يقتضي إدراك هذا الواقع من خلال أدوات خاصة للتحليل والدراسة، ومعرفة العوامل الاجتماعية التي شَكَّلَتْهُ وأثَّرَتْ فيه).[2]

بهذه الشخصية الناقدة، وهذه الحميّة الدّينية وهذا الوعي لمجريات الأحداث وتبعاتها سيواجه الأستاذ سعيد النورسي الأوضاع والظروف العامّة التي عاصرها في جميع نواحي الحياة ويسعى في مختلف السبل للوصول بالأمَّة الإسلامية إلى برِّ الأمان.

المطلب الأول: الظروف السّياسية

إنّ الأوضاع السياسية التي عاصرها الأستاذ سعيد النورسي لم تكن وليدة تلك الأيام، بل هي ثمار خبيثة لشجرة خبيثة زُرِعت في أرض الدولة لهدم قواعدها وزعْزعة مرتكزاتها.

وُلد الأستاذ سعيد النورسي في عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي شهد تكالب الأعداء على الدولة، بدافع الحقد على الإسلام في شخص دولة الخلافة. لم يكن السلطان عبد الحميد سهل المنال فقد دافع عن دولته المترامية الأطراف، وبذل جهودا عظيمة

---

[1] محمد أفضل الوافي، مشروع مدرسة الزهراء: بحث تحليلي عن بنيتها التحتية وعناصرها الهيكلية وواردتها وثمراتها مع العناية الخاصة بالأسباب الموجبة لتأسيسها، بحث منشور ضمن مختارات من الأوراق المقدَّمة في المؤتمر الدولي حول "التعليم والأخلاق في ضوء رسائل النور لسعيد النورسي، تحرير: تاج الدين المناني وآخرون، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة "كيرالا" الهند، فبراير 2018، ص 374- 375.

[2] طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، د ط، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، تم طبعه من طرف: دار الهدى للطباعة ة النشر والتوزيع، عين مليلة-الجزائر، د ت، ص67.

طوال ثلاث وثلاثين سنة، فهو الذي عُرف بدهائه السياسي، وحرصه الشديد على الوحدة الإسلامية والتماسك بين شعوب العالم الإسلامي لمواجهة مخططات الأعداء. رغم كل ما تميّز به السلطان عبد الحميد وكلّ ما بذله في سبيل الدين والدولة لم يتمكّن من إيقاف تنفيذ مخططات الأعداء، لأنها حيكت منذ زمن بعيد بدقة متناهية في دهاليز المخابرات الأجنبية، فلم يستطع منع الانقلاب الذي نفِّذ بأعضاء من "الاتّحاد والترقي"[1]

الفرع الأول: أوضاع الحكم والخلافة

كان نظام الديوان هو أساس الحُكم في الدولة العثمانية، يستند إلى ثلاث دعامات سياسية هي: (السلطنة - الخلافة- مشيخة الإسلام). فالسلطان يصدر الأوامر ويعرض على الديوان ويقوم شيخ الإسلام بدور الشورى.

ولكن حركة التغريب ألغت هذا النظام وقد بدأت هذه الحركة بشكل ظاهر في الدولة العثمانية منذ عهد التنظيمات عام 1839، وهو إصلاح يعني تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي، واستبعاد العمل بالشريعة الإسلامية.

أخذت هذه الحركة في النمو والامتداد شيئا فشيئا حتى صارت أحد أسباب سقوط الدولة العثمانية، لأنها أوجدت دعائم لتتغلغل في المجتمع، حيث شجعت النموذج الغربي في كل مجالات الحياة، وأرسلت بعثات طلابية إلى الغرب، واستقدمت غربيين للعمل في الدولة العثمانية في مجالات شتى، إضافة إلى الجمعيات والمؤسسات الغربية التي نشرت أفكار التحرّر والمساواة.[2]

إنّ أصدق من يصف تلك المرحلة، وذلك التغيير الجذري في نظام الحكم، وأحوال الأمّة، ومآل المجتمع الذي تردّى إلى أسوأ حال، هو شيخ الإسلام مصطفى صبري الذي تولى المشيخة مرّتين، وكان نائبا في النواب التركي،كما شغل مناصب أخرى عليا في الدولة ولكنه عرف بمعارضة كل ما يخالف الدين الإسلامي فكافح سياسة الظلم ة التغريب وكل الأفكار والمظاهر الدخيلة، وعانى جراء ذلك من النفي والتهجير إلى أن توفي في مصر سنة 1954م. وهاهو يخاطب والده _الذي تمنّى دائما أن يراه مجتهدا في طلب العلم وعالما من علماء الدين _فيصف الأوضاع في تلك الحقبة قائلا:

(ولكنّك لو رأيتني وأنا أكافح سياسة الظلم، والهدم والفسوق والمروق في مجلس النواب وفي الصحف والمجلاّت قبل عهد المشيخة والنيابة وبعدها، وأدافع عن دين الأمّة وأخلاقها وآدابها وسائر مشخّصاتها، وأقضي ثلث قرن في حياة الكفاح، معانيا في

[1] سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ص105-106.

[2] أشرف عبد الرافع الدّرفيلي، البُعد الإيماني في فلسفة الحضارة عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، ص22.

خلاله أشدّ ألْوان الشّدائد والمصائب، ومغادرًا المال والوطن مرّتين في سبيل عدم مغادرة المبادئ...)[1]

الفرع الثاني: موقف لنورسي من مسألة تعطيل دور المشيخة

لم يكن الأستاذ سعيد النورسي مرتاحا ولا راضيا عن هذه الأوضاع، وحاول تقديم حلول لهذه المستجدات، وكان أكثر ما حزّ في نفسه هو تعطيل دور المشيخة والحيلولة دون قيامها بمهمّتها السّامية، فحاول التخفيف من هذه الأوضاع المتأزّمة والمشحونة بالاضطرابات والتعقيدات، وذلك حرصا منه على المنفعة العامة واجتناب الانزلاقات قدر المستطاع، وتفادي سوء التعامل مع الأوضاع الحَرجَة.

كان يرى أنّ المشيخة الإسلامية-التي تمثّل الخلافة لكونها جزءًا أساسيا في نظام الحكم-مؤسسةٌ جليلة تعود للمسلمين عامّة وينبغي أن تؤول إلى درجة ومنزلة تليق بها حتى تتمكّن من كسب ثقة العالم الإسلامي وتسعى لحلّ مشاكله وتنوّر حياة المسلمين بما تقدّمه من أفكار واجتهادات، لأنّ هذه المؤسسة الجليلة آلت إلى وضع مرير، وهو وضع مقصود غلبت عليه الفوضى في الاجتهادات وإهمال الشعائر الإسلامية. لقد أبْعدَت هذه المؤسسة عن دورها في حياة المسلمين وعن دورها في نظام الحكم، فلم يَعُد لها صوت يُسمع ولا رأي يُطْلَب، فانطفأ نُورها وجفّ منبعها.[2]

وكان من أهم المآخذ التي ذكرها الأستاذ سعيد النورسي عن أوضاع الحكم وأدى هذا إلى التضحية بكثير من أحكام الدّين مُسايرةً للمؤثرات الخارجية. حدث هذا التغيير الجذري في وقت تعقّدت فيه الأمور وتراجع دور العلماء، وليس ذلك إلاّ لسهولة التأثير على الشخص الواحد لأن مقاومته تكون ضعيفة وقد يكون مُكرَه بطرق شتى.[3]

إنّ التغييرات الجذرية التي حدثت في نظام الحكم في الدولة العثمانية في السنوات الأخيرة، وما سبقها من دعم للتيار التغريبي الذي شجّع على التقليد الأعمى للغرب في كل نواحي الحياة وليس في نظام الحكم وحسب، لم تكن إلاّ خطوة أولى لتنفيذ أهداف أخرى. حدث ذلك في الوقت نفسه حين تضافرت القوى الخارجية للقضاء على الأمة الإسلامية، فأخذت تقتطع أجزاءها بشراهة فلم تكد تنجو دولة مسلمة من نوع من أنواع الاستعمار أو الحماية أو الانتداب أو الحصار، والهدف من كلّ ذلك هو القضاء على الخلافة الإسلامية لأنها التجسيد الحي للأمة المسلمة.

---

[1] مصطفى صبري، قوْلي في المرأة، إخراج بسّام عبد الوهاب الجابي، ط2، دار ابن حزم-الجفان والجابي للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، د س ن، ص4-5.

[2] سعيد النورسي، صيقل الإسلام، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط3، دار النيل، 1434هـ-2013م، القاهرة-مصر، ص327-328.

[3] المصدر نفسه، ص327.

وحرصا من الأعداء على تأجيج الأوضاع وزيادة الطين بلّة، شُجّعت دول البلقان على
الثورات والحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية، وأثاروا فتنة القوميات وحرّكوا رُوح العصبية والانتماء داخل المجتمع حتى يضعف جانبهم وتَسهل السيطرة عليهم.

(وبالفعل تمَّ في عام 1924م استصدار قرار من الجمعية الوطنية بإلغاء الخلافة- مما أثار هذا الصنيع موجة عارمة من السُخط في العالم الإسلامي- وتولى مصطفى كمال أتاتورك رئاسة الجمهورية، الذي شرع في اتّخاذ عدّة إجراءات لتغيير عقلية الشعب التركي، وتحويله من شعب شرقي مؤمن بالإسلام، إلى شعب غربي يؤمن بالعلمانية ويقدس أتاتورك)[1]

هذا الانهيار كانت له بوادر سبقت حدوثه، ومثّلت حركة الانقلاب العسكري بواسطة جمعية "الاتحاد والترقي" أهم حلقاته، حيث أسهم أعضاؤها الذين ينتمون إلى أجناس وأديان وقوميات مختلفة في تحقيق حُلُم الأعداء، حيث قاموا بحركة انقلاب ضدَّ السلطان عبد الحميد بعد رفضه السماح لليهود بشراء أراضي فلسطين.[2]

لقد بذل مصطفى كمال أتاتورك كلّ ما في وسعه من أجل إلغاء الخلافة، واستخدم كل الأساليب والطرق للدفاع عن موقفه منها فهدّد مخالفيه بالإعدام وقطع الرؤوس وأرجع القضية إلى أسباب تاريخية حين ادّعى أنّ الخلافة انتهت فعليا و صرّح أنّ هذا أمرٌ محتّم، وأنّ القضية لم تعد تحتمل النقاش، وكل ما قد يقال لا يتجاوز كونه "سفسطة معهودة" فما بقي إلاّ الإقرار بأن المسألة أصبحت أمرًا واقعًا، وما بقي إلاّ الموافقة على أنها أمر طبيعي، ولكن إذا حدث العكس فإنّ هذا الأمر سيُنفّذ مع احتمال أنّ بعض الرؤوس ستُقطع، وهكذا صدر قرار الهيئة المشتركة على مرام مصطفى كمال.[3]

كانت تلك الجهودُ المبذولة من هؤلاء مقدّمات لنتيجة حتمية فُرضت على الأمّة بالإكراه، فلم تكن هناك نوايا أخرى سوى "إلغاء الخلافة" والقضاء على الأمة الإسلامية وجرّها إلى مستقبل مظلم تكون فيه مقهورة مذلولة مستباحة، ولذلك لم تشفع للسلطان عبد الحميد جهوده ومحاولاته الإصلاحية في التصدّي لتلك الحملة الشرسة.

(فقد أعلن السلطان عبد الحميد الثاني المشروطية في 23 تموز 1908م، وهي تعني تأسيس النظام البرلماني في الدولة العثمانية التي أصبحت بموجبها الوزارة مسؤولة

---

[1] أشرف عبد الرافع الدرفيلي، البعد الإيماني في فلسفة الحضارة عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، ص33.
[2] مصطفى حلمي، الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004، ص36.
[3] ضابط تركي سابق (مؤلف مجهول)، الرّجُل الصّنم، أتاتورك حياة رجل ودولة، ترجمة: عبد الله عبد الرحمن، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان-الأردن، 2013، ص181-182.

تجاه البرلمان وليس تجاه السلطان، كما أن صلاحية تشريع القوانين غدت من اختصاص البرلمان، وأطلقت على إثرها حرية العمل السياسي وحرية الصحافة وغيرها).[1]

كانت هذه المشروطية الثانية، أمّا المشروطية الأولى فقد أعلنها السلطان عبد الحميد الثاني في بداية حُكمه في 19/مارس/1877، ولكن محاولات استغلالها من طرف أعداء الدولة العثمانية من جهة، وهزيمة الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا من جهة أخرى جعلت السلطان يُجمّدها. وبتغيّر الأوضاع وزيادة الضغوط عليه عاد وأعلن المشروطية الثانية بعد ثلاثين سنة واستمرت حتى 1918.[2]

بعد إعلان المشروطية كانت وجهات نظر النّاس عامّة والمثقفين خاصة متباينة، ولكن الأستاذ تنبّه إلى التغيّرات الحسّاسة التي حدثت آنذاك، إذ أصبح مفهوم الحرية فضفاضا يحتمل تأويلات شتى تخضع للأهواء والمصالح، وأصبح تشكيل الجمعيات والأندية مباحا لكلّ من هبّ ودبّ فسارع اللاجئون وفي مقدّمتهم الرّوم والأرمن إلى تشكيل جمعيات وأندية لتحقيق مآربهم في القضاء على الدولة، وسارع قوم آخرون إلى النشر في الصحف والمجلات ونشر مقالات محرِّضة، وسرت الحرية المطلقة في المجتمع، وطالت حتى الجنود والأمور العسكرية، وبهذه الخطوات الثابتة سار الأعداء بخطى ثابتة مهرولين لتحقيق هدفهم الأسمى فقد ظلّت السياسة العامة للدولة بيد الجهلاء وتدخلت الأيادي الداخلية والخارجية في مصير الدولة.[3]

اختلفت الآراء والمواقف في تركيا من إعلان المشروطية، فبين رافض ومحذّر منها يتوجس خيفة من هذا الانقلاب في نظام الدولة، وبين مندفع في تأييدها مناصرٍ لها، سلك الأستاذ سعيد النورسي مسلك الاعتدال فناصر مفهوم الحرية ودافع عن المشروطية في إطارها الإسلامي، وصرف جهوده في إلقاء الخطب ونشر المقالات التي تبيّن مفهوم الحرية في الإسلام وأثرها في الحياة السياسية، وحذّر من سوء تفسير الحرية وطالب بتحكيم الشريعة لأنه شعر بمحاولات خبيثة تحاول استغلال هذه المشروطية لأغراض أخرى، فلم يدّخر جهدا في توعية الناس من خلال اللقاءات الكثيرة التي أجراها في إسطنبول وفي المناطق الشرقية مع مختلف العشائر.

ويصرّح الأستاذ سعيد النورسي عن معارضته لـــ الاتحاد والترقي بقوله: (نعم، إنني عارضتُ شعبة الاتحاد والترقي المستبدة هنا، تلك التي أذهبت شوق الجميع

---

[1] سعيد النورسي، صيقل الإسلام، ص351.
[2] المصدر نفسه، ص352.
[3] سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ص110.

وأيقظت عروق النفاق والتحيّز وسبّبت التفرقة بين النّاس وأوحدت الفِرق والأحزاب القومية).[1]

كما عارض أيضا أعضاء حزب تركيا الفتاة من قبل حيث وصفهم بما يلي: (إنّ خطأ أعضاء تركيا الفتاة نابع من عدم معرتهم بأنّ الدّين أساس الحياة فظنّوا أنّ الأمّة شيء والإسلام شيء آخر (...) إلاّ أنّ الزمان أظهر الآن أنّ نظام المدنية فاسد ومُضِر. والتجارب القاطعة أظهرت لنا أنّ الدّين حياةٌ للحياة ونورُها وأساسُها.)[2]

من خلال ما سبق ذكره على الأوضاع السياسية في الدولة العثمانية، يتّضح جليا أنّ الأستاذ

سعيد النورسي عايش مرحلة صعبة وغير مستقرّة سياسيا، وشهد تغيّرات جذرية في نظام الدّولة، وقد فرضت عليه تلك الظروف الدخول لا إراديا في الحياة السياسية التي انكشف له فسادها وعَفَنُها حتى وصل به الأمر إلى ربطها بالأعمال التي تؤدّي إلى إتباع طريق الشيطان فاستعاذ منها بعبارته الشهيرة "أعوذ بالله من الشيطان ومن السياسة"، وكانت نقلته النّوعية من مرحلة سعيد القديم إلى سعيد الجديد.

ويكشف أسباب انسحابه من ميدان السياسة بعد أن خاض غمارها ما يقارب العشر سنوات أنّ هدفه كان خدمة العلم والدّين عن طريقها ولكن تبيّن له أنّ أغلبها خداع وأكاذيب، وقد يُستخدم الشخص من طرف لأجانب أو حتى الأعداء لأنّ المصالح هي التي تحكّم المواقف وليست المبادئ، كما أنّها ضيّقت الاختيارات ولا يمكن للمرء إلاّ أن يكون موافقا أو مُعارضا. كلّ هذه الأسباب جعلت الأستاذ سعيد النورسي يبتعد عن السياسة لأنّ فطرته السليمة ووجدانه وعقله وحكمته وميوله جعلته يقتنع أنّه خاض في مجال يشبهه ولا يناسبه ولم يحقّق من خلاله أيه منفعة، بل على العكس تماما، قاسى بسببه من السجن وخاض غمار الحرب وواجه الموت مرّات ومرّات.

بعد انسحاب الأستاذ سعيد النورسي من ميدان السياسة، حدثت تغيّرات جذرية في الساحة السياسية في تركيا، إذْ انتقلت من سياسة الحزب الواحد إلى التعدّدية الحزبية، وبعد أن سيطر حزب الشعب الجمهوري على نظام الحكم مدة ربع قرن حارب خلالها الإسلام وأقصاه من الحياة، فاز الحزب الديمقراطي المعارض فوزًا ساحقا سنة 1950.[3]

انفصل الحزب الديمقراطي عن حزب الشعب سنة 1946، تولى السلطة سنة 1950 بإحرازه الأغلبية البرلمانية، وكانت له إنجازات أهمها التخفيف من القوانين والقرارات

---

[1] سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ص109.
[2] سعيد النورسي، الكلمات، ص841.
[3] إحسان قاسم الصالحي، نظرة عامة عن حياة بديع الزمان سعيد النورسي، ص74.

المعادية للإسلام وإعادته للحياة تدريجيا من خلال إدخال الدين في نظام التعليم وإعادة الأذان الشرعي والسماح بحرية العمل الدعوي وحرية النشر لكن لم يكن ممكنا أن يتقبل أعداء الدّين والدولة هذا الواقع وهذه الأوضاع الجديدة خلال عشرة أعوام من حكم الحزب الديمقراطي فأُزيح بانقلاب عسكري وحوكم قادته بالإعدام.[1]

أحس الأستاذ سعيد النورسي بالنوايا الإصلاحية للحزب الديمقراطي الذي عدّل من الأوضاع القاسية في تركيا وخاصة الجنايات والإجراءات التي نفّذها قادة حزب الشعب الجمهوري، فدعم الأستاذ الحزب الديمقراطي دون الخوض في الحياة السياسية، كما برّر ذلك بهدف الحيلولة دون وصول حزب الشعب الجمهوري إلى السلطة لأن ذلك يشكل خطرا على الحياة الاجتماعية والوطن.[2]

(نرى هنا أنّ "سعيد الجديد" زاد على نشاطه نشاطا آخر وهو قيامه التدريس الجماعي لرسائل النور، إضافة إلى قيامه بدعوة ونصح السياسيين ورجال الحكم بإتباع الإسلام والاسترشاد به، وبيان أنّ الطريق الصحيح هو طريق الإسلام من دون أن يدخل بنفسه إلى ساحة السياسة بل بقيَ أيضا بعيدا عنها يصرف كل جهده لتربية النفوس وتقوية الإيمان وتذكير النّاس بالله واليوم الآخر).[3]

تزامن انتقال تركيا من مرحلة الحزب الواحد وهو حزب الشعب الجمهوري إلى مرحلة جديدة بفوز الحزب الديمقراطي مع عَزْم الأستاذ سعيد النورسي الانتقال من مرحلة "سعيد الجديد إلى مرحلة "سعيد الثالث" التي توقّع أن يعزف فيها تماما عن الحياة الفانية، ولا ينشغل بشيء من أمور الدنيا ولا الحياة السياسية و الاجتماعية وعزم أن يعهد بتصريف أمور رسائل النور إلى طَلَبَتِهِ، ولكن هذه النقلة النوعية في سياسة البلاد وواقعها ونتائج ذلك على الحياة العامّة حالت دون تحقيق نيّة الأستاذ وأعلن عن موقفه المؤيد للحزب الديمقراطي ولم يبخل بنصائحه وإرشاده لهم ووصف ما قام به من مجاراة للحياة السياسية بـ "أهون الشَّرَّيْن" لأنّ هذه الأحداث وموقفه منها حالت دون البداية الحقيقية لمرحلة "سعيد الثالث" وقد وصفه ما قام به أنّه ضَرْبٌ رفيع من ضروب التضحية بالذات.[4]

لقد حاول الأستاذ سعيد النورسي أن يرشد الحكومة الجديدة لتجعل السياسة في خدمة الدّين وإسعاد الأمّة خاصّة بعد المعاناة المريرة من السياسة المستبدّة التي فرضها

---

[1] سعيد النورسي، الملاحق: ملحق أمير داغ2، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط3، دار النيل، القاهرة-مصر، 2003، ص356.

[2] سعيد النورسي، الملاحق، ص362.

[3] إحسان قاسم الصالحي، نظرة عامة عن حياة بديع الزمان سعيد النورسي، ص74.

[4] شكران واحدة، الإسلام في تركيا الحديثة: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: محمد فاضل، مراجعة: إحسان قاسم الصالحي، دط، دار سوزلر للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007، ص449-501.

الحزب الجمهوري سابقا من خلالها الإلحاد والتقليد الأعمى للغرب وتشجيع الفسوق والعادات الفاسدة والأخلاق الدنيئة.

إنّ ما سلف ذكره عن الأوضاع السياسية في تركيا لا يتجاوز كونَه وصْفًا مختَصرا لأهم الأحداث والتحولات رغم ما يظهر من إطالة في هذا المبحث، وقد اقتضت حساسيّة الحقبة التي عاش فيها الأستاذ سعيد النورسي أن نذكر أهم الأحداث التي أثرت بشكل مباشر في فكره ومسار حياته.

المطلب الثاني: الحياة الثقافية والدينية والاجتماعية

تداخلت وتشابكت جوانب الحياة العامة في تركيا ببعضها البعض، وصارت تؤثر وتتأثر بشكل مباشر ومتبادل فيما بينها، فلم يعد من الممكن فصل إحداها عن الأخرى، فكلّها تتعلق بالإنسان الذي رُسمت له طريق جديدة وصعبة في عصر غصّ بالمشاكل الفكرية والتحدّيات الاجتماعية والأمراض الأخلاقية والضغوطات النفسية والشقاء الرّوحي والتّيه الإنساني.

يصف شيخ الإسلام مصطفى صبري حال تركيا آنذاك بقوله: (هذه الدولة كان آخر سلاح حاربتها به الدُول الوارثة لضغائن تلك الحروب، نشر الإلحاد القائم على العلوم والمبادئ، المادية بين أبنائها المثقفين ونشر المبادئ القومية بين العناصر المندرجة تحت لوائها).[1]

استخدم أعداء الدولة العثمانية فكرة القومية لتفكيكها وضرب وِحدتها وبدأت الحركات القومية تنفّذ تلك المآرب على أرض الواقع، وكان أبرزها: القومية العربية والقومية الطورانية التركية والقومية التركية، وقد قامت هذه الحركات بدور كبير من النواحي الفكرية والسياسية والاجتماعية وحتى العسكرية، وكانت داءً قاتلا انتشر في جسم الدولة العثمانية، وقد استُخدمت الصحافة كوسيلة فعّالة لتغذية النّزعات القومية وتمَّ نشر الكتب التي تروّج لهذه الفكرة وكان ذلك بإشراف خارجي ومُساعدة أجنبية، كما أنّ بعضها صدر في دول أخرى، وكانت تلك الكتب تحمل أفكارًا خطيرة وهدَّامة وتستدرج من يطالعها إلى شعور قومي متأجج.[2]

إنَّ اللّعب السياسي على الأوتار الحساسة للانتماء والأصول تحت مسمى القومية وما نتج عنها من تفكّك داخلي وعداء وكراهية وأنانية داخل المجتمع الواحد، لم يُثْن أعداء الدين والدولة عن ضرورة إدخال المجتمع في قالب جاهز من كلّ مظاهر معاداة الدين وعقيدته وشعائره ومظاهره والأخلاق التي يحث عليها مع فرض بديل قَوْمي أو غربي لكلّ ذلك، وحدث كلّ ذلك تباعا فلا يكاد الإنسان يفيق من وَقْع قرار حتى يُصدَم

[1] مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من ربّ العالمين وعباده المرسلين، الجزء1، ص22.
[2] ليث سعود جاسم، مرجع سابق، ص14-16.

بقرار أو قانون أمرّ من سابقيه، إذ كانت سِمة تلك الحقبة الزمنية هي التعجيل بتحقيق علمنة الدولة بكلّ الطرق، فهي حربٌ كلّ القرارات والقوانين فيها مُباحة وممكنة.

إنّ اقتلاع الإسلام من جذوره وإخماد جذوة الإيمان من قلب الأمّة كان أوّل الأهداف، فأُقصي تعليم الدّين من المدارس، واسْتُبْدِلتْ اللغة العربية في كلّ مكتوب ومنطوق بلُغات أخرى، فَرُسمت الحروف باللاتينية ورفع الآذان وأقيمت الصلوات كذلك بالتركية، ولمْ يَسْلَم القرآن الكريم من محاولات بائسة لترجمته وإقامة الصلاة بالسُّور المترجمة، أمّا تداول الكتب الدينية فأصبح محظورًا وكذلك طبعها أو مطالعتها، ومع محاولات تغيير الجوهر، أُرْغِم الناس على تغيير المظهَر واستُبدِل الزّي المعروف في المجتمع بما يحمله من رمزية دينية وتاريخية بالزيّ الأوروبي، فأُكرِه الرّجال على لبس القبعة وأكرهت النساء على السّفور والتكشف.

لقد كانت مسألة ترجمة القرآن وإقامة المترجَم مقام الأصل في الصّلاة من أكثر القرارات جُرأة، وقد لاقت من العرب من روّج لها –خاصة في مصر - ودافع عنها ولوى عنق النّصوص ليتخذها دليلا لها، في حين كان هدف الحكومة هو التضييق على الشعب التركي المسلم وقطع علاقته بالإسلام، ولم يكن هدفها أبدًا تجنيس القرآن بالتركية، لأنّ الشعب التركي المسلم كان لا يزال خاضعا لسلطان القرآن الكريم كما أنزل بلسان عربي مبين، وكان ذلك آخر حبل يربطهم بالإسلام.[1]

قابل الشعب التركي مسألة ترجمة القرآن ومنع تداول المصاحف ومحاولة إتلافها بالرفض، وبذل العلماء جهودًا كبيرة للتصدّي لهذه التجاوزات وتمسك الشعب المسلم بكتابه الكريم بكل ما أوتي من قوة وبلغ بهم الأمر إلى إخفاء المصاحف دون التفريط فيها أو تداول النُّسخ المترجمة.

لقد حُورب القرآن بكل الطرق والوسائل، ولمّا رأت الحكومة صعوبة إقصائه من الحياة ومن القلوب، شُكِّلتْ محاكم ونُصِبَت مشانق لكلّ من تُحدّثه نفسه بالاعتراض على السلطة الحاكمة وقراراتها، فسادَ جوٌّ من الذُّعر والخوف. وفي المقابل نشطت الصحافة في نشر الفساد والانحلال الأخلاقي والاستهزاء بالدّين، ورَوَّجَت للإلحاد، وتلاعب المعلّمون بعقول الطّلاّب وأخذوا يدُسُّون أفكار الفلسفة المادية في المناهج وحاولوا مسح كلّ أثر إيماني من قلوبهم، وتمّ حظْر التّلفظ بكلمات محددة، خاصة: الله، الخالق، الإسلام، وحلّت محلّها كلمات أخرى مثل: الطبيعة، التطور، المادة، القومية...

[1] مصطفى صبري، مسألة ترجمة القرآن، دط، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1351هـ، ص3.

وقد سَخَّرت السلطة الحاكمة آنذاك كل الإمكانيات والوسائل والأجهزة لقطع كلّ ما يربط الأمّة بدينها، وخطّطت لكي ينشأ جيل بعيد عن الإيمان والإسلام فيتولى بنفسه إفناء القرآن[1]!

(لقد دفعت الظروف القاسية التي أحاطت بالنورسي ومجتمعه، تلك التي أراد فيها أعداء الإسلام فرضَ الإلحاد واللاّدينية بقوّة التصفيات الجسدية الجماعية والإعلام الوحيد الكذوب والثقافة المخزية ذات البُعد المظلم على النّاس، إلى اتّجاه معرفي كلامي جديد. وهو إيجاد علم كلام جديد، ينقل من خلاله "علم التوحيد" من نظريات عقلية مجرّدة ومناقشات منطقية جافّة إلى أسلوب جديد يصوغ حياة المسلم صياغة ربانية تقود إلى المعنى الحقيقي للتوحيد بكماله من حيث هو خالق ومعبود وحاكم مُطْلَق في الوجود)[2]

لم يغفل الأستاذ بديع الزمان النورسي يومًا عن تحدّيات عصره، ولم يتغافل يوما عن الأوضاع الصّعبة التي عاصرها وعايشها، وقد سلك كلّ سُبُل الإصلاح فكانت مدرسة الزهراء مشروعه الأوّل الذي سعى من خِلاله إلى تكوين جيل منفتح على علوم العصر، وفي سبيل ذلك بَذَل كُلّ ما في جهده ولكن لم يُكتب لذلك المشروع أن يتحقّق على قَدْر تطلّعات النورسي، ليجد نفسه بعدها في فلك السياسة ثم في جبهات الحرب العالمية الأولى حيث واجه الإعدام بثبات وكُتب له أن ينجَو من الموت والأسْرِ من قِبل الرُّوس ويروي ما حدث له، ولا يجد تفسيرا سوى أنّ العناية الإلهية هي التي خلّصته من كلّ ذلك. وجد الأستاذ النورسي نفسه في حرب جديدة بعد عودته إلى بلده وواجه أعداءً كثرين ولم يُجامل أحدًا في حياته بل كان صريحا وواضحا في آرائه ورُدوده ممّا عرّضه للتضييق والاعتقال والمحاكمات والتُّهم الكاذبة، وبقيَ متنقّلا من مدينة إلى مدينة يقضي أحكام الأسر في المدارس اليوسفية كما أراد أن يسميها حيث قضى سنوات طويلة مسجونًا فأبدع في تأليف رسائل النور.

المبحث الثالث: ماهية رسائل النور

إنّ موسوعة رسائل النّور هي الثمار الطيّبة للشجرة المباركة النورية، ألّفها الأستاذ سعيد النورسي في سنوات طويلة وضمّنها تفاصيل حياته وتجاربه وعصارة

[1] فريد الأنصاري، مرجع سابق، ص32-33.

[2] محسن عبد الحميد، بحث بعنوان: من معالم التجديد عند النورسي، مقدم ضمن أعمال الندوة العلمية الدولية المنعقدة بتاريخ 17و18 مارس 1999 في مدرج الشريف الإدريسي في الرباط- المغرب، تم طبع أعمال الندوة تحت عنوان: جهود سعيد النورسي في تجديد الفكر الإسلامي، د ط، دار سوزلر للنشر، إستانبول- تركيا، د س ن، ص49.

فكره بكلّ أطواره، وأراد لها أن تكون سلاحه ضِدّ أعداء الدّين وحِصْنًا مَنيعًا للمسلمين في زمان كانت أسمى مُهمة يقوم بها العلماء هي إنقاذ الإيمان.

المطلب الأول: رسائل النور من منظور مؤلّفها

يَصْعُب على الباحث في فكر الأستاذ النورسي ورسائل النور عموما أن يجد لها تعريفا واحدا، بل إنّ الأستاذ النورسي نفسه ذكر عدّة تعريفات لرسائل النور، ولكن هذه التعريفات لا تتعارض، بل تتكامل وتقدّم صورة واضحة عن الرسائل، وقد حاولنا تقديم أكثر التعريفات شمولية، وهي:

(إنّ رسائل النور برهان باهر للقرآن الكريم، وتفسير قيّمٌ له، وهي لمعة برّاقة من لمعات إعجازه المعنوي، ورشحة من رشحات ذلك البحر، وشعاع من تلك الشمس وحقيقة مُلهمة من كنز علم الحقيقة، وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته)[1].

فتفاسير القرآن الكريم نوعان: نوع شائع معروف يُعنى ببيان المعاني والألفاظ وشرح الآيات، ونوع آخر يُعنى ببيان الحقائق الإيمانية وتقديم البراهين القاطعة، وقد ترد لمحات من النوع الثاني ضمن النوع الأول أحيانا، أما الأستاذ النورسي فقد قصد إلى النوع الثاني من التفاسير وأولاه اهتمامه فكانت رسائله تفسيرا معنويا يُسكت أعتى الفلاسفة.[2]

ويعرّفها الأستاذ سعيد النورسي في موضع آخر بقوله: (وهي نور مُفَاضٌ من الآيات القرآنية ولم تُسْتَقَ من علوم الشرق ولا من فنون الغرب، بل هي معجزة معنوية للقرآن الكريم الخاصة بهذا الزمان).[3]

لقد نشأ الأستاذ سعيد النورسي في أسرة صوفية، وكان ذلك حال بيئته التي غلب عليها إتباع الطرق الصوفية، وهو بنفسه صرّح في رسائله أنه كان يتبع طريقة النقشبندية مثل أسرته وصرّح بحبّه وإتباعه لأقطاب التّصوّف، وتوجد في أقواله وأحواله مسحة صوفية واضحة مستمدة من نشأته الأولى التي لازمه تأثيرها إلى آخر حياته، وكذلك محيطه العام الذي غلب عليه الانتماء إلى الطرق الصوفية التي كان لها دور كبير في التعليم والتربية الروحية.

(إنّ رسائل النّور تنقذ أُسُس الإيمان وأركانه، لا بالاستفادة من الإيمان الرّاسخ الموجود وإنّما بإثبات الإيمان وتحقيقه وحفظه في القلوب وإنقاذه من الشبهات والأوهام بدلائل كثيرة وبراهين ساطعة.)[4]

---

[1] سعيد النورسي، الملاحق: ملحق قسطموني، ص220.

[2] حسين عثمان وآخرون، سيرة بديع الزمان سعيد النورسي بلسانه وأقلام تلامذته، ط 1، دار الأنوار، إسطنبول-تركيا، 2016، ص906.

[3] سعيد النورسي، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط3، دار النيل، القاهرة-مصر، 2013، ص562.

[4] إحسان قاسم الصالحي، نظرة عامة عن حياة بديع الزمان سعيد النورسي، ص108.

اشتملت رسائل النور على علوم ومعارف وجوانب روحية وتجليات وجدانية تدور لها في فلك واحد ألا وهو هداية الإنسان وإرشاده إلى الطريق المستقيم مستنيرا نور القرآن، فهي كتاب شريعة وعقائد، وكتاب دعاء وحكمة وكتاب عبودية ودعوة وكتاب ذكر وفكر وكتاب حقيقة وتصوّف وكتاب منطق وعلم كلام، وكتابٌ حثّ على العمل وإلجام المعارضين وإسكات لهم، وهي مفيدة لكلّ النّاس، بمختلف طبقاتهم ومستوياتهم، وكلٌّ يأخذ منها ضالّته، وهي تشرح نفسها بنفسها في كثير من المواضع، كما زوّدها الأستاذ النورسي بمعارف العصر فبدّدت شبهات كثيرة وأقام الحجة على مخالفيه.

كانت رسائل النور قرآنية المصدر، فهي تختلف عن غيرها من المؤلفات، إذ لم يعتمد الأستاذ سعيد النورسي حين تأليفها إلاّ على القرآن الكريم، ولم يكن عند المؤلف أي كتاب آخر في ذلك الوقت، فلا مصدر لها إلاّ القرآن، ولا أستاذ لها إلاّ القرآن، ولا ترجع إلاّ للقرآن، وهذا ما أقرّه الأستاذ بنفسه، لأنّ البعض قد يعتبره مبالغة، يؤكد ذلك بقوله:

(إنّ رسائل النور كذلك ليست نورًا مُقتبسا وبضاعة مأخوذة من معلومات الشرق وعلومه، ولا من فلسفة الغرب وفنونه، بل هي مُقتبسَة من العرش الرفيع السماوي لمرتبة القرآن الكريم الذي يسمو على الشرق والغرب).[1]

فهذه الرسائل إذن تفسير لمعاني القرآن الكريم، ركّز الأستاذ النورسي من خلالها كل جهوده لمعالجة قضايا ومسائل دقيقة ومهمة وحسّاسَة، فأقام الحجج وصاغ البراهين التي تهدم التصورات الفاسدة والأفكار الضالّة والسلوكات المنحرفة، ودافع عن التصورات الإيمانية الرفيعة والسلوكات الصحيحة والمعتقدات الإسلامية التي تصون الإنسان من الوقوع في مكايد الكفر وأهله.

لم يكْتَفِ الأستاذ سعيد النورسي بتعريف رسائل النور كما أسلفنا، بل إنّه زادها بيانا حين صرّح قائلا: (إنّ مسائل رسائل النور ليست نابعة من العلم وإعمال الفِكر، وبالنيّة والقصد والإرادة، بل هي بالأكثرية المطلقة سانحات وظهورات قلبية وتنبيهات وإخطارات على القلب).[2]

كما يصف الأستاذ النورسي نفسه بالروح المجروح والقلب المقروح فلم يكن لهما دواء إلاّ استمداد من فيض القرآن الكريم، وقد كانت تلك الفيوضات أنوارًا دائمة وحقائق ثابتة انعكست على عقل عليل وقلب سقِيم ونفْسٍ عميٍّ، فكانت ثمرة ذلك تجربة كونية معرفية خصبة وفيضا من استلهام القرآن الكريم، بلغت ستة آلاف صفحة قدّمت إجابات لأهم المشكلات التي حيّرت الفكر الإنساني وشَغَلَتْه، وكانت برهانا ساطعا عن

[1] سعيد النورسي، الملاحق: ملحق قسطموني ,ص201.
[2] المصدر نفسه، ص185.

حيوية الفكر الإسلامي وقدرته على مواجهة أعتى الأزمات والقضايا الفكرية والوجودية والحضارية، وبرهن الأستاذ النورسي بهذا الفتح النوراني وهذا الفيض القرآني أنّ القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا ينطفئ ضياؤها..

المطلب الثاني: ظروف تأليف رسائل النور

كانت حياة الأستاذ سعيد النورسي حافلة بالأحداث والصعوبات والابتلاءات، وقد واجه كل ما تعرّض له بثبات وصبْرٍ واحتساب، ولم تُثْنه كل المِحَن التي عاشها عن رسالته في هذه الحياة، حتّى إنّه جَعَل تلك المصائب التي حلَّت به فُرَصا لتقديم المزيد من الجهود والبذل والعطاء، ومن أقوى الدّلائل على ثبوته ومُضيّه في مهمّته اتخاذه السجن والنفي فرصة لتقديم دُرر نورانية كُتب لها التحليق فوق أسوار السجون والمعتقلات والزنزانات الانفرادية لتصل إلى أيادٍ أمينة نسَخَتْها ونشرتها وتذوّقَتها وواجهت بها أعتى الأسلحة وأخطر الأفكار.

هناك في "بارلا"، تلك المنطقة النائية جنوب غربي الأناضول أين نُفي الأستاذ سعيد النورسي وبقي ثماني سنوات ونصف السنة، أراد الله أن تكون هذه البلدة نواة لدعوة النور ومقرّها ومدرستها الأولى، ألف فيها الأستاذ معظم رسائل النور وخاصة "الكلمات" و"اللمعات" و"المكتوبات".

أما عن سبب نفي الأستاذ سعيد النورسي إلى مدينة "بارلا" فيرتبط بشكل مباشر بثورة الشيخ سعيد بيران، حيث نشبت ثورة في الأقاليم الشرقية في تركيا بقيادة الشيخ سعيد بيران الذي كان شيخا للطريقة النقشبندية وزعيما بارزا بين العشائر الكردية، وكان سبب هذه الثورة رفض سياسة مصطفى كمال أتاتورك المعادية للدين الإسلامي، وقد طلب الشيخ سعيد بيران من الأستاذ سعيد النورسي الالتحاق بهذه الثورة ضد حكومة أنقرة، ولكن الأستاذ رفض المشاركة فيها لعدم رغبته في إهراق دم المسلمين الأبرياء لأن كلّ الظروف والمعطيات كانت في نظره لا توحي بأدنى انتصار لهذه الثورة، وكان يرى أنّ هؤلاء الأشخاص الذين يدعون لثورة في تلك الظروف ليسوا على وعي كافٍ بمآل ذلك. رغم هذا الموقف الصريح والواضح قولاً وفِعْلاً ورفض المشاركة في الثورة بشكل قاطع وتفرّغ الأستاذ للعبادة في أحد الجبال في مدينة وان في تلك الفترة إلاّ أنّه لم يَسْلَم من غضب الحكومة التي ألقت القبض على زعيم الثورة الشيخ سعيد بيران ورؤساء العشائر الكردية والزعماء الذين ساندوا تلك الثورة، فحُكم عليه بالنّفي رغم عدم مشاركته وعُدول عشائر مدينة "وان" عن المشاركة بتأثير منه، لم يشفع له في شيء قدّمه بَلْ أُلقيَ عليه القبض ونُقِل إلى استانبول في أيام باردة كانت فيها الثلوج تغطي الجبال، وبقي يعاني من الترحيل من مدينة إلى مدينة لا يدري كم

سيمكث ومتى سيرحَّل، حتى صدرت الأوامر بنفيه نهائيا إلى ناحية "بارلا" النائية التي وصَلَ إليها في شتاء سنة 1926م.[1]

يبدو أنه مصير لا مفرَّ مِنه، فها هو الأستاذ يعاقَبُ بالنفي علَى تهمة لم يرتكبها، بل حذّر منها ونصح بالإعراض عنها لأنّ أذاها أكبر منْ نفعها في تلك الفترة الحرجة، ولكن الحكومة كانت تفتعل التُّهم وتُلْحِقُ أقسى العقوبات بِمَنْ يخالفها سرًّا أو علنًا، ولأنّ معارضة الأستاذ للحكومة قَدْ سبق وأفصح عنها فإنه لم يَسْلم من المتابعة والعقاب ولو بعد حين.

اِشتهر الأستاذ سعيد النورسي برفض الاحتلال الإنجليزي الذي احتل استانبول في 16 مارس 1920، ولم يدّخر جهدا في توعية الناس بخطورة ذلك ومآلاته، وألّف كتابه "الخطوات الستّ" ونشره سرًّا بمساعدة طلاّبه وأصدقائه، هاجم فيه الإنجليز بلهجة قويّة وردّ على المزاعم التي تحجّجوا بها لتحقيق أهدافهم وأطماعهم، وكشف تلك المخططات التي يسعى الأعداء لتحقيقها بكل الوسائل، وحاول بعث الأمل ومحاربة اليأس الذي كاد يتمكّن من النفوس، كما كانت له مواقف شجاعة وأقوال وأفعال أبانت عن معدنه النفيس، فلم يبق خيار آخر لمصطفى كمال إلاّ دعوته إلى أنقرة –مركز حركة المقاومة- إلاّ أنّه رفض ذلك مرارًا، حتى كُتِبَ له في 1922 زيارتها بعد إلحاح من مصطفى كمال، هناك استاء الأستاذ سعيد النورسي كثيرا من الأحوال التي غلبت على النواب الذين لا يؤدّون الصلاة وأحزنته تصرفات مصطفى كمال المعادية للإسلام، فطبع بيانا خاطب فيه النوّاب ووُزّع عليهم حيث وعظهم وذكّرهم بالإسلام وباليوم الآخر، وكعادته فإنّ كلامه لَهُ أثر عظيم في النّفوس وقد استجاب أكثر من ستّين نائبا واستقاموا على التدين والصلاة، فلم يعجب ذلك مصطفى كمال وحصلت مشادّة عنيفة بينهما واعتبر أنّ إقامة الصلاة في مسجد بناية المجلس والتزام الكثير من النواب بأداء الصلاة من علامات الفرقة بين أعضاء المجلس، ولكن الأستاذ النورسي أفحمه بالرّد، ولذلك فكّر مصطفى كمال في إبعاده عن أنقرة وعرض عليه تعيينه في منصب واعظ عام للولايات الشرقية براتب مُغْرٍ ولكنه رفض ذلك العرض، فلم يبق أمام مصطفى كمال إلاّ اختلاق تهمة تكون سببا في نفيه وإبعاده حيث يخمد ذِكره ويُنسى اسمه.

عانى الأستاذ سعيد النورسي من التضييق والمتابعة ولكنَّه لم ييأسْ ولَمْ يتوقف عن محاولاته الإصلاحية، وقد ألّف رسائل النور تحت وطأة ظروف قاسية وكان

[1] إحسان قاسم الصالحي، بديع الزمان سعيد النورسي: نظرة عامة عن حياته وآثاره، ص38-42.

يتحلى بعزم متين وإرادة لا تلين، وبذل جهده ووقته في تأليف تلك الرسائل حتى إنّه كان يخاطب طَلَبَتَهُ حتى يثبتوا ويمضُوا في مهمّتهم فيقول:

(إخوتي الأعزاء الأوفياء! إنّ الذين يسوموننا سوء العذاب قد قبضوا بأيديهم على وسائل الحياة ومباهج الحضارة والمُتع والملذات ويتهموننا: أنّنا لا نعبأ بذلك الطراز من الحياة، بل يدينوننا على ذلك، حتى إنّهم يريدون أن يعاقبونا بالإعدام أو بعقوبات مشدّدة من السجن، ولكنهم لا يجدون حُجة قانونية لذلك).[1]

لم تفلح كل التّهم التي أُلحقتْ بالأستاذ وطلبة النور في التأثير عليهم، بل إن الأستاذ النورسي اعتبر التضييق عليه ومشقّة السجن و غربة النفي في سبيل رسائل النور سبيلا لاكتساب الإيمان التحقيقي وحُسنَ الخاتمة والثواب الجزيل، ويحتاج في سبيل نيل ذلك إلى الثبات التام والوفاء الخالص الذي لا يتزعزع.

وكان قَدَرُ طَلَبة النُّور مِثْلَ قَدَر أُستاذِهم، فقد تعرّضوا للسجن وظُلموا وحُوكموا وكانت دعوة الأستاذ لهم هي الثبات والصّبر والعمل الإيجابي البنّاء وتذكّر الآخرة، وكانت لهم مواقف شجاعة ومُرافعات قويّة الحجّة والبرهان، كما قدَّموا مثالا حيًّا للوفاء لأستاذهم، وهذا ما يظهر جليّا في إحدى المرافعات التي قدّمها أحد طلاّب النور في محاكمة أفيون سنة 1948، وهي كالآتي:

(هيئة الحكومة الموقرة! إنّ أستاذي –الموجود حاليا في محكمتكم- بمؤلّفاته المباركة حول الإيمان وحقائق القرآن وبرسائله النورانية لم يقصد أي بُغية دنيوية ولا أيّ قصْد سياسي، فأنا وأصدقائي إذْ نؤيّد أستاذنا ونبارك له خدماته المقدّسة التي قدّمها لهذا الوطن وهذه الأمّة فإنّنا نقول بأنّه حتى الوطنيين في حكومة "الاتحاد والترقي" أيّدوا هذا، فنراهم يخصّصون تسعة عشر ألف ليرة ذهبية لأجل تمكينه من بناء مدرسته المسمّاة "مدرسة الزّهراء" في مدينة "وان" وقد أُعجب مُحبو الوطن بوطنية أستاذنا وبِحَمِيّتِهِ المِلِيّة وبخدماتها العلمية وأيّدوها.)[2]

وكما لَمْ يسْلَم طلبةُ النّور من المتابعات والمضايقات والمحاكمات، كذلك رسائل النور، فقد شُكِّلت لِجانٌ لمراجعتها بدعوى أنّ الأستاذ النورسي يدعو إلى تكوين جماعة سرّية وتحريض الشعب على الحكومة، ومحاولة قلب نظام الحكم، وفي كلّ مرّة يصعب إثبات التهمة بالدليل، ولكن السّجن والنّفي لا يحتاجان إلى دليل، بل إلى قرار.

وبعد سنوات طويلة جاب فيها الأستاذ كل أنحاء تركيا منفيا معزولا، لم تتوصل أي محكمة من إثبات أي جناية أو تهمة ضد النورسي ورسائله رغم اللجان التي كلِّفت بمراجعتها وتدقيقها لأنها في حقيقتها لم تكن سوى رسائل إيمانية تقذف على الباطل

[1] سعيد النورسي، الشعاعات، ص370.
[2] المصدر نفسه، ص545.

وتنور الطريق أمام الإنسان للنجاة في الدنيا والآخرة، ولم تكن له أغراض سياسية ولا شخصية بل كان زاهدا في كل متاع الدنيا متسغنيا حتى عن الوظائف والمناصب التي أريد إسكاته من خلالها.

(بعد هذا المخاض العسير، اكتمل تأليف رسائل النور في ثلاثة وعشرين سنة، وقد حدث ذلك في زمن أحوج ما يكون إلى التداوي بفيض القرآن ومعانيه فكانت ترياقا شافيا لكثير من الناس، فقد قدّم فيها الأستاذ الأجوبة التي تلبي الاحتياجات الإيمانية والروحية والقلبية والعقلية والوجودية...

ولعلّ أحسن ما نختم به حديثنا عن ظروف تأليف رسائل النّور هو أنّ: الرسائل عاشت الاعتقال والمظلومية، وعانت التكميم، فجاشت بواطنها، حفلت أعماقها، وجاءت جوانحها عامرة بالفيوض والأذكار، يجلّيها وقار الصبر والمرابطة والاستعصام.)[1]

صَرَفَ الأستاذ كُلّ وقته إلى تدبّر معاني القرآن الكريم، وتولّدت من صميم قلبه معاني جليلة نابعة من فيوضات القرآن الكريم أمْلاها على من حَوْله من الأشخاص وقد كانوا قلّة بسبب الظروف الصعبة التي حُوصر فيها الأستاذ، ثم اختار أن يطلق عليه "رسائل النور" لأنّها انبعثتْ حقًّا من نور القرآن الكريم. ومن يجتهد قليلا في استجماع أهم الأسماء في حياة الأستاذ يلاحظ بوضوح تكرار كلمة "نور" وهذا ما لفت انتباه الأستاذ من قبل، فقريته اسمها: نورس، واسم والدته: نورية، وأستاذه في الطريقة النقشبندية: سيد نور محمد، وأستاذه في الطريقة القادرية: نور الدين، وأستاذه في القرآن: نوري، وأكثر من كان يلازمه من طلاّبه يسمّون باسم نور، وأكثر ما يوضح كتاباته ويُنوّرها هو التمثيلات النورية.

ليس هذا فحسب، بل إنّ الأستاذ سعيد النّورسي يتعمّق أكثر في حضور لفظ "نور" في أهم الأشخاص والأحداث، فيقول إنّ أوّل آية كريمة شغلت فكره وعقله وقلبه هي قوله تعالى: ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِۖ النور: 35. أمّا الأسماء الحسنى فإنّ أكثر ما حلّ مُشكلاته في الحقائق الإلهية هو اسم "النور" أمّا عن الأئمة فقال إنّ إمامه الخاص هو سيدنا عثمان ذو النُّورين رضي الله عنهُ وذلك لشدّة شوق الأستاذ للقرآن وانحصار خِدمته فيه.[2]

اِستمر الأستاذ في تأليف رسائل النور حتى سنة 1950 وهو يُنقل من سجن إلى آخر ومن محكمة إلى أخرى، هكذا طوال رُبع قرن من الزمان، ولم يتوقف خلاله من التأليف والتبليغ حتى أصبحت في أكثر من (130) رسالة جمعت تحت عنوان "كليات

[1] سليمان عشراتي، النورسي ومنهجه في الدعوة إلى القرآن، ص242.
[2] سعيد النورسي، الملاحق: ملحق بارلا، ص64.

رسائل النور" التي لم يتيسّر لها أن ترى طريقها إلى المطابع إلاّ بعد سنة 1954م، وهي مرتّبة كمايلي:

- المجلد الأول: الكلمات (33 رسالة).
- المجلد الثاني: المكتوبات (33 رسالة).
- المجلد الثالث: اللّمعات (30 رسالة)
- المجلد الرّابع: الشُعاعات (15 رسالة).
- المجلد الخامس: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: ألّفه الأستاذ بالعربية، وهو تفسير لسورة الفاتحة والآيات الثلاثين الأولى من سورة البقرة، وقد ألّفه الأستاذ سعيد النورسي أثناء الحرب العالمية الأولى.
- المجلد السادس: المتنوي العربي النوري (12 رسالة باللغة العربية).
- المجلد السابع: الملاحق (في فقه دعوة النور): مجموعة مكاتيب توجيهية وإرشادية جَرَتْ بين الأستاذ سعيد النورسي وطُلاّبه الأوائل، وهي: مُلْحق بارلا، مُلحق قسطموني، ملحَق أمير داغ 1 و 2. وهي أسماء أماكن نفي إليها الأستاذ وسُجن فيها فأطلق أسماءها على الكتب التي ألّفها.
- المجلد الثامن: صَيْقَل الإسلام، يحتوي على آثار الأستاذ في مرحلة "سعيد القديم" ويحتوي على 8 رسائل .
- المجلد التاسع: سيرة ذاتية، وفيها سيرة حياة الأستاذ مستخلصة من جميع مؤلفاته ومرتبة حسب التسلسل التاريخي، وهي من إعداد الأستاذ إحسان قاسم الصالحي مُترجم رسائل النور إلى العربية، وتبتدئ بتقديم طالب النور المقرّب من الأستاذ سعيد النورسي وهو مصطفى صونغور و قد عاش بعد أستاذه طويلا واطّلع على هذه السيرة الذاتية وزكّاها قائلا: (والآن يقدّم المترجم المحترم إحسان قاسم الصالحي هذه السيرة الذاتية بأسلوب متميز وبمنهج أصيل حقًّا، وذلك لقيامه بجمع المتون الأصلية من كلام الأستاذ نفسه والمستخلصة من كليات رسائل النور كلّها ومن تاريخ حياة الأستاذ وبهذا تحرز هذه السيرة أهمية بالغة وتضفي رونقا جديدا وجمالا آخر إلى بحث حياة الأستاذ.)[1]
- المجلد العاشر الموسوم ب: الفهارس من إعداد الأستاذ حازم ناظم فاضل.

بعد أزيد من ثمانين سنة قضاها الأستاذ سعيد النورسي في التعلّم والتعليم والجهاد بالجسد والقلم، انقسمت إلى أطوار حدّدتها منعرجات ومنعطفات مهمّة في حياة الأستاذ، فكان "سعيد القديم" الشاب ثم "سعيد الجديد" بعد سن الأربعين حيث

[1] سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ص5-6.

* أورفة: إحدى محافظات تركيا، تقع جنوب شرق الأناضول على الحدود مع سورية.

اختار حياة بعيدة عن السياسة وكدرها، ثم مشروع "سعيد الثالث" الذي تزامن مع أحداث مفصلية في تاريخ تركيا، ها هو الأجَلُ يقترب وكأنّ الأستاذ قدْ أحسَّ بذلك فبدأ بسلسلة من الرحلات إلى مختلف المدن لأنّه كان يرغب في رؤية طلابه وتوديع معارفه وواجباته رغم أنّ صحته لم تكن تتحمل تعب هذه السفرات المتلاحقة، ولم يسْلَمْ من متابعة السلطات حتى في هذه الفترة لأنّ هذه الرّحلات أثارت مخاوف السلطات التي طالما حاصَرتْه وتابعتْه من قبل وضيَّقت عليه وعلى طُلاّبه ورسائله، وقد تناوب طَلَبَتُهُ على خدْمته والسَّهر على راحته واختار أن ينقلوه في إحدى الليالي إلى مدينة "أورفة"* لتكون مثواه الأخير حيث وافته المنية في 24/رمضان/1379هـ، وتمّ دفنه في اليوم الموالي بعد أن سار عشرات الآلاف من الناس في جنازته والصلاة عليه. وبعد حوالي شهرين من وفاة الأستاذ سعيد النورسي وقع الانقلاب العسكري الذي قام قادتُه بإعدام رئيس الوزراء عدنان مندريس واثنين من وزرائه وسُجِنَ باقي الوزراء دون أيّ سنَد قانوني أو دستوري، ومِثْلَهُم لَمْ يسْلَم الأستاذ النورسي من الملاحقة حتى وهو في قبره، فقد كانت حركة النور من أكبر الحركات الإسلامية في تركيا ولم تكن بمنأى عن الأذى وقد تمكّن الحقد من الانقلابيين إلى الحدّ الذي جعلهم يقومون بملاحقة النورسي بعد وفاته. ففي 11/تموز/ 1960 توجَّهوا إلى "أورفة"* واستدعي الشيخ عبد المجيد شقيق الأستاذ سعيد النورسي وأبلغوه بقرار نقل رُفاة أخيه من "أورفة" وأجبروه على التوقيع على طلب النقل الذي سيُنسَبُ إليه بدعوى أنّ زوَّارًا كثيرين يأتون إلى زيارة قبر الأستاذ من المناطق الشرقية والجنوبية وهذا غير مناسب نظرًا للظروف الدقيقة في البلاد. تمّ إعداد كلّ شيء بإحكام ونُقلت رفاة الأستاذ بطائرة عسكرية إلى "أفيون" ثمّ نُقِل التابوت إلى سيارة إسعاف أخذتْ طريقها إلى مدينة "إسبارطة" حيث دُفِنَ هناك في مكان مجهول بحضور شقيقه ولكن السلطات لم تسمح له بالتعرّف على الطريق الموصل إلى مكان الدفن إذْ كانت عيناه مغطاة ولم يشهد إلا مراسم الدّفن كما روى هو بنفسه.[1]

المطلب الثالث: خصائص رسائل النور

إنّ رسائل النور هي الميراث الحقيقي الذي تركه الأستاذ سعيد النورسي لطلبة النور ولسائر المسلمين وللبشرية جمعاء، فكلّ من يقرأ رسائل النور يَلْحَقُهُ نفْعٌ ويشعر بأثرها على روحه وكيانه وعقله وقلبه، وخير دليل على ذلك انتشارها في بقاع الأرض وإقبال الطلبة والباحثين والأكاديميين وحتّى عامّة النّاس على قراءتها وتدارسها، ولعلّ هذا هو القَبول الذي مَنَّ به الله تعالى على جهود الأستاذ سعيد النورسي التي وَهَب

[1] أورخان محمد علي، مرجع سابق، ص325-332.

شبابه ومشيبه لإخراجها إلى الوجود، وقد يشعر القارئ أنّ هذه الرسائل تتميز بجملة من الخصائص زادتها تميّزًا وجاذبية، نحاول ها هنا الإحاطة بأهم هذه الخصائص وأبرزها:

أولا: قرآنية المصدر

لا يزال الأستاذ سعيد النورسي يقول ويؤكد أن رسائل النّور مُستمدّة من فيض القرآن الكريم، وأنّ ما يظهر على الرسائل من قوّة التأثير وبهاء الأسلوب ليست منه ولا ممّا مَضَغَتْهُ أفكاره، بل هي لمعاتٌ تتلألأ في سماء القرآن وكلّ حظّه منها هو الطلب والسؤال مع شدّة العجز والفاقة والحاجة مع منتهى العَوز والضعف.[1]

ويلفت الأستاذ نظرنا إلى مسألة مهمة، إذ تكثُر في رسائل النور المواضع التي افتُتِحت بـ "اعْلَمْ" وقد ميّزها الأستاذ بهذا اللّفظ لأنّها كما وصف سلاح قاطع ودواء نافع، أُعطيتُه من حيث لمْ أحْتسبْ، في وقت احتياطي وكثرة جروحي، فليس لي في الكتاب مالٌ إلاّ ما ليس في الكتاب من الألم والجُرح والداء المستتر في الضمير. وأمّا المذكور في الكتاب من الدواء والسّلاح وذوق الحقّ، فليس مني، ولا ممّا مضغته أفكاري، بل من فيض القرآن الكريم.[2]

قد يتوهم البعض أنّ اعتماد الأستاذ سعيد النورسي شبْه الكلّي على القرآن الكريم في تأليف رسائل النّور يعني عِصمتها واستحالة الاعتراض على ما ورد فيها، بلْ على العكس تماما، إذْ نجد أنّ الأستاذ سعيد النورسي ينسب إلى نفسه القصور والعجز والنّقص ويؤكّد أنّها أحوج ما تكون إلى التداوي بفيض القرآن، وهذا ما يحيلنا إلى الخاصية الثانية من خصائص رسائل النور.

ثانيا: تفاوت مستويات الخطاب

يحرص الأستاذ سعيد النورسي على بيان منطق الخطاب في رسائل النور فيشبّه نفسه بالذي يدخل بستانا فلا يجني إلاّ الأجود من الثمار، حتّى إذا ما تعب في قطفها وَجَدَ بعد ذلك المتعة واللّذة، أمّا إذا وقع نظره على الفاسد منها صرفه عنها آخذًا بقاعدة: "خُذْ ما صَفَا دَعْ ما كدَرْ".

ورغم هذا الحرص في الانتقاء إلاّ أنّ البعض انتقدوا الرّسائل وكلام الأستاذ ووصفوه بأنّه غير واضح، وهذا ما أجاب عنه الأستاذ بقوله: (يقال: إنّ كلامك لا يُفهم بوضوح!

---

[1] سعيد النورسي، المكتوبات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط3، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة-مصر، 2013، ص460.

[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، ط3، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة-مصر، 2013، ص316.

نعم، ما حيلتي...هكذا ترِدُ السانحات إلى القلب...فبينما أجدُني كأنني أتكلّم فوق منارة عالية، إذا بي-في أحيان أخرى-أنادي من قعر بئر عميقة).[1]

وردّ على الشكاية التي سمعها من الناس عن الغموض في آثاره فقال:

(لا تعجلْ لعتابي لأجل الإشكالات؛ إذْ مُخَاطَبي نفسي الدّساسة، وهي تفهم بسرعة أجوبة أسئلتها الخاطئة ولو بالرّمز).[2]

وصرّح بكلّ تواضع أنّ المتكلّم هو قلبه العاجز وأنّ المخاطب هو نفسه العاصية وكثيرا ما يخاطب نفسه في رسائله: "يا أيها السعيد الشقي، يا نفسي الأمّارة بالسوء، وكثيرا من العبارات التي تعبّر عن إنكار الذات ولومها ومحاسبتها وتذكيرها بجوانب النقص والقصور فيها، وأنّ كُلَّ ما يصدر عنها من محاسن إنّما هي رحمات إلهية ولطائف ربّانية.

إنّ هذه المصارحة مع الذّات جَعَلَتْه يتقبل النّقد ويسْتسيغُه، بل ويرى نفسه حقيق به، أمّا ما يعبّر عن الرّضا والمدح فيعود بشكل مباشر إلى نِعم الله عليه والبركة التي قدّرت لرسائله بفضل من الله تعالى، وهذا ما يحيلنا إلى الخاصّية الثالثة من خصائص رسائل النور.

ثالثا: التجربة والمشاهدة هما أساس الأفكار

مِنْ مظاهر الغموض التي رأى البعض أنها تعتري رسائل النور هو عدم انتظام الأفكار وانسجامها، ولعلّ مردّ ذلك يكون إلى عدم إدراك هذه الفئة أن الأستاذ كان يلخّص مشاهداته في تحولات غريبة ومشاهدات نفسية مختلفة، مع أمور أخرى، لو أتيح لهم الاطلاع عليها لعذروه. أما الأستاذ فلا يفوت فرصة إلاّ ويؤكّد أنّه لا يبالي بالنّقد الذي يطال شخصه إذ إنّه يرى ذلك من مظاهر القصور التي لا مفرّ منها.

يقول رحمه الله في وصف حاله وتقييم ما يقدّمه: (فكما لا قيمة لنفسي حتى أبتهج متصنّعا بما يُظنُّ محاسن وهو في الحقيقة مساوئ، كذلك لا أقيم لنفس غيري المتكدرة بالأنانية أيضا وزنًا، حتّى أتصنّع له بالرّياء الكلامي والتلطف في العبارة، إلاّ أنّه يليق أنْ تُلبس الحقائق ما يليق بها.. ولكن هيهات أنا عاجز وأعجمي وخام لا أطيق أن أنسج غيرَ ما ترونه من أساليبي المشوشة، فأعترف وأنادي بأعلى صوتي: بأنني عاجز، قاصر في الإفهام.

---

[1] المصدر نفسه، ص414.

[2] المصدر نفسه، ص316.

لكن أقول تحْديثا بالنعمة وأداءً للأمانة بأنّي لا أخدعكم، إنما أكتب ما أشاهد أو أتيقن عين اليقين أو علم اليقين.)[1]

ليس بعد هكذا تصريح، وليس بعد هكذا بيان، وليس بعد هكذا ضمير، وليس بعد هكذا أمانة إلاّ أن نقول: من كان يريد أن يفهم رسائل النور ويستفيد منها فليحاول أن يقرأها من هذه الأساسيات التي وضّحها الأستاذ سعيد النورسي، فهي تختلف عن غيرها من الكتب المألوفة التي يمكن أن نحكم عليها ونقيّمها من مُنطلق منهجي صِرف، وأمّا ما ذكره الأستاذ من تقصير ونَسَبَه إلى نفسه فلا يزيد الرسائل إلاّ قيمة وشأنًا، فقد يعتبره البعض سِمَة أساسية في أي جهد بشري، وقد يعتبره البعض مبالغة في تنزيه المضمون بمنأى عن التقصير البشري، ولكنّه في الحقيقة أبلغ وأعمق من ذلك، فالأستاذ -رحمه الله- كان مثالا حيًّا لتجربة إنسانية فريدة من نوعها، ارتقت في درجات المجاهدة والتزكية وأخرجت من العتمة والظلمات رسائل نورانية عظيمة في ظروف قاسية وقرى نائية وجبال عالية، مع مفارقة قسرية للأهل والإخوان والطلبة والأصحاب، بل حتى عدم الاطلاع على مجريات العصر والأحداث.

رابعا: تكاملية نهج رسائل النور

تتميز الرسائل بتكاملية منهجها الروحي والفكري، فنجد فيها القلبيات والذوقيات والبرهانيات وكانت الأسس الإيمانية فيها رصينة، كما كانت أساليب "ضرب المثال" المستلهمة من القرآن الكريم ذات وقْع عظيم وأثر كبير.

ومن يقرأ رسائل النور تستوقفه أمور كثيرة، فهي كما يصفها الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، مترجم رسائل النور إلى العربية:

(تُدْهِشُك، وتشُدُّك وتُؤثّرُ فيك! الذي يقرأ رسائل النور بوعي وبإقبال حقيقي يشعر لا محالة أنّه أمام شيء مختلف عمّا أَلِفَهُ في كتب الفكر الإسلامي أو كتب التزكية والسلوك. إنّها ليست ثمرة بحث عقلي بحت (...) إنّها تغوص بك في أعماق الذرّات، وتحلّق بك في آفاق المجرات (...) رسائل النور تُلامِس ما في الإنسان من اللطائف (...) بل تحسُ وأنت تمرُّ على الأشجار وتسلّم عليها أنها تردُّ عليك السلام (...) تحدّثك عن الله تعالى حديثا نديا (...) وانظر كيف يحدّثك عن الشخصية المعنوية للرسول -صلى الله عليه وسلم- (...) وانظر كيف يحدّثك عن الآخرة: عن البعث والحشر (...) هكذا تجد نفسك في رسائل النور أمام كتاب لا يشبهه ما تعرف من قبل من الكتب.)[2]

---

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص316.

[2] إحسان قاسم الصالحي، رحلتي مع رسائل النور، ط1، دار المأمون، عمّانْ، الأردن، 2017، ص135-138.

* حدث ذلك خلال الجلسة الافتتاحية للندوة العالمية التاسعة للاكاديميين الباحثين في رسائل النور المنعقدة في مقر مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم بتاريخ 2018/8/17 في تركيا.

هذه شهادة رَجُل درس رسائل النور وتعمّق فيها وسَبَرَ أغوارها، وجالس طلبة النور المقربين من الأستاذ سعيد النورسي وكانوا له كظلّه حتى فارق هذه الحياة، ولم تكن ترجمته لرسائل النور إلى العربية مجرّد عمل أكاديمي، بل كانت تجربة ماتعة ورحلة طويلة وثمار مباركة لجهود دامت سنوات طويلة نقل لنا فيها الأستاذ إحسان قاسم الصالحي –حفظه الله- روح النّص التركي إلى اللسان العربي، فكان بديعا في ترجمته كما كان الأستاذ سعيد النورسي بديعا في تأليفه، ولمّا منّ الله تعالى عليّ بحضور مجلس الأستاذ إحسان قاسم الصّالحي وقد حدّثنا عن رحلته مع رسائل النور* أكّد أنها تكن عملاً أكاديميا داخل مكتب تحيط به أربعة جدران، بل كان –حفظه الله- يراجع طلبة النّور ويجالسهم ويسمع منهم أخبار الأستاذ النورسي، حتى كأنّه كان بينهم، لذلك يُعدُّ وصفه هذا لرسائل النّور شهادة قيّمة تمخّضت عن تجربة شخصية ورحلة طويلة مازالت مستمرة إلى اليوم في خدمة الرسائل ونشرها والتعريف بها في كلّ أنحاء العالم.

إنّ هذه التكاملية في رسائل النور صفة ظاهرة جليّة، وقد لاحظ ذلك قرّاءٌ كُثُر لرسائل النور، والأستاذ سعيد النورسي نفسُه قد سئِل فيما مضى عن التأثير غير الاعتيادي فيما كَتَبَه في "الكلمات" وكان جوابه أنّ الفضل في ذلك التأثير يعود إلى إعجاز القرآن الكريم وليس إلى شخصه.

إنّ اعتماد الرسائل على القرآن الكريم انعكس على مضمونها بشكل واضح، فكلٌّ يجد ضالّته فيها؛ إذْ لم تُهمِل أي جانب، بل شمولية المصدر انعكست على تكاملية الأثر.

لقد أُلّفت رسائل النور بشكل رائع وغير مسبوق، وحازت على قبول الناس، وكانت حِصْنًا منيعا ضدّ ضلالات القرن العشرين وظلماته وفتحت فيض من القرآن الكريم أبواب السعادة الأبدية للبشرية.[1]

خامسا: عدم التعارض بين التواضع والفعالية

يؤكد الأستاذ سعيد النورسي دائما أنّ رسائل النور مستقاة من القرآن الكريم، ولذلك فإنّها تقدّم فوائد عظيمة لمن يقرأها، وحتى عند تكرار القراءة فإنها لا تُملُّ خاصة أنّها تتعمق في المسائل بشكل لافت يفتح أُفُقًا واسعة للقرّاء، ولَمّا سُئل الأستاذ سعيد النورسي عن سرّ هذه الفعالية أرجع ذلك إلى المصدر، ووصفها بالغذاء: (نعم يا أخي إنّ تلك الرسائل قوت وغذاء لأنّها مستقاة من القرآن الكريم، فكما يشعر الإنسان بالحاجة إلى الغذاء يوميا، يشعر بالحاجة إلى هذا الغذاء الروحاني أيضا. فلا يسأم من

[1] سعيد النورسي، الشعاعات، ص548.

القراءة من انكشفت رُوحه وانبسط قلبُه من أمثالكم فهذه الرسائل القرآنية لا تشبه الرسائل الأخرى، فهي ليست من أنواع الفاكهة كي تُسأم بل هي غذاء.[1]

قد يتوهم البعض أنّ هذه الخاصية فيها مبالغة في حق الرسائل، لذلك نقول هاهنا إنّ التجربة هي المعيار، فمن يسمع هذا الكلام دون أن يخوض تجربة القراءة لا يمكنه أن يفهم ولا أن يستشعر هذه الفعالية وهذا الأثر الذي تتركه الرسائل في نفوس قارئيها. كما أنّ نيّة القارئ تؤثر مباشرة على انطباعه، فهناك من يقرؤها طلبا للعلم وهناك من يقرؤها قراءة سطحية عابرة، وحتّى طلبة النور أنفسهم يرون أنّ القراءة الأكاديمية تختلف عن القراءة التي يُقبِل فيها القارئ على الرسائل بقلبه وعقله ووجدانه.

نحن لا ندعو إلى التجرّد من إعمال النظر والعقل، بل نؤكّد عليه لأنّه لا يتعارض مع روح رسائل النور، بل ننصح القرّاء بالإقبال على قراءة رسائل النور بالروح والعقل والوجدان، فيزداد الشوق والشغف واللذة، ولا تكتفي بقراءة واحدة، لأنّ القراءة المتكرّرة تحقق فوائد أكثر وهي تجربة روحانية تجعل القارئ يُحسّ بشعاعات ولمعات تنبثق وتنتشر في كيانه وروحه.

قد يظن البعض أنّ هذه مبالغة في الإقبال على رسائل النور، ولكن نعيد ونكرر أنّ معيار الحكم على رسائل النّور هو التجربة، أمّا الأحكام القبْلية فلا تصلح ويحسُن هنا أنْ أذْكر معلومة تزيد الفكرة وضوحا، ففي أنحاء تركيا ومُحَافظاتها تنتشر "مدارس النور" التي يجتمع فيها "طلبة النور" يتدارسون الرّسائل ويشرحونها، ومن أهم البرامج التي يقومون بها هي "برامج القراءة" التي تُعْقَدُ بشكل مستمر ودوريّ في "مدارس النور" للرّجال وللنّساء، وتُخصّص لها أيّام مُحدّدة بحجم ساعي قد يطول أو يقصر، وفي هذه البرامج تُخصّص أجزاءٌ محدّدة للقراءة في كلّ جلسة ويتم تدارسُها وشرحها، وهي ليست مقصورة على الأتراك فحسب، بل إنّها مُتاحة حتى للمهتمين بفكر الأستاذ سعيد النورسي من كلّ أنحاء العالم، ويتمّ استضافة الزائرين والتكفّل بهم طوال مدّة برامج القراءة التي يتوافد خلالها علماء وأساتذة وباحثين من دول شتى، وهي مُتاحة باللغة التركية والعربية والكردية حسب اللغة التي يفهمها الحاضرون ويقرؤون بها.

إنّ هذا الاهتمام بقراءة رسائل النّور وفتح السُّبُل لكلّ المهتمين بفكر الأستاذ النورسي وكلُّ طلبة النّور وحتى لِمَنْ له مجرد فضول في قراءتها يرجع إلى حث الأستاذ النورسي على ذلك، ولكن لماذا يضع الأستاذ الرسائل في هذه المكانة؟

[1] سعيد النورسي، الملاحق: ملحق بارلا، ص75.

قد يبدو هذا الاستفهام منطقيا للوهلة الأولى، ولكن من يطالع سيرة الأستاذ سعيد النورسي ويعرف كيف قضى عمره في جهاد مع نفسه قبل خُصومه، وقد جرّدها من كلّ الخصال، ووصفها بالضعف والشقاء وارتكاب الأخطاء سيَفْهم أنّ هذا تقويم لِنَفْسه. أمّا الرسائل فحين يتكلم عنها يضعها في مستوى لا تساميها فيه آثار أُخرى طرقت ذات الموضوع وتناولت نفس الإشكالية وهو في ذلك يقوّم عَمَله من مستوى آخر، فقد تمّ تأليف الرسائل في وقت عمَّ فيه الإلحاد كُلّ العالم وتمَّ إعلان "وفاة الرّب"، وانتشر هذا الفكر حتى بين من كانوا ينتسبون إلى الإسلام، ووصل الأمر إلى محاولة فرض هذا الواقع على المسلمين بشتى الوسائل ودَحْر كلّ وازع ديني وإيماني في الإنسان، فتساقطت قلاع الإيمان التي لم تجد في احتياطها الحُججي ما يتفوّق على التنظير الإلحادي، ولكنّ النورسي فنّد منطقها وتصدّى لها بذلك المستوى الذي بيّنه في رسائل النور، فكان يقف على "الحجة" الإلحادية ويومئ إليها باستخفاف مصحِّحًا خطأها، وهو في ذلك أشبه بمعلّم يُلَقِّن تلميذا ويصحّح أغاليطه الساذجة.[1]

هذا ما توصلنا إليه القراءة الموضوعية لسيرة الأستاذ النّورسي والظّروف العصيبة التي عاشها والبؤس والشقاء الذي اتّسم به عصره خاصة موجة الإلحاد التي زادت الطين بلّة فلم يكن بمقدوره العيش مرتاحا مادامت هذه الأفكار الوافدة تهدّد المسلمين وتتسلل إلى عقولهم لتزُج بهم في مرحلة لا متناهية من التيه.

رغم صعوبة الأوضاع وتفاقم المصاعب والمشاكل ومحاولة الأستاذ المضي في مهمة إنقاذ الإيمان، لم يغفل عن ضرورة بيان السبب الحقيقي للثناء على رسائل النور وتبرئة نفسه من شُبهة الغُلُوّ في ذلك، فيقول: (أنا أُطمْئِنُكُم مُقْسِمًا بالله أن قصدي من الثناء على رسائل النور إنّما هو تأييد حقائق القرآن وإثبات أركان الإيمان ونشرها. وإنّني أشكرُ رَبّي الرحيم شُكرًا لا منتهى له، على أنّه لم يَجْعَلْنِي أُعْجَبُ بنفسي قَط، وأنَّه أظهَرَ لي عيوب نفسي وتقصيراتي حتّى لم يبْقَ لي أَيَّةُ رغبة في إظهار تلك النّفس للآخرين)[2]

هذه المهمة العظيمة التي صَرَف الأستاذ جهده وعُمْرَة لأدائها ولاقى في سبيلها كلَّ ضروب العقاب والحصار فلم تفلح أي وسيلة منها في خماد جذوة النّور التي انفلقت من قلبه وروحه لتنير دروب الحيارى، وكانت رسائل النور حاشدة بتجهيزات فعّالة، وهذا سيحيلنا مباشرة إلى الخاصية السادسة.

سادسا: مَقَاصديّة رسائل النور

(قَصَد بديع الزمان برسائل النور فتح طريق واسع إلى معرفة الله، وذلك بتوجُّهها إلى الآفاق الكونية كالطرق الجهرية- فضلا عن جهادها في الأنفس، حتّى وكأنها عصا

[1] سليمان عشراتي، النورسي ومنهجه في الدعوة إلى القرآن، ص243-244.
[2] سعيد النورسي، الملاحق: مُلحق أمير داغ 1، ص237.

موسى –عليه السلام- أينما ضربت فجّرت الماء الزلال، فكانت نورًا منبعثا في الآفاق والأنفس عاكسا لشمس معرفة الأزل، مُزيلا للظلمات بجميع أشكالها أنواعها).[1]

كانت رسائل النّور أداة لمهمّة صعبة في عصر طفح بمعاداة الدّين وتكالب الأعداء وإطلاق العنان للحرّيات المزعومة المتخفية تحت رداء العمالة، هذه المهمة كانت إنقاذ الإيمان وخدمة القرآن والوقوف بصرامة وحزم في وجه الكفر، حتى إنّ الأستاذ جعل إنقاذ الإيمان مقصدًا أسمى من كلّ تفاصيل الحياة الأخرى، وكان يرى أنّ الإيمان هو حصن الإنسان ومنقذه.

كان الأستاذ النورسي يركز على ترسيخ الإيمان أولا من أجل تحصين الناس من الطاعون المعنوي الذي نشر البلاد آنذاك، وصار كل الفئات عُرضة لتلقي تلك الأفكار الوافدة بسهولة خاصة ما كان يحدث مع طلاّب المدارس، ولا ننسى أن نذكر أن الأستاذ لم يكن يخاطب فئة محددة في منطقة محددة بل إنّ كلامه ورسائل النّور دواء لأدواء العصر ومشاكله تسعى لإصلاح القلوب وتهذيب السلوك وإرشاد العقول وفتح أبواب العلم النافع والخير الوفير من فيض القرآن الكريم.

صرّح الأستاذ في أكثر من موضع بقوله واصفا ذلك الزمان بأنه: (زمان إنقاذ الإيمان، ولله الحمد فإنّ رسائل النور قد أنجزت وما تزال تنجز هذه المهمة وفي أصعب الظروف).[2]

كان الأستاذ سعيد النورسي يرى أنّ تقوية الإيمان والتصدّي للكفر والإلحاد هي أسمى مهمة وأعظم مقصد في زمانه، لأنّ الكفر يُفْسد على الإنسان دنياه وآخرته، إذْ يَجعل الحياة الدنيا جحيما معنويا لا يطاق، ويؤدي في الآخرة إلى جحيم حقيقي لا سبيل للنجاة منه.

فكر الأستاذ النورسي في حاضر الإنسان ومستقبله، وخاف عليه من حياة دنيوية وأخروية يتجرّع فيها أنواع العذاب، فقال: (نعم، إنّ مهمة رسائل النور الأساس هي خدمة القرآن الكريم، والوقوف بصرامة وحزْم في وجه الكفر المطلق الذي يُودِي بالحياة الأبدية ويجعل من الحياة الدنيا نفسها سمًّا زُعافا وجحيما لا يُطاق).[3]

لم تَكُن تلك المهمة وتلك الرسالة التي اختار الأستاذ أن يعيش ويموت لأجلها مُستساغة بالنسبة لأعداء الدّين والمتواطئين معهم من أبناء الوطن، فقد كانت سببا مباشرا في تعرّضه –ر حمه الله - للمضايقات وتلفيق التُّهم ومحاولات القتل مِرارًا

---

[1] عمّار جيدل، حقيقة مقاصد .رسائل النور: استمداداتها امتداداتها، ط2، دار النيل، القاهرة-مصر، 2009، ص72.

[2] سعيد النورسي، الملاحق: ملحق أمير داغ 1، ص237.

[3] سعيد النورسي، الشعاعات، ص380.

بالسّم، ولكن لم تفلح أيٌّ منها في إكراهه على تقبُّل هذه الأوضاع دون إبداء رأيه وإسداء نُصحه وبقي صابرًا شامخًا مُؤمنًا.

(ومَردُّ ذلك التحَمُّل، الإيمان، ذلك القَصْد الذي عمل على إنقاذه، فقد كان الإيمان مصدر ومرجع العمل الإيجابي البنَّاء، وهو المصدر الوحيد والرئيس لتلك الإيجابية).[1]

كان الأستاذ النورسي مقتنعا أنّ أعظم قوة لرسائل النور تجاه معارضيها لكثيرين، هي الإخلاص. فهي لا تقبل أن تكون أداة لأي شيء كان في الدنيا سوى توضيح حقائق الإيمان وإنقاذ إيمان الضعفاء والحاملين للشكوك والشبهات كذلك هي لا تهتم بالتيارات التي تنبني على مشاعر الانحياز والموالاة ولاسيما التيارات السياسية.[2]

وقد لخّص الأستاذ النورسي معركته الكبرى في تحطيم الكفر لأنه أساس الفوضى والاستبداد، وحرص على التأسيس للأمن والنظام والحرية والعدالة، ونزّه رسائل النور عن الأطماع الدنيوية والمآرب الفانية التي تسعى إليها السياسة.[3]

سابعا: رسائل النور مائدة للأذواق نافذة للآفاق

في رسائل النور نستشعر سعيا دؤوبا لمداواة القلوب وتضميد الجِراح وإصلاح المفاسد التي تُخلِّفها الأفكار المكلومة بشتى الوسائل الفاسدة وتحشد لها الأدلة التي تتراكم في النفس والقلب والعقل، فتنشط الرسائل لمداواة الوجدان العام الذي مال إلى الفساد وأَلِفَه نتيجة انهيار الأسس الإسلامية التي كانت الحصن المنيع للجميع وخاصة عوام المؤمنين.

ونحن إذْ نسعى إلى بيان طيب الأثر الذي حقَّقَتْه رسائل النور تستوقفنا شهادات حية لبعض مَنْ خاضوا تجربة القراءة الواعية لهذه الرسائل وعبروا عن أحاسيسهم ووَقْع الرسائل الكبيرة وفوائدها العظيمة، ومن ذلك:

(إذا تابعتَ النورسي في رسائله، وهو يستعرض أدقَّ أسرار الخَلْق الإلهي، تشعر لا بهزة عقلية فحسب، وإنّما كيَانية أيضا، لأنّه يضعك في الصورة الوجدانية ذاتها التي غَمَرَتْهُ وامتلكت وجدانه وكيانه وقَلَمَه البديع، فتستعيد التجربة الشعورية الكاملة التي مرّت به، كأنّه إمام وأنت تُصلّي وراءه، فتستغرق معًا في لحظات سُبحانية وأذكار ربّانية، وفيوضات رحمانيّة).[4]

---

[1] عمار جيدل، مرجع سابق، ص206.

[2] سعيد النورسي، الملاحق: ملحق أمير داغ1، ص288.

[3] المرجع السابق، ص203.

[4] محسن عبد الحميد، النورسي متكلّم العصر، د ط، دار سوزلر للطباعة والنشر، القاهرة-مصر، 2002، ص129.

إنّ تصريح الأستاذ سعيد النورسي وإعلانه الدائم أنّ رسائل النور سانحات تَرِدُ على قَلبه دون قصد وأنها فيض من القرآن لا هي من علوم الشرق ولا من فنون الغرب ولا ممّا هضمته أفكاره، بل هي قرآنية خالصة، لا يمنعه من نقل تفاصيل التجربة ولذّة المشاهدة وتذوّق حلاوة ذلك التلقّي من فيوضات القرآن الكريم بفضل الله ونعمته، فيجد القارئ نفسه في حالة روحانية ووجدانية وقلبية وعقلية شبيهة بحالة الأستاذ النورسي في ذلك المقام، لا ندري هل هي مقصودة أم تلقائية، أم أنها من مقتضيات الدّرس النّوري.

ولايكاد القارئ يطالع رسائل النور حتى يحس بالفائدة وأثرها على نفسه، فهي تستوقف القارئ ابتداءً من عناوينها فما بالك بمضمونها، وبمجرد الوقوف على شواطئها حتى تجد نفسك مشدودة إلى سبر أعماقها مع تفاوت الحالة الإدراكية التي يصل إليها كلّ إنسان، ولكن الفائدة لا خلاف في حصولها بإذن الله.

فميزة رسائل النور أنها تجعل الإنسان ينسى الإنسان، فهي تحمله إلى أقاليم المعرفة وتعجنه بأسرار وأنوار القرآن، و لها القدرة على تصفية النفس وإعادة تشكيلها من جديد، لأنها توصله إلى معرفة الله و محبته و التعلق بكتابه واتباع نبيه، وتجعله ينال حظوظا وافرة من أنوار الأسماء الحسنى والمحبّة الإلهية).[1]

ولا ينحصر تأثير رسائل النور في زمن تأليفها، ولا يتبادر إلى ذهن القارئ لها اليوم أنها غير صالحة لهذا الزمان، بل إنّ النورسي كان يتمتع بنظرة استشرافية جعلته يتوقع الكثير من سمات عصر ما بعد تأليف رسائل النور، وليس هنا مجال لسرد تلك الأمثلة لأنها مذكورة ومفصّلة في ثنايا الرسائل سواء في حوارات مع شخصيات وعلماء أو مندرجة تحت عناوين ومباحث أخرى.

(ولذلك فإنك لمّا تقرأ كليات رسائل النور، تشعر كأنما هذه الرسائل قد كُتِبَتْ لزماننا هذا، أو كأنّما كُتِبَتْ للتّو على إثر أحداث وقعت للمسلمين الآن، ولما نخرج مِنْ لهيبها بعد! ولا تكاد تسأل في حيرة الفجيعة: كيف الخروج؟ حتى تجد رسائل النور تسبق إليك بالجواب: تنتشلك من ظلمات الحيرة والاضطراب، توقظ وجدانك: أنْ افتح عين قلبك! وأذن روحك! وشهود بصيرتك! لتتلقى نور القرآن بنفسك، لا بواسطة غيرك! فتكون من المبْصرين!).[2]

---

[1] العربي بوسلهام، بحث بعنوان: من الأسس الفكرية والحضارية في كتابة النورسي، أنظر: جهود سعيد النورسي في تجديد الفكر الإسلامي، ص133.

[2] فريد الأنصاري، مرجع سابق، ص9.

ففي رسائل النور تجليات لمسائل كثيرة، وفتوحات لأسرار عظيمة، وتصفح لكتاب الكون المنظور وفيض من الكتاب المسطور، فمن حَرَم نفسه من هذه اللذّة فقد فاته خير كثير.

ويزيدنا رسوخا أن نأخذ منْ تجارب من سبقونا إلى هذه الدُرر وكشفوا لَنَا بعض مزاياها، ولا تزال البحوث والدراسات والإقبال على رسائل النور في تزايد وانتشار وذلك راجع إلى تأثيرها الكبير وفائدتها العظيمة، فقليل من ينكر قيمتها ومكانتها ولا يفعل ذلك إلاّ مُعْرِضٌ لم يكلّف نفسه عناء القراءة أو متكَبِّر يُخَيّلُ إليه أنّه بَلَغَ المنتهى أو حَاقدٌ يحكمه الهوى أو التقليد.

ومن منطلق إدراك النورسي لفحوى هذه الرسائل ووعيه بالحاجة الروحية والنفسية والوجدانية وحتى المعرفية لإنسان ذلك العصر وتوقع حاجات إنسان ما بعد ذلك العصر أيضا بوعي كبير وعقل مُستنير وقلب مهموم ورُوح مجروح دعانا الأستاذ النورسي بكل تواضع تغشاه محبّة وإرشاد فقال: (إنّ أجزاء رسائل النور قد حلّتْ أكثر من مائة من أسرار الدين والشريعة والقرآن الكريم، ووضّحتها وكشَفَتْهَا وألْجمتْ أعتى المعاندين والملحدين وأفحمتهم، وأثْبتت بوضوح كوضوح الشمس ما كان يُظن بعيدا عن العقل من حقائق القرآن كحقائق المعراج النبوي والحشر الجسماني، أثْبَتَتْها لأشد المعاندين والمتمرّدين من الفلاسفة والزنادقة حتى أدخَلتْ بعضهم إلى حضيرة الإيمان.

فرسائلٌ هذا شأنها لابد وأنّ العالم –وما حوله- بأجمعه سيكون ذا علاقة بها ولا جَرَمَ أنها حقيقةٌ قرآنية تشغل هذا العصر والمستقبل، وتأخذ جُلّ اهتمامه، وأنّها سيف ألماسي بتّارٌ في قبضة أهل الإيمان)[1].

كانت للأستاذ سعيد النورسي نظرة استشرافية، وتكونت في ذهنه صورة تقريبية للمستقبل –يَنقُل القريب- ما بعد تأليف رسائل النور، وكان متفائلا بمستقبل رسائل النور التي ستحظى بالعناية الإلهية والإقبال على قراءتها وترجمتها وتدارسها والاستفادة منها، وأبدى الأستاذ قناعة ويقينا أنّ هذه الرسائل ستكون حصْنا منيعًا في وجه الأعداء وستُكمل دورها في التبليغ، كما كان مطمئنًا أنّ طلبة النّور سيقومون بمهمّتهم حتى بعد وفاته.

وقد تخوّف بعض قرّاء رسائل النور من احتمال إعراض الناس عنها بسبب الغموض الذي يعتريها في بعض المواضع، فأجاب الأستاذ قائلا في طمأنينة ويقين (لا تضيع بإذن الله. وسيجيء زمان يفهمها أكثرُ المتفكرين المتديّنين إن شاء من بيده مقاليد كلّ شيء)[2].

---

[1] سعيد النورسي، الملاحق: ملحق أمير داغ1، ص248.

[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص222.

وزيادة على هذه الطمأنينة التي ألقاها الله في قلبه، كان يحرص على وصية طلبته لإكمال الخدمة من بعده، فيقول: (وإنّني على أمل أنّكم يا إخوتي ستُصدُّن حادثات الزمان المُزَلْزِلَة –كما هو دأبكم إلى الآن-وليكن دستورنا دائما "مَنْ آمن بالقَدَر أَمِنَ من الكَدَر).[1]

اجتمعت لدى الأستاذ سعيد النورسي أسبابٌ عِدَّة تَكاملَتْ إلى درجة استطاعت فيها تكوين قناعة –مع تواضع ومحاسبة للنفس وانكسار بين يدي الله تعالى- لدى الأستاذ بعلو مستوى الطرح التبْييني في رسائل النور، كونه فهم القرآن فهمًا استبصاريا، حاويا لِمَا تقدم عصره من فهوم وشروح وتخريجات، وأنّه عمل على تحريك اللطائف والمواجد، فاتسم عمله بالشمولية وتحقق الإيقاظ الرّوحي الذي سعى إلى تحقيقه. كما تيقن من استمرارية عمل الرسائل المُستقبلي، فبعدما رأى صلاحيتها كوصفة ناجحة في علاج الانتكاس المعنوي الخطِر الذي عرفته تركيا آنذاك، أكّد أيضا أهليتها المستقبلية وفاعليتها وصلاحيتها لنفي الزيغ وتلوثات المستقبل الروحية أيضا.[2]

بالإضافة إلى الأسباب المذكورة، نذكر خاصية مهمة تميّزت بها رسائل النور وجعلت مستوى الخطاب فيها كأنه مدروس بعناية ومُوجَّهة بدقّة عالية، ذلك أن الأستاذ سعيد النورسي أراد لرسائله

أن تكون رسائل النور دَرْسًا مختلفًا عن المعهود، وابتغى من خلالها تحقيق مآرب أعلى وأغلى، فهي كما وصفها: (تقول: كُنْ مَنْ شئْت وأبْصِرْ. وافتح عيْنيكَ فَحَسْب، وشاهد الحقيقة وأنقذْ إيمانك الذي هو مفتاح السعادة الأبدية.)[3]

استطاعت رسائل النور أن تستميل القلوب فقد استجابت للأشواق وحققت الأذواق وأزهرت براعم الإيمان وأنقذت المشاعر، كما لم تهمل مخاطبة العقول فشحنتها بالأنوار المعرفية والحُجَج العقلية، وتغلغلت إلى أعماق النفس البشرية، فاستطاع الأستاذ أن يحقق ذلك التوازن الذي خاطب فيه مستويات عقلية متباينة وجوانب أساسية في النّظام البشري، فلا هو وقع في التعقيد ولا هو انحدر إلى التبسيط الساذج، فكانت متوازنة تخاطب كافة المستويات وكافة الجوانب، فتحققت غايته في حفظ الإيمان خاصة لدى عوام المؤمنين الذين كانوا مُسْتَهْدَفين بشبهات خطيرة كادت تَرُدُّهم عن دينهم أو توقعهم في فخّ الشك والحيرة، فأصبحت الحقيقة الإيمانية عذبة شفافة، واطمأنّ الأستاذ سعيد النورسي أنّ كلّ جهوده في شرح وعرض الحاجة البشرية للإيمان وإنقاذ الحيارى هي إنجاز عظيم، اتّحد فيه القلب والعقل وامتزجا، وتتعاون فيه الروح

[1] المصدر السابق ملحق قسطموني، ص97.
[2] سليمان عشراتي، النورسي ومنهجه في الدعوة إلى القرآن، ص249.
[3] سعيد النورسي، الملاحق: ملحق قسطموني، ص95.

واللطائف الأخرى فتحلق وتصل إلى أوج العُلا، فقُدِّر لهذا الجهد المبارك وهذا الطرح النوراني أن يبلغ مكانة عظيمة وأنْ يُصبحَ مَرْجَعا لا تُغَيِّبُه الأزمنة.

(نخلص من هذا كلّهِ أن رسائل النور تفسير لمعاني القرآن الحكيم، وهي تعالج القضايا الأساسية في حياة الفرد، إذْ تُنشئ عنده تصوّرات إيمانية جديدة، وتهدم التصورات الفاسدة والسلوك الضعيف، فإنّها تدور حول معاني (التوحيد) بدلائل متنوعة و(حقيقة الآخرة) و (صدق النبوّة) و (عدالة الشريعة) إلى آخِرِهِ من الأمور التي ركز عليها القرآن الكريم. علاوة على ما تبحثه من أمور الدعوة إلى الله ومحبّة الرسول صلى الله عليه وسلم).[1]

إنّ كُلَّ ما سَلَفَ ذِكره عن رسائل النّور وأهم خصائصها لا يَعْني خُلُوَّها من النقص أو القصور في بعض المواضع، فهذه سِمَة كُلّ جُهد بشري، وغَلَبَةُ لمحاسن لا تتعارض أبدا مع وجود بعض المآخذ ومنْ قال غير ذلك فقد سلك مسلك الغُلُوّ. والأستاذ سعيد النورسي إنسانٌ اجتهد ونَصَح وعَلَّمَ وربَّى وسَعَى إلى الإصلاح ما استطاع ولكنّه لم يَدّعِ يَوْمًا بلوغ الكمال، بل كان دائم المحاسبة لنفسه، وكان همُّه أن يُقبِل النّاس على رسائل النّور؛ فهو بشَرٌ لَهُ أَجَل، أمّا رسائل النور فبفضل الله وعنايته سيكتب لها الانتشار وتعُمَّ فائدتها.

إنّ ادّعاء الكمال في أي جهد بشري حكم باطل، ومسلك التنزيه المطلق مسلك فاسد، وهذه حالُ رسائل النور، فهي كغيرها من المؤلفات يستحيل أن يكون كلّ ما ورد فيها متَّصفًا بالكمال، وقد سبق وأشار الأستاذ النورسي إلى هذه المسألة ووضّحها بنفسه في رسائله حتّى تكون جوابًا صريحًا لمنْ يتوهمُ
عكس ذلك، فقد قال:

(إنّ مائة وثلاثين رسالةً من أجزاء رسائل النّور الّتي مَنَحَتْ مائة وثلاثين حسنةً وفائدة لهذه البلاد، لا تُزيلها الأضرار الموهومة التي توهَّمها أهل الغفلة القاصِرُو النّظر الشكّاكون، من نقص وقصور في رسالتين أو ثلاث. فالذي يهوّن من شأن تلك الرسائل بهذه الأوهام وشُبهات ظلوم مبين)[2].

يُؤكّدُ الأستاذ سعيد النورسي أن بعض ما يعتري الرسائل من نقص أو قصور في بعض المسائل المحدودة جدًا، لا يرقى للتقليل من شأنها ولا يليق التركيز عليه وإغفال باقي الرسائل النورانية التي تركت جميل الأثر على قلوب وعقول الناس وأنارت طريقهم المظلمة في زمن حُورب فيه الدين وطُمِسَت معالمه من الحياة. ويلفت الأستاذ نظرنا إلى قسوة الحياة التي قضاها في الاغتراب والسجن وعزْله عن الناس وأنواع

[1] إحسان قاسم الصالحي، نظرة عامة عن حياة بديع الزمان سعيد النورسي، ص110.
[2] سعيد النورسي، الشعاعات، ص381.

التضييق التي فاق فيها أمثاله من المنْفيين والمسجونين، فلم يشغل نفسه بما يتعرض له، بل شغَلها بما يُحاك خارج أسوار السجون في حصون المكر والكُفر الذي يُفني الحياة الأبدية ويزيد آلام الحياة الدنيا، فيخرج الإنسان من عذاب إلى عذاب، ومن جهنم إلى جهنم ولكن الله كتب أن ينقذ إيمان الكثير منَ الناس برسائل النور المرشحة من فيض القرآن الكريم والتي قلَبتْ المفاهيم وأنارت حياة الإنسان الدنيوية وأنقذته من الإعدام الأبدي.

المبحث الرابع: معالم الرؤية الكونية التوحيدية عند النورسي

عند الغوص في أعماق فكر النورسي، تبرز معالم رؤية كونية تتجاوز الزمان والمكان، رؤية تتشابك فيها الخيوط الفكرية مع البعد الروحي، لتشكّل لوحة متكاملة تعكس صدى التوحيد في كل أجزائها. لم تكن تلك الرؤية وليدة الصدفة، بل نمت وتطورت في خضم التحديات التي واجهها النورسي، لتصبح بمثابة بوصلة تهدي في زمن التيه، حيث استطاع من خلالها أن يستشرف معالم الطريق في ظلمات الشكوك والأزمات.

في هذا المبحث، نحاول استكشاف تلك الرؤية التي لم تكن مجرد انعكاس لمرحلة تاريخية أو تجربة فردية، بل نتاج تفكر عميق في آيات الكون وفي صراع الروح مع المحيط. إنها رؤية تلامس جوانب الخلود وسط تحولات العصر، وتسعى لرسم ملامح نهج توحيدي يقود الإنسان نحو الحق والنور.

المطلب الأول: إحاطة النورسي بتحديات عصره

إنّ الإنسان نِتاجُ بيئته ومرآة عَاكسة لِسمات عصره، فتُترجَمُ خصائص كلّ ذلك في فِكْره وسُلُوكه إمَّا سَلْبًا أو إيجابًا، فهناك مَنْ يسْتسلم للواقع الذي قدّر له أن يعيش فيه بكلّ تفاصيله دون أدنى جُهد أو اعتراض، ولعلّ هذا يفيد في حالة صلاح البيئة وأمّا في حالة انتشار الفساد وإتباع طريق الضّلال وبلوغه مُنتهاه في كلّ جوانب الحياة فإنّ موقف الرضوخ والاستسلام والتقليد الأعمى يودي بالأغلبية إلى الهلاك. ولكنَّ الأكيد أنَّهُ لا يخلو الأمر من وجود نماذج استثنائية في كلتا الحالتين فالتاريخ يشهد أنّ صلاح العصر لا يمنع وجود الفاسدين، وأنّ فساد العصر لا يحول دون ظهور المصلحين.

لَقَد عاش الأستاذ سعيد النّورسي في عَصْر التّحدّيات الكبرى، حيث اسْتهدِف الدّين ودُبرَت المؤامرات ونُفّذت المخططات للقضاء على كلّ مظاهر التدين ظاهرًا وباطنًا، وقد أرِيد لإنسان ذلك الزّمان أن تُعاد صياغته وفق النموذج الغرْبي شاء أمْ

أبى. ولكنّ الله يصطفي من عباده من يشاء ويُنير أفئدتهم وبصيرتهم ليحْملوا الأمانة ويُحدّدوا للناس أمْر دينهم.

(لقد استطاع النورسي أنْ يُحدّد المشاكل الكبرى في حياة الأُمّة الإسلامية والإنسانية، فعالجها معالجة قرآنية من خلال أدلّتها التفصيلية العقلية الفطرية، فحوّل عقيدة التوحيد بذلك إلى حياة مُفْعمة بمعاني الإخلاص والاستقامة والتضحية والسلوك والتربية الجماعية، فنجح نجاحًا باهرًا في إلحاق الهزيمة باللاّدينية في نفوس ملايين من الناس في تركيا في زمانه وفي العالم بأسْرِه بعد وفاته.)[1]

ساهمت عوامل كثيرة في تكوين شخصية الأستاذ سعيد النورسي كما سبق بيانه بنوع من التركيز على أهم تلك العوامل، مع مُراعاة الامتيازات الفطرية التي ظهرت على الأستاذ منذ الصّغر، فتكاملت هذه العناصر وتبلور عنها مُفكّر فذّ فَطنٌ لدقائق الأمور، مُطّلّعٌ على خَفيّها بما حَبَاهُ الله من فِراسة وبديهة وبُعد النظر. وفي ذلك العصر المشحون بمظاهر التردّي إلى أسفل سافلين وطَمْس ملامح الهوية والانتماء انتفض الأستاذ بكل ما أوتي من علم وفِكر ونَظَر ونذر نفسه وكلّ جهده ووقته وحَوْلِهِ وقوّته لخدمة دينه ووطنه وإنقاذ الإيمان في قلوب كُلّ من تصل إليهم كلماته ودروسه ومواعِظُه.

(إنّ الإمام النورسي كان خبيرًا مُحَنّكًا بأدواء العصر، ومشاكله الفكرية، وتحدّياته الاجتماعية، وأمراضه الأخلاقية، ومتطلّباته النفسية، وأبعاد شقائه الرّوحية، وكان مُسْتيقنًا من أنّ العامل الأكبر من جميع تِلكم المشاكل والأمراض والمتطلبات والشقاوات هو انعدام العقيدة الصحيحة أو ضعف ورخاوة الأرضية التي أنبنى عليها الكيان الإيماني.)[2]

تحَدّى الأستاذ سعيد النورسي تلك الأوضاع المريرة ولم يُثْنه الاضطهاد السياسي بشتى الوسائل في عهد الكماليين والاتحاديين عن المُضي في توعية الناس وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم، فكَثُرَ طُلاّبُه والمؤمنون بِفكره، واتّسعت حَرَكَتُه وجَمَاعتُه فكان له دور في التغيير لأنّه وضّح كيف تلتقي السُّنن الربانية ومنها سُنّة اشتراط الجهد البشري.. وابتلاء بعض الناس ببعض، مع سنّة العهد الرباني بتحقيق النّصر لدينه وأوليائه مهما طال زمن الابتلاء وقويت شوكة الأعداء.[3]

---

[1] مُحسن عبد الحميد، بحث بعنوان: ِمن معالم التجديد عند النورسي، أنظر: جهود سعيد النورسي في تجديد الفكر الإسلامي، ص49.

[2] محمد خليل جيجك، ملامح تجدّد خطاب النورسي في مواجهة تحدّيات العصر مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، ال عدد04، يوليو 2011، إستانبول- تركيا، ص16.

[3] محمد أمحزون: بحث بعنوان : عصر بديع الزمان سعيد النورسي، العثمانيون قراءة تاريخية، أنظر: جهود سعيد النّورسي في تجديد الفكر الإسلامي، ص44.

كان القرآن الكريم هو منطلق الأستاذ سعيد النورسي للدعوة والإصلاح، واختار أنْ يتّبع المنهج القرآني وتجاوز المناهج الأخرى، فهو يسعى إلى إعلاء كلمة الحق كان يرى في المناهج الأخرى بعض المآخذ صَرَفَتْهُ عنها.

(لجأ إلى منهج القرآن الكريم للدمج بين الحقائق الكونية في نسق موحّد، يعتمد على صفحات الكون المنقوشة بحقائق معاني الأسماء الحسنى، بحيث يتحوّل في النهاية كل اسم إلى كَوْنٍ قائم بذاته، يتجسّد في العقول، وينطبع على القلوب، ويتجلى على السلوك معنى: الله، والنّبي، واليوم الآخر.)[1]

إنّ خطورة التيارات والأفكار التي انتشرت في ذلك العصر على الإنسان والحياة، ومدى السفاهة والضّلال الذي بَلَغه ذلك الفِكْر البائس، أحْزَنَتْ الأستاذ سعيد النورسي وأهمّتهْ لأنّه أشفق على إنسان ذلك العصر من مفاسد وضلالات إتباع وتبنّي تلك الأفكار، ولكنّه في الوقت نفسه كان شرسًا في الدّفاع عن الفكر الديني والرؤية التوحيدية الخالصة التي تنطلق من القرآن وتَحُلّ أعقد القضايا وتقدّم الأجوبة الشّافية وتريح ذهن الإنسان الحائر وقلبه، واستطاع أن ينطلق من إعجاز القرآن الخِصْب وتحدَّى معتنقي الأفكار الضالّة المأخوذة من الفلسفات الجامدة التي حيّرت العقول وأخرجت العباد من عبوديّتهم لله إلى عبودية الأهواء، ومن التَكريم إلى الدونية والشهوانية.

(إنّه يريد أن يقول للمسلمين أمامكم الكون كلُّه في القرآن، فلماذا تختارون الذي هو أدنى بالذي هو خير وأمامكم نظام اجتماعي مترابط يعتمد على ذلك الكون، فلماذا تختارون حياة أوروبا وقوانين أوروبا وفلسفات أوروبا وعُهْرَ أوروبا.)[2]

ومن يقرأ رسائل النور يلاحظ كثرة أساليب التحدي فيها، ومَرَدَّ ذلك إلى الأساس الصلب والخصب الذي ينطلق منه الأستاذ سعيد النورسي في إبطال الشبهات وفتح الأفق المعرفية للسائلين والحائرين، ولا يتعارض ذلك الأسلوب مع كونه من أكثر العلماء إنكارًا للذات، ولا يوهم أبدا أنه كان معجبا بنفسه، وكان –رحمه الله- يحث طلبته على عدم الاهتمام بشخصه ويدعوهم إلى تجاوز الاعتبارات الشخصية ويُعلّمهم أنّ الخدمة الجليلة التي يقومون بها في ذلك الزمان لا يليق ولا يصح أن تتعلق بمن هو فَانٍ.

وكان لا يفوت فرصة إلاّ ويرسخ فيها هذه الفكرة، وخاطبهم في إحدى المرات قائلا: (أنتم تهتمون بشخصيتي أكثر ممّا أستحق، فأنا أَعُدّ الاهتمام والاحترام لشخصي

[1] محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر، ص99.
[2] المرجع نفسه، ص101.

إهانة لي، إنكم بذلك تتخلقون بي وليس برسائل النور –المرتبطة بالقرآن فأنا لا أحب نفسي...إنني لا شيء أنا عَدَم فلا تنتظروا مني شيئا من الخوارق.)[1]

وميزان الصواب في الأقوال والأفعال ليس شخص القائل، فالرّجال ليسو حُجة على الحق ولا يصح أن نقول ذلك ولا أن ننتصر لقول أو مذهب مادام هو قول فُلان أو مذهبه. بل العبرة بالأفكار في ذاتها دون أن تؤثر هوية القائل في الحكم عليها من جهة الصحة والخطأ أو القبول والرفض.[2]

ينطبق هذا المذهب على نظرة الأستاذ إلى نفسه وإلى غيره، فكما رفض أن يتم تسليط الضوء على شخصه خوفا من الوقوع في التقديس والغلو – وقد خاف من ذلك حتى بعد موته وكان يسأل الله أن يُدفن في بقعة لا يعرفها أحد وقد كان له ذلك خوفا من مظاهر الغلوّ التي قد تصدر بداعي المحبّة، ومن أراد أن يذكره فليدعُ له من أي مكان هو متواجد فيه وستصل الدعوات والرحمات بفضل من الله ورحمة – كذلك اعترض ورفض أن تَسْتَوْرد الأفكار من أوروبا وتطبّق على المجتمع المسلم، فظهورها في أوروبا وانتشارها هناك وانبهار الناس بها وإقبالهم عليها وتشرّبها إلى حَد السُّكر والغياب عن الوعي والإدراك مع بيان تفاهتها ووضوح شذوذها، كلّ ذلك لا يشفع ولا يبرّر التقليد الأعمى والإتباع الكلّي دون مراعاة الفوارق والخصوصيات.

(لقد أراد النورسي أن يدفع المسلمين إلى قلب القرآن في إطار الصراع الحضاري المعاصر من خلال تفسير شهودي لكتاب الله سبحانه وتعالى. يشمل ثلاث قراءات متطابقة:

- قراءة الكون الرحيب من خلال تجليات الأسماء الحسنى.
- وقراءة القرآن الكريم في ضوء تلك القراءة.
- وقراءة سيرة الرسول العظيم –صلى الله عليه وسلم-حتى يستطيع أن يعيش مع أرقى نموذج مخلوق بعثَهُ الله تعالى قدوة أعلى ومثلاً واقعيا للكائن الحي في عوالم الإمكان.)[3]

نلاحظ بوضوح أثر "الكون" في نفس الأستاذ النورسي وفكره وعباراته وكلماته وأساليبه، فنراه ينطلق من القرآن إلى الكون ثم يرجع قافلا من الكون إلى القرآن ليلفت الأنظار ويربط القلوب ويفتح الأبواب لقرّاء رسائله أنّهم أمام صفحات ربّانية تنطلق

[1] سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ص539.

[2] عبد الكريم عكيوي، بحث بعنوان: جهود النورسي في إرساء أُسس الوحدة الفكرية وتثبيت الحوار في عصره، أنظر: جهود سعيد النورسي في تجديد الفكر الإسلامي، ص205-206.

[3] محسن عبد الحميد، بحث بعنوان: منْ معالم التجديد عند النورسي، أنظر: جخود سعيد النورسي في تجديد الفكر الإسلامي، ص48.

بالحق وتضع أسرار وتفاصيل الوجود جاهزة سهلة مُسْتصاغَة تقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق.

في حياة النورسي كانت المِحَنُ مِنَحًا بحق، فقد فَتَحَت ظروف السجن والنفي والوحدة والتضييق بَصَرَه وبَصَريته على الكون الفسيح، فأصبح يلتفت إلى أدق التفاصيل التي يغفل عنها المنهمكون في تجاذبات الحياة. وباتجاه آيات الآفاق مع آيات القرآن في ذلك القلب المرهف تولد فيه إحساس بكل ما حوله فتفجّرت طاقات عظيمة.[1]

في عالم تَجَاذَبَتْهُ الرُؤى والفلسفات التي تختلف في الأسس والمنطلقات، والنظريات والمخرجَات، وهي رغم عجزها عن تحقيق إنسانية الإنسان، وسعادة الإنسان بسبب إهمال خصوصية تكوينه وحقيقة احتياجاته ورفْعة تطلّعاته وما وراء هذا الوجود المؤقت، زَجَّت به في متاهات فكرية ووجودية صَرفته من مهمّته ورسالته والحكمة من خَلْقه ومكانته بين الموجودات، ووجّهت ميوله وجهوده وطاقاته إلى ما يتنافى مع التكريم والإنسانية إلى الشهوات والماديات والإفراط في الأنانية وحبّ الذات. اختار النورسي الرجوع مباشرة إلى القرآن، ليعرض عليه مشكلات عصره ويُعيد الإنسان المُبتلى بفتن ذلك الزمان إلى رحاب القرآن، وخاطب فيه ميوله الفطري للإيمان فهو يرى أنّ هذه النزعة الفطرية حصن للإنسان، ولذلك يصفها بقوله: (أجل، إنّ الإيمان يُقيم دائما في القلب حارسًا معنويا أمينا، لذا كلّما صَدَرَتْ ميول فاسدة عن تطلعات النفس والنوازع والأحاسيس المادية قال لها ذلك الحارس الرادع: محضور..ممنوع..)[2]

ومن خلال آليات جديدة في الأسلوب والمصطلح حاول الأستاذ سعيد النورسي أن ينقل لنا تجربتهُ الكونية الخِصبة ومشاعره وآلامه وتخوّفاته وسياحته الفكرية الوجدانية والذوقية التي هيّجت كيانه القرآني فأنتجت تفسيرا شهوديا عصريا بعبقرية فذّة وذوق رفيع ومعانٍ عميقة، فاستجاب بذلك لطبيعة الصراع الذي ساد عصره بين الفلسفة المادية والمعارف الإلهية من جهة، ثم بيان الاتفاق بين حقائق الوحي والعلم المعاصر لتجاوز خطر محاولات فصل الدين عن العلم والعالم وكسر الحدود المصطنعة التي أقيمت بينهما.

(لقد أثبتَ النورسي إعجاز القرآن، من تعبيره عن حركة الوجود بجامعية متوازنة، تربط بين المعرفة الكونية الشاملة التي تقضي على النّظريات التجزيئية

---

[1] فاروق حمادة، بحث بعنوان: الكون والطبيعة في فكر الإمام النورسي: أثرًا ودلالةً وهدفًا، ، المرجع نفسه، ص220.

[2] سعيد النورسي، صيقل الإسلام، ص489.

والفهم المبتور الفصل بين الأصول والفروع وبين الخالق والمخلوق وبين الكائنات العُلوية والسُفلية وبين أعماق النفس الإنسانية وأعماق الكون المحيط به.)[1]

لم يكتف الأستاذ النّورسي بهدم التصوّرات الناتجة عن معطيات عصره والرؤى التي غلبت عليها علامات الهشاشة والقصور، بل كان همُّه أن يُشخّص الداء ويقدّم الدواء، إذْ رأى أن الإنسان بحاجة إلى التداوي بالتفكر في "الأنفس" و "الآفاق" حتى "تذوب الغفلة وتُحرق الأوهام، والتفكّر في "الأنفس" يكون بالتدقيق والتمهل والتغلغل والتفصيل لأن كمال الصّنعة أتم في تحليله وتفصيله، أمّا التفكّر في "الآفاق" فيكون بالإجمال والغوص والخوض فقط لحاجة إيضاح القاعدة؛ إذْ شعشعة الصنعة أجْلى وأبهر وأجْمَل في الإجماع والمجموع لألاّ يغرق فيما لا ساحل له، فمن سلك هذا المسلك التفصيلي هناك –في النفس- والمُجمل هنا - في الكون - فار منه نور اليقين أمّا من عكس المسلك بأنْ أجمل هنا –في نفسه- وفصّلَ هنا –في الآفاق- تُشَتِّتُهُ الكثرة وتستهوي به الأوهام وتستغلظ أنانيته وتتصلب غفلته فتنقلب إلى طريق الكثرة المؤدية إلى الضلالة.[2]

كلّ هذا التدقيق والتفصيل والبيان لتحقيق أمْن ونجاة الإنسان، والأخذ بيد الأفضل المسالك وأسْلَمها من السقطات والعثَرات، وفتح نافذة معرفة الله تعالى لأنّها نقطة الاستناد والاستمداد الوحيدة التي تحمي الإنسان من تقلبات الحياة وتزاحم المصائب والابتلاءات، أمّا إسناد الأمور إلى المصادفات العمياء، والانخداع بالقوّة الهزيلة العاجزة فنتيجتها الانهيار والسقوط إلى الهاوية حيث الذل والمهانة، وكل ذلك يتعارض ومبدأ النّظام والإتقان في الكون، والتكريم والتفضيل للإنسان.

المطلب الثاني: مدار الرؤية الكونية التوحيدية وأبرز انشغالاتها.

إنّ رسائل النور المُسْتَلْهَمة منْ فيض القرآن الكريم قدّمت إجابات للإشكاليات والاستفهامات التي تخطر على الأذهان وتتطلع إليها العقول للإجابة عليها رغم اختلاف المشارب والانتماءات. استعرض الأستاذ سعيد النورسي الأسئلة الوجودية الكبرى واستنار بالفهم القرآني لتقديم الإجابات الشافية.

(وبهذه الرّسائل أثبتَ النورسي لأمّته أنّ الحضارة الغربية والثقافة الغربية مهما بلغَتَا من الانتشار والنفوذ فإنّهما لن تقضيا على جذوة القرآن في نفوس أهله.)[3]

إنّ المصدرية القرآنية الخالصة والمشرب القرآني الصافي الّذَيْن فاضت منهما رسائل النور وصارت تفسيرا معنويا شهوديا حَيَويًا يقذف على الباطل بشعاعات

[1] محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر، ص100.
[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص256-257.
[3] إحسان قاسم الصالحي، جوانب من حياة بديع الزمان سعيد النورسي، ص32.

ولمعات الحقيقة تفتح الأبصار والقلوب والعقول وترفع الغموض والحيرة عن مظاهر الكون وأسرار الوجود وغايته.

(وهي تُعْنى بأهم الأسئلة التي تشغل بَالَ كُلّ إنسان من قبيل: مَنْ أَنَا؟ مِنْ أين أَتيتُ؟ وإلاَمَ أمْضي؟ ما وظيفتي؟ وهذه الموجودات من أين أَتَتْ؟ وإلاَمَ تصير؟ وما حقيقتها؟ ونحو ذلك من الأسئلة، فتجيب عليها الإجابة الواضحة الشافية، وتوضّحها بأسلوب جذّاب وعبارة حسنة فتنوّرُ العقل وتُطمئِنُ الروح.)[1]

وبسبب انشغاله بتلك الأسئلة الوجودية الكبرى أعاد النّظر في مكتسباته ونظر إليها من زوايا أخرى واحتكم إلى معطيات جديدة، وهو في كل ذلك لا يكتفي بنقل عصارة فكره ونظره إلينا، بل يسعى جاهدا ليدفع فينا مَلكَة التفكُّر وعدم الاكتفاء بالنتائج الجاهزة.

ومن أهم مُراجعاته أنّه صار يُقسّم أوروبا إلى اثنين، وقد حدث ذلك حينما سار "سعيد الجديد" في طريق التأمّل والتفكّر حيث انقلبت العلوم الأوروبية والفلسفية وفنونها إلى أمراض نشأت منها مصاعب ومعضلات، فعَمل على تصفية فِكْرِه منْ أدران الفلسفة المزخرفة والحضارة السفيهة. فأمّا أوروبا الأولى فهي التي تقدّم النفع المادي والخدمات العلمية والصناعية للبشرية وتخدم الإنسان بما توصّلت إليه في المجال العلمي، وهي ليست معنية بهذا الانقلاب الفكري. أمّا أوروبا الثانية فهي التي تعفَّنتْ بظلمات الفلسفة الطبيعية وأفْسَدَتْهَا النظرة المادية وانبهرتْ بمساوئ الحضارة وتوهّمتْها حسنات، فساقتْ البشرية إلى السفاهة والضلالة والتعاسة، فَأَخذَتْ بيمينها الفلسفة السقيمة المضلّة، وبشمالها المدنية المضرّة ثمّ ادّعتْ أنّ سعادة الإنسان بهما، ولم تتساءل هل يمكن للإنسان أن يسْعد بمجرّد تملّك الثروة والرفاهية في حين تَحُلُّ على عقله وقلبه ووجدانه مصائب هائلة؟ فكلّ ذلك قد يؤدي به إلى اليأس وانقطاع الرّجاء وتضيق عليه الدنيا بما رَحُبَتْ، فأيّ سعادة يمكنها أن تضمن لهذا المسكين الشقي الذي تُعذّبُ روحُه وقَلْبُه في جهنّم معنوية، ويَتنعَّمُ جِسْمُه في جنَّة كاذبة زائلة؟

كما أنّ الأسس التي تستند إليها أوروبا الثانية واهية لأنّها تزعم أن كلّ كائن حيّ مالكٌ لنفسه ويعمل من أجل تحقيق لذّاته وأقصى أهدافه هو البقاء والاستمرارية، وتُقصي نظام التعاون الكوني وتُحلّ مبدأ الصراع.[2]

إنّ التعمق في رسائل النور يجعل القارئ يفهم الكون ويرفض العبثية فيه، وينجو من الوقوع في ملعبة التصادف ليرى بذلك الوجه الحقيقي للكائنات التي جعلها الله الخالق المبدع مكاتب ربّانية وصفحات صمدانية ومرايا عاكسة لتجليات الأسماء الإلهية،

[1] حسين عثمان وآخرون، مرجع سابق، ص905.
[2] سعيد النورسي، اللمعات، ص161-162.

فيعرف مَصْدَرهُ ومَسَارَه ومَصيرَه وعلاقته بخالقه وبالمخلوقات من حوله، فيطمئن ويتجاوز مرحلة خطيرة من حياته.

وتعنى رسائل النور بالإجابة على أهم الأسئلة الوجودية التي تتعلق بحياة الإنسان ومصدره و مصيره و الغاية الحقيقية لوجوده. وباعتبارها رسائل في الإيمان فإنها تدعو الإنسان إلى النّظر الإيماني والتوحيدي، حتى يتوصل إلى معرفة خالقه ويدرك وظائفه الحقيقية ورفعة شأنه ومكانته في الكون وعلاقته بمالك الملك. فتتهاوى أسباب الصّراع المزعوم بإسناد الأمور إلى مالكها الحقيقي.

ويؤكد الأستاذ النورسي أنه بِسِرّ التوحيد يستطيع كل شيء أن يكتسب قيمة اعلى و أعظم من قيمته الذاتية من حيث انتسلبه و أداؤه لوظيفة المرآة العاكسة، حتى ينكشف السّر المغلق لأهم الأسئلة المحيّرة مثل : مِنْ أين يأتي سَيْلُ الموجودات وقافلة المخلوقات؟ وماهي الحكمة من وجودها؟ ثم إلى أين مصيرها؟

كما يُميّزُ الأستاذ النورسي بين الرؤية التوحيدية والرؤية المادية، فالأولى زاوية النظر فيها متوجهة إلى رؤية الحقائق في نور الألوهية والآخرة وكتاب الكون، أمّا الثانية فزاوية النظر فيها متوجهة إلى الأسباب المادية الكثيرة والطبيعة وهي مذهب العلم التجريبي والفلسفة الحديثة –عموما-، وهذا يجعل المسافة بين زاويتي النّظر بعيدة جدًا، وبناءً على ذلك تتفاوت قيمة الأشياء والموجودات، فكم من غاية عظيمة في نظر الفلاسفة، هي في نظر علماء أصول الدّين لا تكاد تُرى أو تُذكر، فيتقدم أهل العلم التجريبي في الجانب المادي ويتعمّقون في خصائص الموجودات وتفاصيلها الدقيقة، لكن يتخلّفون في مجال العلم الحقيقي المتعلّق بالعلوم الدّينية والمعارف الأخروية فلا يبلغون في ذلك مستوى أبسط المؤمنين وأقلّهم علما، فقد انحدرتْ عقولهم إلى عيونهم فلا يفكرون إلاّ فيما يَرَوْنَ وأغرقهم الإفراط في الكثرة من المخلوقات. ولكن هذا كلُّه لا ينفي إمكانية تلاقي الحقيقة العلمية القاطعة مع حقائق النصوص القرآنية المقدّسة، أمّا أن تبلغ النظرة المادية مرتبة النظرة الإيمانية التوحيدية النّابعة من القرآن الكريم فلا يمكن بحال، إذْ تعجز اليد القصيرة للعلم التجريبي عن بلوغ أهداف طَرْف من حقائق القرآن الرفيعة.[1]

إنّ اختلاف الرّؤى وتعدّد مشاربها وتباعد زوايا النّظر فيها وأبعاد ومقتضيات ذلك على الحياة الدنيوية وما بعدها، وعلى القيمة الوجودية للمخلوقات والعلاقات المَبْنية على تلك التصوّرات، ومآلات ذلك كُلِّه، ليس بالأمر الهيّن، بل إنّه أمر جلَل قد تترتب

[1] سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط2، دار النيل، القاهرة-مصر، 2013، ص396-397.

عنه تخريبات عظيمة، وقد حرص الأستاذ النورسي على ترميم تلك التخريبات ومداواة القلوب وتضميد الأفكار والوجدان بإعجاز القرآن.

ويصف رسائل النّور أنها:

(تسعى لمداواة تلك الجروح الواسعة الغائرة بأدوية إعجاز القرآن والإيمان فأمام هذه التخريبات الكلّية الرّهيبة والشقوق الواسعة والجروح الغائرة، ينبغي وجود حجج دامغة وأعتدة مجهَّزة بدرجة حق اليقين وبقوّة الجبال ورسوخها، ووجود أدوية مجرّبة لها من الخواص ما يفوق ألف ترياق وتِرْياق ولها من المزايا ما يضاهي علاجات لا حدَّ لها.)[1]

ويأخذنا الأستاذ سعيد النورسي في سياحة كونية مع النّفس التي تفرُّ من الوحشة وتبحث عن الأُنْس والأمان والسلوان، وقد اعتراه حزن شديد من شيبة هو، ومن هرم البشرية، وشيخوخة الدولة العثمانية حينما صعد إلى قمة قلعة "أنقرة" التي أصابها البلى فتمّثلت أمامه كأنها حوادث تاريخية فأخذ يبحث عن عزاء ورجاء يُنير تلك الظلمات التي غشيَتْ روحه، فوجَّه نظره إلى الجهات الست ليجد ضالّته.

- فنظر إلى اليمين الذي هو "الماضي" فبدا له على هيئة مقبرة كبرى لمن سَبِقوه فأوحَشَتْه.
- ثم نظر إلى اليسار الذي هو "المستقبل" فتراءى له على صورة مقبرة أخرى له ولأمثاله ولِمَنْ بعده فأَدْهَشتْه.
- ثم نظر إلى حاضره فرأى نعش جنازته لجسمه المضطرب بين الحياة والموت.
- وفوق رأس عمره جنازته وتحت جذور شجرة عمره رميم عظامه يُداس تحت الأقدام.
- ثمّ حوّل نظره إلى ما وراءه فرأى الدنيا الفانية تتدحرج في أودية العبث فسكبت هذه النظرة السّم على جروحه.
- ثم ولى وجهه شطر الأمام فرأى القبر واقفا له بالمرصاد، فاغرًا فاهُ وخَلْفَه الصراط الذي تتراءى عليه القوافل البشرية.

وبينما كان مضطربا بين هذه الجهات وصنوف الوحشة والدهشة تتوالى عليه إذ بأنوار القرآن المعجز البيان تمدّه بالأمان الذي يقضي على صنوف ما انتابه من وحشة ولو تضاعف ألف مرّة، إذ تحوّلت كلّ المخاوف إلى أُنْس للقلب، وأَمَلٍ للرّوح، وتمزّقت تلك الصور الرهيبة وتحول الماضي: إلى مجلس منوّر وملتقى الأحباب.

والمستقبل: إلى مجلس ضيافة رحمانية في قصور السعادة الخالدة.

---

[1] سعيد النورسي، الشعاعات، ص212.

والحاضر: إلى مَتْجر أُخروي، ودار ضيافة رائعة.
وما فوق رأسه: إلى انطلاق لروحه من وَكْرها القديم إلى آفاق النُّجوم، وما تحت قدمَيْه إلى: باب للرحمة وستار لسرادق الجنة.
والدنيا: إلى رسائل ربّانية ومكاتيب صمدانية، وصحائف نقوش للأسماء السبحانية.
والقبر: إلى باب لعالم النّور والسعادة.
فأصبحت تلك الأحوال دواءً لدائه.[1]

ونستنتج مما سبق ذكره أن انشغالات الأستاذ النورسي قد فاقت حدود الزمان والمكان، ففي ريعان شبابه أَفزعه استهداف الأعداء للقرآن وقطع صلة المسلمين به، فتحدّاهم بأن يبرهن أن القرآن شمس معنوية لا ينطفئ نورها، ثمّ ساقَتْهُ الأقدار إلى معاقل الحرب ومؤامرات الأعداء، فوجد نفسه في السّجون والزنزانات لأنّه ببساطة أراد إنقاذ الإيمان في ذلك الزمان، ثمّ أُريد إخماد ذكره واسمه فأُبْعد إلى المناطق النائية حيث حُوصرَ ومنع من لقاء مُحبّيه وطَلَبته وعامة الناس، فكانت تلك فرصة لينطلق في سياحة كونية فتحت عينه وقلبه وعقله وكل جوارحه ووجدانه ولطائفه على الآفاق والأنفس، فاستنار بفيض القرآن وقدّم إجابات وإضافات بدَّدت الظّلمات وأنارت العقول إذْ شخَّص الدَّاء وبحث عن الدَّواء الذي استمدّهُ من هدي القرآن والإيمان في رؤية كونية توحيدية سنعرف تفاصيلها وأصولها بعد أن حاولنا هاهنا أن نرسم أبرز ملامحها.

[1] سعيد النورسي، اللمعات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل، ط2، القاهرة-مصر، 2013، ص318-320.

الفصل الثاني: تجليات عقيدة التوحيد في الرؤية الكونية عند النورسي

المبحث الأول: التوحيد من منظور رسائل النور.
المطلب الأول: مفهوم التوحيد وأقسامه.
المطلب الثاني: الواحدية والأَحَدية بين الاشتقاق والدلالة.
المبحث الثاني: براهين التوحيد عند النورسي.
المطلب الأول: دَلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم على التوحيد.
المطلب الثاني: الكتاب المنظور برهان ساطع بالتوحيد.
المطلب الثالث: الكتاب المسطور برهان ناطق بالتوحيد.
الفرع الأول: دليل الاختراع.
الفرع الثاني: دليل العناية والغاية.
الفرع الثالث: دليل التمانع.
المطلب الرابع: دلالة الإنسان على الوحدانية
الفرع الأول: الوجدان الحيّ.
الفرع الثاني: الجانب الجسماني.
الفرع الثالث: انسجام الإنسان والكون في الدلالة على الوحدانية.
المبحث الثالث: ثمرات التوحيد عند النورسي
المطلب الأول: معرفة الله ومحبتُه.
المطلب الثاني: إظهار مزايا الكون وكمالاته.
المطلب الثالث: إظهار مكانة الإنسان وقيمته.
المبحث الرابع: مقتضيات التوحيد.
المطلب الأول: الحاكمية والآمرية.
المطلب الثاني: السهولة واكتساب القيمة.
المطلب الثالث: عدم التجزُّؤ.

الفصل الثاني: تجليات عقيدة التوحيد في الرؤية الكونية عند النورسي

تمهيد:

يتحرك الإنسان تبعًا لمعتقداته، فهي قادرة على توجيه أفعاله وضبط خياراته وتوجهاته وتصوّراته للأشياء من حوله، فيرى الحقائق بذلك المنظار دون غيره، بغضّ النّظر عن صلاح الرؤية أو فسادها.

إنّ إسقاطات تلك الرؤية على الواقع يُترجمه التطبيق الفعلي والممارسة لعملية للتصوّرات العقلية التي تمثل خارطة تُرْسَم بناءً عليها معالم الطريق واتجاهاته وتشمل قبل كلّ ذلك المنطلَق والمنتهى.

وقد عَمِلَ الأستاذ النورسي على ربط العقيدة بالواقع وحاول قدر المستطاع تجنّب الوقوع في الخلافات التي لا تخدم واقع الأمّة وحال المسلمين، ومن أهم الإضافات التي قدّمها في رسائل النور اهتمامه بتقرير حقائق الإيمان بِلُغة عصره وتقريبها بأمثلة حيّة من العلوم المادية التي كانوا يقدسونها في زمانه. ونحاول من خلال هذا الفصل بيان حيوية الدرس العقدي عند النورسي وفاعليّته من خلال ما يتحقّق في الواقع ومختلف جوانب الحياة من أبسط الممارسات إلى أكبرها. وستظهر من خلال هذا الفصل عناية النورسي بإنقاذ الإيمان في القلوب لأنه مفتاح كل السعادات. واهتم، وسنحاول أن نتطرق في هذا الفصل إلى أهم المباحث المتعلقة بالأصل الأوّل في الرؤية الكونية التوحيدية ألا وهو "التوحيد" من خلال تحديد مفهومه وأقسامه وبراهينه وثمراته المتنوعة وأهم مقتضياته.

المبحث الأول: التوحيد من منظور رسائل النور

شغل "التوحيد" عقلَ الأستاذ سعيد النورسي وقَلْبَهُ ووجدانَهُ وكُلَّ حَوَاسِه ولطائفه، كما شَغَل قَبْلَهُ العلماء والمفكّرين، ويرى الأستاذ النّورسي أن حقيقة الإيمان وحقيقة

التوحيد هي أكبر حقيقة في الدنيا، حتى أضحى الكون كُلُّه آلة تنسجُ حقيقة التوحيد، وتنقش المعاني الإلهية في لوحات بديعة، حتّى صار إحساس بهذه الحقيقة التي تستوعب الغاية الإلهية وتتداخل ضمن أدّق فروع لكونها ذات ماهية شاملة ليس إلّا ظهورا لحقيقة التوحيد في المفهوم العام قبل الترقي في الدرجات الموصلة إلى اليقين.[1]

المطلب الأول: مفهوم التوحيد وأقسامه

ينقسم التوحيد عند الأستاذ سعيد النورسي إلى نوعين: التوحيد العامّي الظاهري، والتوحيد الحقيقي، وقد فَصَّل في المسألة كما يلي:

(الأول: التوحيد الظاهري: وهو "أنّ الله واحدٌ لا شريك له ولا مثيل، وهذا الكون كُلُّه مُلْكه. الثاني: التوحيد الحقيقي: وهو الإيمان بيقين أقربَ ما يكون إلى الشّهود، بوحدانيته سبحانه، وبصدور كُلّ شيء مِنْ يَدِ قُدْرِتِه، وبأن لا شريك له في ألوهيته، ولا معين له في ربوبيته، ولا نِدَّ لَهُ في ملكه، إيمانا يَهَبُ لصاحِبِه الاطمئنان الدائم وسكينة القلب، لِرؤيته آيةَ قدرته وختمَ ربوبيته ونقشَ قَلَمه، على كلِّ شيء.)[2]

يرى الأستاذ سعيد النورسي أن المؤمن الذي يملك "توحيدًا ظاهريًا" لاَ يُؤْمَنُ عليه من تسَلُّل الشبهات والضلالات إلى أفكاره سواءً كانت صريحة واضحة أو متسَلِّلَةً في أشكال خفيّة تتصَيّدُ أوقات الغفلة للاستقرار في الأذهان. أمّا المؤمِن الذي يملك "توحيدًا تحقيقيا" فإنّه يرى ويشاهد أختام الألوهية في كُلِّ شيء حَوْلَهُ فلا تجد الأوهام سبيلا إليه.

ويزيد الأستاذ سعيد النورسي هذه المسألة تفصيلا ويذهب إلى ما هو أعمق، فيقول (ثم إنّ الإيمان التقليدي مُعرَّضٌ لهجمات الشبهات والأوهام؛ أمّا الإيمان التحقيقي فهو أوسعُ منه وأقوى وأمْتن وله مراتب كثيرة جدًا. ومنها: مرتبة **علم اليقين:** التي تقاوِم الشبهات المهاجِمة بقوّة ما فيها من براهين. بينما الإيمان التقليدي لا يثبُتُ أمام شبهة واحدة. ومنها مرتبة **عين اليقين:** التي تضم مراتب كثيرة جِدًا، بل لها مظاهر بعدد الأسماء الإلهية حتّى تجعل الكون يتلو آيات الله كالقرآن الكريم. ومرتبة أخرى منها هي مرتبة **حَقُّ اليقين**.. وهذه تضمُّ مراتب كثيرة جدًا؛ فصَاحبُ هذا الإيمان لا تَنَالُ منه جيوش الشبهات إذا هاجمته[3]

لم يكتف الأستاذ سعيد النّورسي بتقسيم "التوحيد" إلى "تقليدي" و"تحقيقي" فقط، بل إنّه سَمَا وحَلَّق في الآفاق مُبتغِيا أعلى الدَّرجات التي تنهار أمامها أقوى الشبهات

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص14.
[2] سعيد النورسي، الكلمات، ص 323-324.
[3] سعيد النورسي، الملاحق: ملحق: أمير داغ 1، ص251-252.

وأشرسُ الهجمات، فالتوحيد في تَصوُّره وتجربته وأنموذج المؤمن الرِّسالي الذي قدَّمه طوال حياته أعلى وأسمى من حَصْره في مُجرّد تصديق إجمالي لا يتحَمَّل مواجهة آلة الإلحاد التي فُرِضَت بالسيف والدّم، وهلَّلَتْ لها الأبواق الخائنة واحتَضَنَتْها ورفعتها عاليا. إنّ النبع الصافي الذي ارتوى منه الأستاذ سعيد النّورسي وتَلَذَّذ بآياته التي فاضَتْ منها تجليات عظيمة ومباركة كان منطلق ارتقائه في المراتب اليقينية التي تُشْبِه في تَدَرُّجها المراتب الموجودة بين البذرة النامية إلى الشجرة الباسقة، أو المراتب الموجودة بين انعكاس الضوء من المرآة الصغيرة إلى انعكاسه من سطح البحر، بل إلى انعكاسه من المصدر نفسه ألا وهو الشمس.

واستجابة لمتطلبات العصر الذّي حُورِب فيه الدّين واسْتُورِدَت الأفكار المُهْلِكة صار واجبا على كُلّ مؤمن أَنْ يسعى لتحصيل تلك المرتبة التي تُحَصِّنُه من الفكر الهَدّام:

(يستوجب على كُلّ مؤمن أن يملك إيمانا تحقيقيا قويًا جدًا كي يُمَكِّنَهُ من المقاومة والثبات وحدهُ تجاه الضلالة المهاجِمة هجومًا جماعيًا. كما يرى في هذا السياق أنَّ الإيمان التقليدي لا يثبُت أمام شُبهة واحدة. فمِنْ واجب جميع المؤمنين أن يَسْعَوْا للتَّحصيل في
الإيمان على مرتبة "علم اليقين" التي تقاوم الشبهات المهاجِمة بقوّة ما فيها من براهين.)[1]

إنّ هذه المرتبة السّامية من مراتب "التوحيد" تجمع بين معاني التصديق والقبول والإذعان، ويصل من خلالها المؤمن إلى لَذّة الحضور القلبي، هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى فإنّه يقوى على رفض وردّ سهام الكفر وشرارات الإلحاد.

وتدور رسائل النّور وتمتد في رحاب معاني "التوحيد" حتى صارت مصدرًا لاسْتلهام حقائق الإيمان، وقادرة بفضل الله وروحها القرآنية أن تعرج بالقارئ من "الإيمان التقليدي" إلى "الإيمان التحقيقي" ومعرفة الله سبحانه وتعالى معرفة "إحسان" كما جاء في الحديث، فيصل المؤمن إلى مرتبة" الإيمان الشهودي"؛ إذ يستشْعِر حضور الخالق ورؤيته لهُ فيتقوى به، ويسْتشعر وجود الملائكة ويَأنس بهم، وتستحوذ على قلبه محبّة الرسول –صلى الله عليه وسلم- وإتّباع سُنّته فهي كافية ووافية لمن يبتغي النّور، ولا حاجة للبحث عن نور خارج رحابها، وتفتح أمامه نوافذ نورانية

[1] محمد خليل جيجك، ملامح تجدُّد خطاب النورسي في مواجهة تحديات العصر، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، إسطنبول- تركيا، العدد04، يوليو 2011، ص16.

على الحياة الآخرة فتجعلها حياة مشهودة ومرغوبة لشدة عناية رسائل النور بإثبات وجودها والحث على الاستعداد لها[1].

وقد يتبادَرُ إلى الذّهن سُؤال أو إشكال مفادُه: مِنْ أين أتى النورسي بهذا لتقسيم الجديد لأنواع التوحيد، ولماذا تجاوز تقسيم العلماء له إلى توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية؟

إن جواب ذلك ينقسم إلى شقّين هما:

أولا: أن النورسي لم يُنصِّبْ نفْسَهُ على سُدَّة التشريع ولا هو تجاوز حدود القدْر المسموح به في الاجتهاد وكُلّ ما قام به أَنَّهُ استنبط معانٍ جديدة تُسهم في التكيّف مع وقائع الحياة ومُجْريات الأحداث ليُبَرْهِنَ على حيوية هذا الدّين ومرونته وقُدْرته على إخْمَاد أفكار المخالفين وإبطالها.

ثانيا: هذا التقسيم اقتضَتْه الظروف والتحديات في عصره كما سبق بيانه، أمّا تقسيم التوحيد إلى: توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فإنّ الأستاذ سعيد النّورسي قَدْ ذكَرَه في رسائل النور حين قال:

(لا إله إلّا الله: تتضمَّن هذه الكلمة توحيد الألوهية، وتوحيد المعبودية.. فمَنْ لا يقبل بذلك الواحد الأحد جلّ وعلا إلها ومعبودًا؛ عليه أنْ يقبل مالانهاية له من الآلهة ! وأن يُنكر نفْسه، وينكر الكائنات! كالسوفسطائي الأحمق)[2]

فتوحيد الألوهية هو إفراد الله سبحانه وتعالى بأنه الإله المعبود وحده، ومن هذا المعنى أطلق عليه النورسي أيضا مصطلح "توحيد المعبودية".

أمّا توحيد الرّبوبية فقد ذكره في مواضع كثيرة، ومنها قوله في معنى:

"لا إله إلّا الله، وحدَه لا شريك له، له المُلك، وله الحمد، يُحيي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير، وهو على كُلّ شيء قدير، وإليه المصير".

(إنّ هذه الجملة التي تلَخِّصُ التوحيد(...) تحمل مرتبة جليلة من مراتب "توحيد الربوبية"، وتُبَيِّن من زاوية الاسم الأعظم كبرياء الوحدانية، وكمال التوحيد).[3]

المطلب الثاني: الواحدية والأحدية من حيث الاشتقاق والدلالة

إضافة إلى أنواع التوحيد، تستوقفنا في رسائل النور بعض المصطلحات المشتقة من التوحيد، وأهمها مصطلح الواحدية، ومصطلح الأَحَدية.

---

[1] إحسان قاسم الصالحي، دور رسائل النور في استعادة صياغة القرآن للإنسان، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، إسطنبول-تركيا، العدد13، يناير 2013، ص64-65.

[2] سعيد النورسي، المكتوبات، ص298.

[3] سعيد النورسي، المكتوبات، ص288

استلهم الأستاذ سعيد النورسي مصطلح الأحدية من اسم الله "الأحد"، ومصطلح الواحدية من اسم الله "الواحد"، ويميّز كُلًّا منهما عن الآخر ليخلص إلى الفرق بينهما من الناحية الاصطلاحية، إذ جَعَلَ للمفهومين دلالتين مختلفتين لكنهما متكاملتين. **فالواحدية** معناها تفرّد الله سبحانه في ذاته، بكونه ربًّا وإلها لكل شيء، أي تفرُّدُه سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية. وأمّا **الأَحَدِية** يقصد بها تجلّي أسماء الله الحسنى في كلّ شيء. والفرق الجوهري بينهما أنّ **الأولى:** هي صفة الله تعالى في وحدانيته وتفرّده في ذاته وهذا المعنى يرتبط بالتوحيد من جانب التصَوّر الذّهني. وأمّا **الثانية:** فهي مشاهدة ذلك في خَلْقه من خلال أختام التوحيد أو سكة التوحيد أو طغرائه المطبوعة عَلَى كتاب الكون وكُلّ الموجودات. ويتحقق كمالُ التوحيد عند النّورسي بالجمع بينهما باعتبار الأُولى تُدْرَك بالاعتقاد، والثانية تُدرَك بالمشاهدة.[1]

وتبيانا لهذين المصطلحين يقول الأستاذ سعيد النورسي:

(اعلم أنّ الواحدية تدلّ على أنّ الاسم يحيط بكلّ شيء، وأنّ الأَحَدية تدلُّ على أنّ كُلَّ شيء حيّ يشير إلى كُلّ اسم له تعلّقٌ بالكون، فالتجلي بالواحدية بإحاطته بكلّ الأشياء، وبالأحَدَية بإراءة كلّ شيء لتلك الأسماء).[2]

يعتمد الأستاذ سعيد النورسي كُليًا على القرآن الكريم لبيان معاني مصطلح الأحدية ومصطلح الواحدية والعلاقة بينهما، وآثار ذلك وانعكاساته على عقول المؤمنين، فيقول:

(إنّ القرآن الكريم يُبيّن دومًا تجلّي "الأَحَدية" ضمن تجلّي "الواحدية" ليحُول دون غرق العقول وتشتُّتها في تلك "الواحدية" الظاهرة في مخلوقات كثيرة لا يحصرها العدّ).[3]

إنّ الواحدية تتجلّى في مخلوقات كثيرة ليس لها حدّ ولا يمكن الإحاطة بها، وقد يؤدّي هذا إلى تشتّت الفكر في تلك الكثرة؛ ولذلك فإنّ الخالق الحكيم يُبَيّنُ طابع الأَحَدية في كُلّ جزء ويُظْهِره في كُلّ نوع، حتى يَشُدَّ الأنظار إليه سبحَانه، ويتحقق التوجّه المباشر إليه جَلّ وعلا بسهولة ويُسر، فهو الذي جعل السهولة المطلقة في التوحيد، أمّا طريق الكفر والشرك فهو طريق الصعوبة والاستحالة.

ويُسْعِفُنا هنا التشبيه الذي ذكره الأستاذ سعيد النورسي لزيادة بيان هذه المعاني وتوضيحها أكثر -ولله المثل الأعلى- ومفاده أنّ:

---

[1] فريد الأنصاري، مرجع سابق، ص75-76.

[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص341-342.

[3] سعيد النورسي، رسالة: مرشد الشباب للنجاة في يوم الحساب، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط8، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2013، ص188.

الشمس تحيط بضيائها مالا يُحَدُّ من الأشياء، وهي تُظهِرُ ذاتها بوساطة انعكاس ضوئها في كلّ شيء، بُغْيَة ملاحظة ذاتها في مجموع ضيائها الذي يستدعي وجود تصوّر واسع جدا ونظر شامل. فتظهر في كلّ لماع جلوة الشمس وخواصها كالضياء والحرارة لكن حسب قابلية كلّ لماع لذلك. فكما أنّ الله سبحانه وتعالى يتجلّى في كلّ شيء بجميع أسمائه الحسنى، وخاصّة في الأحياء، وبالأخص في ماهية الإنسان، كذلك كل اسم من أسمائه المتعلقة بالموجودات يحيط بجميع الموجودات التي يتعلق بها من حيث الوحدة والواحدية. فيضع الخالق الحكيم طابعَ الأَحَدية في الواحدية أمام نظر الإنسان كي ينقذ عقول العباد من الغرق في سعة الواحدية، وحتى لا تذهل القلوب عن الذات الإلهية.[1]

يأخذ النورسي بفكر القارئ ليشاهد أمثلة واقعية تتجلّى فيها المعاني التي أسلفنا ذِكرها، ويلتفت إلى المعاني القرآنية الدقيقة. فقد بيّن الأستاذ النورسي أن القرآن الكريم اقترنت فيه الدلائل العظيمة ذات الامتداد البعيد عن الإدراك البشري الشامل مثل: السماوات والأرض، مع الدلائل الدقيقة التي تخص الجنس البشري. فخالق الأولى هو خالق الثانية. ومادام الإنسان بكل تفاصيله فهرسا لذلك الامتداد في الرؤية النورسية، فيظهر بذلك خاتم التوحيد ويجد المؤمن طريقا إلى الله من كُلّ شيء. فاجتماع الكثرة الكونية في آيات القرآن الكريم وصياغتها في قالب واحد مختوم بخاتم الخالقية العظمى يفتح أمام المؤمن أبوابا لمشاهدة آيات الجمال والجلال بعدما تمَّ توظيف كُلّ شيء في توحيد الله، الواحد الأحد، الفرد الصمد.[2]

وقد اهتم الأستاذ سعيد النورسي بـــــالتوحيد لهذه الدرجة لأنّه من المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، وهي: التوحيد والنبوّة والحشر والعدالة، ولم يكُنْ الأستاذ سعيد النورسي أوّل من يقول بهذه المقاصد فقد قرَّرها من قبله العلماء المدققين، وكان أكثر ما يهمه ويشغله هو الوصول إلى معرفتها، وبيّن أن الطريق إلى معرفتها هو طريق الفطرة الذي يطرح فيه الإنسان على نفسه أوّلا الأسئلة الفطرية المتعلقة بوجوده ليعرف: من أين المبتدأ؟ وإلى أين المنتهي؟ وما يصنع في هذا الوجود؟ ومَنْ سلطان الكون الذي يسير بأمره؟ ليجد الإجابة على لسان الأنبياء المرسلين، ولسان خاتم النّبيين، من وحي القرآن الكريم الذي قدّم إجابَات تبيّن سرّ الوجود والحكمة منه، وبعثة الأنبياء، والأمانة التي يحملون، وحقيقة الحشر والطريق إلى السعادة الأبدية.[3]

---

[1] سعيد النورسي، اللّمعات، ص132-133.

[2] فريد الأنصاري، مرجع سابق، ص247-248.

[3] زياد خليل الدغامين، مِنْ قضايا القرآن والإنسان في فكر النورسي، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة – مصر، 2009، ص84.

اجتمعت في تركيب شخصية النورسي عناصر شتى، فهو إنسان ذو حس مرهف ومشاعر رقيقة وفكر مستنير بأنوار القرآن، لفتت انتباهه عناصر الكون وأبصر جمالياتها فأحبها واستغرق في التأمل والتفكر فيها وأكد أنها كلها تدلُّ على توحيد الخالق، وعَظَمة أسمائه الحسنى التي أنارت هذا الوجود. وفي مقابل تلك الشاعرية والإحساسية العالية، فإنه شخصية عظيمة قد تحلت بصلابة وثبات منقطع النظير في وجه قوى الشرّ الشيطاني، التي نشرت ظلام الشرك المطلق في ذلك العصر.

كان الأستاذ سعيد النّورسي يَقِظًا لِحَالِ بِلاَدِه وأُمَّته وأوضاع عصْرِهِ عمومًا وشَغَلَتْهُ مهمّة إنقاذ الإيمان وعمل جاهدًا بكلّ ما أوتي لإصلاح أحوال المجتمع وكان يرى أن ذلك سيتحقق إذا صَلُحَتْ علاقة الإنسان بخالقه سبحانه وتعالى، ومن أجل بلوغ هذا المرام جعل مدار رسائله هو التوحيد الذي تتحقق به جميع مزايا الإنسان، ولولاه يتردّى ليصبح أشقى المخلوقات.

المبحث الثاني: براهين التوحيد عند النورسي

حَشدَ الأستاذ سعيد النورسي الكثير من البراهين في رسائل النور ليثبت وحدانية الله سبحانه وتعالى، وكان يرى أنها ضرورية خاصّة في عصره، كما أراد أن يكون إيمان الناس مَبْنيًا على البراهين الدامغة والدلائل القوية التي بلغ احتياج الناس لها - في نظره - حاجتهم للخبز والماء؛ لأنّ (معرفة الله سبحانه والإيمان بحقائق "لا إله إلا الله" يستلزم التصديق القلبي، والإيمان المطلق الجازم بربوبيته سبحانه وتعالى، الشاملة والمحيطة بكل ما في الكون، وأن مقاليد الأمور –من الذرّات إلى المجرّات- بجزئياتها في قبضته سبحانه، ولا تُدار الأمور إلاّ بقُدرته، وتحت إرادته، فلا شريك له في مُلْكه).[1]

والأستاذ سعيد النورسي يتّبع المنهج القرآني الرّفيع والمعجز في إيضاح الحقائق الإيمانية والتصدّي للشبهات والأفكار الفاسدة، من خلال البراهين القوية أمام الأعداء غير المحدودين، لأنّه يريد أن تكون "رسائل النّور" وسيلة فعّالة لإبطال مفعول الأفكار السّامة والحفاظ على الإيمان.

فهذه البراهين التي يذكرها الأستاذ وسائل، أما الغاية فهي التوحيد الخالص، وقد لا يسع الذهن الكاسد، أو لا يتحمل الخيال الفاسد تلك النتيجة فيحاول ردّ تلك البراهين، أو التحجج بأنّ عظمة النتيجة لا يمكن أن يقيمها هذا البرهان رغم قوّته وحجّيته. والحقيقة أنّ هذا المسكين لا يعرف أنّ البرهان منفذ ينظر إلى النتيجة وهي الإيمان،

[1] سعيد النورسي، الملاحق: ملحق أمير داغ-1، ص267-268.

أو مكنسة تطهر الأوهام عنها. علما أنّ البراهين لا تعد ولا تحصى، فتلك الحقيقة لها براهين عدد رمال الدهناء وحصى البطحاء وقطرات الأمطار وأمواج البحار.[1]

وقد وظف الأستاذ النورسي أسلوب التوجيه العقلي حتى يجعل استيعاب المعاني العظيمة المكنونة في التوحيد في غاية السهولة والوضوح ، بل إن رفض التوحيد و معارضته يغدو مُنَافِيًا لبداهة العقول من منظور الإنسان المسلم. كما أنّ أسلوب المحاججة العقلية يُشْبِعُ حاجة الإنسان إلى القناعة العقلية، فهي من أهم وأصلح أساليب مخاطبة المخالف، كَمَا أنّها تُعبّر عن صورة من صُور مناط التكليف أيضا ألا وهو العقل.[2]

لا يكتفي الأستاذ سعيد النورسي بحشد البراهين الكثيرة ليبرهن على وجود الخالق ووحدانيته، بل إنه يصفها بـ "التنوع" وهي في نظره تنقسم إلى عدّة أقسام كلّ قسم منها له خصوصيته وفائدته ومجاله، كما يشرح ويفصّل أساليب التعامل مع كلّ نوع من البراهين.

وحول هذه الأنواع يقول: (اعلم أيضا أنّ من البراهين ما هو كالماء، ومنها ما هو كالهواء، ومنها ما هو كالضياء، لابدّ من التوجُّه بلطف ووُسعة نظر في لينة؛ وإلاّ فبالحرص والتعمُّق والحسّ بأصابع التحرّي يسيل ويزول ويختفي.)[3]

تحقّق للأستاذ سعيد النورسي – كما يروي مخاطبا نفسه - بالمشاهدة أنّ شواهد معرفة الله وبراهينها ثلاثة أقسام، هذا تفصيلها:

- **القسم الأول:** كالماء، ميزاته أنه: يُرى ويُحَسُّ ولكنّه لا يُمسك بالأصابع فعلى المرء في هذا القسم أن: ينغمس فيه بكلِّيته، وأن يتجرّد عن الخيالات، فلا تتجسس بإصبع التنقيد، وإلاّ سالَ وذَهب.
- **القسم الثاني:** كالهواء، ميزاته أنّه: يُحسُّ، ولا يُرَى، ولا يُسْتَمْسَك. فعلى المرء هاهنا: التوجّه والتعرّض ومقابلة تلك الرحمة بالروح والحواس والجوارح.

وأن يتجنّب التردّد والريب، وأنْ لا يَمُدّ يَدَ التّنقيد، بل يسعى للانتعاش روحيا. فهذا القسم لا يتّخذ اليد مَسْكَنًا ولا يرضى بها منزلا.

- **القسم الثالث:** كالنّور، يُرى، ولا يُحَسُّ، ولا يُسْتَمْسَك. فعلى المرء أن يتعرض له ويقابله ببصيرة القلب، ونظر الرّوح، ثم ينتظر لَعَلَّه يأتي من تلقاء نفسه. والأجدرُ

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص322-323.
[2] عمار جيدل، مرجع سابق، ص108.
[3] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص135.

به أن يتَجَنَّب ويبتعد عن كُلّ ما هو مادّي؛ لأنه سيختفي أو ينطفئ، فهو لا يرضى بالمادي حَبْسًا، بل يُصاد بنور البصيرة.[1]

اختار الأستاذ سعيد النورسي البراهين الكبيرة والحجج الكلّية التي توصل الإنسان لمعرفة الخالق جلّ وعلا وهي: آيات كتاب الكون المنظور، والآية الكبرى من هذا الكتاب: الإنسان، ومُفَسِّرُ كتاب العالم وحُجّة الله على الأنام: الكتاب المسطور وهو القرآن الكريم. وسنذكر تفصيل كلٍّ منها تِباعًا.

المطلب الأول: دَلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم على التوحيد

عرّف الأستاذ سعيد النورسي سيّدنا محمد –صلى الله عليه وسلّم- تعريفا جَامِعًا رَسَمَ فيه ملامح العلاقة الوطيدة بينه وبين الموجودات، فهو يرى أنّ أعظم آية في كتاب الكون الكبير، وأعظَمَ اسم في القرآن الكبير، وبدرة شجرة الكون، وأنورَ ثمارها، وشمسَ قصر هذا العالم، والبَدْرَ المنوّر لعالَم الإسلام، والدّال على سلطان ربوبية الله، الكشّاف الحكيم لِلُغْزِ الكائنات ومَنْ قدّم موكبَ جميع الأنبياء والمرسلين هو محمد -صلى الله عليه وسلّم- مُحلّقًا في دَرَجَات الحقيقة، وبيَّن الوحدانية واضحة جلية، وفتح الطريق إلى عرش الأَحَدية، ودَلّ على طريق الإيمان وأثبتَ الوحدانية الحقّة حتى صار برهانا قاطعا لها، فصار مثل الماء الباعث للحياة.[2]

ولَمّا كان أكملُ الكائنات هم ذَوُو الحياة، وأكملُ ذوُو الحياة هُمْ ذَووا الشعور، فلا شكّ أنّ ذلك الفرد الكامل سيكون من الإنسان لأنّ الله ميّزه وحَبَاهُ بما لا يُحَدُّ من الرُقي، فأحقّ من ينال هذه المنزلة هو محمد –صلى الله عليه وسلم- إذْ لا مثيل له في التاريخ، ولن يكون، ويشهد على ذلك سُلطانه المعنوي وحاكميته التي استمرّت بكمال هيبتها وعظمتها إلى يومنا هذا، فقد بلغ أعلى المراتب في السّجايا الحميدة بشهادة العدوّ والصّديق، وتحدّى العالم بالقرآن الكريم المنزّل عليه من لَدُن حكيم عليم، فاجتباه ربُّه ليكون ذلك الفرد الفريد.[3]

(ويؤكد النورسي أنّ الرسول الأعظم محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم- بانفراد شخصيته ودلائل نبوّته وعظمة حياته، وصِدق رسالته وكثرة معجزاته، برهان قاطع على وجود الله تعالى، الذي أوحى إليه وأرسله رحمة إلى العالمين، بقرآنٍ ظهر

[1] سعيد النورسي، اللّمعات، ص176-177.
[2] سعيد النورسي، الكلمات، ص341.
[3] سعيد النورسي، المكتوبات، ص373-374.

إعجازُه بأكثر وجه من وجوه الفصاحة والبلاغة والحقائق التي احتوى عليها، والذي هو نفسُه أظهرُ دليل وأقوى برهان على وجود الخالق العظيم.)[1]

إنّ جميع أقوال النّبي محمّد –صلى الله عليه وسلم- الصّادقة، ومعجزاته الباهرة، وشهادة الأنبياء من قبله؛ الذين اتّحدُوا في الدعوة إلى الله الواحد الأحد، دلائل وبراهين على وجود الله ووحدانيّته. وكلُّ هذه الحقائق باهرة، لا يليق بها إلاّ التصديق فهي تفتح نافذة واسعة لمعرفة الخالق الحكيم.

(فهل هناك مِنْ سِتار –يا تُرى- يمكن إسدالُه على هذه النافذة العظيمة! وهل أنَّ مَنْ لا ينظرُ من هذه النافذة يملك شيئا من العقل، فاحكم أنت !)[2]

ويرى الأستاذ سعيد النورسي أنّ "النبوّة" مقصد من المقاصد الأربعة للقرآن الكريم: التوحيد، النبوّة، الحشر، العدالة. وهي ضرورية للجنس البشري حتى يهتدي الإنسان إلى خالقه ويتحقق لديه الإيمان به، والتصديق بوجوده ووحدانيته، ومنْ ثمَّ عبادته على الوجه المطلوب، وهذا أعظم ما يُحصّلُه الإنسان في حياته.

المطلب الثاني: الكتاب المنظور برهان ساطع بالتوحيد

إنّ مشاهدة هذا الكتاب الكوني العظيم بكلّ ما أودع الله فيه من صفحات وأسطر ونقاط كافية لتكون وحدها دالّةً على وجود كاتبها ووحدانيته بما يفوق دلالة الكتاب على نفسه أضعافا مضاعفة. فسطحُ الأرض كأنّه صحيفة في الكتاب الكبير تضمّ أنواع النباتات والحيوانات تُكْتَبُ أما أنظارنا حين يحلّ الربيع كتابة رائعة متداخلة في غاية الجمال وكمال الإتقان حيث لا مكان للخطأ وكلّها في آن واحد. والبستان سطر من تلك الصحيفة، يُكتبُ أمام أعيننا وفيها ما لا يُعدُّ ولا يُحدُّ من الأزهار والنباتات، وكأنها قصائد نُظِمَتْ دون خطأ. أمّا الكلمة فهي الشجرة التي نمت وأينعتْ وكادت تخرج ثمراتها من أكمامها لِتدُلَّ على ذي الجلال والجمال بعدد ما حَوَتْ من أوراق وأخْرَجَتْ من أثمار في قصيدة غنّاء بالمدح والثناء على من زَيَّنها بأعظم الآلاء.[3]

فهذا الكتاب العظيم بعدد صحائفه غير المتناهية وما تحويه من أسطر وكلمات، بل بِعدد ما تحوِيه من حروف ونقاط، بل بعدد ما تحويه من ذرّات تشهد على وجود الخالق ووحدانيته، فصفاتها وأحوالها وانتظامها ومقاصدها تزيد سطوع الإيمان.

فحتى الذرة تنادي بلسانها الخاص لتدلَّ على خالقها الحكيم، منفردة أو داخلة في مركبات أخرى. ففي كل مقام لها نسبة معيّنة، ووظيفة خاصّة، وتحافظ على التوازن

---

[1] مُحسن عبد الحميد، النورسي متكلّم العصر، ص129.

[2] سعيد النورسي، رسالة النوافذ، 33نافذة مطلّة على عالم التوحيد، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط3، دار سوزلر، القاهرة-مصر، 2011، ص90.

[3] سعيد النورسي، اللّمعات، ص474-475.

العام في كلّ موقع، وتُثمرُ في كُلّ وظيفة مصالح وحِكَمًا شتّى، حتّى صارت كالجندي الذي يقوم بوظيفته التي تربطه بفَصيله وفِرْقته وجيشه. فإذا كان هذا حال الذرّة، ألا تكون إذن البراهين الدالّة على الخالق جلّ وعلا أكثر بكثير من عدد الذرّات في هذا الكون الفسيح، بل بعَدَدِ أنفاس الخلائق دون مبالغة، بل قد تكون قاصرة[1].

(فهذا الكتاب الكوني العظيم يتجلّى فيه النّظام بوضوح تام بحيث يظهر النّظام كالشمس في رابعة النهار، فتظهر معجزة القدرة في كلّ كلمة أو حرف فيه، فتأليف هذا الكتاب البديع فيه من الإعجاز الباهر بحيث لو فرضنا –فرضًا مُحالاً-أنَّ كلَّ سبب من الأسباب الطبيعية فاعل مختار، لَسَجَدَتْ تلك الأسباب جميعًا - بكمال العجز- أمام ذلك الإعجاز، قائلة: سبحانك.. لا قدرة لنا.. إنّك أنت العزيز الحكيم.)[2]

إنّ التفاعل الحاصل بين آيات الكتاب المنظور والكتاب المسطور في كيان الأستاذ سعيد النورسي نتج عنه تصوّر رائع ورؤية كونية بديعة، استَجمع فيها أروع المناظر التي تعبّر عن البداية في فصل الربيع، وذكّر باستحالة الاستمرارية على نفس الحال وذلك بوصف مظاهر الخريف، كما استوعبت رؤيتُه كلّ المخلوقات من أدناها إلى أعلاها، ومن دقيقها إلى عظيمها، مع بيان ما يحكمها من مظاهر النظام والتعاون والتساند والتناسق حتى برهن أنّ خالق عين البعوضة هو خالق الشمس، وأنّ الذي ينظّم المجموعة الشمسية هو الذي يُنظِّم معدة البرغوث.

(فأشدُّ الأشياء بداهة جديرة بالاهتمام من لَدُن "طالب الإيمان" فهي تنطوي على الكثير من موجبات الدهشة والعَجَب. فالأشياء الكونية ذات سلك واحد يربط بينها جميعا، فالشيء يُفْضي إلى الشيء، والشيءُ طريقٌ لكلِّ شيء وعلى صلة بكلّ شيء (...) فتاريخ الكون يمكن قراءتُه في جزء من أجزائه دون مشقَّة، وجلال الربوبية، وجمال الألوهية يمكن مشاهدتهما في أية جزئية من جزئياته بكلّ سهولة عند الفحص والتدقيق في الأشياء.)[3]

إنّ النّظام الكوني قائم على التعاون والتساند بين كلّ الموجودات باختلاف أنواعها، ولا تتأخر كلُّ الأجزاء عن إسعاف بعضها البعض في استجابة دائمة لطلبات الإمداد بين كلّ الأجزاء، ممّا يجعل منها وحدة تأبى الانقسام تماما مثل أجزاء جسم الإنسان التي إذا اشتكى منها عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

(نفهم من هذا أنّ الذي يمسك زمام عنصر واحد في الوجود، إنْ لمْ يكنْ زِمام جميع العناصر بِيَده لا يستطيع أن يسيطر على ذلك العنصر الواحد أيضا. فـ

---

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص415-416.

[2] المصدر نفسه، ص416-417.

[3] أديب إبراهيم الدباغ، في آفاق النور، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2004، ص10.

"التعاون" و"التساند" و "التجاوب" و "التعانق" الواضحة على وجه الكون، إنّما هي أختامٌ كبرى وبصمات ساطعة للتوحيد.)[1]

ومن آيات التوحيد الساطعة وأختام الوجدانية الواضحة مظاهر "التدبير" و "الإدارة" في كلّ أنواع الحيوانات والنباتات بأعدادها التي لا تُحصى، وتُزيّنُ وجه الأرض وتنثر البهجة على نسيج الحياة، فحين تتأملها وتمعن النّظر فيها يظهر اختلاف أشكالها، وتبايُن وظائفها، واختلاف أرزاقها، وتنوّع أجهزتها، كما نشاهد أرزاقها تُسَاقُ إليها من حيث لا تحتسب، دون سهو ولا خطأ ولا التباس، ولا زيادة ولا نقصان، دون تأخير ودون تكلّف أو تكليف، مع تمييز لكلّ منها، وهي تموج في هذا الامتزاج الهائل. فإذا كان هذا ما يظهر على سطح الأرض، فما يُخبّئ باطنها بعد من الآيات الساطعة المتلمّعة؟![2]

فهذا البرهان من الذرّات إلى الكائنات وحتّى المجرّات، كُلها ألسنة ذِكْرٍ تنطق، بل تلهج بـ "لا إله إلاّ الله"، وما يظهر من إعجاز التعاون والنظام والتناسق ودقة التدبير في صفحات الكون يُظهر بوضوح أن كلّ ما يحويه آثار قدرة الله المطلقة وعلمه المحيط.

(ومسلك النورسي في إثبات عقيدة التوحيد، مَسلَكُه في إثبات وجود الله سبحانه وتعالى، ينطلق دائما من الكون العظيم؛ ذرّاتِه، أزهاره، أثماره، إلى تقرير "التوحيدُ مُطَبِقًا قواعد العلم والعقل في التأمّل والملاحظة والاستنتاج، والتي تُنشئ القوانين التي تقطع بأن إلها واحدًا هو الذي خلق هذا الكون وهو الذي يُسيّرُه بعناية فائقة إلى غايات عظيمة.)[3]

فما بقي إلاّ أن نستغرب ونعجب مِمّن أنكر وجود الله سبحانه ووحدانيته التي ظهرت وتجلّت في كلّ شيء، فما هذا إلاّ عمى وجهل، وماذا بعد الاعتقاد بوجود الكون ثمّ إنكار خالقه!! أو نِسْبتِهِ إلى ما لا يُحصى من الآلهة، أو ملعبة التصادف، أو الأسباب العمياء أو... هذا غير معقول وغير مقبول.

المطلب الثالث: الكتاب المسطور برهان ناطق بالتوحيد

يرى الأستاذ سعيد النورسي أنّ وظيفة القرآن الكريم الأساسية هي: تعليم شؤون دائرة الربوبية وكمالاتها، ووظائف دائرة العبودية وأحوالها.[4]

---

[1] سعيد النورسي، اللمعات، ص285.
[2] المصدر نفسه، ص485-486.
[3] محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر، ص137.
[4] سعيد النورسي، الكلمات، ص292.

فمعرفة الله سبحانه وتعالى من خلال البُعد الكوني تشمل جانبين هما: معرفته من حيث هو "ربّ العالمين"، ومعرفته من حيث هو "خالق كلّ شيء، حتى يتحقّق التوحيد الحقيقي، من خلال مشاهدة تجلّيات أنوار أسمائه الحسنى على كلّ الكائنات والحركات. فكما أنّ طريق "التفكر" في الكتاب المنظور دالٌّ على الله تعالى ووحدانيته، كذلك القرآن الكريم دالٌّ على الله بطريق "التدبّر".[1]

ولهذا البرهان الناطق الذي يردّد "لا إله إلاّ الله" ستُّ جهاتٍ شفَّافة، فالإعجاز الظّاهر من أعلاه، والمنطق والدّليل من تحته، واستنطاق العقل في يمينه، واستشهاد الوجدان في يساره، أمّا هَدَفه وأمامه فتجد الخير وسعادة الدَّارَيْن، والوحي المحض هو نقطة استناده. فأيُّ وَهْمٍ يجرؤ بَعْدُ على اقتحام هذا الحصن الحصين؟[2]

إنّ مشاهدة جميع جوانب هذا البرهان العظيم يحقّق العلم اليقيني أنّ "التوحيد" هو حَجَرُ الزاوية لكلّ شيء في الوجود، وعليه تُبْنى جميع الأمور.

فالتوحيد بذرة أصيلة وقوية وحيّة وحقّة لهذا البرهان العظيم الذي يشبه شجرة عظيمة، تتشعب منها أغصان وفروع، منها الوارفة إلى عالم الشهادة ومنها الممتدة إلى عالم الغيب، وتتدلّى منها ثمرات الحقيقة من كلّ جانب بوفرة وحيوية تعجز البذور الفاسدة أن تأتي بمثلها.

ويزيد الأستاذ سعيد النورسي هذا البرهان تفصيلا من حيث جهاته الست، فيقول: (إنّ الجهات الست للقرآن الكريم منورة مضيئة، ممّا يُبيّنُ صِدْقه وعدله. نعم، فمن تحته أعمدة الحُجج والبراهين، وعليه تتألق سكّة الإعجاز، وبين يديه (هَدَفه) هدايا سعادة الدّارين، ومِنْ خلفه (أي نقطة استناده) حقائق الوحي السماوي، وعن يمينه تصديق مالا يُحدُّ من أدلّة العقول المستقيمة، وعن يساره الاطمئنان الجادُّ والانجذاب الخالص والاستسلام للقلوب السليمة والضمائر الطاهرة.)[3]

كانت قاعدة انطلاق الأستاذ سعيد النورسي قرآنية خالصة، واختار مسلك القرآن الكريم في البرهنة على "التوحيد" فهو المنهج السليم والقويم، ومن خلاله يصل الإنسان إلى معرفة الله جلّ جلاله.

يقسّم الأستاذ سعيد النورسي أصول العروج إلى عرش الكمالات –وهو معرفة الله- سبحانه وتعالى إلى أربعة: أمّا الأوّل: فهو منهاج علماء الصّوفية ويقوم على التزكية والسلوك والإشراقي، وأمّا الثاني فهو طريق علماء الكلام المبني على الحدوث

---

[1] فريد الأنصاري، مرجع سابق، ص 273.

[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص421.

[3] سعيد النورسي، رسالة الآية الكبرى، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط7، دار سوزلر، القاهرة-مصر،2012، ص90.

والإمكان. أمّا المسلك الثالث فهو مسلك الفلاسفة الذي لا يخلو من الشبهات والأوهام. والمسلك الرابع وهو المختار فيسميه "المعراج القرآني" وهذا حسب الأستاذ النورسي –أقصر المسالك وأوضحها وأقربها وأشملها لبني الإنسان.[1]

إنّ هذا البرهان الساطع الناطق بشهادة التوحيد، يحتوي على براهين فرعية، تختلف في منهج الاستدلال، وتتفق في نتيجته، ويقسّمها الأستاذ على النحو الآتي:

(اِعْلَمْ أنَّ البرهان إمّا "لِمِيٌّ" وهو الاستدلال بالمُؤَثِّرِ على الأثر. وإمَّا "إنِيٌّ" وهو الاستدلال بالأَثَر على المُؤَثِّرِ وهذا أَسْلَمُ. وهو إمَّا "إمكانيٌّ" بالاستدلال بتساوي الطرفين على المُرَجِّح، وإمَّا "حُدُوثي" بالاستدلال بالتحوّل والتبدُّل على المُوجِد...وكلٌّ منهما إمّا باعتبار ذوات الأشياء، أو باعتبار صفاتها...وكلٌّ منها إمَّا بإعطاء الموجِد أو بإدامة البقاء...وكلٌّ منها إمّا "دليل اختراعيّ" أو "عِنايتيّ".)[2]

إنّ هذا التقسيم الذي قدَّمه الأستاذ قد لا يخرج في ظاهره عن تقسيمات المتكلمين عُمُومًا، لكنّه في تفصيل الأدلّة يُخْرِجُ المسائل في قوالب أخرى تجعل الفهم سهلا بل ممْتعا ومُقْنِعًا.

لقد اعتمد الأستاذ النورسي على إعجاز القرآن الكريم لأنه الأستاذ سعيد النورسي أن ينقل وسيلة فعالة يتم توظيفها في عملية التصدّي للصراع الخطير مع أعداء الدين سواء أكان ذلك في مسائل الاعتقاد، أو في غيرها من المسائل والجوانب، إذ يتبين من خلاله تفوّق أنظمة الإسلام على أنظمة ذلك العصر الذي حورب فيه الدين وقدِّم الإحاد كبديل له.

كما لم يغفل ولم ينس في صدد تقرير ما قرَّرهُ أُنْ يحارب الخرافة التي روجت ل "المصادفة" من دعاة الفكر المادي الملحِد وأتباعه، بل أرادوا أن يصيّروها حقيقة من الحقائق، ولكنها لم تستطع الصمود وأُعدمت، وحتى التجارب العلمية المخبرية أثبتت سفسطتها وخيالها.[3]

الفرع الأول: دليل الاختراع

وخلاصته كما يقول الأستاذ سعيد النورسي: (أنّ الله تعالى أعطى لكلّ فرد ولكل نوع، وجودًا خاصًّا، وهو مَنْشَأُ آثاره المخصوصة، ومنبع كمالاته اللائقة، إذْ لا نوع يتسلسل منَ الأزل، لأنّه من الممكنات، ولبطلان التسلسل)[4]

---

[1] سعيد النورسي، صيقل الإسلام، ص111-112.

[2] سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص144-145.

[3] الحسين آيت السعيد، بحث بعنوان: التجديد العقدي عند النورسي، أنظر: جهود سعيد النورسي في تجديد الفكر الإسلامي، ص108.

[4] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص422.

وبالرّجوع إلى القرآن الكريم نجده يرسّخ هذا الدليل في مجموع الآيات التي تتحدّث عن الخلق والإيجاد، كما يقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى وحده هو المؤثر، كما ينفي أيّ تأثير للأسباب بل هي مُجرّد ستائر أمام عزة القدرة الإلهية وعظمتها، حتى لا يرى العقل مباشرة يد القدرة بالأمور التي يظنّها خسيسة بنظرة الظاهر، ومرَدّ هذا أنّ لكلّ شيء جهتين، إحداهما جهة المُلك. الأخرى جهة الملكوت. فالأولى تُشبهُ وجه المرآة الملوَّن، ترِدُه الأضداد وتصبح قبيحة، شرّيرة...إلخ

فالأسباب في هذا الوجه تُظْهِرُ العظمة والعِزّة. أمّا في الجهة الأخرى وهي جهة المَلَكوت، فإنّها تشبه وجه المرآة الشفاف، وهي جميلة في كلّ شيء، ولا تملك الأسباب أي تأثير فيها، وهذا هو مقتضى الوحدانية، ومادام كلّ من الروح والحياة والنور والوجود صدرت عن القدرة الإلهية دون وساطة فالوجهان جميلان شفافان، من جهتي المُلك والملكوت.[1]

وخُلاصةُ قواعد الأفعال الاختيارية، ونظامُ الدولة الدساتير السياسية. فكما أنّ الشريعة والنّظام أمران معقولان اعتباريان، كذلك الطبيعة أمرٌ اعتباريٌ ملخّصُ عادةِ اللهِ الجارية في الخِلْقة. وأمَّا تَوَهُّمُ وجودها الخارجي فَكَتَوَهُّم الوحشي الذي يرى فِرْقَةَ العسكر يتحرّكون بانتظام، وُجودَ أمرٍ خارجيّ ربط بينهم. فمنْ كان وُجدانُه وحشيًا يتخيَّلُ الطبيعةَ بسبب الاستمرار موجودًا خارجيا مؤثِّرًا. الحاصل: أنّ الطبيعة صَنْعَةُ الله تعالى وشريعتُه الفطرية. وأمّا نوامِيسُها فَمَسائِلُها. وأمّا قِوَاها فأحكامُ تلك المسائل.)[2]

وبناءً على ما تقدّم يُمكننا القول إنَّ آيات الكتاب المقروء وآيات الكتاب المنظور تنطق أولاها بلسان المقال وتنطق أخْراها بلسان الحال. وكما اقتضت حكمة الخالق جلّ وعلا أن يبلغ الكتاب المقروء حدّ التمام فأحصى آياته وسُوَرِهِ عدَدًا، اقتضت كذلك أن يبقى الكتاب المنظور مفْتُوحًا للمشاهدة والاهتداء إلى الخالق العظيم، فآياتُه لا تُحصى ولا تُعَدّ، وكُلّها تَدُلُّ على أنَّهُ وَاحِدُ.[3]

(فبِسِرِّ الحدوث والإمكان يثبُتُ بالضرورة صُدُور تلك الأوَادِم والآباء للأنواع عن يَدِ القُدرة الإلهية بلا واسطة. ولا يُتَوَهَّمُ فيها ما يُتَوَهَّمُ في السلسلة. وتوهّم انشقاق الأنواع بعضها عن بعض باطل؛ لأنّ النوع المتوسط لا يتسلسل بالتناسل في الأكثر،

---

[1] المصدر نفسه، ص423.

[2] سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص148.

[3] سامي عفيفي حجازي وأحمد عبد الرحيم السايح، قضايا معاصرة في فكر الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة- مصر،2005، ص85.

فلا يكون رأسَ سلسلة. فإذا كان المبدأ والأصل هكذا، فأجزاء السلسلة كذلك بالطريق الأولى.)[1]

الفرع الثاني: دليل العناية والغاية

إنّ نظرة عميقة دقيقة متأنّية صادقة لِذَرَّاتِ الكون وحَرَكَاته تُظْهِرُ عناية فائقة في كُلّ التفاصيل، وتَتَّضِح الغايات التي وُجِدَ لأجْلها كُلّ شيء في هذا الكون المنظور بكل ما يحويه من موجودات.

ويؤكد الأستاذ سعيد النورسي أن: (جميع الآيات الكريمة التي تُعَدُّ منافع الأشياء، وتذْكُرُ حِكَمَهَا، هي نسَّاجَةٌ لهذا الدّليل، ومظاهر لتجلّي هذا البرهان، إذْ النِّظام المرعي به المصالح والحِكَم كما يُثْبِتُ وجود نظام، كذلك يدلُّ على قَصْدِ الصّانع وحِكْمَتِهِ وينفي من البَيْن وَهْمَ التَّصَادف الأعمى والاتفاقية العمياء.)[2]

إنّ الإتقان الكامل في النظام الكوني مع رعاية المصالح والحِكَم المتدلية في أغصان الموجودات كالعناقيد تدُلُّ على قصد الخالق الحكيم وتنفي وَهْمَ المصادفة العمياء التي لا اختيارها لها، ويستحيل أن يكون إتقان دونما اختيار.

وهذه العناية الإلهية تشمل جميع المخلوقات، وقد خصّ الإنسان بعناية فائقة وسخّر له ما يحتاجه في حياته على هذه الأرض من كلّ النّواحي سواء الروحية بإرسال الرّسل وتنزيل الكتب حتّى يبيّن له الصّراط المستقيم ويحفظه من التيه والضلال، أو من الناحية الجسمانية واحتياجاته المعيشية، وبذلك فقد أسبغ الله تعالى نِعَمَهُ ظاهرة وباطنة على المخلوقات.

(ويُذَكِّرُنا القرآن بهذا الدليل في قوله تعالى:ُ□□□□□□□ً الملك: ٣ بل يُبَيّنُهُ على أفضل وأكمل وَجْه، إذْ كما يأمرنا بالتفكّر في المخلوقات فإنّهُ يُقَرِّرُ في الأذهان هذا الدّليل (دليل العناية) بِتِعْدَاد الفوائد والنِّعم، ومن بعد ذلك الإحالة إلى العقل في خواتيم الآيات وفواصلها. فيُنَبِّهُ العقل ويحرّك الوجدان في أمثال هذه الآيات "أفلا يعلمون"، "أفلا تعقلون"، "أفلا تتذكرون"، "فاعتبروا")[3]

إنّ القواعد المطّردة في الكون نشأت عنها علوم تخُصُّ كلّ أنواع الكائنات، بل ومازالت العقول تكشِفُ عن علوم أخرى، فتشَكَّلَ بتلاحق الأفكار البشرية هذه العلوم، وما دام الحُكْم لا يجري فيما لا نِظَام فيه فإنَّ كُلّيةَ القاعدة تصبح دليلاً على حُسْنِ النِّظام

[1] سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص146-147.
[2] المصدر نفسه، ص145.
[3] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص422.

في العالم بالاستقراء التام، إذْ بوساطة العلوم يمكن الكشف عن المصالح والفوائد والحكم المنتشرة وتشهد على قصد الصانع الحكيم.[1]

الفرع الثالث: دليل التمانع

(رَمَى بديع الزمان إلى التأسيس للمقصد الأوّل "التوحيد" بما وَرَدَ في كتاب الله وِفْقَ استعمالات بعض المهتمّين بالنّظر في مباحث العقائد الإسلامية، فتراه تارةً مُسْتَصْحِبًا لِمَا يُشْبِه دليل" التمانع" عند المتكلّمين، وقد عرض الدليل وِفْقَ ما يوافق عقلية ومعارف أهل عَصْرِه.)[2]

يرى الأستاذ سعيد النورسي أنّ آية "□□□□□□□□□□" الأنبياء: ٢٢ تتضمّن دليلاً كافيا على أنّ الاستقلال خاصّيةٌ ذاتية ولازم ضروري للألوهية، وتحمل كذلك دليلا لطيفًا على التوحيد إذ يظهر التعاون بين السماء والأرض وتتعانق آثار العالم وأطرافه وتأخذ بيد بعض وتُكَمِّلُ بعضها البعض وتتجاوب فيما بينها وتُلبي سؤالات بعض، كما تتحرّك بانتظام على نظام واحد، وهي بكلّ ذلك تُلوِّحُ وتُصَرِّحُ بأنّ الصّانع واحد.

وكعادة الأستاذ في ضرب المثال لتقريب الصورة إلى الأذهان وتحقيق المعنى المراد، فإنّه يصف حال الاشتراك في أمور الحكم والتسيير الدنيوية ليظهر عدم صلاحها، فما بالك بالشرك وما ينتج عنه من مفاسد، فيقول:

(إذا ما حلّ مُختَارَان في قرية، وَوَاليَان في ولاية وسلطانان في بلد، فالانتظام يختل حتمًا والانسجام يفسد نهائيا. والحال أنّ الانتظام الدقيق واضحٌ بدْءًا من جناح البعوضة إلى قناديل السماء فليس للشرك موضع ولو بمقدار جناح بعوضة.)[3]

المطلب الرابع: دلالة الإنسان على الوحدانية

إنّ هذا الكون الذي أبدعه الصانع الحكيم هو مستقرُّ الإنسان في حياته الدّنيا، وفيه كان نزول الوحي والرسالات السّماوية، وكلّهم أدلّة وبراهين ساطعة على الوحدانية كما أسلفنا، وكذلك حال الإنسان أيضا، فهو المخلوق المكرّم من ربّ العالمين الذي سوّاه في أحسن تقويم، فكان برهانا ساطعا على التوحيد من عدّة وجوه، ومنها:

الفرع الأول: الوجدان الحيّ

يهتم الأستاذ سعيد النّورسي بالجانب الوجداني في التركيب الإنساني وهذا بناءً على الخلفية القرآنية الخالصة التي تُعنى بثنائية التكوين البشري بجانبيْه الوجداني والجسماني؛ إذ يعتبر الأستاذ سعيد النورسي أنّ وجدان الإنسان يشدُّه ويجذبه نحو طريق التوحيد لأنّه يمثل صوت الفطرة في أعماق النفس البشريّة، فيُذكِّره دائما بخالق

[1] سعيد النورسي، صيقل الإسلام، ص112.
[2] عمار جيدل، مرجع سابق، ص108.
[3] سعيد النورسي، الكلمات، ص 449.

الكون، فينصت إليه ويستغرق في الخشوع والتفكر، ويُسمع ذاك الصدى في أعماق كل ذوي الشعور، لاسيما في الأوقات التي يكتنفها الصفاء والتأمّل والتفكُّر. وقد التفت الأستاذ النورسي إلى هذه الحقيقة واعتبرها دليلا على وجود الله سبحانه وتعالى يسعف النفس الإنسانية في أي حين.

إنّ الإحاطة بهذا البرهان تحتاج إلى إمعان النّظر في الجانب الفطري الصادق في كلّ بني آدم، فهم يسمعون هذا الصّوت الذي يخاطبهم ليلتفتوا إلى معرفة خالقهم، ولكن الاستجابة البشرية متفاوتة، فالبعض يولي هذا النداءَ اهتماما ويقتفي أثره ويُقبلُ عليه فيوصله إلى معرفة خالقه، والبعض الآخر تغلبه الغفلة فيهمل هذا النّداء ولا يُبدي استجابة فيبقى حائرًا تائهًا أو ربّما يستفيق من غفلته ولو بعد حين لأنّ هذا الصّوت يُباغِتُ الإنسان في لحظات الصّفو والخلوة مع النّفس والتّفكّر فيبلغُ صَدَاه أعمق أعماق الإنسان، الذي لا تقتصر حَوَاسُه على ما هو متعارف عليه من الحواس الظاهرة والباطنة، لأنّ الحسّ الوجداني أيضا له بالغ الأثر على الإنسان ,حتّى إذا أَغْفَلَ العقل عمَلَهُ فإنَّ الوجدان الحي لا يغْفَلُ عن خالقه، إلاّ أنّ الهوى قد يخدع الوجدان ويُخدِّرُ الشّعور فيه حتّى لا يشعر بألم الحرقة واليأس إذا سار في طريق الظلال.

(أمْعِنْ في الوجدان لترى كيف أنّه برهان مُودَعٌ في نفس كُلِّ إنسان يثبتُ التوحيد، ولتشاهد أيضا أن قلبَ الإنسان مثلما ينشر الحياة في أرجاء الجسد، فالعقدة الحياتية فيه هي معرفة الله، تنشر الحياة إلى آمال الإنسان وميوله المتشعّبة في مواهبه واستعداداته غير المحدودة، كلٌّ بما يُلائِمُه فتقطّر فيها اللّذة والنشوة وتزيدها قيمة وأهمية.)[1]

إنّ هذا الجانب الوجداني صوت حقّ لا يكذب لأنّه صوت الفطرة التي لا تحيد عن الميل إلى كلّ ما هو حقيقي، وهذه الميول بذاتها هي تجلّيات لما استقرّ في فطرتنا من الأوامر التكوينية الصادرة من الإرادة الإلهية.

ويقول الأستاذ النورسي: (فالخالق الكريم ينشر نور معرفته ويبثُّها في وجدان كلّ إنسان من هاتين النافذتين –نقطة الاستمْداد ونقطة الاستناد –فمهما أطبق العقل جفنه ومهما أغمض عينه. فعيون التوحيد مفتحة دائما.)[2]

إنّ أرواحنا تضطرب من الشعور بالغربة والحيرة وعقولنا تستنكر محالات متسلسلة في تفويض الأكوان إلى أسبابها وأنفسها ولا نجد خلاصا لهذه الاضطرابات التي ترهق العقول والأرواح فتبحث عن الشفاء من كلّ ذلك بسماعها لصوت النّداء الذي يريح العقول ويُطَمْئِنُ القلوب ويُرْجِعُ الأمور إلى خالقها ومدبّرها. (إنّ في

[1] محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر، ص126.
[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص 425.

الوجدان سعادة عاجلة مندرجة فيه، إنها فردوس معنويٌّ مندمج في سويداء القلب. والتفكّر يقطّرها ويُذيقها الإنسان. أمّا الشعور فهو الذي يُظهِرُهَا.)[1]

ومن يطالع رسائل النور عموما و تاب الكلمات خصوصا يلاحظ أن النّورسي في يعتني عناية فائقة بإظهار مميزات الكائن البشري المتفرّد، وهي تشمل مستويات ثلاث: جماليات الصنعة ودلالاتها، الجماليات الحسية، وجماليات الرّوح والوجدان.[2] فهو لم يهمل أي جانب ولم يرجح أيا منهم على الآخر، بل هي متكاملة متناغمة تسير في اتجاه واحد للدلالة على وجود الخالق ووحدانيته.

هذا، وبعد فراغنا من الجانب الوجداني، ننتقل إلى جوانب أخرى في التكوين الإنساني.

الفرع الثاني: الجانب الجسماني

إنّ التركيب الجسماني بكل عضوٍ من أعضائه معجزة ربانية ناطقة بالتوحيد في تكوينها وعملها وانتظامها وتعاونها مع باقي الأعضاء وأهميتها القصوى مع استحالة حدوث كلّ ذلك بالصدفة العمياء، ومادام بعض هذه الأعضاء ظاهر وبعضها باطن قد يتعذّر على أكثر النّاس الاطلاع على تفاصيله، فإن الأستاذ النورسي قد لفت أنظارنا إلى أوّل وأظهر وأبسط ما يمكن أن نراه في الإنسان ليكون دليلا قاطعا على وحدانية الخالق الذي أبدعه ألا وهو: وجهُ الإنسان، وفي ذلك يقول الأستاذ النورسي: (نعم، إنَّ الذي وضع في وجه الإنسان ذلك الطابع المميّز وتلك الآية الجليلة بتلك العلامات الفارقة، لابدّ أنّ أفراد البشر كافّة هم تحت نظره وشهوده، وضمن دائرة عِلمه حتى يضع ذلك الخَتم للتوحيد في ذلك الوجه. بحيث إنّه مع التشابه الظاهر بين الأعضاء الأساس –كالعيون والأنوف وغيرها من الأعضاء –لا تتشابه تشابها تامًّا؛ بسبب علامات فارقة في كُلٍّ منها.)[3]

إنّ الوجوه التي أَلِفْنا رُؤْيتها دون الانتباه إلى أهمّيتها في إثبات وحدانية خالقها هي أظهر الأدلّة وأبسطها، لأنّ ختم التوحيد واضح جليٌّ لِكُلِّ من يتأمَّل تفاصيلها الدقيقة والفارقةّ؛ إذ نجد التكوين نفسه والأعضاء نفسها والترتيب نفسه وكُلُّ ذلك في وجه صغير لا يتطابق مع أيّ وجه آخر فيميّزه عن كلّ الوجوه السابقة واللاّحقة، فهو مطبوع بطابع مميّز ليكون آية للتوحيد؛ لأنّ من صَوّره على هذه الصّورة هو الذي صوَّر كلّ الوجوه الأخرى فلا يمكن أن يخطئ أوْ يحدث تطابق بين الوجوه، وما هو موجود من

---

[1] سعيد النورسي، اللّوامع، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط1، دار سوزلر، القاهرة-مصر، 2013، ص122.

[2] عماد الدين خليل، قراءة في كتابات النورسي: رؤية جمالية "الكلمات"، ط1، دار سوزلر، القاهرة-مصر، 2011، ص99.

[3] سعيد النورسي، اللّمعات، ص486.

حالات التشابه –رغم قلّتها- دليل آخر على التوحيد، فالخالق الحكيم يتصرّف في خَلْقه كيف يشاء إذ يستطيع أن يُظْهِر لَنَا استحالة التطابق الكلّي حتّى إذا كان التشابه كبيرا.

ليس هذا فقط، فمن الأهمية أيضا أن ننتبه إلى جانب آخر من فوائد وجود العلامات الفارقة بين بني آدم منذ الأزل وإلى الأبد؛ لأنها تمنع حدوث الالتباس وتُسَهّل التمييز بين الأفراد، فتُحفظ بذلك الحقوق وتُقَام الأحكام ولا يحدث خلط بين إنسان وآخر لأنّ ذلك قد يُؤدي إلى أضرار ومفاسد، فلا يحلُ إنسان محل آخر، ولا يأخذ إنسان حق إنسان آخر، ليتأكّد من خلال هذا الدليل الواضح أنّ الله الخالق الواحد هو الذي خلق جميع البشر، لأنّ مَنْ لا يقدرُ على خلقهم جميعا لا يمكنه أن يضع تلك السمات الفارقة التي تميّزُهم عن بعض وتحفظ حقوقهم ومصالحهم وتميّزهم أيضا عن باقي المخلوقات التي تتشابه وتتطابق في أغلب الأحيان، فالخالق سبحانه جعل الشَّبه دليلا على وحدانيته كما جعل الاختلاف دليل على وحدانيته أيضا. ولذلك فإنّ الأستاذ النورسي يخاطب الإنسان الذي يغفل عن نفسه قائلا: (اِعلمْ أنّ وجهكَ يتضمّن من العلامات الفارقة عدد أفراد الإنسان الماضية والآتية، بل لو وُجِدَ غيرُ المتناهي من الأفراد لتصادف كُلُّ واحدٍ في وجهك ما يميّزك عنه- مع التوافق في أركان أجزاء الوجه- كأنّ الوحدة تجَلَّتْ في وجهك في كثرة غير متناهية. فالتوافق في أساسات أعضاء أفراد الإنسان يدل بالبداهة أن الصانع واحد أحد. والتخالف في التعيُّنات المنتظمة يدل بالضرورة على أنّ الصانع مختار حكيم ويتعاظم هذا السرُّ بالنّظر إلى كُلّ فردٍ فردٍ..ومن أبْعد المحالات أن لا يكون هذا التمييز والتخالف المثمر والتفريق المفيد بقصدِ قاصدٍ واختيار مختار وإرادة مريدٍ وعلم عليمٍ.)[1]

ومع كُلّ هذا الفوارق البسيطة التي تبرهن على وحدانية الخالق الحكيم، وبتشابه أجزاء الوجه الصغير ومحدوديتها يتلألأ على وجوه كلّ البشر اللُّطف والحسن والعناية التامّة التي أظهرها عليه الصانع الحكيم، لِتَدُلّ هي أيضا على من أبدعها وأحْسَنَها إذْ يمْتنِع ظهور الإحسان دون وجود مُحْسِن، ولا إبداع دون مُبدِع، فالصفة تمتنع من دون موصوف.

في وجْه الإنسان يتجلّى الإحسانُ، بل إنّه أيضا فهرس العلامات الفارقة التي تميّزُ الإنسان عن غيره من البشر، فالوجه لا يعكس إلاّ ماهية صاحبه وهذا من دلائل القدرة الإلهية، فخطوط الوجه وتفاصيله خريطة ربّانية تفرق كلَّ إنسان وتميّزه عن الآخرين رغم محدودية أعدادهم. وما جعل النورسي ينتبِهُ إلى هذا الجانب هو الوازع الفنّي لديه، فالرؤية النورسية هنا صادرة عن وازع تصويري لمْ يفُتْهُ أن يتأمّل في وجه

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص297-298.

الإنسان وأن يترسّم مظهرًا من مظاهر الاختلاف التي تدلُ على إبداع الخالق ووحدانيته، فرأى فيه برهانا باهرًا وظاهرًا على الوحدانية لأنّ الحس الفنّي عند النّورسي هو الذي يشُدُّه إلى مواطن التعبير سواء في صورة الإنسان أو في ملكوت الله، فالخالق الحكيم قد كتب غير المتناهي في صحيفة الوجه حتّى صار يُقرَأ بالبصر ولا يُحاطُ بالعقل.[1]

(نعم، يُقرأ بالنّظر واضحًا مفصَّلاً ولا يُرَى بالنَّظر إجمالُه، بل ولا بالعقل أيضا. فهو المعلوم المُبْصَرُ، المجهول المطلَقُ، والمشهود الغائب. فمحالٌ بمراتب أن يكون هذا التخالف المنتظم المفيد في نوع الإنسان، والتوافق المطرّد المتناظر في أنواع أمثال الحِنْطة والعنب، وكذا النحل والنمل والسمك بالتصادف الأعمى والاتفاقية العوراء..كلاّ ثمّ كلاّ، إنّه لَصَنْعَةُ سميع، بصير، عليم، حكيم.)[2]

فسبحان الذي تجلّت وحدانيته، وجعل مظاهر التوافق دالّة عليه إن شاء، ومظاهر التخالف مُؤدِّية إليه أيضا إن شاء، وفي كلّ تلك المظاهر تتجلّى أيضا حكمتُه وإبداعه وإتقانه وإحاطته بكلّ شيء، ففي كُلّ آياته أدلّة على أنه وَاحِدُ.

الفرع الثالث: انسجام الإنسان والكون في الدلالة على الوحدانية

لا يفرق الأستاذ النورسي بين الإنسان والكون، بل يؤكّد على العلاقة المباشرة بينهما

وأن الإنسان مثالٌ مصغّر للكون، وكلاهما يظهران إتقان الصنعة الإلهية لأنهما مكاتيب ربّانية كُتبتْ بقلم القدرة الصمدانية لتدل على الوحدانية.

يقول الأستاذ النورسي: (نعم، إنّ في الإنسان النموذج المصغّر للصّنعة المنتظمة المتقنة الموجودة في الكون، وإذ تشهدُ الصنعة التي في تلك الدائرة الكبرى على الصانع الواحد، تشيرُ الصّنعة الدقيقة المجهرية الموجودة في الإنسان إلى ذلك الصّانع أيضا وتدلّ على وحدته. وكما أنّ هذا الإنسان مكتوب ربّاني ذو مغزى عميق، وقصيدة منظومة للقدرة الإلهي، كذلك الكائنات قصيدة قدَرية منظومة دُبِجَتْ بذلك القلم نفسه، وبمقياس مكبّر.)[3]

فالإنسان والكون عالَمَان، أحدُهما هو العالم الأكبرُ والآخرُ هو العالم الأصغر، وفي كليهما تظهر براهين التوحيد من الذرّات إلى المجرّات، فكُلُّ آيات الله التي سطرها

---

[1] سليمان عشراتي، بحث بعنوان: الإحساسية في فن بديع الزمان النورسي، سعيد النورسي، أنظر: عملاق الفكر الديني في العصر الحديث، جمع وتحقيق، إحسان قاسم الصالحي وآخرين ط1، دار النيل، القاهرة-مصر، 2011، ص114-116.

[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النورسي، ص298.

[3] سعيد النورسي، المكتوبات، ص283.

في الآفاق والأنفس تدلُّ على خالقها الواحد وتنفي وتبطل كُلّ قولٍ بتدخُّل أي فاعل آخر في الخلق، لأنّ كلّ ذوي الحياة عليهم أختام توحيد كثيرة.

فالإنسان في الرؤية النورسية: (قطرة محلوبة من الكون كلّه، مستخلصة بموازين علمية حسّاسة، لذا يلزم لِخلق هذا الكائن الحي، وتربيته ورعايته أن يكون الكون قاطبة في قبضة الخالق وتحت تصرّفه)[1]

لقد كان الأستاذ النورسي شغوفا بالمعرفة والوصول إلى الحقيقة، وكان يفتح بصيرته لكلّ شيء يراه أو يسمع به أو حتى يخطر ببَالِه، فيُطالِعُه ويوليه اهتمامه لأنه قد يكون مصدرًا للمعرفة أو مؤدّيًا إليها، ولقد صرّح الأستاذ رحمه الله أن له أساتذة كُثُر، ومن جملتهم:

أستاذه الأول وهو القرآن الكريم، والثاني أستاذ البشرية الأكبر وهو سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والثالث هو سيدنا علي - رضي الله عنه- وهو كما يصفه الأستاذ النورسي أعظم أستاذ لطلاّب النّور بعد الرسول الأعظم، والرابع هي الأمّ التي كان لها أثر كبير على ولدها فهي كما يقول الأستاذ النورسي أوّل معلّم للأبناء، والخامس هُمَا الشيخان عبد القادر الكيلاني –قدّسَ الله روحه- وأستاذه الهندي الإمام الربّاني الفاروقي السرهندي، وأمّا أستاذه السادس فهو جميع الموجودات من أصغر مخلوق إلى أعظمه. فهو يرى في المخلوقات والكائنات آيات تبيّن لنا عظمة الخالق ووحدانيته سواء في تكوينها أو وظائفها أو تعاونها أو نظامها، كأنّها تقول بلسان حالها: لا تنظروا إلى صِغر أجسامنا بل إلى عِظم وظائفنا.[2]

ولذلك فإن الأستاذ النورسي يدعونا دائما إلى الفكّر والنّظر في المخلوقات ونظامها وتكوينها وبالأخص الإنسان؛ لأنه حسْبَهُ: (بجامعيّته كأنّه مثال مصغّرٌ للكائنات، وثمرٌ مزهرٌ لشجرة العالم، ونواة منوّرةٌ لمجموع الكون، أدرجَ الفاطر فيه أنموذج أكثر أنواع العالم، فكأنّ الحيّ قطرة محلوبة من مجموع الكون بنِظامَات حكيمة معيّنة، وكأنّه نقطة جامعة مأخوذة من المجموع بموازين حساسة علمية، فلا يمكن أن يخلق أدنى ذي حياة إلاّ من يأخذُ في قبضة تصرّفه مجموع الكائنات.)[3]

وما دام الإنسان هو ثمرة شجرة الخلقة فإنّ جامعيته استعداداته تكون أكمل، ولذلك فهو مزوَّد بقابلية العبادة التي تبرهن أنّه لم يخلق سُدًى ولا لينصرف نحو الفاني ويخلد إليه، بل إنّ قابلية العبادة ترفَعُهُ وتصرفه نحو الباقي، وتخرجه من الظلمة إلى

[1] سعيد النورسي، الكلمات، ص327.

[2] عثمان محمد غريب: أواصر العناصر الكونية من منظور الأستاذ بديع الزمان النورسي، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، إسطنبول- تركيا، العدد 10، يوليو 2014، ص118-120.

[3] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص57.

النّور، ومن الخلق إلى الحق، وبذلك تكون فطرته وجامعيته استعداده شواهد على وجوب وجود الخالق الواحد الذي يتوجه إليه الإنسان بالعبادة لأنها حلقة اتصال بين المخلوق والخالق، فالله سبحانه خَلَق الخلق ليدلَّ عليه وليُعرَف، وخلق الإنس والجن ليُعْبَدَ فهذا الإنسان قد لا تَسَعُهُ الدنيا كلُّها أحيانا، فيملَّ ويصيبه الضَجَر، ويبحث عن متنفّسٍ لأنه يُحس نفسه مسجونًا، فإذا به تنقذُه صلاة أو دعاء أو ذكرٌ فيرتاح قلبه وتسكن مخاوفه، وتنقلب أحاسيسه إلى فرح وأمان وطمأنينة، لأنّ لطائفه المادية والمعنوية المودعة في ماهيته ترتاح بالتوجه إلى خالقها وعبادته.

(فلم يبقَ إلاّ أن تكون أنتَ وكلُّ شيء مصنوعَ الصانع الأزلي الذي شواهدُ خلاّقيته بِعدد الموجودات: منها الكائنات بجميع ذرّاتها ومركّباتها، كلٌّ يشهد عليه بخمس وخمسين لسانا كما في "قطرة"*. ومنها القرآن مع كلّ كتب الأنبياء والأولياء والموحّدين، مع الآيات التكوينية في الكون. ومنها ما في الجنّ والإنس من الفطرة بأنواع احتياجاتها. ومنها: شهادة الله أنه لا إله إلاّ هو".[1]

ففي مسلك الأستاذ سعيد النورسي كانت مخاطبة الوجدان تؤسس للتوحيد في القلوب الذي لا يغفل حتى إذا غفلت العقول فيبقى يذكّرها، وهكذا لا يبقى التوحيد عقليا محضًا وقلبيا صِرفا، بل يجمع بينهما. ولم يغفل عن توجيه نظر الإنسان إلى نفسه فكلّه آيات تنطق بالتوحيد في سيمياء وجهه وفي نظامه المتوافق مع النّظام الكوني حتى صَارَ هو النموذج المصغّر للصنعة المنتظمة الموجودة في الكون، ولم يفُتْهُ أيضا أن يوجّه الإنسان إلى النّظر والتفكر في المخلوقات والموجودات التي تشهد على وجود خالقها ووحدانيته، وخلص إلى أنّ من خلق كلّ ذوي الحياة هو الواحد الذي يأخذ في قبضته التصرف في مجموع الكائنات. فكل هذه الشواهد تتناغم فيما بينها وتتوافق وتتكامل لتدل على وحدانية خالقها."

المبحث الثالث: ثمرات التوحيد عند النورسي

إنّ الإيمان نورٌ وقوّة للإنسان، وإذا ظفر الإنسان بالإيمان الحقيقي وتشبّع به قطف ثمراته الدنيوية في حياته وتطلّع لثمراته الأخروية الباقية في دار السعادة الحقيقة. فالتوحيد يحقق للإنسان التسليم والتوكل ويهوّنُ عليه صعوبات الحياة وحقيقة الأسباب، فهي حُجُب بيد القدرة الإلهية ويجب فقط رعايتها ومداراتها، فلا يعطيها أكثر من حقِّها ولا يغلو فيها، بل يكون مَطْلَبُهُ من الله وسَعْيُهُ بتوفيق من الله.

---

[1] المصدر نفسه، ص255.

* المقصود : رسالة "قطرة من بحر التوحيد"، وهي موجودة ضمن "المثنوي العربي النوري".

ويؤكد النورسي أن رسوخ التوحيد الحقيقي في عقل وقلب الموحّد بعد خلوصه من الشبهات التي يثيرُها غيرُ الموحِّدين يكون بالإضافة إلى نتائجه وفوائده الأخروية المتمثلة في رضا الله تعالى على عبده الموحِّد وتنعيمه وتكريمه بالسعادة الأبدية في جنّة الخلد، نتائج وثمار دنيوية أيضا من شأنها إحاطة الموحِّد بالرّاحة النفسية والسكينة القلبية ممّا يجعله يحيا حياة طيّبة، ويمكن تصنيف ثمار التوحيد في الحياة الدنيا إلى ثلاثة أنماط كلية. أولاها ثمار تتجه نحو الله.[1]

المطلب الأول: معرفة الله ومحبته

إنّ ثمرة التوحيد الأولى تتجه إلى الله سبحانه وتعالى، وقد توصل إليها النورسي وساقه إلى حقيقتها –كما يقول - استشعار ذوقي خالص، فقد كان يتألم لحال ذوي الحياة، ولاسيما ذوي الشعور، وبالأخص الإنسان، وخاصّة المبتَلين بالمصائب والمظلومين، فقد كان –رحمه الله- يحمل شفقة مفرطة وعطفا متزايدا، فكانت أحوالهم توجعه وتُحزن قلبه، كان يتساءل في أعماقه عن فائدة القوانين التي تحكم العالم ولكنها لا تحمي هؤلاء الضعفاء المظلومين، ولا يتدخل أحدٌ لنُصْرتهم رأفة بحالهم. لكن روحه كانت حائرة وتبحث عن جواب، فأتاها جواب قلبه: أنّ المالك الحقيقي والمولى الكريم يرعى ويتولى المظلومين وينصرهم، ويمنحهم بسرّ التوحيد ما هو فوق تلك القوانين من إحسانات وإمدادات، فهو الذي يدبّر كلّ شيء وهو مالك كلّ شيء وهو السميع العليم بمصائب عباده وشكواهم، ويتولاّهم برحمته الواسعة.

فمنذ عرف النورسي هذا السرّ من القرآن ونور الإيمان ولّى عنه ذلك اليأس، وملأ السرور كيانه، فبسرّ انتساب العبد إلى المالك الجليل وعبوديته له، يكتسب الدرجات العليا من القدْرِ والأهمية، فتتولد في نفسه العزّة والفخر اللّذان يفوقان فخر الظلمة والمعتدين، فالّذي بسط ذلك الانتساب هو نور الإيمان، وهو أيضا الذي سينصر المظلوم ولو بعد حين.[2]

إنّ ما نراه من حوادث مشابهة لما ذكره الأستاذ النورسي، وما نشهده من حالات الظلم والطغيان واستنزاف الضعيف وسلب حقوقه حتى تكاد أسباب الانتصار تنعدم أمامنا وتستحيل إمكانية أو احتمال استرجاع الكرامة والحق المسلوب، لكنها تتولد بقدرة الواحد الأحد من أسباب الهزيمة أسبابٌ للنّصر، ومن عوامل الضعف بواعث النهوض، فكلما زاد التواطؤ البشري في الظلم والطغيان، هيّأ الله من لدُنه أسباب الفرج

[1] سراج الدين نبيه، السلوك الروحي في مفهوم سعيد النورسي، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2015، ص55-56.

[2] سعيد النورسي، الشعاعات، ص12-13.

وأيّد المستضعفين بعجائب مدده وأسبغ عليهم رحمته وأيّدهم بجنود من عنده. فالقلب العامر بالتوحيد الخالص لا تُنهكُهُ قسوة الظَّلَمَة، بل تغمُرُه شفقة خَالِقِهِ.

(إنّنا إذا نظرنا إلى أمور جزئية بسرِّ التوحيد لأثْمرتْ تلك الأمور الجزئية نتائج كلية تثير في الوجدان الشعور التام بالراحة والاطمئنان، وتمحي من حياة الموحّد القلق والتوتر.)[1]

إنّ سرّ التوحيد يفتح لنا آفاقا للنّظر تظهر ألوف أنواع العناية والرحمة والشفقة والرعاية والجمال والكمال ... فمن ذا الذي يَمُدُّ ويرزق رضيعا صغيرا ضعيفا بلبن خالص، إذ يأتيه رزقه دون عناء، ولكن هذا الفعل الجزئي البسيط في ظاهره يطلعنا على تجليات رحمة الواحد الأحد بعباده وعنايته بهم وتسْخير أسباب الرزق ومن يشفق على المحتاج ويمُدُّه بما يحتاج. ومَنْ ذا الذي يشفي مريضا قد أنهكه المرض، ومَنْ ذا الذي يفرغ الصّبر على قلب من اكتوى وابتُلِيَ بفراق الأحبة...وقياسا على هذه الأمثلة تتحقق ألوف من مظاهر وأنواع الكمال الربّاني وتجليات الرحمة الإلهية الّتي تنقلنا من النّظر الجزئي إلى حالة من الوعي الكلي أنّ الله سبحانه الواحد الأحد عليم بحال عباده وسميع لدعائهم ومطّلع على حاجاتهم وسرّهم وعَلَنهم، وكُلّ هذه الحقائق تتضح وتُفهم إذا نُظِرَ إليها من زاوية التوحيد.

ومن الثمرات الدنيوية للنّظر الإيماني والتوحيدي –حسب النورسي - أنّ ذوي الحياة يتصرفون في حياتهم مثل أمير مُستَأجَر على سفينة مالكها الحقيقي هو السلطان الذي يتصرّف في مُلكه كيف يشاء، فيُنظَرُ إلى كلّ ذي حياة أنه يصارع الأسباب –ولو عَظُمَتْ- مُسْتَنِدًا إلى مالكه الحقيقي لأنّ زمام كلّ الأمور بيد القدير وحدَهُ. أمّا عند المصائب فإنه يردد "إنّا لله وإنّا إليه راجعون"، فهو وكلّ ماله وكلّ ما في يده لله وأمرهم راجع إليه، وكلّ شيء يحدث بإذنه وأمره. أمّا مَنْ نظر إلى هذه الحوادث بنظر يُوهم تملُّكه فإن كلّ الموازين تنقلب وتصير الشفقة نارًا محرقة لذوي القلوب، ويرى الكون كأنّه مأتم عموميا.[2]

وقد كان هذا مسلك النورسي نفسه في النّظر إلى الأمور وكان يذكّر نفسه ويخاطبها بهذا الشعر حتى تولي الأنظار شطرَ التوحيد وتدع عنها التشتّت والكثرة:

(اقصدْ الواحد، فسِواه ليس جديرًا بالقصد
ادعُ الواحدَ، فما عداه لا يستجيب دعاء.
اطلبْ الواحدَ، فغيرُه ليس أهلا للطلب.

[1] سراج الدين نبيه، مرجع السابق، ص56.
[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص141-142.

شاهد الواحدَ، فالآخرون لاَ يُشاهَدُون دائما، بل يغيبون وراء ستار الزوال.
اعرف الواحدَ، فما لا يوصَلُ إلى معرفته لا طائل من ورائه.
أذكر الوَاحدَ، فما لا يدل عليه من أقوال وأذكار هراء لا يغني المرءَ شيئًا هو المطلوب، هو المحبوب، هو المقصود، هو المعبود.)[1]

لقد حاول النورسي صياغة الوجدان البشري وتربيته وهي مهمّة صعبة يواجهها الدعاة والمفكّرون في كلّ الأزمان. وسعى باستمرار أن يسمو بوجدان طلبته ومن سيأتي بعدهم من قرّاء ومهتمّين برسائله، إلى آفاق الجمال والجلال وأن يملأ هذا الوجدان بصور باهرة تعكس تجليات عقيدة التوحيد في جوانب حياة الإنسان، وإحاطة العناية الإلهية به، حتى يستطيع أن يقهر خوفه ويتحلّى بالشجاعة ويعتزّ بشرفه وقيمته ويحفظ كرامته ومروءته لمواجهة عثرات الحياة.

وقد خاطب نفسه وطلبتَه وقرّاء رسائل النّور قائلا: (اعلم يقينا أنّ أسمى غاية للخلق، وأعظم نتيجة للفطرة الإنسانية هو "الإيمان بالله"...واعلم أنّ أعلى مرتبة للإنسانية وأفضل مقام للبشرية هو "معرفة الله" التي في ذلك الإيمان واعْلم أن أزهى سعادة للإنس والجنّ، وأحلى نعمة هو ّمحبّة الله" النابعة من تلك المعرفة...واعلمْ أنّ أصفى سرور لروح الإنسان، وأنقى بهجة لقلبه هو "اللّذة الروحية" المترشحة من تلك المحبّة.

أجلْ، إنّ جميع أنواع السعادة الحقّة، والسرور الخالص، والنعمة التي ما بعدها نعمة، واللذة التي لا تفوقها لذّة، إنّما هي في "معرفة الله".. في "محبّة الله". فلا سعادة، ولا مسرّة، ولا نعمة حقّا بدونها.)[2]

وهكذا فإنّ السعادة التي لا تنتهي والأنوار التي لا تخبو، والأسرار التي لا تنفد، والطمأنينة والسكينة اللتين لا يخالطهما قلق ولا خوف، إنّما تتحقق كلها بمعرفة الله الخالق الواحد الأحد حقّ المعرفة، وامتلاء القلب بمحبّته، حتّى ينجو الإنسان من صُور وأشكال الشقاء المادي والمعنوي، ويحفظ نفسه وقلبه وروحه من أنواع الآلام والأوهام التي تحاصره وتجعله يتلوى ويضطرب ويضعف ولا يقوى على تحمّل تفاهات الحياة المؤقتة ومِحَنِها العابرة.

المطلب الثاني: إظهار مزايا الكون كمالاته

[1] سعيد النورسي، الكلمات، ص237.
[2] سعيد النورسي، المكتوبات، ص271.

لقد كانت ثمرة التوحيد الأولى متوجهة إلى إظهار الجمال الإلهي والكمال الرّباني اللّذان يتجلّيان في تفاصيل دقيقة وجزئية، لكنّها –بسرّ التوحيد وعبارة "لا إله إلاّ الله" تنتشر السّكينة في حياة المؤمن الذي عرف خالقه، وتورّثه الطمأنينة التي تُهوّن عليه صور البلاء والعذاب أيضا.

أمّا الثمرة الثانية فإنّها تتوجه إلى الكون لِتُظْهرَ المقاصد الإلهية من خلال مزاياه وكمالاته.

(إذْ –بسِرّ التوحيد - نرى أن الكونَ برُمّته كتاب ينطوي على معاني غزيرة وعميقة، والموجودات بأَسْرها موضوعات هذا الكتاب، والمخلوقات بجميع طوائفها جنود ربّانية، وأنّ المصنوعات بجميع قبائلها ابتداء من الميكروب إلى الكواكب السيّارة موظّفات مأمورات بأمر السلطان الأزلي.)[1]

يرى الأستاذ سعيد النورسي أن هذه الثمرة التي تتوجه إلى الكون وماهيته، أنه –بسرّ التوحيد- تتحقق مزايا الكون وكمالاته، وتُدْرَك الوظائف الراقية للموجودات، نتيجة خلق المخلوقات، وتُعرف أهمية المصنوعات، وتظهر حكمة خلق ذوي الحياة وسرُّ وجود ذوي المشاعر، وتبدو الوجوه المليحة البشوشة للرحمة والحكمة وراء السيمياء الغاضبة الكالحة لهذه الحوادث القاهرة المدمِّرة ضمن التحولات المثيرة للدهشة، وتُعرفُ أن الموجودات التي تغيب وراء الزوال والفناء وترحل من هذا العالم عالِم الشهادة، تدعُ أنواعًا كثيرة من الوجود بدلاً عنها، أمثال نتائجها وهوياتها وماهيتها، وأرواحها وتسبيحاتها ثم ترحل من هذا العالم.

وبسرّ التوحيد يُفْهَمُ أن الكون برُمَّتِه كتاب صمداني ينطوي على معاني عميقة غزيرة، وأن الموجودات بأسْرها مجموعة مكاتيب سُبحانية في غاية الإعجاز، وأنّ المخلوقات بجميع طوائفها جنود ربّانية في غاية الانتظام والهيبة، وأنّ المصنوعات بجميع قبائلها –ابتداءً من الميكروب والنمل إلى الكركدن والنسر والكواكب السيارة – موظفات دؤوبات مأمورات جادّات تأتمر بأمر السلطان الأزلي.

وبسرّ التوحيد يكتسب كل شيء من حيث انتسابهُ وأداؤُه لوظيفة المرآة قيمةً أعظم من قيمته الذاتية بألوف المرّات، وينكشف السّر المغلق للأسئلة المحيّرة: مِنْ أين يأتي سيْلُ الموجودات وقافلة المخلوقات، وإلى أين المصير، ولِمَ جاءَ وماذا يعمل؟

(كل ذلك لا يتم إلاّ بسرّ التوحيد، إذ لولا التوحيد لانْكَسفَتْ جميع مزايا الكون كمالاته المذكورة آنفا، ولانقَلَبَتْ تلك الحقائق السامية الراقية إلى ضدّها.)[2]

---

[1] سراج الدين نبيه، مرجع سابق، ص56-57.

[2] سعيد النورسي، الشعاعات، ص13-14.

إنّ النّظر إلى الكون من زاوية نظر التوحيد وبسِرِّه يجعل الإنسان يعيش في سياحة فكرية وكونية ماتعة، فكلُّ مَنْ يلقاه في سياحته ويسأله سيُحدّثُه عن خالقه الذي لا يشغله شيء عن شيء؛ إذ يدبّر أمر السموات والأرض وأمر كلّ المخلوقات والكائنات من الذرّات إلى المجرّات، مع تمام الحُسن في الصّنعة والإتقان، وكلُّ تلك الموجودات خاضعة لتصرّف وتدبير الحكيم الخبير، وهو الذي يقلِّبُ صفحات هذا العالم، ثم نرى بعض الموجودات تزول وتتجدّد باستمرار لتدلَّ على أنّهَا تجلّيات لأسمائه الحسنى وآثارٌ لأفعاله ونقوش قلم قدَرِه في صفحات كتاب قُدرته.

فها هي الأشجار تسبّح بحمده وتدلّ عليه بأكمامها عند تفتّحها، وأزهارها عند انكشافها، وأوراقها عند تزايدها، وأثمارها عند تكاملها، واختلاف طعومها وروائحها وألوانها، حتى كأنّها قصائد منظومة تُنشد مادحة خالقها وشاهدة على إحسانه وإبداعه.

(إنّ هذا الوجودَ الذي تهواه معنًى، وتتعلّق به، وتتألم لشقائه واضطرابه، وتحسُّ بعجزك عن إصلاحه..هذا الوجود كلُّه مُلْكٌ لقادِرٍ رحيم. فسَلِّمْ المُلكَ لمولاه، وتخلَّ عنه فهو يتولاّه، واسْعَدْ بِمَسَرَّاته وهنائه، دون أنْ تُكَدِّرَك معاناتُه، ومُقاساته، فالمولى حكيم رحيم، يتصرّف في مُلكه كيف يشاء وفق حكمته ورحمته).[1]

يرى الأستاذ النورسي –ر حمه الله - كل الكائنات والموجودات سطورَ رسائل في كتاب الكون، تحدثنا عن خالقها، وأنّ العالَم يشبه حلقة ذكر وتهليل تردّدُ فيها الألسنة المتنوعة شهادة "لا إله إلاّ الله".

لقد طفحت روح النورسي بمشاعر وهّاجة ارتبط من خلالها بالكون، إذ رآه صعيدًا ربيعيًّا عامرًا بآثار الله النورانية، فأعطت للحياة معنًى، وأرشدت الإنسان إلى طريق السّعي انطلاقا من وصايا الشرع، لأنّه صار مدْركًا لصفته التكريمية وأنّه هو الخليفة في الأرض. ولهذا كانت نظرة النورسي الكونية بما فيها من جمالية ولَهَج بالتسبيح بتجلّيات الحُسْن الربّاني واعيةً ومؤسَّسَةً على إدراك عقلي وليست مجرد حالة إنشائية أو نظرة تولّه في حالة سُكْر أو شَطْح، بل عبّر عن فحوى نظرته إعرابا واعيًا متّزنًا يقظًا لمكونات هذا "العالم" الرّحب بما يزكّي وظيفة المخلوقات في هذه الحياة.[2]

إنّ دلالة الإبداع الإلهي مركوزة في كلّ شِبْر وفي كلّ جُرم وفي كلّ ذرة وفي كل قطرة وفي كلّ ثمرة وفي كلّ لمعة من أجزاء هذا الكون، حتى إنّها تتبدى للعيان بسرّ التوحيد، فيظهر هذا العالم العجيب كأنّه جنديٌ مأمور لا يملك قدرة الخروج عن

[1] سعيد النورسي، المكتوبات، ص274.

[2] سليمان عشراتي، النورسي في رحاب القرآن وجهاده المعنوي في ثنايا رحلة العمر، دار سوزلر للنشر، ط2، القاهرة-مصر، 2010، ص148.

أمر سلطانه وخالقه، فيتحقق الإنسان الذي عرف ربّه حق المعرفة أنّه والكون الفسيح خاضعان معًا للأوامر الإلهية.

(أمّا من نظر إلى الكون بمنظار الشرك، فإنّ هذه الجريمة تجعله يتعدّى على جميع كمالات الكائنات ويتجاوز على جميع حقوقها الرّفيعة ويتعرّض لجميع حقائقها السامية (...) نعم إنّ الشرك استهانة بَشِعة بالكون، وتعدٍّ عظيم عليه، وحطٌّ من قيمته وتهوين من شأنه؛ لإنكاره حكمة الخلق ورَدِّه وظائف المخلوقات، تلك الوظائف الجليلة).[1]

(فالشرك يجعل هذا المصنع العظيم –الذي يدُرُّ الكثير من النّفع –شيئا لا فائدة له ولا يُكْسَبُ منه شيء، معطَّلٌ عن كُلّ عمل، مختلطًا ومتشابكًا، تلعب به المصادفات العشوائية والطبيعة الصمّاء، ومأتمًا حزينا لذوي الشعور كافّة، ومذبحة ومسْلَخَة أليمة لذوي الحياة كافّة.

وهكذا كم يكون الشرك إذن مبعث جرائم كبرى وجنايات عظيمة! ألا يستحقُّ عذابًا أبديًا في جهنّم مع أنّه سيّئةٌ واحدة؟ وصدق الله العظيم:ﭐ ﭑ ﭒ لقمان: ١٣)[2]

إنّ هذا الكون الفسيح بما فيه من آيات ومخلوقات، ليس مطلوبا لذاته، بل هو مطلوب لما بعده ولما فوقه، وهو خالِقُه ومُدبِّره والمتصرف فيه. ولذلك فإن من ظنَّ أنه قد أحاط بهذا الكون علمًا دون أن تكون زاوية نظره هي التوحيد، بقي في الضلالة، أمّا من نظر إليه بسرّ التوحيد، واتّبع نداء الفطرة السليمة عرف خالقه واهتدى إليه، وصار هذا الكون مستقرَّه في الحياة الدنيا ومَسْرح تجلّي يد القدرة الإلهية التي تحشد ألوف البراهين الدّالة على خالقها.

أمّا من أصابه عمى البصر والبصيرة وخُتم على سمعه وقلبه، فإنّ طريق الشرك صعبة مهلكة، تلقي به في غياهب الصّراع والنّزاع مع هذا الكون فيكون همّه الوحيد هو السيطرة عليه وإخضاعه لحكمه وتصرفه حتّى يأمَنَ على نفْسِه، فيفوته سماع مئات الألوف من الألسنة وهي تسبّح خالقها، ويفوته التنعُّم بمئات الألوف من الخيرات المبسوطة في أرجاء الكون، بل قد يقوده جهله وشِرْكه إلى الركون إلى الأُلفة في النظر إلى الكون الفسيح فيقع في جهل مركّب بالخالق والمخلوق. ففي حين يوجّه المؤمن نظره –بسرّ التوحيد - إلى العاديات والمألوفات فتخترق ثقوب نجوم القرآن بأنوارها وأسرارها حُجُبَ الألفة، فتفتح آفاق التأمّل والتفكّر والتدبّر لقلب المؤمن وروحه

[1] سعيد النورسي، الشعاعات، ص14.
[2] سعيد النورسي، الشعاعات، ص14-15.

وبصره، وأمّا الكافر فيموت دون أن يلامس من حقائق الأمور والآيات الكونية إلاّ ما يطفو على السطح، بل وقد لا يدرك ذلك حتّى!!

فما أسهل طريق التوحيد وما ألذّ ثماره، وما أصعب طريق الشرك وما أسوء عقباه، حتى إنّ ذاك الغافل يُحْرَمُ حتَّى لذّة النظر في أظهر خلق الله وأوضحها، أما المؤمن الموحِّدُ العارف بربّه فلا يقول إلاّ:

(سبحانك! ما أحسن إحسانك، ما أَبْيَنَ تِبْيَانَك، ما أبْهَرَ برهانك وما أَظْهَرَهُ وما أنْوَرَهُ! سبحانك ما أعجبَ صَنْعَت !) [1]

إنّ كلمة التوحيد تشرق بالأمل وتزُفُّ البشرى إلى روح الإنسان وقلبه اللّذين أرهقتهما الضغوط، فَيَرَى أنّ الله الواحدَ لا نِدَّ لَهُ ولا ضِدّ، بخلاف سلاطين الأرض، الذين يتفرّدون في السلطنة لكنّ موظّفيهم يُعدن شركاء لهم في تسيير الأمور وتنفيذ الإجراءات، بل قد يكونون حائلا دون تطبيق القرارات أحيانا دون أن يطّلع السلطان على ذلك. لكن الحق سبحانه وتعالى واحد لا شريك له في حكمه وسلطانه لا يشركُ في حكمه أحدًا ولا حاجة له في إجراءات ربوبيته إلى شريك ولا إلى معين للتنفيذ، فلا وسيط بينه وبين عباده، وكُلّهم يعلمون أنّ الدعاء والسؤال والتوجه يكون إليه فقط لتفرُّده بالحكم والأمر. فتبعث هذه الحقيقة والثمرة الأمل والبشارة والبهجة في قلب من قال "لا إله إلا الله".[2]

إنّ الذي يفرّط في هذا الطريق، ويسلك طريق الشرك والكثرة، فإنه لا يلقى فيه إلاّ معاني الإهانة والتحقير له ولكلّ الكائنات، ويبلغ حدّ الاتّهام بالعبثية وانتفاء النفع والفائدة، فلا يرى مِنْ تجليات أسماء الله الحسنى على مرايا الموجودات شيئًا، ولا يُصدّق شهادات الموجودات الناطقة بوحدانية خالقها، فيحمل الأمور على غير محملها، ويرى الحقائق بغَيْر مِنْظارها، فيفوته خير الدنيا وخير الآخرة.

المطلب الثالث: إظهار مكانة الإنسان وقيمته

تتوجه ثمرة التوحيد الثالثة إلى "الإنسان" الذي يُنظَرُ إليه بمنظار التوحيد أنه مُخَاطَبُ ربّ العالمين، والمهيّأ ليكون خليفة في الأرض، وأسعَدَ ذوي الحياة. أمّا من منظار الشرك فإنّه يتردّى في الضلالة ليصير أدنى الموجودات وأشقى المخلوقات وأشدهم حُزنا وتلازمه الآلام وصور العذاب؛ لأنّ ماهيتهُ قد جُهِّزت بمشاعر كثيرة، فهو يستطيع أن يستشعر أنواعًا من العذاب والآلام، أو يتمتع بأنواع اللذائذ والنّعم في

[1] سعيد النورسي، اللمعات، ص418.

[2] سعيد النورسي، رسالة: أنوار الحقيقة، مباحث في التصوّف والسلوك، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، ط04، القاهرة-مصر، 2013، ص40-41.

الوقت نفسه. ولنضرب مثالا بـ "العقل" وهو أفضل أجهزة الإنسان، وبها ميزه الله عن باقي المخلوقات، فإن استعمله بسرّ التوحيد صار مفتاحا ثمينا للكنوز الإلهية وخزائن الكون، أمّا إذا وقع في دَرَن الكفر والضلالة انقلب آلة تعذيب ومصدر خوف وقلق وإزعاج لأنّه حينها سيفيض بالآلام التي جمعها من الماضي الحزين ومخاوف المستقبل الغامض والمجهول. فلا تعرف السعادة طريقا إليه، وتتحول أيضا مشاعره وعواطفه المعنوية من شفقة ومحبة وحنان والتي يغذيها سرّ التوحيد، وتحُلّ محَلَّها آلام الحُرقة والعذاب وآلام الفراق والخوف من المصير ممّا يزيد لوعة البلاء. [1]

(فبالإيمان تزيد قيمة الإنسان إلى أن تصير الجنة ثمَنَه، وتكون الخلافة رتبَتُه، ويطيق على حمل الأمانة. أمّا الكفر فهو قاطع النسبة، وقاطع الوصلة، فإذا انقطعت النسبة استَتَرَ الصُّنعُ، وانتكست الصّنعة، واختفى التّجلّي، وظهرت المادة، وانقلبتْ المرآة، وسقطت القيمة إلى دركة يتمنى معها الكافرُ العدمَ، أو ينقلبُ ترابًا.)[2]

فالمصنوعات قد تكون قيمة مادّتها قليلة، أمّا قيمة صَنْعَتها فغالية ومتزايدة خاصّة إذا عُرِفتْ قيمة صانعها ومدى إتقانه وإبداعه. وكذلك الإنسان، فإنّه مخلوق من "صلصال كالفخار" قابل للانكسار، وقيمته شيء قليل وبسيط. أمّا من ناحية الصّنعة فهو شيء عظيم ورفيع القدر والقيمة، إذْ صار قصيدة منقوشة زيّنتْ بلطائف آثار تجلّيات الأسماء الحسنى ومرآة عاكسة لشعاعاتها. فانظر إلى الفرق بين القيمة التي انطلق منها والقيمة التي انتهى إليه بسرِّ التوحيد الذي يقلب الفحم الفاني، ألماسًا باقيا. أمَّا من اختار طريق الشرك فإنه ينتكس لأنه قطع حبل نسبته إلى الصانع الحكيم.

(إنّ الأهداف والمهام الكبرى والغايات العظمى التي شرّف الإنسان وكُرّم بتحقيقها في فكر النورسي تتمثل في معرفة الله تعالى والإيمان به، وتحقيق العبودية له، والقيام بواجب الخلافة وعمارة الأرض. ولقد تأهل الإنسان في خلقه على تلك الطبيعة الشاملة إلى تحقيق ذلك كلّه، وتناسب تأهيله – كذلك - مع حجم المهام التي أكرمه الله تعالى بمعرفتها وإنجازها. ولذلك تأهّل دون غيره لتلقي خطاب ربّ العزة جلّ جلاله، واستحق أن يشرف بهذا الخطاب.)[3]

فالإنسان في فكر النورسي ومن منظور التوحيد الخالص قد حَظِي بالتكريم والتفضيل والتبجيل من ربّ العالمين. فإذا سلك طريق التوحيد السهلة وجد فيها خزائن الرحمة ونقطة الاستناد والاستمداد التي تنقذه من ظلام الأوهام وآلام العذاب وتحقق له الفرح والطمأنينة والسرور.

---

[1] سراج الدّين نبيه، مرجع سابق، ص56-57.
[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص435.
[3] زياد خليل الدغامين، مرجع سابق، ص112.

أمّا إذا أتعب نفسه بإتباع طريق الشرك والكثرة، وتذلَّلَ لهؤلاء الأغيار وأرهق نفسه بإرضائهم وخَافَهم وخالف فطرته ووجدانه، فلن يفوز أبدا بما يتمنّاه ولن ينجوَ من الهمّ والغمّ والحيرة والشك، ولن يعرف الفرج إليه سبيلا.

ويخاطب النورسي إخوانه في الإنسانية قائلا:

(فيا أخي إنّك تعلم أن الضلالة إن كانت ناجمة عن الجهل فإزالتها يسير وسهل. ولكن إن كانت ناشئة من العِلم فإزالتها عسير ومُعضل. وقد كان هذا القِسم الأخير نادرًا فيما مضى من الزمان، وربّما لا تجد من الألف إلاّ واحدًا يضِلُّ باسم العِلم، وإذا ما وُجِد ضالُّون من هذا النوع ربّما يسترشد منهم واحد من الألف. ذلك لأنّ أمثال هؤلاء يُعجَبُون بأنفسهم، فمع أنّهم يجهلون يعتقدون أنّهم يعلمون)[1]

إنّ الإنسان الذي يصل إلى التوحيد الخالص سيدرك أنّ الله هو الذي مَنَحَهُ كيانه وقَدَّرَ وجوده، وبدل أن يكون حَرْفًا خاويًا في كتاب الكون، تائها بين سطوره ومبعثرا بين كلماته، فإنّه بسرّ التوحيد وجد لنفسه مكانًا واستمدّت حروفه معانيها من أسماء الله الحسنى، ومسّهُ من مَدَدِها فهو لا يحتاج إلاّ أن يُسلم لله الواحد الذي يستجيب لكلّ احتياجات الإنسان، ويحفظه من التشتّت بين أرباب موهومين وعاجزين. بل يكفيه من الدلائل والشواهد على رحمته بنا – سبحانه وتعالى - ما خصّنا به من النّعم والرحمة والعناية، وهي تدلُّ كلّها على الخالق الكريم والودود، الذي يكفينا الوقوف عند بابه بعجزنا وضعفنا.

حتى إن العقل الذي يغترُّ ويحاول التطاول للإحاطة بالعالم وتجاوز حدود الإمكان، فإنّه بذلك ينغّص على الإنسان التنعُم بما خلق الله وما أبدع وما سخّر في هذا الكون؛ لأن المالك سبحانه هو الذي يتكفل ويتعهّدُ حفظ النِّعم ولوازمها، أما أنت أيها الإنسان فلا تكلف نفسك ما لا تطيق، بل لك أن تنعم وتتناول من سُفرة الإحسان وتشكر صاحب النّعمة على عطاياه.

(إذ الشكرُ رؤية الإنعام في النّعمة. ورؤية الإنعام تزيل ألم زوال النعمة؛ إذ تزول النعمة حينئذ فلا تعطي موضعها للندم حتى تُؤْلِمَ، بل تُخلي الموقعَ لمجيء المثل كالثمرة، فتعطيك لذّة التجدّد)[2]

فنور التوحيد ينعكس على كل جوانب حياة المؤمن ويستوعبها، فيريح العقل من التطاول وتجاوز حدوده، ويذيق الإنسان كل صنوف النّعم واللذائذ، ويدفع عنه صنوف الآلام والمخاوف، ويورثه السكينة والطمأنينة.

---

[1] سعيد النورسي، المكتوبات، ص28.

[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص229.

وإجمالا، فإن ثمرات التوحيد الدنيوية تفسح له المجال لرؤية الجمال الإلهي الذي يتجلى في كلّ الكائنات، وكذا الكمال الربّاني وذلك بالانتقال الاستنباطي بعطاياه من حالات جزئية مُشاهَدَة إلى عموميات مُدْرَكَة.

أمّا الكون فهو من هذا المنظور التوحيدي مخلوق مأمور وخاضع لخالقه، لا نراه عدوًا لنا فنسعى لإخضاعه، ولا مسيطرًا علينا فنذِل ونخضع له.

وأمّا لطائفنا ومشاعرنا، فإنّ رؤيتها تفتح لنا الكنوز الإلهية وتفتح لنا المجال لإدراك حقائق الوجود والموت والحشر والسعادة الأبدية.

إنّ تعلّق الإنسان بالباقي وتفضيله إيّاه على الفاني وما هو زائل يحقق له الأُنْس بالله الخالق وبكلّ المخلوقات في الدّنيا، وتهدأ نوازعه المادية المؤقتة الزائلة لتحلَّ محلها نوازع معنوية من ابتغاء مرضاة الله بدلا من حبّ الجاه، والإيمان بالقدر بدلا من الخوف والشك، واليقين بأن الله هو الرزاق بدلا من الطمع والحرص على ماديات الحياة وزخارفها، فيحيا حياة لائقة به، مُقْبِلا على الدنيا ليجعلها غراس الآخرة.

(فما ألطفَ الحجاب بين العلم والجهل وما أغْلَظَهُ! وما أَشَفَّ البرزخ بين الإيمان والكفر وما أَكْثَفَهُ! وما أقصرَ المسافة بين العبادة والمعصية مع أنّ ما بينها كما بين الجنة والنّار! وما أقصرَ الحياة وما أطولَ الأمل!)[1]

توجد الكثير من الدلائل التي تستلزم وتقتضي التوحيد، ولا تقبل الشرك والمشاركة، بل إنّها توجب الوحدة. وهي مذكورة ومفصّلة في رسائل النّور، وسنحاول في هذا المبحث أن نشير إلى بعض المقتضيات ولعلُّها الأهم والأبرز من منظور النّورسي.

المبحث الرابع: مقتضيات التوحيد

بعد بيان مفهوم التوحيد وأقسامه، وعرض البراهين التي تثبت وجود الخالق ووحدانيته كما فصلها الأستاذ النورسي على صفحات رسائله، تبين أن هذه العقيدة النقية من شوائب الشرك لها ثمرات دنيوية بجانب الثمرات الأُخروية إذ تستجيب لتطلعات الإنسان ورغبته في البقاء وتحصيل السعادة الدائمة بعدما يجني ثمارها في الدنيا فيحيا حياة تتناسب مع قيمته العالية وصنعته الغالية إذا نظر إلى نفسه والكون والموجودات من حوله بمنظار التوحيد. وبناء عليه أيضا تترتب مقتضيات نحاول تبيان أهمها، وهي:

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص324.

المطلب الأول: الحاكمية والآمرية

يرى الأستاذ سعيد النورسي – رحمة الله - أنّ الحاكمية والآمِرية تقتضي رفض المنافسة وردّ كلّ أنواع المشاركة وإقصاء كلّ ما يوحي بالمداخلة، مهما كان نوعها. فوجود أي منها يؤدّي حتما إلى اختلال النّظام واضطراب الأمن، وتعمُّ الفوضى، وتؤول الأمور إلى ما لا يُحمَدُ عقباه.

كما يؤكد أن الإنسان –رغم ما يحمله من عجز وضعف –يرفض مداخلة غيره ومشاركته له، فهو يحمل ظلاًّ ضعيفًا من الآمرية والحاكمية تجعله يرفض ذلك. فكيف إذن بالآمرية المطلقة وحاكمية ربّ العالمين؟ ولذلك فإنه يقول:

(هذه المصنوعات إنّما تخلقُ وتوجد بالصفات المطلقة لحاكم حكيم، كبير كامل، وبأسمائه المطلقة وبعلمه غير المحدود وبقدرته غير المتناهية. يشهد على هذا كلّه ما هو ماثلٌ أمامنا من الأفعال الحكيمة والتصاريف البصيرة للأمور الجارية في الكون. نعم يُفْهَمُ ويُعْلَمُ قطعا بحدسٍ قطعيّ من هذه الآثار بل يُشَاهَدُ، أنّ ذلك الصّانع له "حاكمية وآمرية" بدرجة الربوبية العامّة، وله كبرياء وعظمة بدرجة الجبروتية المطلقة، وله كمال واستغناء عن غيره بدرجة الألوهية المطلقة، وله فعالية وسلطنة لا تتناهى ولا يحدُّها حدٌّ ولا يقيّدها قيدٌ. فالحاكمية والكبرياء والكمال والاستغناء عن الغير والإطلاق والإحاطة وعدم التناهي وعدم الحدّ، كلها تستلزم الوحدانية وتضادّ الشرك.)[1]

إنّ هذا الكون الفسيح – حسب النورسي -ليس فيه مكان للشِرك؛ لأنّ الصانع الحكيم قد أبدعه بقدرته وحكمته، وما يظهر في هذا الكون من النّظام لن يسمح بالشرك أبدًا، فلو حدث وتدخّلت أيدٍ كثيرة في خلق أدنى شيء لظهر حتمًا الاختلال فيه ولذلك فإن "الاستقلال" و "الانفراد"، هما الخاصية الأساسية للحاكمية، وكما أن الحاكمية تقتضي "الانفراد" فإن "الانتظام" يقتضي "الوحدة". ولو افتُرِضَ احتمال التدخل ولو بمقدار درّة، فالنتيجة قطعا هي اختلال النّظام والتناسق لأنّ هذا الإبداع الذي يظهر في الكون بلغ حدًّا من الرّوعة حتى يلزم لخلق بذرة واحدة قدرة قادرة على خلق شجرة كاملة، ويلزم لخلق شجرة واحدة قدرة قادرة على خلق الكون كلُّه. وبذلك لا يُقبَلُ وجود شريك في الكون كلُّه، لأنه يستحيل أن يظهر أي أثر له في خلق أبسط مخلوق ولو كانت ذرّة أو بذرة، وهكذا تسقط فرضية وجود شريك في هذا الكون لأنّه استحال ظهور نصيبه في التدخل لخلق أبسط وأصغر مخلوق.[2]

---

[1] سعيد النورسي، الشعاعات، ص22.

[2] سعيد النورسي، اللمعات، ص476-477 .

فهذا النّظام البديع السائد في الكون والانسجام التام بين أجزائه، وفي كل تفاصيله يتعارض تماما مع احتمال وجود شريك في هذا الإبداع والانسجام الذي بلغ غاية الكمال والإتقان، ولو كان هناك أثر واحدٌ لوجود شريك ولو بمقدار ذرّة، فإنّ آثار الفساد ستظهر للعيان.

(إنّه مهما كان الإنسان جادًّا في تحرّيه القصور، فسيرجع خائبا، ممّا يدلُ على أنّ النّظام والانتظام هما في غاية الكمال، أي إنّ انتظام الكائنات شاهد قاطع على الوحدانية.)[1]

إنّ دعوة القرآن إلى إعمال الفكر والنّظر في هذا الكون الواسع تفتح أمام أعيننا وأبصارنا نوافذ واسعة نطلّ من خلالها عليه ليظهر لنا أنّه (بمثابة مملكة مهيبة في غاية الفعالية والعظمة، وتظهر كأنّها مدينة عظيمة تتم إدارتها إدارة حكيمة، وذات سلطنة وحاكمية في منتهى القوة والهيبة. ويجدُ أنّ كلّ شيء وكلَّ نوع متملَّك ومُسخَّر لوظيفة معينة. فما دامت الحاكمية الواحدة المطلقة حقيقة كائنة، وهي موجودة، فلابدّ أنّ الشرك لا حقيقة له)[2]

فكُلُّ المخلوقات والموجودات سواءً من حيث خلقتها أو جمال صنعتها أو نظامها المتقن وتناسقها البديع، وكذا الدقة في أداء وظائفها، وتقديم منافعها وفوائدها التي لا تُعدُّ ولا تُحَدُّ، فإنّها من خلال كلّ ذلك وأكثر تشير إلى خالقها ومُبدِعِها الواحد الأحد، لأنها بذلك تشهد بعجيب صنعته وتمام خِلقته.

ويشبّه الأستاذ النورسي – رحمه الله - هذه المخلوقات من أنواع النباتات وطوائف الحيوانات –التي يفوق عددها أربعمائة ألف نوع - بالجيش العظيم الهائل. فكل نوع من هذه الأنواع الكثيرة له ما يميّزه عن غيره من حيث الرزق والصورة والأسلحة المتنوعة والملابس المتميزة والتدريب الخاص والتسريح المتفاوت من الخدمة، وكلُّ ذلك يجري بنظام متقن وتقدير دقيق. وهكذا تكون إدارة هذا الجيش العظيم وتربية أفراده دون سهو أو نسيان أو خطأ آية ساطعة كالشمس لله الواحد الأحد.[3]

ومن مقتضيات الآمرية والحاكمية أيضا يتجلّى الكمال ليشير بوضوح إلى سرّ الوحدانية، فكلّ الكمالات التي نراها تظهر الإتقان الذي يستوعب ويكسو كلّ ما في هذا الكون وهذه الحياة، وكلّ ما يظهر من جمال خارق وغايات حكيمة وقوانين عادلة

---

[1] سعيد النورسي، الكلمات، ص806.

[2] محمد أمين الاسماعيلي، بحث بعنوان: النورسية هوية الأمة التركية الإسلامية، أنظر: جهود سعيد النورسي في تجديد الفكر الإسلامي، ص103.

[3] سعيد النورسي، الكلمات، ص758.

و... يدلّ بداهة على كمال الخالق الوَاحد الأحد الذي أبدع في إيجاد هذا الكون وتدبير أموره وأبدع في خلق الإنسان ليكون مرآة عاكسة لتجليات ذلك الجمال والكمال.

وكما أن الصانع سبحانه واحد الوجود، فهو أيضا متّصف بكل أوصاف الكمال، لأنّ فيض الكمال الذي يظهر في المصنوعات مقْتَبس من ظلّ تجلّي كمال صانعه، وهو سبحانه متّصف بالضرورة بدرجات غير متناهية من الجمال والكمال والحُسْن من عموم ما هو موجود في مخلوقاته. فما يظهرُ عليها من الحُسن والكمال فرع من المحسِن ودليل عليه. أمّا النواقص، فهو سبحانه منزّهٌ عنها كلّها، فهي تنشأ عن عدم استعداد ماهيات الماديات، وهو جلّ شأنه مُجَرَّدٌ من الماديات، ومُقَدَّسٌ عن لوازم وأوصاف نشأت مِنْ إمكان ماهيات الكائنات.[1]

إنّ من مقتضيات "الحاكمية والآمرية" أيضا أنّ عظمة الألوهية وعزّتَها واستقلالها تستلزم إحاطتها بكلّ شيء ودخول كلّ شيء تحت تَصرّفها، فالنورسي يقول: (فخِسَّتُكَ وحقارةُ أحوالكَ لا تستلزم خروجك –أي عن تصرفها-. إذْ بُعْدُكَ لا يستلزم بُعْدَهُ، وحقَارَةُ صِفَتِكَ لا تستلزم حقَارةَ وجودكَ. وتَلَوُّثُ وجه المُلْكِ فيك، لا يستلزم تلوُّثَ ملكوتِكَ.. و كذا لا تستلزم عظمةُ الخالق خروجَ الحقيرِ عن تصرُّفِهِ، إذْ العظمةُ تستلزمُ الإحاطةَ، والانفراد في الإيجاد)[2]

المطلب الثاني: السهولة واكتساب القيمة

يرى الأستاذ سعيد النورسي أن طريق التوحيد وإسناد الأشياء إلى الواحِدِ فيه سهولة لا نهاية لها، أمّا طريق الشرك والكفر وإسناد المصنوعات إلى الكثرة ففيه صعوبة لا نهاية لها. وفي الطريق الأولى تكسب الأشياء قيمة غالية بلا نهاية، أمّا في الثانية فإنها تخسر قيمتها وتُذَلّ.

ولتوضيح وجه الفرق بينهما يقول: (ألاَ ترى كيف يتعاظم ما في يدي ممَّا يُنْسَبُ إلى السلطان ويعزُّ منه ما هو في أمر السلطان، ويغلو كلامُه الذي هو بحساب السلطان قيمة وأهمية، ويتيسَّرُ بِكمال السهولة "تَدَارُك كُلّ لوازمات الحياة" من خزائن الملك وما كيناته. وكيف يتساقط ما ذُكِرَ هباءً منثورًا إذا انقطع الربط بعصيان الجندي؟)[3]

ويعتبر الأستاذ النورسي أنّ كُلّ الموازنات والمقايسات التي عُقِدَتْ في ثنايا رسائل النّور، بين طريق التوحيد والإيمان وطريق الشرك والكفر، تثبِتُ إثباتا قاطعا أنّ طريق التوحيد هو الأقصر والأصوب والأسهل، بينما طريق الشرك والإنكار صعبة وطويلة ومُتعبة وكلها مخاطر ومواجع، وأرادنا أن نفهم من خلالها مدى السهولة

[1] سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مضان الإيجاز، ص149.
[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص319.
[3] المصدر نفسه، ص403-404.

المطلقة في التوحيد، ومدى الصعوبات والمشكلات غير المتناهية في الشرك والتعدد والكثرة.

(يدل الاستقراء على استناد الأشياء كلُّها إلى واحد أحد، وبذلك تحصل سهولة ويُسْرٌ بدرجة الوجوب في فهم الكون في شقَّيْهِ المادي والمعنوي، فيكون التناثر المُحْكَمُ للمقاصد على النّص حجة قوية قطيعة على الحكمة، وبهذا يستبعد استناد الانتظام المُحْكَم إلى أسباب عدّة وصُنَّاع كثيرين، ذلك أنّ تبنّي هذا الرأي يُظهِر مشاكل وعوائق بدرجة الامتناع.)[1]

ولتقريب المعنى أكثر، فإنّ الأستاذ النورسي يذكر الأمثلة التي نراها في هذا الكون ولكننا لا نعيرها الاهتمام الكافي أحيانا، أو لا تنتبه أحيانا كثيرة إلى الحقائق التي تُثبتها، ومنها نجد الأشجار المثمرة التي يظهر من خلالها أن تكاليف ومصاريف الثمار الكثيرة لشجرة مثمرة واحدة تتذلّلُ حتى تتساوى مع ثمرة واحدة تربّت بيدي الكثرة، فالشجرة الواحدة المثمرة تتم إدارتها من مركز واحد وبقانون واحد فيكون ذلك أسهل وأحسن. أمّا مبدأ الكثرة فإنه يستدعي أن تكون لكلِّ ثمرة تكاليف وأجهزة حسب حاجة كلّ الشجرة. فكلما انتقل العمل من يد الوحدة إلى يد الكثرة زادت التكاليف من حيث الكمية حسب عدد الأفراد. لكنّ ما نشاهدهُ من آثار السهولة التي تظهر في الأنواع فهو راجع إلى السهولة الفائقة في الوحدة وطريق التوحيد.[2]

وتبلغ السهولة الموجودة في طريق التوحيد سهولة بدرجة الوجوب، وتبلغ الصعوبة في طريق الشرك درجة الامتناع، فالواحد سبحانه هو الذي يُعطي وضعًا مُحَدَّدًا لكثير من الأشياء، ومنه تكون النتيجة دون عناء. أمّا الإحالة إلى الكثرة فإنها تجعل اتّخاذ أي وضع والحصول على نتيجته مُكْلِفٌ وصعب جدًا.

ويزيد الأستاذ النورسي هذه الحقيقة تبيانا بهذا المثال:

(مَثَلاً: تريد أن تُقابل الشمسُ جهاتَك السِتَّة، فإمَّا أن تتحول أنتَ بِلا كُلفة فيحصل المقصود، وإمَّا أن تُكلِّفَ الشمسَ قطع مسافة مدهشة لمقصد جزئي. فالأول مثال "التوحيد سهولة". والثاني مثال "الشرك إشكالا". فإنْ قلتَ: فكيف يُقبَلُ الكفرُ مع هذا الإشكال ويُترَكُ الإيمانُ مع هذه السهولة؟ قيل لك: إنّ الكفرَ لا يُقْبَلُ قصدًا، بل يُزْلَقُ بسوء الهوى ويسقط فيه ويُتلَوَّثُ به. وأمّا الإيمان فيُقْبَلُ ويوضع في القلب)[3]

---

[1] عمّار جيدل، مرجع سابق، ص76.
[2] سعيد النورسي، الكلمات، ص338.
[3] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص172.

ولذلك فإن من تأمّل في الكون والكائنات في ضوء سرّ الوحدانية رآه واحدًا يستعصي على التجزئة مطلقا، وكُلاً لا يقبل الانقسام والاشتراك ويرفض تدخُّل الأيدي المتعدّدة، إذ إنّ كُلّ جزء فيه يحتاج لحُكْمٍ جزئي، أمّا الكون فحُكْمُه كُلّي، لا يقبل الاشتراك من أي جهة.[1]

وسهولة طريق التوحيد تسري على الأشياء أيضا من ناحية الإيجاد، والتي تكون إمّا من العَدَم أو بالتركيب والإنشاء من العناصر والموجودات الأخرى، ولذلك فإنّ إسناد الخلق إلى الله الواحد يعني إحاطته سبحانه وتعالى بكل شيء عِلمًا وقدرته المهيمنة على كلّ هذه الموجودات دون استثناء، فيصبحُ إعطاؤها وجودًا خارجيًا وإخراجها من عدم ظاهري أمر سَهْلٌ. أمّا إسناد الخلق والإيجاد إلى الكثرة والأيد المتفرقة مثل الأسباب والطبيعة والمصادفة...فكلها عاجزة عن الإيجاد من العدم ومن كلّ الجهات، فهذه الأسباب كلُّها لا تملك أدنى علم وأدنى قدرة لتحيط أو لتهيمن على أدنى شيء، فيكون إذن العدم مطلقا وليس ظاهريا ولا خارجيا فقط.

(والعدم المطلق لا يكون – قطعا - منشأً لوجوده لذا لابدّ أن يُرَكَّب. والحال أن تركيب وإنشاءَ جسم ذبابة واحدة أو زهرة واحدة يقتضي جمعَ جميع ذرّاته من سطح الأرض كافّة بعد تصفيتها وتنقيتها بِمَصَافٍ معيّنة دقيقة، ولا يمكن ذلك إلاّ بعد مشكلات عديدة، وحتى بعد مجيئها فإنّ المحافظة عليها في وضع منتظم دون أن تتبعثر وتتشتّتْ داخل الجسم أمر عسير جدًّا، لعدم وجود قوالب معنوية علمية، إذ يلزم وجود قوالب مادية وطبيعية بعدد أعضاء ذلك الكائن كي يتشكل ذلك الجسم للكائن وهكذا فإنّ إسناد خلق جميع الأشياء إلى واحد أحد يولِّد سهولة متناهية بدرجة الوجوب واللزوم، بِعكس إسناده إلى الأسباب العديدة الذي يولّد مشكلات وصعوبات بدرجة المُحال.)[2]

المطلب الثالث: عدم التجزُّؤ

إنّ الكون والوجود كُلّه يظهر بنور وسرّ التوحيد عَصِيًّا على الانقسام والتجزؤ، بلْ إنّه كلّيٌ من حيث ماهيته أيضا. فإنّ كلُّ أنواع الكائنات مندمجة فيما بينها وتتوجه وظائفها إلى كُلّ الكائنات فيصير هذا الكون كُلاً واحدًا لا يقبل التجزئة من ناحية الخلق والربوبية، ومن جهة آثار الأفعال العمومية التي تحيط بالكائنات فإنها تظهر في الكون إجمالا، وهذا كُلُّه يجعله وحدة متداخلة ومندمجة ببعضها.

ألا ترى أن الكائن الحي مثلا حالما يوهبُ الحياة يصاحبه مباشرة أفعال أخرى مثل الإعاشة وجلب الرزق، ومعها أيضا يظهر تنظيم الجسد وتناسق أعضائه ويكون

---

[1] الشفيع الماحي أحمد، معالم إيمانية أو البعد العقدي في فكر النورسي، ط1، دار سوزلر، القاهرة-مصر،2003، ص28.

[2] سعيد النورسي، الشعاعات، ص28-29.

أيضا كامل التجهيز بما يلزمه، ومعها أيضا يظهر التصوير والتربية والتدبير ويفعل فعلَه، وكل هذا يحدث في الوقت نفسه. وهكذا تتداخل كُلّ هذه الأفعال المحيطة، بل وأكثر منها، وتَتَّحِدُ وتمتزج كالألوان السبعة في طيف الشمس، كما أنّ كُلّ فعل من هذه الأفعال تميّزُه الإحاطة والشمول – مع وحدته من حيث الماهية - بالنسبة لكل الموجودات في وحدة واحدة، وكُلّ ذلك يدلّ على أنّ فاعله واحد أحد فرد صمد.[1]

(فلا بدّ بالضرورة أن يكون الصانع واجبَ الوجود واحدًا لا نهاية ولا حدّ ولا انقسام لقدرته التي تجري في ميزان قَدَرِه، وتُكْتَبُ على مِسْطَرِه.)[2]

إنّ الذي جعل النواة الصغيرة نموذجًا للثمرة، والثمرة نموذج للشجرة، والشجر نموذج للنوع، والنوع نموذج للكون كلِّه ومثال مصغَّر عنه، وخريطة مُجْملة له و... وكلُّ ذلك بميزان حكيم لا يقبل الخطأ ولا يظهر عليه سوى الإبداع والإتقان.

إنّنا إذا نظرنا إلى كُريّات الدم في انتظامها وأداء وظائفها الجليلة من إعاشة الجسم وحمايته نجدها لا تقِلُّ عن أداء النجوم لوظائفها، وإذا نظرنا إلى حُجيرات الجسم فإنها تُظهِر لنا كيف تنال كثلٌّ منها من الواردات وتجري في الفعالية والانتظام في الجسم، وهكذا فإن كريات الدّم تسبق في أداء وظائفها من ناحية الكمال أعظم مأمور بتوزيع الأرزاق، وكذا حجيرات الجسم تسبق من حيث التنظيم والفعالية إدارة أكمل جسم وأبدع قصر...ونقيس على ذلك كُلّ نوع من الأحياء التي تنتشر بانتظام، وتختلط بشكل ملائم مع سائر الأنواع الأخرى، حتّى لا يمكن أن يخلق أيَّ نوع ويدير شؤونه ويتصرّف في تدبيره ويرعى مَصَالِحَهُ إلاَّ من خَلَقَ كُلّ الأنواع وجَعَلها كالزرابي الملوَّنة المنسوجة من أربعمائة ألف نوع من أنواع الحيوانات والنباتات مفروشة ومبثوثة على سطح الأرض. وهكذا إذا قسْنَا أمورا أخرى عَلَى ما أسلفنا ذِكره اتَّضح أنّ هذا الكون كُلِّيٌّ لا يقبل التجزئة من حيث الخلق والإيجاد والربوبية والتدبير.[3]

فهذا الكون إذنْ من حيث كونُه كلّية لا تقبل الانقسام فمعناها: (أنه لا يقبل المصدرية المتعدّدة. إذ حقيقة الانقسام عند بديع الزمان هي بمعنى تدخُّل الأيدي المتعدّدة في الخلق، فيرجع كلُّ مخلوق إلى خالقه المفتَرَض، فيكون لِكلّ خلق طابع خاص مختلف ومناقض للآخر بدلالته على خالق آخر. وهذا انقسام في الكون. إلاّ أنه عُلِمَ أن الخالق واحدٌ مِنْ وحدة المخلوقات المنتظَمة في ناموس كُلّي واحد.)[4]

---

[1] سعيد النورسي، اللمعات، ص494-495.
[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص305.
[3] سعيد النورسي، الشعاعات، ص30-31.
[4] فريد الأنصاري، مرجع سابق، ص161.

إنّ سِرَّ التوحيد وتجلّياته في هذا الكون وهذا الوجود وعلى وجوه كُلّ الموجودات والمصنوعات من صغيرها إلى كبيرها ومن أدناها إلى أعلاها ومن الذرّات إلى المجرّات تُعلنُ كُلُّها بلسان حالها أن الخالق واحد سبحانه وهو الذي يتصرف في كلّ شيء وإليه يرجع تدبير كلُّ شيء، فتحيلنا هذه التفكيرية الكونية إلى السكينة والطمأنينة وإتباع أسهل الطرق وأبسطها مع ما تحقّقُه للمؤمن من مُتعَةٍ دنيوية بكل ما يحيط به وتكونُ العلاقات متناغمة ومنسجمة بين كلّ الموجودات التي جعلها الخالق الحكيم في تعاون دائم وتكامل مستمر وتناسق بديع يحقق المصلحة والفائدة لكل الموجودات. أمّا من اتّبع طريق الشرك والكفر فقد اقترف جريمة شنيعة وحَرَم نفسه من رؤية كُلّ هذه التجلّيات، بل يشغل نفسه بما يزيدها ضياعًا وتشتُّتًا وهذا ما يجعله كما قال النورسي:

(مُسْتحِقًّا لعذاب غير محدود؛ فلئِنْ كان القتل الذي يحدثُ عنِ دقيقة واحدة يُذيقُ القاتل خمس عشْرةَ سنة من العذاب (ما يقارب ثمانية ملايين دقيقة)، ويُعْتَبَر ذلك موافقا للعدالة البشرية، وعدّته موافقة للمصلحة العامّة وحقوقها؛ فلا جرم أنّ دقيقة واحدة من الكفر المطلق – على اعتبار الكفر ألْفَ قتْل – تُقَابَلُ إذًا بعذاب يقرب من ثمانية مليارات من الدقائق. على وفق تلك العدالة الإنسانية، فالذي يقضي سنة كاملة من عُمره في الكفر إذًا يستحق عذاب تِرليونين وثمان مئة وثمانين مليارًا من الدقائق،

أي: يكون أهلاً لـ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ النساء: 169)[1]

إنّ التوحيد في حقيقته يقدم رؤية إدراكية نستطيع من خلالها تفسير العالم، ويرشدنا إلى تدبيرات ناجعة من أجل إصلاح المملكة الإنسانية، لذلك فإن المعاني التي تحملها شهادة: "لا إله إلاّ الله" هي الأعظم والأغنى في الفضاء المعرفي للإسلام كُلّه. إنَّ أيّ مقاربة في أي فرع من فروع الحياة لن تُفهم منفصلة عن "التوحيد" فهو النّاظم الكلي لها باعتباره مضمونا معياريا أو "كمعيّة إلهية"، وقانونا كليا لعناصر الثقافة الأخرى، وليس المقصود هنا المعنى الميتافيزيقي المنفصل عن الزمان والمكان.[2]

ويقوم التوحيد على مبدأ الثنائية التي تعني أنّ هناك مرتبتين منفصلتين ومختلفتين. أولاهما مفادها أنه لا يوجد إلاّ الله الواحد الأحد المطلق والقادر، وهو سبحانه الدائم المتعال، لا شبيه له ولا شريك. وأُخْراها مفادها أنه يوجد في مرتبة ثانية:

[1] سعيد النورسي، رسالة الثمرة، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط1، دار الأنوار، اسطنبول-تركيا، 2018، ص115.

[2] عبد الرزاق بلعقروز، مرجع سابق، ص86 .

المكان-الزمان، الخبرة، الخليقة، فهي تشمل كُلُّ المخلوقات وجميع الموجودات ومآلاتهم منذ مجيئهم إلى هذا الوجود.[1]

ولقد حاولنا في هذه الفصل أن نقف على مفهوم التوحيد عند النورسي، وبراهينه وثمراته ومقتضياته، بنوع من التفصيل لنبيّن أنّ النورسي اهتم في رسائله بهذا المصطلح ولم يكن بالنسبة إليه مجرّد عقيدة ذهنية تصوّرية فقط، بل إنّه عقيدة فعّالة تحرّك الفرد والمجتمع نحو كُلّ ما هو إيجابي ومُثْمِر ومفيد، وهو أيضا عقيدة وجدانية وذوقية، فلا نُفْرِطُ في النّظر العقلي والتصوُّرَات المجرّدة، ولا نُفَرِّط في أحوال القلوب والنفوس، حتى لا نقع في شبهات هذا ولا ذاك. بل الأفضل والأصلح والأنفع أن نجمع بين الحُسْنَيَيْن، وقد كان النورسي زيادة على ذلك ذا حسٍّ مصطلحي دقيق، وحصّن نفسه ورسائله وتلاميذه من المفاهيم الغامضة التي توقع في الحيرة بدل اليقين.

وقد كان كُلّ هَمِّهِ هو إنقاذ الإيمان وتحقيق المعرفة التي تورث الاطمئنان القلبي وفق منهج القرآن
الكريم الذي لا يوازيه طريق من حيث الاستقامة والشمول، وهو أقصر الطُّرق وأقربُها وأوضحُها، وقد اعتنى في رسائله بهذا المسلك وبيّن خصائصه لأنه رآه الأصلح لتجديد عهد الأمة وميثاقها ووحدتها وانبعاثها من جديد.

وقد شَغَلَتْهُ مهمة خدمة الإيمان والقرآن ونَذَر حياته وصرفها في سبيل ذلك وقضاها بين رجاء وخوف تركا آثارهما على تفاصيل حياته وكتاباته، ومن يمعن في رسائله وكلماته يستشعر حُزْنه وآلامه وأشجانه ومواجعه، وفي الوقت نفسه يراه واقفا بشموخ لا تَكْسِرُه الأهوال ولا تُضْعِفُه البلايا، بل إنّه قادر على سَتْر كُلّ الضُّعف الذي بداخله وراء ملامح وَجْهِه الصّارمة وهدوءه الدّائم وصَمْتِه العجيب وكلامه الموزون، ونظره الثاقب وفكره العميق، الذي شغَلَتْه قضايا الإيمان والإنسان، وكان جُلُّ هَمِّه هو إنقاذه من وَحْلِ الضلالة وإرشاده في طريق الإيمان والقرآن، وهو ما سنُبَيِّنُهُ في الفصل اللَّاحق من هذه الرسالة.

[1] إسماعيل راجي الفاروقي-لويس لمياء الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، د ط، (مكتبة العبيكان الرياض-المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا)، 1998، ص132.

الفصل الثالث: الإنسان من منظور رسائل النور

المبحث الأول: الإنسان بين الماهية والوجود.

المطلب الأول: تعريف الإنسان عند النورسي.

المطلب الثاني: التركيب العجيب لِخَلْق الإنسان.

المطلب الثالث: القوى الكامنة في ماهية الإنسان.

المطلب الرابع: الحكمة من إدراج صِفَتَيْ العجز والفقر في ماهية الإنسان.

المطلب الخامس: الأنا في الإنسان.

المبحث الثاني: الغاية من خَلق الإنسان.

المطلب الأول: مفهوم العبادة عند النورسي وآثارها على الإنسان.

المطلب الثاني: أنواع العبادات وأبعادها المقاصدية.

الفرع الأول: حقيقة الصلاة وحاجة الإنسان إليها.

الفرع الثاني: المعاملات المالية وآثارها على النفس والمجتمع.

الفرع الثالث: الدعاء روح العبادة.

المبحث الثالث: وظائف الإنسان.

المطلب الأول: الوظيفة الفطرية.

المطلب الثاني: الوظيفة المظهرية.

المطلب الثالث: الاستخلاف وظيفة وجودية.

الفصل الثالث: الإنسان من منظور رسائل النور

تمهيد:

يَحْظَى مصطلح الإنسان باهتمام كبير في رسائل النور وفي فكر الأستاذ سعيد النورسي إجمالا، وهو من أهم المفاتيح لدخول مَنْظُومته الفكرية القرآنية، وانطلاقا منه تأسَّسَتْ رؤْيتُه للكون والحياة، وكانت معالجته لقضية الإنسان معرفية عميقة، انطلق منها وتدرّج عبر مسالكها ليبلغ آفاق السماوات والأرض عن طريق التفكّر في كلّ شيء. و نسعى من خلال هذا الفصل إلى بيان الأهمية البالغة التي أولاها النورسي

لقضية واستمداده من القرآن الكريم من حيث أصل الإنسان، ومهمّته، وعلاقته بالخالق... مع بيان الأسباب القوية والمباشرة أيضا لانشغال النورسي بقضايا الإنسان وماهيته ووجوده وأدق تفاصيله خاصة ما فعلتْهُ به الحضارة المادية التي مزّقَتْ كيانه وضيّعَتْ حقيقتهُ وشوَّهَتْ مُهِمّته في هذا الوجود، فحاول النورسي أن يقدّم لنا حقيقة هذا الإنسان الذي لم يكن في نظره مخلوقًا عاديًا، ولا حتَّى أرضيًّا، إنّه أكبر من كلّ ذلك، إنّه حَسْبه –مخلوق كونيٌّ وماهيته الوجودية هي في الحقيقة ماهية كونية كبرى، ويمكن فهمها واستيعابها من خلال ربط وجوده بوجود الكون كُلِّه، وبهذا يمكننا تحديد مجال الوجود الإنساني. وبذلك صار مصطلح الإنسان ذا مفهوم كوني.

فالإنسان عند النورسي ليس له معنى مستقل بنفسه، بل هو معنى مرتبط بوجود خالقه، فإذا توهّم أنه وحدَهُ في هذا الوجود أو نسَبَ إلى نفسه شيئا من الألوهية يكون حينها قد حَرَم نفسه من جانب الخير الذي فيه وتنتفي بذلك النفحة الربانية ولا يبقى إلاّ الوجه المتوجه للشر والنفس الأمّارة بالسّوء. وهذا تماما ما فَعَلَتْهُ الحضارة الغربية حين أنكرت الإله، وأَلَّهَتْ الإنسان وقضت على "أناه" التي هي مرآة عاكسة للحقائق الرحمانية، فَحُرِمَ الإنسان من جانب الخير الذي كان فيه. ويرى النورسي أنّ إعادة التوازن إلى الإنسان يكون بِرَدِّ الاعتبار إلى الجانب الأول من "الأنا" الضعيف الذي يتجلى فيه اللطف الإلهي ومرآة عاكسة لأسمائه وأسراره وحقائقه، وذلك عن طريق الإيمان الذي يعيده إلى فطرته الأولى.

المبحث الأول: الإنسان بين الماهية والوجود

إن اهتمام الأستاذ النورسي بالإنسان لفت نظره إلى جوانب كثيرة تتعلق به من حيث أصله وتكوينه ومكنوناته الظاهرة والباطنة، ومظاهر الرفعة والتكريم التي قد يغفل الإنسان عنها، كما حاول استكشاف الوظائف المتنوعة والمتكاملة والمتناغمة مع تركيبته ومع ما يحيط به، فتوصل إلى إدراك الوظائف التي يؤديها الإنسان في هذه الحياة وكلها تزيده رفعة وتشريفا في هذا الوجود. لقد كانت مخاوف النورسي كبيرة تجاه الإنسان الّذي أريد تشويه صورته وتشريده في هذا الوجود من أطراف شتى، فالبسوه ما لا يليق به ونزعوا عنه ما خصه الله به، ولذلك حرص الأستاذ على إعادة الإنسان إلى النبع الصافي الذي لا يظمأ بعده أبدا.

المطلب الأول: تعريف الإنسان عند النورسي

إنّ تعريفات الإنسان في رسائل النور كثيرة، وكلّها متكاملة ومتناسقة فيما بينها، وشارحة لبعضها البعض، فما من تعريف إلاّ وفيه إضافة جديدة، أو شيء يُميّزه، وقد كانت تعريفات النورسي للإنسان عاكسة لمدى اهتمامه بهذا الكائن المكرَّم، ومن أهم التعريفات وأشملها نجد قول النورسي:

(اعلم أنّ الإنْسَانَ ثمرة شجرة الخِلقة، والثمرة تكون أكمَل الأجزاء وأبعدَها عن الجرثوم، وأجمَعَها لخصائص الكلّ .. وهي التي من شأنها أن تبقى وتُسْتَبْقى. ومن الإنسان هو نواةٌ أنْبَتَ القديرُ جلَّ شأنه منها تلك الشجرة.. ثُم صَيّرَ الفاطِرُ جَلَّ جلالُه ذلك الإنسان ثمرةَ تلك الشجرة .. ثم جعل الرحمنُ تلك الثمرة النورانية نواة لشجرة الإسلامية وسراجا لِعالمها .. وشمسا لمنظومتها).[1]

والمقصود بـ "كون الإنسان ثمرة شجرة الخِلقة" راجعٌ إلى أنه هو الغاية الخلقية لهذا الكون الذي خَلَقَهُ الله على صورة مناسبة لتستضيف هذا الكائن المكرَّم والمكلَّف بحمل الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض.[2]

ويعرفه أيضا بقوله: (وهكذا الإنسان، فهو الصنعة الخارقة للخالق الصانع الجليل، وهو أرقى معجزة من معجزات قدرته وألطفُها، حيث خلقَهُ الباري مَظهرًا لجميع تجليات أسمائه الحسنى، وجعله مدارًا لجميع نقوشه البديعة –جلّتْ عظمتُه-، وصيَّرَه مثالا مصغَّرًا ونموذجا للكائنات بأسرها).[3]

وهو في آخر يعرّفه بقوله:

(إنّ الإنسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخِلقة، ومن المعلوم أنّ الثمرة هي أبعدُ أجزاء الشجرة، وأجمعها وألطفُها؛ لذا فإن الإنسان هو ثمرة العالم، وأجمعُ وأبدعُ مصنوعات القدرة الربانية، وأكثرها عجزًا وضعفًا ولطفًا).[4]

كما أنّه يرى أنّ (كلَّ كائن بِنَاءٌ، وقصر إلهي، ولاسيما الإنسان. فهو من أجمل تلك القصور ومن أعجبها، لأنَّ قسما من الأحجار الكريمة لهذا القصر البديع من عالَم الأرواح، وقسْم منها من عالم المثال واللَّوح المحفوظ، وقسم آخر من عالم الهواء، ومن عالم النور، ومن عالم العناصر، كما امتدّتْ حاجاتُه إلى الأبد، وانتشرت آماله في

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي، ص223.
[2] فريد الأنصاري، مرجع سابق، ص93.
[3] سعيد النورسي، الكلمات، ص346.
[4] المصدر نفسه، ص418.

أقطار السماوات والأرض، وشُرّعَتْ روابِطُه وعلاقاته في طبقات الدنيا والآخرة).[1]

إنّ الأستاذ سعيد النورسي يرى أنّ الإرادة الربّانية قضت أن يكون هذا "الإنسان" غاية خلقية في الكون، فصار هو أعظم مظهر لتجلّي الأسماء الحسنى، وهو أيضا من خلال خِلْقَته وفطرَته دالٌّ على وحدانية الخالق، بَلْ إنَّه يراه الآية التي تحمل وتُظهر تجليات الاسم الأعظم في القرآن الكوني، مثلما هي آية الكرسي في الكتاب المُنزَل.[2]

فالإنسان في فكر النورسي ومن منظوره يتجاوز الوجود المادي الهيكلي، فهو عنده كائن مميّزٌ، حسَّاسٌ وفريد، تميّزُهُ خصائص شتّى: عقلية وروحية ووجدانية و... وهو المكرّم وهو المستخلَف. وهو بجانب كُلّ ذلك قد ابتُلِيَ بتوتر عميق بين شقَّيْه المتعاكسين: إمكاناته المحدودة، وآماله اللامتناهية ورغبته في البقاء وبلوغ الكمال.

ويخاطب النورسي هذا "الإنسان" كاشفا له وجوهه الخمسة قائلا: (اعلمْ أيها الإنسان أنّك واحد قياسيٌّ بخمسة وجوه: إذْ أنتَ فهرستة جامعة لغرائب آثار جلوات الأسماء الحسنى ومقياس بجُزئيات صفاتك وربوبيتك الموهومة لمعرفة صفاته المحيطة وفهمها بتصور حدودٍ موهومة.

وميزان لدرجات نفي الشِركة في الآفاق، بحيث إذا أذعنْتَ بأنّك كُلّك مُلْكُه آمنتَ بأنْ لا شريك له في العالم (...) .وكذا خريطة للعلوم الكونية والمعارف الآفاقية، فإذا انفتَحتَ "أنت" لك – أي أنانيتك أنت- انكشف لك الكون، وإذا أُنْسِيتَ نفسَك انغلق عليك المعارف الآفاقية وانقلبت إلى جهالات مركبات وسفسطات مالا يعنيات. وكذا خزينةُ مفاتيح لطلسمات الكنوز المخفية في الأسماء الإلهية، فإذا رأيت فيكَ عجزًا بلا نهاية؛ شاهدتَ لخالقك قدرة بلا غاية...وإذا شاهدتَ فيك فقرًا بلا غاية، رأيتَ لرازقك غناءً بلا نهاية .. وهكذا كأنّ جلوات أسمائه حروف نورية مكتوبة في ظلمات حالاتك. فبدرجة ظهور شدة الظلمة تظهر نورانية الكتابة).[3]

إنّ الإنسان الذي ينطوي على "الصنعة الخارقة للخالق الصانع سبحانه، والذي جعله أرقى معجزاته وألطفها، وصيَّرهُ مظهرًا لتجلّي أسمائه الحسنى ومدَارًا لجميع نقوشه البديعة، ومثالا مُصغَرًا ونموذجا لسائر الكائنات، لن تظهر حقيقته هاته ولن تتكشف هذه المعجزة ولن يعكس شيئا من الأسماء الحسنى ولا من النقوش البديعة إذا افتقد الومضة الإيمانية، لأنها هي التي تمثل القوة التي تُعيّنُ قيمته كإنسان، وتجعل

[1] سعيد النورسي، اللمعات، ص126.
[2] فريد الأنصاري، مرجع سابق، ص94-95.
[3] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص446-447.

مكوناته الجمالية متألّقة، وترفعه إلى مرتبة يكون فيها أسمى المخلوقات وأرفعها، وتُصيّرُهُ مستحقًا للخطاب الإلهي.[1]

إنّ الخالق جلَّ وعلاَ خلق الإنسان في أحسن تقويم ونفخ فيه من روحه، فكان خلْقًا سويًّا مُتَجَلِيًا ومتجملاً بطبيعة جامعة للمادة والرُّوح، والعقل والقلب، وسائر اللّطائف الأخرى التي جعلت هذا المخلوق الصغير بما فيه من عجز وضعف مزوّدًا باستعدادات لا حصر لها، وآمال لا نهاية لها. وزاده من عجائب جامعية فطرته أنْ أدرج فيه ما لا يُحدُّ من مدخرات رحمته، وآلات لا تحصى أجهزتها المعنوية لفهم ما لا يُعدُّ من كنوز أسمائه الحسنى، بل زاده أن جَعَلَهُ فهرسا لكتاب العالم ونسخة جامعة للكائنات.

لقد حَلَّقَ النورسي في عالم الإنسان، وأوغل في معرفة أسرار النفس الإنسانية حتى: (رأى في الإنسان مرآةً عاكسة لأسماء الله الحسنى، فترى أنّ أسماءه تعالى القدير، الحكيم، البصير، العليم، تتجلى في خلق الإنسان على هذه الطبيعة الجامعة وتتجلى في سلوك الإنسان الخليفة في عمارته للأرض على أسس الخطاب الإلهي وهدايته، فيشير إلى كون الإنسان مرايا عاكسة لتجلياته سبحانه).[2]

وعلى ضوء فهمه للبيان القرآني، أدرك النورسي أبعاد النفس الإنسانية، ومعالمها وطبيعتها التي جُبِلَت عليها وجعلتها مُمَيَّزة عن كلّ صنوف الكائنات، ومؤهَّلَة لرقيّ غير محدود، فقط يحتاج الإنسان إلى إدراك ماهيته وأهميته ومكانته وأن يمتثل لأوامر خالقه ويطيعه.

وتعمَّقَ النورسي في جوانب وتفاصيل هذا "الإنسان" الظاهرة والخفية، واستوعب جُلَّها، وفصَّل في رسائله الأسرار التي حواها هذا "الإنسان"، وكشف أنّ الغاية من كُلّ اللطائف المعنوية الدقيقة التي أودعها الخالق الحكيم في هذا المخلوق والأجهزة البديعة، والمشاعر الحساسة، والأعضاء الدقيقة، ليست لمجرّد إشباع حاجات دنيوية ورغبات النّفس السُّفلية، والغايات المؤقّتة في هذه الدنيا الفانية. كَلاَّ وحاشا أن تذهب عجائب الصنعة الربانية والقدرة الصمدانية سُدًى وإلى زوال.

إنّ ما أبدعه الخالق الحكيم في خلق الإنسان وماهيته، له أبعاد أخرى ومقاصد أعلى، وغايات أسمى، فهو صار ذا قيمة كبرى في هذا الوجود، وصار هذا الكون مُسَخَّرًا له وصارت النّعم المبثوثة في الكون مربوطة ومتّصلة بأوامر النفع التي تخص الإنسان، فمن غير المعقول أن يُترَك هذا المخلوق الذي هو ثمرة شجرة الخلقة، بل وأكمل ثمرة في هذا العالم مُهْمَلاً تتقاذفه الصدفة والأسباب.

---

[1] عماد الدّين خليل، مرجع سابق، ص97-98.

[2] زياد خليل الدغامين، مرجع سابق، ص111.

(ومن جهة أخرى فإنّ الإنسان مرآة صادقة لحقائق الكون، وكأنّه وحدة قياس بما يملك من جامعية حياته، فمثلا قوة "الحافظة" دليل على وجود "اللوح المحفوظ"، و"قوة خيالية" دليل على وجود "عالم المثال"، و"لطائف الإنسان" دليل على وجود العالم الروحاني).[1]

أمّا ربوبية الإنسان "الموهومة" التي يتصوّرها في دائرة ملكه الضيّق المحدود يفهم من خلالها ربوبية الخالق المطلقة في دائرة الممكنات، ويفهم أيضا من خلال مالكيته الظّاهرة للأشياء، مالكية الخالق الحقيقية، ومِنْ عِلْمه الجزئي يفهم عِلْم الله المطلق والمحيط، ويكتشف بدائع الصّنعة الإلهية من خلال مهاراته المكتسبة الجزئية. فكما أنّه هو مالك للبيت المتواضع الذي يعيش فيه، فإن لهذا الكون الرّحب مالكا أيضا متصرّف فيه ومطّلع على كل أسراره وتفاصيله وخباياه. وكما أنّه شيّدَ داره المتواضعة وزَيَّنها ونظّمها، فلا بدّ لهذا الكون الفسيح العجيب الذي يسوده النظام ويعلوه الجمال والبهاء من خالق أنشأه وأبدعه.

وخاطب النورسي الإنسان كاشفا له جوانب كثيرة مركوزة فيه ويجب عليه الالتفات إليها وإدراك حقيقتها، وأرشده إلى الطريقة المثلى للتعامل مع كل منها، فقال:

(اعلمْ يا "أنا"! إلك تسعة أمور في دنياك تعاميْتَ عن ماهيتها وعواقبها:

أمّا جَسَدُكَ، فكا لثمرة المتزهرة المتزيّنة صيفا، المنكمشة المتفسخة شتاءً.

وأمّا حيوانيتك؛ أي حياتك المادية؛ فانظُر إلى جنس الحيوان كيف يُسرع فيهم الموت والزوال.

وأما إنسانيتك؛ فمُتردّدة بين الانطفاء والاصطفاء، والزوال والبقاء، فاسْتحفظْ على ما بقيَ بما من شأنه أن يبقى بذكر الدائم الباقي.

وأمّا حياتك؛ فكقامتك قصيرة معيّنة الحدود لا تقدّم ولا تؤخّر، فلا تتألم ولا تحزن، ولا تخفْ عليها ولا تُحمّلْهَا ما لا طاقة لها به مما تطاول إليه طول الأمل.

وأمّا وجودك؛ فليس مُلْكا لك، فَلَهُ مالكٌ، الملكُ له، وأشفَقُ به منك، فمُداخَلَتُكَ بغير ما أمرك به، فكما أنّها من الفضول وشُغل فضولي فكثيرًا ما تضُرُ؛ ألا ترى الحرص و (مرق) النوم كيف يجلبان الخيبة والسهر!

وأمّا مصائبك؛ فلا تَمُرُّ حقيقة لأنّها تمُرُّ سريعا، بل تحلو لأنّها تُحول فتُحوّل وجهك من الفناء في الفاني إلى البقاء بالباقي.

وأمّا أنتَ هنا الآن؛ فمسافِر، ثم مسافِر، والمسافرُ لا يُعَلِّق قلبَهُ بما لا يتعلق به ويفارقه بسرعة (...)

[1] محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر الحديث، ص172.

وأمّا وجودك؛ فافْدِهِ لِمُوجِدِهِ الذي يشتريه بثمن غالٍ، فسارِعْ للبيع، بل الفِداء:
أولا: فلأنه يزول مجانا.
وثانيا: لأنّه مالُه وإليه يؤول.
وثالثا: لأنه إن اعتمدتَ عليه سقطت في العدم، لأنه "بابٌ إليه"، وإذا فتحْتَهُ بالتَّرْك وصلت إلى الوجود الثابت..
ورابعًا: لأنه إذا تمسكت به كان في يدك نقطة وجود فقط، ويحيط بك ما لا يتناهى من الأعدام الهائلة.. وإذا نفضْتَ يدَكَ منه استبدلْتَ لمعةً بشمسٍ فينقَلِبُ محيطك إلى ما لا يتناهى من أنوار الوجود).[1]
وخاطب النورسي نفسه مُذَكِّرًا إياها وكُلّ إنسان بوجوب النَّظر إلى مُجْمَل غايات حياته وهي التوجه بالشّكر الكلّي وفتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية ثانيا، وإعلان ما رُكِّبَتْ فيك من الأسماء الحسنى بلطائفها ولَفْت أنظار سائر المخلوقات إليها ثالثا، ثم وجوب إظهار العبودية أمام عظمة الخالق سبحانه بلسان الحال والمقال رابعا، فالتجمُّل بمزايا كلّ ما أودعه الرحمن اللطيف فيك من لطائف إنسانيته خامسا، ويليها شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة، وحال تسبيحها لخالقها سادسًا، وبعدها معرفة صفات الخالق الجليل المطلقة ووَزْنُها بها أودع فيك وما وهبك من نماذج مصغرة لمعرفتها واستيعابها سابعًا، وثامنها فهم أقوال كلُّ الموجودات في هذا العالم فيما يتعلق بوحدانية الخالق وربوبيته، وتاسعها إدراك درجات القدرة الإلهية المطلقة من خلال موازين العجز والفقر فيك.[2]

ثُمَّ إن ما يوصف به الإنسان من عجز وفقر وضعف، إنما هو بالمعنى الإيجابي، (فالضعف البشري هو باب العبودية لله القوي العظيم. ولذلك كان الإنسان أحوجَ ما يكون لربّه في كلّ لحظة وحين. وإنْ يغْفل عن الاستناد إليه يَكُنْ إذن من الغاوين![3]
ولذلك فإن:
(نقطة الاستناد والاستمداد حقيقتان ضروريتان مغروزتان في الفطرة والوجدان، حيث إنّ الإنسان مكرَّم، وهو صفوة المخلوقات، فلولاهما لَتَرَدَّى الإنسان إلى أسفل سافلين، بينما الحكمة والنّظام والكمال في الكائنات يَرُدُّ هذا الاحتمال).[4]

لقد جعل النورسي "الإنسان" مفتاحا لِفهم هذا العالم ومَغاليقه بما أودعه الله سبحانه وتعالى فيه، وعَدَّهُ نافِذَةً مُطِلَّةً على عالم التوحيد فَهُوَ نُسْخَةٌ جامعة لِمَا في الوجود من خواص ومزايا أودعها الله الخالق سبحانَهُ في نفس الإنسان حتى يُشعِرَه جميع أسمائه

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص225-226.
[2] سعيد النورسي، الكلمات، ص23-24.
[3] فريد الأنصاري، مرجع سابق، ص95.
[4] عمار جيدل، مرجع سابق، ص245-246.

الحسنى، ويجعله مرآة عاكسة لها، وتبوَّأَ الإنسان –عند النورسي- مكانة عظيمة كما هو حالُه في القرآن الكريم، فكما أنَّ في الأسماء الحسنى اسمًا أعظم، فهناك أيضا في نقوش تلك الأسماء نقشًا أعظم، وهو الإنسان.

المطلب الثاني: التركيب العجيب لخلق الإنسان

إنّ المكانة الكبيرة التي يحظى بها الإنسان في رسائل النور وفي فكر الأستاذ سعيد النورسي سَبُبها قرآنية خالصة، فالقرآن الكريم قد فصَّلَ في هذا المخلوق الكريم تفصيلا عميقا، من حيث خَلْقُه وتكوينه العجيب، وتكريمه وقيمته بين الموجودات والمخلوقات، وما تميز به عن سائرهم، والغاية من وجوده ومصيره الأخروي لأنه لم يُخْلَق للفناء بل للبقاء، وغرائزه وما أودع فيه من لطائف ورغبات كُلُّها توجهه نحو هذا الطريق الذي يحتاج فيه إلى الاستمداد من نور الإيمان والاستناد إلى الخالق الواحد الأحد سبحانه.

تأمل الأستاذ سعيد النورسي خلْق الإنسان وتركيبه، فهو مكوَّن من عناصر كثيرة ومختلفة، وكُلُّها تعمل في آن واحِدٍ، وقال في وصف هذا الخَلْق: (اِعلمْ أنّ الله خلق الإنسانَ في تركيب عجيب، ووحدةٍ في كثرة، بسيط وهو مرَكَّب، فردٌ وهو جماعة، له أعضاء وحواس ولطائف، لكل في ذاتهِ أَلَمٌ ولَذَّة مع تألُّمِهِ وتلذُّذِهِ من انفعالات الكُلّ وتأثُّرات إخوانه؛ بدليل سرعان التعاون والإمداد بينها (...) فَأَلَمُ وجع السِّن غيرُ أَلَمِ وَجَع الأُذن. ولذَّة العين غير لذّة اللّسان، واللَّمسُ والخيال والعقل والقلب وهكذا).[1]

إنّ الإنسان في ظاهره واحد ولكنه في حقيقته مُركَّب، يبدو مفردًا ولكنَّه مجموع أعضاء تقوم بوظائف شتّى، وحواسٍ تباشر كلُّ ما يحيط بها وتتلقَّفُهُ، ولطائف تستشعر ما يحبّه الإنسان وما ينْفِرُ منه، ما يركن إليه وما يفرُّ منه، ما يخشاه وما يتطلّع إليه.. تختلف مذاقات اللّذة عنده، فالثمرة واحدة والذّوق مختلف، ينفرد كلُّ عُضو بوظيفته ولكنّه يتأثر بإخوانه من الأعضاء، ويظهرون كُلُّهم في مشهد رائع ومتناسق ومتكامل من التعاون والإمداد. فسبحان من خلق فأبدع!

يفصّل النورسي في التكوين الجسماني للإنسان فيشبهه بقصْرً الفخم العامِر المتكون من ألف قُبّة وقُبّة، وكلّ قُبَّة منها معلّقةٌ فيها الأحجارُ، وهي متراصة إلى بعضها البعض في بناء مُحْكَم دون عمد. بل إنّ وجود في حقيقته أعجبُ من ذلك القصر بألوف المرّات، ولكن ذلك لا ينكشف للإنسان إلا إذا تفكر فيه لأنّ قَصْر جِسم في تَجَدُّدٍ مستمر ويبلغ الكمال في الانتظام والروعة. ثم يتوجّه إلى بيان الناحية الجسمانية العضوية فيشبِّه كل

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص185.

عضو من أعضاء الجسد بمنزل ذي قباب، وتلك الذرّات التي فيه قد تعاوَنَتْ وتعانَقَتْ في تركيب منتظم ومتوازن كالأحجار في تلك القباب، وشكلت بذلك بناءً خارقا، وصنعةً رائعة بديعة، فأظهرتْ للعيان معجزة باهرة من معجزات القدرة الإلهية.[1]

إنّ هذا القصر الجسماني البديع والعجيب التي يَصفه الأستاذ النورسي ها هنا، ويقف على جمالياته التي يظهر عليها الكمال والانتظام والرّوعة، وتحفّها الدقة والإتقان، قد خُلق على هذه الهيئة ليعرف خالِقه ومُصوّره، فيذكره ويشكره ويتَنعّم بكل ما آتاه.

(اِعلم أيّها السعيد المسكين المغرور! إنّه ليس إليك منك من أُلوف حاجاتك إلاّ واحد أو أقل. والباقي بالتّمام مفوَّضٌ باليقين للَّذي خَلَقَكَ أولاً كالفطير بقدرته، ثم فتح صورتك في الماء بلطيف صُنْعه، لتصيرَ مرآة أسمائه.. وشقّ سمعك وبصَرَكَ برحمته، لتسمع الحق وتعتبر بالخلق فتعرفَ الخالق.. وعلَّق في كهف وجهِكَ بعناية لسانًا لتَذْكُره.. وأدرجَ في رأسك عقلاً لتعرفه.. وأودع في صدرك جناحًا لتُحبَّه.. ولَطَفَ بك في ظلمات الأحشاء، وتصرّف فيك بربوبيته كيف يشاء، وركّب في وجودك بحكمته هذه الحواسَّ بأنواعها، وهاتيك الأعضاء بأقسامها، لأجل إحساس جميع أنواع ثمَرات نِعمه، ولإذاقة أقسام تجليات أسمائه.)[2]

إنّ هذه الجماليات التي تحُفّ خلق الإنسان ظاهرا وباطنا توحي بأن سِرّ الخلق عند النورسي هو الحبّ والجمال. فالله سبحانه وتعالى خلق هذا الإنسان في أجمل صورة واصطفاه حين جعله مرآة عاكسة لتجليات أسمائه الحسنى، فهو من منظور النورسي مرآة صافية تتشرب الجمال من الأسماء الحسنى فتعكسه إلى المشاهدين، وهذا ما يجعله مثيرا للمحبّة والإعجاب. إن الكشف عن هذا الجوهر الجمالي في الإنسان يتحقق من خلال التجارب الإيمانية المركزة التي يخوضها ويعيشها بنفْسه، فتُصْهر الطبيعة الطينية حتى تخرج صافية من كُلّ الشوائب، فيزيد في عمق الحياة وغناها، لأن الحياة التي تخلو من خطوات جدّية في سُلَّم الإيمان تعتَبَرُ حياة خاوية لا يليق بالإنسان أن يحياها، فهي غير جديرة به.[3]

هذا من جهة الخلق، أمّا من جهة الوجود، فإن الإنسان إذا نظر إلى حقيقة وجوده أدرك أنّ له وجهان:

أولهما: هو الوجه الناظرُ إلى الحقّ سبحانه، وهذا له قيمة عالية، وثانيهما: هو الوجه الناظر إلى الخَلق، وهذا لا قيمة، لأنّه متوجه إلى الفاني.

---

[1] سعيد النورسي، اللمعات، ص248-249.

[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص394.

[3] أديب إبراهيم الدباغ، سُجناء الوجود: مقال منشور ضمن حلقة دراسية بعنوان: البُعد الأخروي في رسائل النور، ط1، (دار سوزلر للطباعة والنشر، اسطنبول-تركيا)، 2006، ص146.

ويخاطبه الوجه الأول قائلا: إنّك صنعة لطيفة لفاطر السماوات والأرض، وحسبك من هذا الوجود وما يتجلى فيه من مظاهر الكمال والجمال أنّك من مصنوعات هذا الخالق الحكيم، حتى تبوّأت في هذا العالم الكبير الذي هو كالأخ الأكبر مكانة، وصرت أنت العالم الصغير والأخ الأصغر له.

وأمّا الوجه الثاني فيخاطبه كأنّه ينعيه باليُتم: إنّك مجموع عناصر متزامنة متناثرة ترافقت باتفاقية عمياء، ومآلها تمزق وتفرق. فمن أراد أن يظلم وجوده، أصغى إلى خطاب الوجه الثاني، فانقطع عن الحق وأعرض عنه أنّه لم يُقتَطَع ولم يُؤْخَذْ ولم يُغْتَرَف من بحر هذا الوجود ومن صُبْرة الكون وموادٍ حاضرة كيفما اتفق! بل أنشأه الباري سبحانه، واخترعه في صورة بديعة جامعة.[1]

لقد أكرم الخالقُ – سبحانه - الإنْسَانَ وخَصَّهُ بخِلْقَةٍ جعَلَتْهُ مظهرًا لتجليات الأسماء الحسنى، ومثالا مصغّرًا لشجرة الكون، وهو المعجزة الرائعة والصنعة الخارقة، وكلّ عناصر تركيب الإنسان وجوارحه وأعضائه فيها إشارات إلى عناصر كونية، فالأحجار والصخور تقابلها عِظَامُه، والنباتات والأشجار تقابلها أشعاره، ومياه الأمطار والبحار والأنهار وغيرها تقابلها دموعه ودماؤه و...إلخ

فهذا الإنسان خُلق في تركيب عجيب وبديع ومعجِز، وزُوِّدَ باستعدادات غير متناهية، وآمال غير محصورة، ورغبات غير محدودة، وأفكار وتصوّرات لا سقف لها. ومع كل ذلك فهو محتاج إلى خالقه، مفتقر إليه، ضعيف من دونه، وليس له معنى مستقل بنفسه، بل وجوده يكتسب معناه بوجود خالقه. فإذا زاغ هذا الإنسان ونَسَب لنفسه ما يفوق قدرتها وادَّعى ما ليس له فيه نصيب يكون بذلك قد حرم نفسه من جانب الخير.

(فإذا فهم الأمر على هذا الوجه انْتَفَتْ فيه النفحَة الربّانية، ولم تبْقَ حينئذٍ إلاّ النفثة الشيطانية. فَلَمْ يبقَ إلاّ الجانب الثاني، وهو النّفس الأمّارة بالسوء، أو الوجه الآخر المتوجه إلى الشر.)[2]

ولذلك فهو محتاج إلى الإحاطة بالقوى المودعة في ماهيته، واللطائف النورانية التي أكرمه الله بها ليستدل بها على طريق الخير، والجوهر النوراني الذي ينير له دربه ويحفظه من الوقوع في الزلاّت، والوجدان الحي الذي يخاطبه باستمرار حتى لا يغفل أثناء المسير، فالغفلة هي بداية الزلّة. أمّا استجماع هذه المكنونات فيوصله إلى برّ النّجاة.

---

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص387-388.

[2] محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر الحديث، ص182.

المطلب الثالث: القوى الكامنة في ماهية الإنسان

إنّ التركيب الجسماني العجيب للإنسان كما أسْلَفْنا ليس هو كُلّ ما يميّزهُ، بل إنّه قد أُوتي من العجائب ما هو أكبر وأكثر، وقد أودع الله سبحانه في ماهية الإنسان قوى باطنة، وإمكانات معنوية تتكامل فيما بينها لِتُوجّه الإنسان في مسيرته الحياتية، وتوصله إلى السعادة الأبدية إن هي اهتدَتْ بنور القرآن وحقائقه التي ترقى بالإنسان في مِعراج روحاني، فترشد العقل، وتهدي القلب، وتُسكّن آلام الرُّوح وتلبّي رغبات الإنسان، وتقوّي ضعفه وتجبر كسره، وتداوي عجزه، وتجيب على كلّ ما يحيّره ويخيفُه.

ويوضح الأستاذ النورسي أنواع تلك القِوى المودعة في الإنسان بقوله:

إنّ الله عزّ وجلّ قد أوجع في الإنسان قوى ثلاثاة، هي: القُوّة الشهوية البهيمية الجاذبة للمنافع، والقُوّة الغضبية السَّبُعِيَّةُ الدافعة للمضرّات والمخربات، والقوة العقلية المَلَكية المُميّزة بين النّفع والضّر. أمّا بشأن أسلوب التعامل مع هذه القِوى وتوجيه استعمالها واستغلالها لتحقيق الفائدة للإنسان، فقد بيّن الأستاذ النّورسي ذلك مسترشدا بهدي القرآن، أن حِكمة الله المقتضية لتَكَمُّل البشر بسِرّ المسابقة، ترتب عنها عدم تلك القوى بالفطرة كما حدَّد قوى سائر الحيوانات. ونتج عن عدم التَّحديد الفطري وجودثلاثة مراتب،هي: مرتبة النقصان التي ينتج عنها التفريط، ومرتبة الزيادة التي ينتج عنها الإفراط، ومرتبة الوسط التي ينتج عنها.[1]

وبذلك تكون تداعيات هذه القِوى بين مجالات الإفراط والتفريط والاعتدال أنّ التفريط في القوّة العقلية يوقع الإنسان في الغباوة والبلادة، وأمّا الإفراط فيها فيوصله إلى التدقيق في سفاسف الأمور أو حتى بلوغ منزلة الخبث والخِداع. ويبقى إذن التوسط والاعتدال في استغلالها والاستفادة منها هو منبع الحكمة والخير الكثير. وأمَّا القوة الشّهوية فإن التفريط فيها فيؤدّي إلى الجمود والخمود وتخفت معه معاني الاشتياق والحنين، ويؤدّي الإفراط فيها إلى ما لا تُحمَدُ عقباه ولا تقام معه حدود الله فلا تُكبح الشهوات ولا تُقاوَم الرّغبات، ولِذلك تبقى العفّة هي صيغة التوسط والاعتدال فلا رغبة إلاّ فيما أحلّ الله، ولا إقبال إلى على ما أباح. وأمّا القوّة الغضبية، فالتفريط فيها يُكْسِبُ الإنسان الجُبن والخوف الذي يكون مُتَوَهّمًا وغير واقع حقيقة أو لا يبلغ حدّ الخوف والجُبن حتى إن توفّرت أسبابه، وكذلك يكون الإفراط فيها سَبَبًا في التهوّر والعَجَلَة الموقعة في النّدامة لِمَا قد تُحْدِثه من ظلم واستبداد، ولذلك تبقى الشجاعة هي الصيغة المحمودة للوسطية في استعمال القوة الغضبية عند الإنسان، إذْ يبذلُ ويقدّم الغالي

[1] إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص29.

والنّفيس في سبيل ما يستحق هذه التضحية لحماية الحقوق ورَفْع الظلم، وإعلاء كلمة الحق.

(كما أنّ رُوح الإنسانِ، ترتبط بعلاقات وأواصر مع جميع أنحاء جسم الإنسان حتى تجعل جميع أعضائه وجميعَ أجزائه، في تعاون تامّ فيما بينها. أي إنّ الرُّوح التي هي لطيفة ربّانية وقانون أمريٌّ أُلبِسَ الوجود الخارجي بالأوامر التكوينية التي هي تجلّي الإرادة الإلهية، لا يحجُبها شيء عن إدارة شؤون كُلّ جزء من أجزاء الجسم، ولا يشغلها شيء عن تفقُّدها وإيفاء حاجات الجسم بكل جزء من أجزائه، فالبعيد والقريب إزاءها سواء).[1]

نعم، لقد خلق الله عزّ وجلّ الجسد في أحسن تقويم، وأسكن فيه الرّوح وأودع القوى الثلاث لإدامتها، وزاد على أن أودع في ماهية الإنسان أجهزة ولطائف معنوية دقيقة، تتفاوت في التحمل و التأثر بالعلم الخارجي وما يطرأ عليها فالعين مثلا تتأذى من شُعيرة ولا تتحملها. أما الرأس فإنه يتحمّل أثقالا هائلة. وكذا من غرائب ما أودع الفاطر الحكيم في ماهية الإنسان أنّه في حين لا تَسَعُهُ الدنيا بأكملها، قد تسعه خردلة من عمل أو خاطرة حتى يفنى فيها. وهذا أيضا قلبُه وفِكْرُه إذ لا تسعهما الدنيا بأكملها، إلاّ أنّه قد تَسَعُه الذرة -على صِغَر حجمها- بل وتنطلق وتتأجّج مشاعِرُه في تلك الخاطرة الدّقيقة. وفي المقابل أيضا يمكن أن تستوعب الأشياءُ الصغيرة جدًا ما هو ضخم جدًا. فهذه السماء اللاّمتناهية أنظرْ كيف تغرقُ في مرآة صغيرة بكل ما يتلألأ فيها من نجوم وكواكب، ومثلُها أيضا حافِظة الإنسان التي تعادل الخردلة في حجمها، بل قد تكون أصغر، ولكنها قد كُتِبَ عليها صحيفة عمل الإنسان طوال عمره. أليس كُلُ ذلك مِنْ خَلْقِ فاطر قادرٍ، عليم وحكيم[2]!!

إن اجتماع هذه القوى وهذه اللطائف وهذه الأجهزة في هذا الجسم الذي نُفِخَتْ فيه الرّوح، وزُوّد باستعداد أخرى غير متناهية وآمال وأفكار وتصوّرات غير محدودة، بحيث لا تَسَعُه الدنيا فهو يتطلّع إلى سعادة أبدية وهي الوحيدة القادرة على تلبية وإشباع تطلعاته ورغباته.

ومن أجل تمكين الإنسان من تحقيق السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، زوّده الله سبحانه وتعالى بالقلب والعقل، فالأوّل هو اللطيفة الربانية التي أودعها الله في الإنسان لاستقبال الأنوار الإلهية، والثاني هو الجوهر النوراني الذي أودعه الله في الإنسان للتّصرّف في الأمور الحياتية ومباشرتها.

---

[1] سعيد النورسي، رسالة النوافذ: 33نافذة مطلّة على التوحيد، ترجمة، إحسان قاسم الصالحي، ط3، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2011، ص87.

[2] سعيد النورسي، اللمعات، ص 187.

وللقلب مفهوم مختلف عن المألوف عند النورسي، فقد أسبغ عليه نورانية وروحانية عاليتين، وأَلْبَسه حُلّة لطيفة زادت من قيمته ورفعتْ من شأنه، ولذلك يشرح لنا حقيقة القلب بقوله:

(ثم إنّ المراد بالقلب: اللّطيفة الربانية التي مظْهرُ حِسّياتها الوجدانُ، ومَعْكَسُ أفكارها الدّماغُ، لا الجسمُ الصّنَوْبَريّ. فإذن في التعبير بالقلب رمزًا إلى أنّ اللّطيفة الربانية لمعنويات الإنسان كالجسم الصّنوبري لجَسَدِه. فكما أنَّ حياة ذلك الجسم ماكينة حياتية تنشُرُ ماء الحياة لأقطار البَدَن، وإذا انْسَدَّ وسَكَنَ جَمَد الجسدُ؛ كذلك تلك اللطيفة تنشُرُ نورَ الحياة الحقيقية لأقطار الهيئة المجسَّمَة من معنوياته وأحواله وآماله. وإذا زال نور الإيمان - والعياذ بالله - صارتْ ماهيتهُ التي يُصارع بها الكائنات كشَبَح لا حِراك به وأظلم عليه).[1]

وبقدر الإمداد الذي يُقدِّمُه القلب وما ينشرهُ من "أنوار الحقائق، فهو أيضا محتاجٌ إلى الإمداد والاستناد، فهو حسب النورسي كالنّواة:

ماؤه بالإسلام، وضياؤه بالإيمان، فإن اطمأنّتْ تحت تراب العبودية والإخلاص وسُقِيَتْ بالإسلام، وانتبهَتْ بالإيمان أنبَتَتْ شجرة نورانية مثالية من عالم الأمر هي روحٌ لعالمه الجسماني، وإنْ لم تُسْقَ بَقَتْ نواة يابسة منكمشة لائقة للإحراق بالنّار إلى أن تنقلب إلى النّور).[2]

ولا يليق بهذا القلب أن يشتغل بأمور الدنيا في حدّ ذاتها، بل أن يجعلها غراسا للآخرة، لأنّه إذا تعلّق بالشيء فإنّه يتعلّق بشدّة، وهذا لا يليق مع كلّ ما يوصف بالزوال والفناء، ولا تكون فيه لذّة حقيقية، بل يكون مصحوبا بالآلام والخوف من الفراق وتُضعِفه المفتونية الزائدة، ولذلك فإنّه يليق بالقلب التوجه إلى معرفة الله ومحبّته ومحبّة ما يُقَرِّبْ من حبّه ونيل رِضاه، لينجو من ضيق الدنيا

وزخرفتها، ويتحرَّر من مخاوف الفراق ويعرف السبيل إلى تحقيق رغبته في البقاء.

(وكما أنَّ مرضَ القلب المادي يعني مرضَ الإنسان، واختلال جميع أفعاله، كذلك مرض القلب المعنوي بالخِداع والانحراف، يعني انحراف كُلّ أفعال الرّوح عن منهج الاستقامة، إذ هو منبعُ الحياة وماكِنَتُها).[3]

ومرض القلب المعنوي يَحرمه من مشاهدة جمال القرآن أيضا، أمّا سلامتُه فتفتح أمام الإنسان نوافذ لمشاهدة ذلك الجمال، ولذلك حذّر النورسي من أمراض القلب لأن من يصاب بها يحرم من مشاهدة آثار الجمال وتذوق ثمراتها التي يلفت القرآن أبصارنا

[1] سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص80-81.
[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص224.
[3] خديجة النبراوي، مشكلات عقلية وقلبية للإنسان، ط2، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2004، ص15.

وأفئدتنا نحوها، أو قد يراها مشوهة بخلاف صورتها الحقيقية ولكنه منع منه الذوق بسبب العلة.

ويبقى الهدف الأسمى هو إدراك قيمة هذه اللّطيفة النورانية المكنونة في ماهية الإنسان، وإمدادها بأنوار الحقيقة وتعلُّقها بما يليق وما ينفع، حتّى يسلم الإنسان من الهلاك ومن الأمراض ومن الحرمان من الحقائق التي لا تُحَدّ، بل يستحق أن يكون نواتها ومظهرًا لها، وحتّى لا يُحْرم الإنسان من السكينة والطمأنينة، ويستنير ويسمو في معارج الخيرات وينعم بمرضاة الرّحمن الذي أودع في قلب الإنسانِ الصغير الكثير من الأنوار والأسرار.

وأمّا العقل من منظور النورسي فهو:

(أفضل أجهزة الإنسان وأرقاها، إنْ اسْتُعْمِلَ بِسِرِّ التوحيد، فإنّه يصبح مفتاحا ثمينا بحيث يفتح الكنوز الإلهية السّاميّة، مألوفا من خزائن الكون.. بينما إذا تخبّط ذلك العقل في وَحْلِ الضّلالة والكفر فإنّه يصبح آلة تعذيب ووسيلة إزعاج، بما يجمع من آلام الماضي الحزينة، ومخاوف المستقبل الرّهيبة).[1]

ويذهب النورسي إلى أن هذا العقل له وظيفة كونية سامية، فقد أثبت الاستقراء التام والأبحاث العلمية أنّ اعتبار الإنسان أكرم المخلوقات وأشرفها مَرَدُّه قدرته على اكتشاف مراتب الأسباب الظاهرية في خلق الكائنات ونتائجها، ومعرفة ما يقوم بين العلل والأسباب المتسلسلة من خلال مَلَكة العقل التي حَبَاهُ الله بها، وميّزه بذلك عن سائر المخلوقات.[2]

ولكنه في الوقت ذاته يحذّر من محاولة العقل التَّطاول للإحاطة بهذا العالم وتجاوز دائرة الإمكان مُحَاوِلا النفوذ إلى الخارج، لأنّ مصيره سيكون إمّا الغرق في قطرة، أو الفناء في ذرة، وسيقود كلُّ الوجود إلى الفناء معه فيما انحصر فيه.[3]

وهذه عقوبة المحاولات التي تكشف غرور "العقل"، وانحرافه عن دوره الأساس، فهو إمّا أن يكون عُضوًا مشؤومًا إذا استُعمل في سبيل الهوى والنفس الأمارة، ويفتح لك آلام الماضي وأحزان الواقع ومخاوف المستقبل، ويقودك إلى طريق الضلالة حتى. وإمّا أن يرقى إلى مرتبة سامية، ومكانة عالية، وقيمة عالية، وقيمة غالية، ويصبح مُرشِدًا ربَّانيًا، فيفتح خزائن الرحمة الإلهية، ويشاهِدَ كنوز الحكمة الإلهية، ويطمئن صاحبه بما ينتظره من سعادة أبدية.

---

[1] سعيد النورسي، الشعاعات، ص19.

[2] سعيد النورسي، صيقل الإسلام، ص503 .

[3] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص229.

وهكذا يمارس العقل وظيفته الإرشادية، ولا يتوقف عند الوظيفة العضوية المحضة التي لا يُؤْمَن عليها من الوقوع من الشبهات والضلالات، حتى يصير العقل آلة تعذيب لأنّه اسْتُعمل في غير وظيفته الحقيقية، سواء بالإفراط أو بالتفريط، حتى يصير الإنسان أضلّ من الأنعام، ومُسْتحقًا للعذاب الإلهي في الدنيا التي تصوّرها مأتمًا تَعْلوه راية الفراق والزوال، ومَسْرَحًا للمصائب والصراعات، فكان لائقا أن يعيش من سار في هذا الطريق في جهنّم معنوية في هذه الدنيا لائقة مع تصوّراته ومخاوفه، وجهنم حقيقية في دار البقاء التي لم يُعِدُّوا لها العُدّة.

(إنّ العقل بّكُلِّ عمل من أعماله التي يُناطُ بها التكليف حُجَّةٌ على المكلّفين فيما يَعْنيهم من أمر الأرض والسماء، ومن أمر أنفسهم، ومن أمر خالقهم، وخالق الأرض والسماء. وفلسفة النورسي تُقَرِّر أن التفكير ضرورة إسلامية وضرورة التفكير تشمل العقل الإنساني بِكلّ محتواه).[1]

ولذلك فإن كثيرا من الآيات القرآنية تُحيل الإنسان إلى العقل في بداياتها أو رؤوسها، وتتكرر الكلمات التي تدعو إلى استعمال العقل مثل أفلا يعقلون، أو النّظر والتدبّر والتفكّر مثل أفلا يتذكرون، أفلا يتدبرون، أفلم ينظروا...حتى لا تبقى للإنسان حُجّة لتعطيل العقل عن عمله وحَجْبِه عن التدبّر في ما حوله حَتى يهتدي إلى خالقه ويدرك قيمة وجوده ومهمّته في الحياة والدّور المنوط به.

(فالله تعالى هو خالق هذه القِوى في نفس الإنسان وهي فطرة فيه، وهي أدوات مسخّرة له كي يعملها في الطاعة بالقسط، وما كان خالقُها ليطلُب من الإنسان سَحْقَها وبَتْرَها، ولكنّهُ أرسل الرُّسل والرّسالات لِتدُلَّ الإنسان على سُبُل تهذيبها واستثمارها في النّفع).[2]

المطلب الرابع: الحكمة من إدراج صفتي العجز والفقر في ماهية الإنسان

إنّ الخالق الحكيم قد خلق "الإنسان" في أحسن تقويم وجعله مُكَرَّمًا ونفخ فيه من روحه، وزوّدهُ بأجهزة ولطائف عجيبة، وأنعم عليه بالعقل ليسترشد، وبالقلب ليستهدي، وأمدَّه بالوجدان ليكون نقطة استمداد له حتى لا ينسى خالقه مهما عطّل العقل نفسه وغفل عن دوره ووقع في الجحود والنُّكران. وكلّ هذه النّعم التي أسبغها الله على عباده لا تتعارض مع إدراج صفة "العجز" وصفة "الفقر" في ماهية الإنسان، بل هي لِحِكمة بالغة، ولا تُقلّل من شأن الإنسان، بل هي كنزٌ مندرج في ماهيته.

يقول الأستاذ النورسي موضحا الحكمة من ذلك:

---

[1] سامي عفيفي حجازي وأحمد عبد الرحيم السايح، مرجع سابق ، ص129.

[2] خالد الصّمدي، مقال بعنوان: مقاصد الإيمان بالآخرة ضمن حلقة دراسية بعنوان: البُعد الأخروي في رسائل النور، ص100.

(إنّ الله سبحانه قد أدرَجَ في الإنسان عجزًا لا حدَّ لهُ، وفقرًا لا نهاية لهُ، إظهارًا لقدرته المطلقة وإبرازًا لرحمته الواسعة. وقد خَلَقه على صورة معيّنة بحيث يتألّم بما لا يحصى من الجهات، كما أنّه يتلذّذُ بما لا يُعَدُّ من الجهات، إظهارًا للنقوش الكثيرة للأسماء الحسنى (...) وكما أنّ ما فيه من أمور نافعة –كالصّحة والعافية وغيرها- تدفعه إلى الشكر وتسوق تلك الماكينة إلى القيام بوظائفها من عدّة جهات، حتى يغدو الإنسان كُلُّهُ ماكينة شُكر. كذلك الأمر في المصائب والأمراض والآلام وسائر المؤثرات المهيّجة والمحرّكة، تسوق الدواليب الأخرى لتلك الماكينة إلى العمل والحركة وتُثيرها من مكمنها فتفجّر

كنوزَ العجز والضعف والفقر المندرجة في الماهية الإنسانية).[1]

إنّها لَحكمة بالغة أن يُدرج الخالق الحكيم في "الإنسان" من الصّفات ما يجعله يتقوّى بخالقه حين المصائب والبلايا، ويفرّ من حوله وقوّته الموهومة إلى حول الله وقوّته المطلقة، فينزل الله عليه من الرّحمات ما يجعله قادرًا على دَفْع هجمات الأعداء وما يهدّده من الآفات.

إنّ الإنسان يُمكنه أن يحصّل من المنافع والفوائد بعجزه وفقره، ما لا يحصّله بقوّته الموهومة وقدرته الزائفة. بل إنّه بقوة ضعفه، وقدرة عجزه يزداد قوّة؛ إذْ تفتح له خزائن الرّحمة، ويُسخرُ له بالاستمداد والدُّعاء ما لا يتوفر له بالقوة فيدرك حينها أنَّ خَالقهُ أودع فيه هذه المعاني ليدرك حاجته إليه دائما فيتفوّق بالتسخير لا بالغلبة وبالتدلّل لا بالغرور. فعليه أن يعلن عجزه وضعفه وفقرَه وفاقته بالاستمداد والتضرع والعبودية بين يَدَيْ مالك المُلْك، ويضرب النورسي مثالا لذلك فيقول:

(إنّ الإنسانَ في هذا الكون أشبه ما يكون بالطّفل الضعيف المحبوب يحمل في ضعفه قوّة كبيرة وفي عجزه قدرة عظيمة؛ لأنه بقوّة ذلك الضّعف وقدرة ذلك العجز سُخِّرت لهُ الموجودات وانقَادَتْ. فإذا ما أدرك الإنسانُ ضعفَه ودَعَا ربّهُ قولاً وحالاً وطورًا، وأدرك عجزَه فاستنجدَ واستغاثَ ربَّه، وأدَّى الشُّكرَ والثّناء على ذلك التسخير، فسَيُوفّقُ إلى مطلبه وستخضع مقاصدُه وتتحقق مآرِبُه وتأتي إليه طائعة منقادة مع أنَّهُ يعجزُ عن أن ينال بقدرته الذاتية الجزئية المحدودة بل ولا يتسنّى له عُشْرُ مِعشَارُ ذلك)[2]

وزيادة على ذلك، فإن الأستاذ النّورسي يلفُتُ انتباهنا إلى فرق جوهري بين الإنسان والحيوان بخصوص الاستعدادات المودعة في كليهما، فهو يرى أنّ كمال ذكاوة الحيوان وكذا مهارته في العلم العملي المتعلق بحياته عند قدومه إلى الدنيا يُفْهَمُ

[1] سعيد النورسي، اللممعات، ص18-19.

[2] سعيد النورسي، رسالة: الإيمان وتكامل الإنسان، ترجمة: إحسان قاسم الصّالحي، ط7، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2011، ص53-54.

منه أن هذه الكائن لم يُرْسل إلى الدنيا للتكمّل بالتّعلم، بل الغرض من خروجه إليها هو التّعمُّل. بخلاف الإنسان الذي يكون عند خروجه إلى هذه الدنيا في جهالة وعجز واحتياج إلى التعلم في كلّ متطلباته واحتياجاته ويستمر ذلك معه طوال عمره، فهو محتاج إلى التكمُّل بالتعلم. كما يطلب منه الاستفادة من كلّ ما سخّره الله له من هذا الكون، بالإضافة إلى التوجه إلى خالقه بالدّعاء والتعبّد لأنّه هو الذي أخرج له كُلّ هذه الموجودات التي سخرها لأجله مع نهاية ضعفه وغاية فقره.[1]

إنّ هذا العجز الظّاهر هو مصدر القوّة، وهذا الفقر هو مصدر التّعفّف والاستغناء وكلاهما نعمة كبرى، تجعل الإنسان في علاقة دائمة مع خالقه، فيمدّه بأكثر مما يطلب، ويدهشه بأكثر ممّا يسأل وينتظر. فهي إذن ليست مصيبة ولا نقصًا، بل هي عطية ومفتاح لخزائن الرحمة الإلهية التي لا تنفد، ودعوة للتكمّل في سيرورة هذه الحياة، وإلاّ ماذا بقي للإنسان إن هو انقطع عن خالقه واستغنى عنه بنفسه وركن إلى ذاته وقدراته، فأي لذّة سيجد وأي عبودية سيعيش!

ويحذرنا الأستاذ النورسي من سوء فهم المراد الحقيقي بـــ "العجز" و"الفقر" لأن ذلك يؤدي إلى الخطأ.فالمعنى الحقيقي هو إظهار ذلك كله أمام الله وحده دون العباد فهم لا يملكون ضرا ولا نفعا، ولذلك وجب استبعاد الفهم المتبادر من التوجه الأولي إلى اللفظ،و لنستيقن أن المراد الحقيقي هو نقيض تلك المعاني المشهورة، لأنه في حقيقته قوة تحرر الإنسان إظهار العجز أمام البشر العاجزين إلى إظهاره بين يدي الله القوي المتين.

هذه هي المصيبة الحقة التي قد تَحُلُّ على الإنسان إذا أصابت تَدَيُّنَهُ، لأنّها تُصبح مضرَّة وهلاكا له ولذلك كان لِزاما عليه اللّجوء إلى الله سبحانه وتعالى والتضرّع إليه والاستغناء به عمَّنْ سِواه. وأمّا غير ذلك من المصائب الظاهرة فهي في حقيقتها لا تعدو أن تكون تنبيها رحمانيا ليوقظ العبد من الغفلة، أو كفّارة للذنوب، أو منحة إلهية لتطمين القلب وإنزال السكينة عليه وبذلك تزول الغفلة ويستشعر الإنسان ذلك العجز والفقر الكامن في جِبِلّته. وأمّا مصيبة المرض مثلا فهي لُطف ربّاني لتطهير الإنسان من الذنوب التي اقترفها، وهذه أيضا نِعمة كبيرة تمنح له فُرَص لتخفيف العذاب في الآخرة. وقد يصل الإنسان في مِعْراجه الروحاني إلى سؤال الله أن يرفع عنه الضّر ليس لأجل نفسه وراحته، وإنّما إذا أصبح المرض حائلاً ومانعًا للعبادة مثل ما حدث مع سيدنا أيوب –عليه السلام- إذ طلب الشفاء وسأل الله أن يمدّه برحمته.[2]

---

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص470.

[2] سعيد النورسي، اللمعات، ص15-16.

ولا يفوتنا هاهنا أن نُنبّه أن تأكيد هذه المعاني للعبودية وفق رؤية النورسي ليس معناها أن تجعل العبد ذليلا مستكينا أمام الله وأمام الناس أيضا، ممّا يؤدي إلى الخمول والعطالة في حياته.

(إنّ العبودية التي يريدها الرّجل (أي النورسي) هي تلك الحالة التي تجعل المسلم يستسلم لله وحده، ويُسَلّم قياده له لا شريك له، ليُخْرِجَ من قلبه كلُّ الأرباب، ولِتَفْقِد كلُّ الرّبوبيات بريقها أو سطوتَها، فيغدو القلب العامرُ بذكر الله خاليا من كلّ خوف أو رجاء إلاّ منه سبحانه).[1]

ويعلن النورسي عن عجزه وفقره وحاجته لِخالقه بتضرعه إليه قائلاً:

(إلهي تبرّأتُ إليك من حولي وقوّتي، والتجأت إلى حولك وقوّتك فلا تكلني إلى حولي وقوّتي، وارحم عجزي وضَعفي وفقري، وفاقتي. فقد ضاق صَدري، وضاع عمري، وفَنيَ صبري، وتاه فكري، وأنتَ العالمُ بسِرّي وجهري، وأنت المالك لِنفعي وضرّي، وأنتَ القادرُ على تفريج كُربتي وتيسير عُسْري)[2]

إنّ هذا الإشهار للعجز المطلق يفجّرُ عطايا العبودية، وهذا ما تحقّق في حياة سعيد النورسي التي كانت تطبيقا حيًّا لِمَا يُعلِنُه من حكم وحقائق، لأنه قد عرف بالعجز والفقر غير المحدودين الكامنيْن في حياته، قدرة خالقه المطلقة، ورحمته الواسعة، من حيث إزالة حاجاته التي لا تنتهي، ودفْع أعداءه الذين لا يُعَدُّون، فعلم وظيفة العبودية وتزوَّدَ بالسّؤال والدعاء والالتجاء والتذلّل بين يدي خالقه عزّ وجلّ.

ويرى الأستاذ النورسي أنّ معاني العجز والفقر تجْعل العارف بالله يتلذّذُ بها ويتبرّأ إلى الله براءة خالصة من حوله وقوّته، ويلوذ بعجزه إلى القوي المتين مُقدّمًا عجزه وفقره وسيلتين تشفعان له عند العزيز الحكيم، وتحقق له الشعور بالمعيّة والرّعاية.

وفي لفتة أخرى تنُمُّ عن ذوق ومكابدة يزيد سبيل العجز تأكيدًا للوصول يجعل الأستاذ النورسي

العجزَ كالعشق فهو طريق موصِل إلى الله، ولكن العجز في رأيه أقربُ وأسلمُ فهو موصل إلى المحبوبية بطريق العبودية، أمّا العشق فتتّحد فيه الوسيلة والغاية، وتُنزعُ منه اللّذة في المكابدة ذلة تُبتغَى وانكسارًا يُراد، فضلا عن أنه على حد تعبير الأستاذ النورسي طريق لا تصفو دلاؤُه. وبإشهار العجز المطلق بين يدي خالق الأكوان تتفجّر

[1] محمّد عبد النبيّ، مقال بعنوان: تربية النفوس عند بديع الزمان النورسي، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، إسطنبول-تركيا، العدد04، يوليو 2011، ص80-81.

[2] المصدر السابق، ص455.

عطايا العبودية، وهو حين شبه العجز بالعشق أقام إشعارا ضمنيا باللّذة التي تصاحبه، وخاصة حين يرتبط بالخوف والرجاء الذي يَعُدُّه طريق المحبوبية.[1]

المطلب الخامس: الأنا في الإنسان

وإذا حاولنا التوفيق بين كلّ معاني التكريم والتفضيل التي حظي بها الإنسان وحمله للأمانة ثم وصفه بأنه كان ظلوما جهولاً، وجدنا أن الإنسان هو الوحيد من بين مجموع المخلوقات الذي كان أهلا لتحمُّل الأمانة التي عُرضتْ من قبل على السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقْن منها، ولمّا حَمَلها الإنسانُ تحتّم عليه أن يتعرض لتَبِعاتها ويتحمّلها، ويقترف الظُّلم حين يتعدَّى على الحدود وهو عارف بها، ويقع في الجهالة إذا تعدَّى على الحدود وهو غير عارف بها.

(أجلْ! إنّ "أنا" مع أنّه أَلِفٌ رقيق، خيط دقيق، خُطٌّ مفترض، إلاّ أنّه إنْ لمْ تُعرفْ ماهيتُه ينمو في الخفاء-كنموّ البذرة تحت التراب - ويكبرُ شيئا فشيئا، حتى ينتشر في جميع أنحاء وجود الإنسان، فيبتلعه ابتلاع الثعبان، فيكون ذلك الإنسان بكامله وبجميع لطائفه ومشاعره عبارة عن "أنا". ثم تمدّه "أنانية" النوع نافخة فيه روح العصبية النوعية والقومية، فيستغلظ بالاستناد على هذه الأنانية حتى يصير كالشيطان الرجيم يتحدّى أوامر الله ويعارضها، ثم يبدأ بقياس كلّ النّاس، بل كلّ الأشياء على نفسه ووفق هواه، فيُقسِّمُ مُلْكَ الله سبحانه على تلك الأشياء، وعلى الأسباب فيترَدَّ في شِرك عظيم)[2]

ففي حين كان لِزاما على الإنسان أن يوحّد، انحرف فأشرك، وفي حين كان لزاما عليه أن ينوّرَ، انطفأ فأَظْلَمَ، واختار أن يَنْظُرَ إلى الخلق بمنظار "أنا" فوقع فيما هو أسوءُ إذْ قسَّم مُلْكَ الله عليهم، وهكذا تحولت "أنا" إلى نقطة سوداء مظلمة يكسوها رداء الغفلة والشرك.

وبهذا تنكشف خطورة انطماس "أنا" الإنسان إذا غرق في هذا الوضع المتلبِّس بلباس الخيانة للأمانة، إذ يحيط به الجهل وتنطفئ كلّ المعارف حتّى لو كان محيطا بالعلوم لأنّه لا يجدُ في نفسه المادّة التي تنوّرُه وتغذيه.

أي إنّ "أنا" لا يحمل معنى في ذاته، بل يدلُّ على معنى في غيره. ولكن لـــ "أنا" وجهان: (وجه متوجّه للخير والوجود، فهو في هذا الوجه يتلقى الفيض ويقبله فحسب، أي يقبل الإفاضة عليه فقط، إذ هو عاجز عن إيجاد شيء في هذا الوجه، أي ليس فاعلاً فيه، لأنّ يَدَه قصيرة، لا تملك قدرة الإيجاد. والوجه الآخر متوجّهٌ إلى الشّر، ويفضي إلى العدم، فهو في هذا الوجه فاعل وصاحب فعل..

---

[1] محمد عبد النبي، مقال بعنوان: أذواق وأشواق في الطريق إلى الله، أنظر: سعيد النورسي عملاق الفكر الديني في العصر الحديث، ص83-84

[2] سعيد النورسي، الكلمات، ص639.

وكما بذل الأستاذ النورسي جهودا في تقديم تعريفات كثيرة كما سبق بيانه، فقد حاول أيضا معرفة ماهية "أنا" في الإنسان فهو سؤال محير شغل الكثيرين. وقد لجأ إلى تعريف "أنا" ليأخذ بيد الإنسان إلى معرفة الله مسترشدا بأسرار الآية الكريمة اِنَّا عَرَضْنَا الأمانة-الأحزاب 72[1]

ثم إنّ ماهية "أنا" حرفية، أي يدل على معنى في غيره، فربوبيتُه خيالية، ووجوده ضعيف وهزيل إلى حدّ لا يطيق أن يحمل بذاته أيَّ شيء، بل في وجوده يعتمد على اللّطف الإلهي، ويعكس تجليات أسمائه الحسنى، فالذي يعرف ماهية "أنا" على هذا الوجه ويذعن له، ثم يعمل وفق ذلك وبمقتضاه يدخل بشارة قوله تعالى: قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا- الشمس، الآية 9، ويكون قد أدَّى الأمانة حقّها.)[2]

فإذا أراد الإنسان أن يحظى بموقع مرموق بين الكائنات، فلابدّ أن يسلك طريق الإيمان والعبودية لله وحدَه، أمّا إذا استنكف عن ذلك أو استكبر فمآله إلى دركات الذلّ والمهانة، لأنّ إتباع النفس الأمارة بالسوء قد توقع الإنسان في جناية عظيمة، وأمّا إذا خالف الهوى وتخلّى عن الأنانية وابتغى الخير وسعى إليه واستند إلى صاحب الأمر ومالك الملك واعتمد على اللطف الإلهي عاد إلى فطرته الأولى سليما متّزنًا.

لابد للإنسان أن يدرك قيمته الوجودية الكبيرة، ويدرك ما أودع الله فيه من عجائب ولطائف، تؤهِّلُه ليتمتع بمكانة مميّزةٍ وخاصّةٍ بين الموجودات.

(فالإنسانُ إذا عرف "أنا" ما هو: بأنْ رآهُ شعرةً شعورية في حبل وجود الإنسان، وخيطا رقيقا في ثوب ماهية البشر، وألِفًا في كتاب الشخص؛ له وجهان: وجه إلى الخير، قابلٌ للفيض فقط، لا فاعل، ووجه إلى الشّر والعدم وبه فاعل. وماهيته موهومة، وربوبيته مخَيَّلَة، ووجودُه أضعف من أن يتحمَّل شيئا بالذَّات، بل إنّما هو كميزان، وأمثاله من الموازين، التي يُعْرَفُ بها: مقاديرُ الأشياء. فـ "أنا" أيضا ميزان يُعرَفُ به الصفات المحيطة المطلقة للواجب الوجود، وأذعنَ: دخل تحت قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا- الشمس، الآية 9، وأدّى الأمانة بحقّها.)[3]

ويرى الأستاذ سعيد النورسي أن "أنا" طلسم عجيب، ولكنْ إذا انحلَّ وانْكَشَفَ معناه وعُرِفَتْ ماهيتُه، فإنّه يغدو مفتاحًا يُفتَحُ به لغزُ الكون وكنوز عالم الوجوب، وتنفتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية أيضا؛ لأن مفتاح العالم في نفس الإنسان، والله عزّ وجلّ أودع في الإنسان هذا المفتاح لأن الكائنات منغلقة حقيقة مع أنها تبدو مفتحة الأبواب في الظاهر.

---

[1] خديجة النبراوي، مشكلات نفسية للإنسان، ط2، دار سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ص200.

[2] سعيد النورسي، الكلمات، ص 403-404.

[3] فريد الأنصاري مرجع سابق ص113.

(إنّ الله جلّ جلالُه وضَعَ بيَدِ الإنسان أمانة هي "أنا" الذي ينطوي على إشارات ونماذج بها يستدل على حقائق وأوصاف ربوبيته الجليلة وشؤونها المقدسة. أي يكون "أنا" وحدة قياس تُعرَفُ بها أوصاف الربوبية وشؤون الألوهية.

ومن المعلوم أنَّه لا يلزم أن يكون للوحدة القياسية وجود حقيقي، بل يمكن أن تركَّب وحدة قياس بالفَرَض والخيال، كالخطوط الافتراضية في علم الهندسة. أي لا يلزم لـــ "أنا" أن يكون له وجود حقيقي بالعلم والتحقيق).[1]

إن العبرة الحقيقية والثمرة المعنوية هي إدراك المعنى الذي تدل عليه "أنا" في غيرها، وليس في نفسها، فهي تشبه في عملها المرآة العاكسة، ولها وجهان، أحدهما متوجّه إلى الخير، والآخر متوجّه إلى الشّر؛ إذ يفضي الأول إلى الوجود، ويفضي الآخر إلى العدم. فمن عَرف ماهية "أنا" وفق الوجه المتوجّه إلى الخير وأعلنَ عجزَهُ عن أدنى شكل من أشكال الإيجاد، بل أقرّ بأنه مجرّد متلقي للفيوض الإلهية، فتقوده هذه المعرفة إلى الإذعان وتلقّي كُلّ ما يَرِدُ إلى النَّفس من الآفاق بالتصديق حتّى تستقرَّ تلك الواردات فيها كعلوم نورانية وثمار طيّبة معنوية.

إنّ الإنسان منْ منظور رسائل النور، وفي الرؤية النورسية ثمرة لشجرة الخِلقة، ومن المعروف أن الثمرة تجمع كُلُّ العناصر المكوّنة للشجرة في نواتها، وغِرَاسها يعطي أشجارًا أخرى، وفهرستٌ لهذا الكون الرَّحْب، ممّا يدل على جامعيته وشموليته الخلقية. وهو رغم جهالاته وضلالاته يحمل استعدادًا جَامعا كأنه أنموذجُ مجموع العالم. وزيد على كُلّ ذلك أن أودِعت فيه اللطائف والأجهزة والأمانة الذين يفهم بهم الكنوز المخفية ويفتحها، وجُعِلَتْ قواه مُرسلة مطلقة ولم تُحَدَّدْ، وكُلّ ذلك ممزوج بعجز وفقرٍ لخالقه ينقلِبان بسِرّ التوحيد إلى قوّة وقدرة. وهو في الإجمال عند النورسي من حيث الماهية قائم على رؤية قرآنية، خلص إليها الأستاذ النورسي من خلال تأمّلاته وسياحته التدبرية في كتاب الكون والكائنات المكتوبات على صفحاته، وكانت كُلُّها مسْتمدَّة من فيض القرآن وأنواره، وبذلك اكتسب الإنسان هذا المفهوم الوجودي في فكر النورسي.

المبحث الثاني: الغاية من خلق الإنسان

إن الإنسان الذي يراه النورسي ثمرة شجرة الخِلقة، بسبب ما يحمله من جامعية الاستعداد، وهذه الجامعية بدورها تحمل قابلية للعبادة، وهذه القابلية بدورها تُخبرنا أنّه لم يُخلقْ عبثا ولا ليخلد إلى الفاني ولا إلى الخلق، بل خُلِق لِغاية تصْرِفُه إلى الباقي

[1] سعيد النورسي، رسالة: حرف من كتاب "أنا" الكبير نقطة من بحر "الذرة" العظيم، ترجمة: إحسان قاسم الصّالحي، ط2، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2009، ص16.

وإلى الحقّ، لِتكُون ميولُه نحو عبادة خالِقه، والتوجّهِ إليه شهادةً فطرية على وُجوب وُجود الواحد الأحد الذي أبدع هذا الإنسانَ بِتِلْكَ الهيئة وأودَعَ فيه تلك الاستعدادات كلَّها حتّى صار مُمَيَّزًا بين كل المخلوقات، وقادرًا على القيام بأنواع شتّى من الوظائف والعبادات.

المطلب الأول: مفهوم العبادة عند النورسي وأثرها على الإنسان

إنَّ مفهوم العبادة عند الأستاذ النّورسي عميقٌ ودقيق، كيف لا وهو مرتبطٌ بِعلاقةِ الإنسان بخالقه، وبها يكتسبُ الإنسانُ أيضا المعنى الحقيقي لوُجُوده، فهي حسب رأيه:

(حَبْلُ الوِصال، أَوْ نقطةُ اتصَالٍ بين المبدأ والمنتهى، تَصْرِفُ وجهَ الإنسان من الفَنَاء إلى البَقَاء، ومِنَ الخَلق إلى الحقّ، ومن الكثرة إلى الوحدانية، ومن المنتهى إلى المبدأ).[1]

فما دام الإنسان - حسب الأستاذ النورسي- هو ثمرةُشجرة الخلقة، وما دامت الثمرة هي أبعدُ شيء عن البذرة، وبما أنه أجمعُ لخصائص الكلّ وله نظرٌ عام إلى الجميع ووجهُهُ متوجّهٌ إلى الكثرة من المخلوقات وإلى الفناء، فإنّ العبادة هي التي تغيّرُ وِجهتَه ونظَرَهُ، وتُحَقِّق له الوصال في الدنيا بالذي
يضمن له البقاء في الآخرة.

كما يرى الأستاذ النورسي أنّ الإنسان إذا حافظ على قيمته الوجودية ومكانته الكونية الحقيقية فإنّ العبادة ستُصبح بالنسبة له مِعراجًا إلى عرْش الكمالات والفضائل، بخلاف الإنسان الذي يختار أن يضيع في الكثرة ويغرق في حبّ كلّ ما سِمَتُهُ الزّوال، فذلك حَتْمًا سيخسر دُنياه وآخرته، ويُعْدِمُ نفسَه مَعْنًى، ولذلك يقول الأستاذ:

(ولكن إذا رفعَ هذا الإنسانُ رأسَهُ واستمعَ بقلبٍ شهيد لدُرُوس الإيمان من لِسانِ القرآن، وتوجَّه إلى الوحدانية فإنَّه يستطيع أن يصعدَ بِمِعْرَاجِ العبادة إلى عرشِ الكمالات والفضائل فيغدو إنسانًا باقيا.)[2]

ثم يسمو بنا الأستاذ إلى آفاق نورانية أخرى ليكشف لنا عن أسرار قرآنية في تفسيره لقول الله عزّ وجل: ُّ...َّالفاتحة: ٥التي قال فيها:

(أي نعبُدُ نحن معاشر أعضاءِ وذرّاتِ هذا العالم الصغير –و هو أنا - بالشُّكر العُرفي الذي هو إطاعةُ كلٍّ لِمَا أُمِرَ به.. ونحنُ معاشرَ الموحّدين نعبد بإطاعة شريعتك... ونحن معاشر الكائنات نعبد شريعتك الكبرى الفطرية ونسجد بالحيرة والمحبّة تحت عرش عظمتك وقدرتك.

[1] سعيد النورسي، الكلمات، ص412.
[2] المصدر نفسه، ص413.

وجهُ النّظم أنّ "نعبُدُ" بيانٌ وتفسير لـ "الحمد" ونتيجة ولازم لـ "مالك يوم الدين". واعلم أنّ تقديم "إياك" للإخلاص الذي هو روح العبادة، وأنّفي خطاب الكاف رمزًا إلى علّة العبادة، لأنّ من اتّصف بتلك الأوصاف الداعية إلى الخطاب استحقَّ العبادة.)[1]

إنّه تفسير يستوعب جوانب شتّى، ويجمع شتاتها ويربط بينها بعلاقات وروابط ذوقية وروحانية ونورانية بدءًا من العالم الصغير الذي يؤدّي الشكر العرفي بكلّ أعضائه وذرّاته بطاعة كلّ الأوامر، فمعاشر الموحّدين جميعا الذين يؤدون واجب العبادة بإطاعة الشريعة الإلهية، ثم معاشر كلّ الكائنات الذين لا يخرجون عن دائرة العبادة، بل إنهم أيضا معنيون بأدائها بل ويزيدونها خشوعا وخضوعا بسجودهم تحت عظمة عرش خالقهم بكلّ محبّة.

فليس الإنسان وَحْدَهُ مَعْنِيًا بالعبادة، بل إنّ كُلّ المخلوقات والكائنات تعبد الله وتتوجه إليه وتخضع له، ولذلك يخاطبنا الأستاذ النورسي قائلا:

(اعلمْ أن القرآن الكريم يُصرّحُ: بأن كلَّ شيء من العرش إلى الفَرش، ومن النجوم إلى الهوام، ومن الأملاك إلى الأسماك، ومن السيّارات إلى الذّرات يعبد الله ويسجد له ويحمد ويسبّح له، إلاّ أنّ عباداتها

متنوعة).[2]

وبدل أن يتوجه الإنسان إلى عبادة ربّه، يشغلُ عقلَه بأسئلة تزيده تيهًا وضياعا وبُعْدًا عن طريق الحق، ويقول ما حاجة الله –سبحانه وتعالى- إلى عبادتنا، فهو الغنيّ عنّا، ولماذا يزجرنا ويتوَّعدنا بأشدّ العذاب، بل ويتعجب هذا الإنسان من معاقبته على خطأ يعتبره جزئيا لأنّه يتماشى مع أسلوب التهديد والوعيد الذي خوطب به الإنسان المقصّر في عبادته.

فيجيب الأستاذ النورسي هؤلاء الغافلين عن حقيقة العبادة قائلا:

(حقًا إن الله سبحانه –الغني بذاته-لا حاجة له قط إلى عبادتك أنت – أيّها الإنسان - بل هو سبحانه لا حاجة له لشيء قطّ، ولكنّك أنت المحتاج إلى العبادة، وأنتَ المفتقر إليها. فأنت مريضٌ معنًى، والعبادة هي البلسم الشافي لجراحات روحك، وأوجاع ذاتك.)[3]

أما باقي المخلوقات والكائنات التي تعبد الله وتسبحه وتسجد له، ولكن نحن البشر لا نفقه تسبيحها، فإن النورسي يوضح لنا الحكمة من خلقها وإيجادها بقوله:

---

[1] سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص28.
[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص446-447.
[3] سعيد النورسي، اللمعات، ص262.

(كذلك إنّ مالك السماوات والأرض وبانيها، استخدم واستعبد الملائكة، ثم الحيوانات، ثم الجمادات والنباتات، ثم الأناسي، لا للحاجة، إذْ هو خالقُهم وما يعملون، بل للعزّة والعظمة وشؤونات الربوبية وغير ذلك).[1]

فالعبادة عند الأستاذ النورسي:

(اسم جامع لكلّ ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وهي الغاية من خلق الإنس والجن).[2]

وهذا استنادا إلى الآية الكريمة:ﱡ□□□□□□ﱠالذاريات: ٥٦،التي يفهم منها أن الغاية من مجيء الإنسان إلى هذه الدنيا الفانية هي معرفة الله عزّ وجل والإيمان به وعبادته وحده سبحانه كما يحب ويرضى.

ويذكرنا الأستاذ النورسي بهذه الغاية حتّى لا نغفل عنها ولا نقع في تبعاتها، لأنّ الإنسان قد ينحرف عن الطريق الصحيح الذي أراده له خالقه وتختلط عليه المقاصد والغايات إن هو أمعن النَّظر في الدنيا وزخرفها والموجودات ومفاتنها والكائنات وكثرتها، فينبهُهُ الأستاذ قائلا:

(اعلمْ يا من يدعو المسلمين إلى الدنيا، أخطأتَ! أتحسبُ أيها الغافل أنّ المطلوب بالذات من الإنسان هو عمارة الدنيا واختراع الصنايع وتحصيل الرّزق وغير ذلك ممّا يعود إلى الدنيا؟ والحالُ أنّ صاحبَ الملك الذي أمره بين الكاف والنون يقول بقوْلٍ يُصدّقُه الوجودُ والكونُ والواقعُ وتجهيزات الفطرة الإنسانية،ﱡ□□□□□□ﱠالذاريات: ٥٦ ﱡأني□ير□□ين□□□□...ﱠالعنكبوت: ٦٠ أم تزعُم أنّ من صَنَعَكَويَصْنَعُكَيتجدد وجودك في كل زمان يحتاجُ لِمَا تصنعُ في نظام مُلْكه وإلى توسيطك فيتصرُّفاته؟..أترى كلَّ مصنوعات البشر تساوي خلقة نخلة أو نحلة أو صنعة عين أو لسان؟)[3]

إنّ التَّوجه البشري إلى الجانب الدّنيوي ليس هو الغاية القصوى في حدّ ذاته، بل إنّه عبادة في حدّ ذاته ويُتقرّبُ إلى الله بها، لأنّ الإنسان في كلّ ذلك يُسَخِّر كُلَّ ما أنعم به الله عليه من عقل وحواس وأعضاء وقوّة وجُهْدٍ ومال ورزق... للاستفادة من هذا الكون وما أودع الله فيه من نِعم وآيات ومخلوقات وكائنات وثروات... ليستفيد منها ويجعل حياته الدّنيا سَهْلة مريحة، لأنّ النّفس بطبيعتها تميل إلى الانبساط وحبّ الزّينة بشتّى أنواعها. أمّا إذا أغفل الإنسانُ هذا المحور الهام والأساس وهو البُعْدُ التّعبدي في الممارسة التحصيلية لضُروب السعي الدنيوي في عمارة الأرض وتحصيل الرّزق،

[1] سعيد النورسي، اللمعا ، ص467.

[2] محمد كنان ميغا، مقاصد الحياة وغاياتها في فكر بديع الزمان سعيد النورسي، مجلة النور، إسطنبول-تركيا، العدد01 يوليو 2010، ص129.

[3] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص276.

أَوْ توهّم أنّه يُقدِّم إضافة مُعتبرة وخِدمة جليلة فإنّه بذلك يقه حَتْمًا في الزَّيغ لأنّه سَيَغْتَرُ بنفسه ويُزيِّنُ له عَمَلُه ويرفَعُ نَفْسهُ إلى مقام لا يليق به، ويَعْمَى عن الآيات النّاطقة والدّلائل القاطعة والتجلّيات السّاطعة لقدرة الخالق الحكيم –جلّ وعلا- الذي خَلَقَ الإنسان واستعمره في الأرض ليقوم بوظيفة العبادة لله وحده، ويعرف قدْرَ نفسه وأنَّهُ أحوجُ إلى عبادة خالقه، لأنّ الله -عزّ وجل– غنيٌّ عن عباده، وهم محتاجون إليه ومفتقرون إليه وشفاؤهم وذهابُ هُمُومهم يكون بالإنابة والخضوع إليه، وذلك بامتثال أوامره التي بها ينالون رضاه، ويُسبِغُ عليهم نِعَمه ظاهرة وباطنة.

يقول الأستاذ سعيد النورسي في بيان الغاية الحقيقية للعبادة:

(إنّ غاية العبادة امتثالُ أمْرِ الله ونَيْلُ رضاه، فالدّاعي إلى العبادة هو الأمرُ الإلهي، ونتيجتُها نيل رضاه سبحانه. أمّا ثمرتُها وفوائدها أُخروية. إلاّ أنّه لا تنافي العبادة إذا مُنحتْ ثمرات دنيوية تعود فائدتها إلى الدّنيا، بشرط ألاّ تكون علّتها الغائية، وألاّ يُقصدَ في طَلَبها. فالفوائد التي تعود إلى الدنيا والثمرات التي تترتبُ عليها من نفسها وتُمنحُ مِنْ دون طلب لا تنافي العبادة، بل تكون بمثابة حثٍّ و"ترجيح" للضعفاء. ولكن إذا صارت الفوائد الدنيوية أو منافعُها علَّة، أو جزءًا من العِلّة لتلك العبادة أو لذلك الوِرد أو الذِّكر فإنها تبطل قسما من تلك العبادة)[1]

يؤكّد الأستاذ سعيد النورسي ها هنا أن مقاصد العبادات وغاياتها الحقيقية أُخروية ولكن في الوقت نفسه لا يستثنى الجانب الدنيوي الذي قد يشمله الجانب المقاصدي جزئيا فقط، أما إذا حدث ذلك بإطلاق أو غلبته على الجانب الأخروي، فإن العبادة تنحرف عن علّتها الغائية وتشوبها الشُّبهات أو تُبْطلها. لذلك وجب علينا أن نَعيَ مقاصد عباداتنا ونضبط نيّاتنا ونُخلص أعمالنا لوجه الله سبحانه ونبتغي رضاهُ في السر والعلن، ونعمل لآخرتنا ونُعِدُّ لها العُدّة ولا نبطل أعمالنا بالإلحاح في طلب الثمار الدنيوية فقط، فهي مكفولة بإذن الله دون أن نُلحَّ في طلبها، ولكن الأولى هو العمل والاجتهاد في ابتغاء الأجر والثواب والمقصد الأسمى في الحياة الباقية ونيل ثمار العمل الصالح والعبادات الخالصة لله عزّ وجلّ.

(والعبادة هي فعل اختياري مُناف للشهوات البدنية يصدر عن نيّة يُراد بها التقربُ إلى الله تعالى طاعة للشريعة، أمّا دورها فهو المحافظة على الفطرة التي خُلق بها الإنسان، وهي أيضا سجود العبد بمحبّة خالصة في الحضرة الإلهية وأمام كمال الربوبية مُشاهدًا في نفسه التقصيرَ والعجزَ والفقر. ومعنى هذا أنّ الدّين يتطلبُ الاعتقاد أو المعرفة بالله، وهذه المعرفة لابد فيها من الخضوع لألوهيته والإقرار بوحدانيته، وهذا لا يكون إلاّ

[1] سعيد النورسي، اللمعات، ص180، 181.

بالعبادة التي هي جوهرُ الدّين وما تمثّله من شعور باطني يتعلّق به المخلوق بخالقه فيصبح كلّ ما يفعله العبد هي علاقته بمعبوده سواء الطاعة لأوامره أو الانتهاء عن نواهيه ترجمة لهذا الشعور الباطني الذي يربطه به)[1]

فالمطلوب من الإنسان ابتداءً هو معرفة الله -عز وجل- وأنّه –سبحانه وتعالى- واحدٌ أحدٌ، ثم الخضوع له بعبادته لأنّ الاكتفاء بمجرّد المعرفة دون إتباعها بالعمل التعبّدي الذي شرعه الله لا يكون كافيا، لأن تلك الأعمال التي يُتعبّدُ بها إلى الله هي الترجمة العملية والعلنية لِما يَحْمِلُهُ الإنسان من شعور قلبي ووجداني، وما يحمله من قناعة عقلية ومعرفة مبنية على أدلة فطرية ونفسية وكونية بوجود الخالق ووحدانيته، واستحقاقه للعبادة، وحاجة الإنسان إلى مشاهدة جوانب العجز والضعف والفقر الموجودة في ماهيته والتي تُشعرُه بحاجته إلى خالقه وأهمية الاستناد والاستمداد منه سبحانه وحده دون سواه.

ومن مظاهر الشمولية في نظام الإسلام أن أدرج كلّ عَمَلٍ يُقصَدُ به رضا الله وأُدِّيَ على الوجه الصحيح وأُريد به تحقيق أهداف ومقاصد مشروعة في مصافِ العبادات التي قد تكون عامة تشمل كلّ الأعمال المشروعة، أو مخصوصة يُقصد بها العبادة المحضة والخضوع لله.[2]

ولكن السؤال الذي يطرح هنا ويستدعي أن نتوقف عنده ونجتهد في البحث لإيجاد الجواب المناسب لَهُ هو: هل يدرك المسلمون أنّ العبادات بأنواعها المختلفة كلّها طُرُق تؤدّي إلى الله ونحن مطالبون بالسّعي في سبيل القيام بها على أكمل وجه؟ فالفعل التعبّدي هو كلّ ما من شأنه أن يؤثّر في حياة المسلمين فنستقيمُ به حياتهُم ويَصْلُحُ حالُهم وتقوى شوكتهم ويزِيدُهم هَيْبةً بين الأمم وِفْق ما شرعه الله وما أمر به وما ارتضاه لِعِباده.

(حين يتأمّل المرء الفقه والفكر في "عالم المسلمين"، يُدرِك أنّ ثمّة لحظات تاريخية عطّلتْ مسيرته، و"هزّتْ كيانه، وجعلتْ مساحة "الأحكام التّكليفية التعبّدية من: "طهارة وصلاة، وزكاة، وصيام، ...تتضخّم وتزداد وتتكاثر بطريقة فوضوية أحيانا، على حساب مساحة "الأحكام التكوينية" التي تستقيم بها حركة الحياة": من فريضة العلم، والصناعة، والحِرْفة، والعمران...، ممّا يصلح به أمرُ المسلم وتتحقّق له به عمارة الأرض ووراثتُها...فما الذي أصاب الفكر الإسلامي، وما الذي حاد به عن وظيفته ومقاصده؟)[3] - أنّ جوهر هذا الدين مختلف ونظامه مميَّز، وهو مرتبط بفاعلية

[1] سراج الدين محمد نبيه، مرجع سابق، ص128-129.
[2] محمد المبارك، نظام الإسلام العقيدة والعبادة، ط4، دار الفكر، بيروت-لبنان، 1975، ص169.
[3] طه كوزي، القرآن نسخة من الإنسان، ط2، دار كتابك، الجزائر العاصمة، 2019، ص77.

الإنسان وتحقيق وظائفه الوجودية التي خُلق لأجلها والتي تندرج كُلُّها تحت مسمّى العبادات ولكنها تتفرق وتختلف في الممارسة لتعود وتتلاقى كلها في تحقيق الغاية القصوى والهدف الأسمى للوجود الإنساني. وقد حدّثنا القرآن على العبادات المخصوصة كما حثّنا على العبادات ذات البعد الاجتماعي والإنساني والإصلاحي والتعميري.

(لهذا كلّه كان الاكتفاء بالعبادات المخصوصة وحدها والاقتصار منها على مظاهرها الخارجية وإغفال العمل لإقامة ذلك النّظام الاجتماعي الرائع الذي جاء به الإسلام واتّخاذ تلك العبادات مقياسا للصلاح والتقوى وإهمال الأسباب التي سَنَّها الله في هذا الكون، لهذا كان كلّ ذلك انحرافا عن الإسلام وتشويها لِقيَمِه ومعاييره وانحطاطا عن رسالته الشاملة وقد شاع هذا التشويه والانحراف في بعض العصور المتأخرة وبقيتْ بعض آثاره عالقة ببعض المجتمعات وببعض العقول).[1]

وفي تفسير الأستاذ سعيد النورسي لقول الله عزّ وجل: يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ .... فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ -البقرة، الآيتان و 22.

فإنه يؤكّد أن العبادة هي التي ترسّخ العقائد وتُصيّرها حالاً ومَلَكَة، ويُعلمنا أنّ الأمور الوجدانية القلبية والأمور العقلية أيضا تنمّيها العبادةُ وتربيها، أمّا إذا لم يتحقّق ذلك فلَن يظهر التأثير الفعّال للعبادات على السلوك الخارجي للعبد أو سيكون ضعيفا لا يكاد يرى فالعقائد تترسخ بالعبادات في الباطن، وينعكس رسوخها ويُترجَمُ عَمَلِيًا على عمل الجوارح الظّاهر، فكلّ ما وقر في القلب لابدّ أن يصدّقه العمل، ولا ينفك إذن معنى العبادة عن معنى الإيمان، بل يجتمع فيه الاعتقاد القلبي بالجنان وعمل الجوارح، وحسب درجات الإيمان، تزيد أو تنقص الطاعات والعبادات، وهذا هو وجه تفاوت العباد في القيام بعباداتهم لله ومقدار طاعتهم له. ثم يلتفت انتباهنا إلى متعلقات أخرى بالعبادة ويزيدها تبيانا وتفصيلا، مؤكِّدا أنها سببٌ لسعادة الدّارَيْن، وسببٌ لتنظيم المعاش والمعاد، وسببٌ للكمال الشخصي والنّوعي. وهي في حقيقتها النِسبة الشريفة العالية بين الخالق عز وجل وعباده. أمّا جهة الكمال النّفسي، فلابد أن نعلم أنَّ الإنسان ينطوي على روحٍ غالٍ واستعداد كامل، ويملك ميولا لا حصر لها، ويحمل آمالا لا نهاية لها، وتراوده أفكار غير محصورة، ويتمتع قوًى غير محدودة، رغم صغر حجمه. وهو رغم هذه الفطرة العجيبة لايتحقق له الانبساط الروحي ولا تظهر قيمته الحقيقية إلا بالعبادة، ولذلك يمكن اعتبارها العلّة الكاشفة لاستعداده ونموّه، وسيلة ناجعة

[1] محمد المبارك، المرجع السابق، ص171.

لتهذيب ميوله، ووسيلة لضبط قِواه وإلجامها.. فتُوصل الإنسان لنيل الشَرَفِ اللاّئق به، إذا اجتع فيها الوجدان والعقل والقلب والقالب.[1]

ونخلُص ممّا سبق أنّ للعبادة ثلاث مراتب –حسب النورسي- إذ جَعَلَ أُولاها متعلقة بالثواب الذي يُؤجَرُ به الإنسان على أداء واجب العبادة لخالقه –سبحانه وتعالى- وهي العلاقة التي تحفظ العبدَ من الهوان والتذلل لغير الله، بل تَرْفَعُه فوق كلّ المخلوقات والأسباب وتُغنيه عن الحاجة لكلّ الوسائط، بل إنّ خالِقَهُ وخالقها كلَّها يُصَيّرها خادمة له، ولا يعطيها من القدْر إلاّ ما تستحقّ حسب ما يقتضيه وجوده في دائرة الأسباب وهذه الحياة الدنيا، وحتّى لا يقع في التواكل وسوء التقدير. أمّا المرتبة الثانية فهي التي تسمو فيها العبادة بالإنسان إلى الاستزادة في تحصيل المعاني السامية واللذّات الراقية، ومع تحقيق الأجر والثواب في المرتبة الأولى يشعر العبد حال العبادة وبعدها بانبساط روحه وجلاء قيمته وتهذيب ميوله ونيل شرف الانتساب إلى خالقه وتنكشف أمامه استعداداته التي أودعها فيه الخالق الحكيم – جلّ وعلا - فيرى أنّه حقيق بالسعادة الأبدية في الحياة الباقية. أمّا إذا ترقّى إلى أعلى وأسمى من مجرد الرؤية إلى محض القناعة وتمام اليقين وانطبع في وجدانه ورسخ في عقله وأخذ بلبّهِ أنّه أهل لذلك أدرك نهاية كمال البشر، فيعبد الله ابتغاء مرضاته وامتثالا لأوامره، وليس خوفًا من عقابه أو طمعا في ثوابه فقط، لأنّ هذه هي أسمى درجات العبادة.

يقول الأستاذ سعيد النورسي في بيان المرتبة الثالثة خاصة:

(من المعلوم أن سبب العبادة والدّعاء هو الأمرُ الإلهي، ونتيجتها رضاه تعالى، وفوائدها أُخروية، فلو قُصدت من الصلاة والعبادة مقاصدُ دنيوية، وأُدّيتْ لأجلها فَحَسْب فلا تقبل تلك الصلاةُ والعبادة).[2]

إنّ هذا التقسيم لدرجات العبادة ومراتبها من حيث ما تحققه من ثمار وفوائد للعبد ليست بغرض التمييز بينها ولا المفاضلة لإحداها على الأخرى، بل إنّ الأستاذ سعيد النورسي أبان من خلالها عن الثمار التي يجنيها الإنسان من العبادة.

(ولئن كانت الدرجات الثلاثة السابقة بمثابة تقييم لكشف ما حقّقهُ العبدُ من العبادة، فإنّ النورسي يوجِب تحقيق تلك الدرجات معًا في حقّ كلّ مسلمٍ ليكون جديرًا بالعبودية الكاملة، ومن ثمّ فهو يرفض الوقوف عند أيٍّ مِنْ تلك الدرجات وإنْ كانت أعلاها، حيث إنّ الوقوف عند درجة العبادة من أجل الثواب فقط إنْ هي إلاّ درجة ناقصة تستلزم لكمالها الدَّرجتين الأخريين، وكذلك الأمر فإن تحقيق الدرجة الثالثة لا يعني الاستغناء

[1] سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص142-144.
[2] سعيد النورسي، الملاحق: ملحق أميرداغ1، ص217.

عمّا قبلها لأنّ العبادة المجرّدة عن الطّمع في الثواب والخوف من العقاب لا تتفق وروح الإسلام وشريعته. وفي هذا المعنى يؤكد النورسي على أنّ ثمرة العبادة وفوائدها الأخروية لا تنافي العبادة مطلقًا، وإنْ مُنِحَت العبادة ثمرات تعود فائدتها إلى الدنيا، فإنّ هذا لا يُنافيها بشرط ألاّ تكون علّتها الغائية، وألاَّ يُقصدَ في طلبها. أمّا إذا قُصِدَتْ هذه الثمرات والنتائج لذاتها ونتيجة الطلب فَسُدَ الإخلاصُ وبَطُلَ قسم من هذه العبادة).[1]

نتوصل من كلّ ما سبق أنّ الأستاذ النورسي قد فصّل في معنى العبادة ودرجاتها وثمراتها وأوصى بالسّعي والاجتهاد في الامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه وابتغاء الأجر والثواب الدنيوي والأخروي، وإدراك الإنسان لمكانته وعلوّ قيمته بين الكائنات والموجودات، وأن يُتْبع كلَّ عمله وعبادته بالإخلاص لربّ العالمين حتى يكون مستحقًّا للعبودية الكاملة.

ويحثُّ النورسي الإنسان على الاحتراز من الغفلة والشكّ، ويدعوه إلى الإكثار من الطاعات والمداواة بالعبادات من كلّ الأوهام التي تجلبها الغفلة ويُسبِّبُهَا الضلال؛ إذ قال:

(أيّها الشّاكُّ الغافل! لا تحسبْ أنّ ما تذُوقه بيديْ الغفلة لذَّة لذيذة، بل فيه ادّخارٌ لآلام أليمة، ستهجم عليك دفعة وتنقلب آلاما جهنّميّة. فإنْ أحبَبْتَ أن تتبدّل لك هذه الآلام المترصّدة لذائد متجدّدة، وتنقلب هذه النّارُ نورًا؛ فَقَوِّسْ أنْفَ غرورك بالركوع في الأوقات الخمسة، ووسِّعْ رأسك لنزول ضيف الفرقان مع فيْض الإيمان. فلابدّ من المداواة بالتفكّر بالآيات وملازمة الطاعات كيْ يُخرَق حجابُ الشكوك والغفلات وتنضج حلاوة النجاة من مرارة هذه الضلالات، وتنكشف لذَّةُ المناجاة).[2]

فالعبادة هي سلاح المؤمن الذي يحمله معه ليحتمي به في سفره الطويل في هذه الحياة الدنيا؛ لأنّ المخاطر كثيرة والأعداء كُثُر، وهذا السّلاح رغم ثقله وصعوبة حَمْله إلاّ أنّ فائدته أكبرُ من مشقّته. كذلك مثلُ العبادة فمَهْمَا يبدو عليها من مشقة وكُلفة ومقاومة للرغبات وامتناع عن الأهواء والشهوات ظاهرًا إلاّ أنّها تحقق للعبد راحة عظيمة ولذّة كبيرة وفرحة تغْمُرُه وانبساطا يُنْسيه ما فات وطمأنينة تهوّن عليه ما هو آت.

(فما أحوجَ روحَ البشر العاجزة الضعيفة الفقيرة إلى حقائق العبادة والتوكُّل، وإلى التوحيد والاستسلام! وما أعظم ما يُنال منها من ربْحٍ وسعادة ونعمة! فَمَنْ لمْ يفقِدْ بصرَهُ كليًا يرى ذلك ويدركه).[3]

---

[1] سراج الدّين محمد نبيه، مرجع سابق، ص130.

[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص258.

[3] سعيد النورسي، مجموعة الموازنات بين الإيمان والكفر، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط1، دار سوزلر، القاهرة-مصر، 2008، ص20.

إنّ ثمرات العبادة التي يقطفها الإنسان ويتلذّذ بتذوّقها لا تتعلّق به فحسب، لأن علاقة الإنسان بالكون وبكل ما حوله من الكائنات تتضح معالمها وتُرسَمُ ملامِحُها إذا نظرنا إليها من منظور العبادة، فالأستاذ النورسي يضع الإنسان دائما في موضع يجعله يرى بتمعّن حركة المخلوقات وتسبيحاتها ودلالتها على خالقها.

فالإنسان – حسب الأستاذ النورسي- ينظر إلى هذا الكون بمنظاره الخاص؛ لأنّ الخالق –سبحانه- قد خلق الإنسان على صورة يستطيع قياس الكون عليها، ويزِنُه بميزانها إذ منحه عالمًا خاصًا به من هذا العالم العظيم، فيصطبغ ذلك العالم الخاص بما يعتقده الإنسان في قلبه وما يحسُّه بوجدانه، فيراه باكيا بائسًا إذا كان هو في حالة حزن وكآبة وضياع، ويراه السعيدُ فرحًا مبْتَسمًا ضاحكا مُستبشرًا. هذا ما يحدث في الحالات الشعورية المألوفة التي تراود البشر مؤقتا أو تغلب عليهم فلا تفارقهم، وكذلك الحال بالنسبة للعبد الذي يذكر ربّه ويعبُدُه بخضوع تام واستسلام لأوامر وانتهاء عن نواهيه ويتفكّر ويتأمّل في آيات الله في هذا الكون ومخلوقاته فينكشف له شيءٌ من عبادتها وتسبيحاتها، فَكُلُّهَا تسبّح بحمد ربّها ولكن الغافل لا يفقه ذلك؛ لأنّه ترك العبادة وقطع صلته بربّه فانقطعت صِلَتُه بمخلوقاته فعَمِيَ عن حقيقتها، بل قد يصل به الجفاء والانقطاع إلى تصوّرات خاطئة ومُجانبة للصواب ومخالِفة تماما لحقيقة كمالاتها، ويوقعه ذلك في التعدّي عليها معنًى، فلا هو أحسن لنفسه ولا هو أحسن لغيره، وذلك هو الخسران المبين.

(نستخلص ممّا سبق أنّ: تارك العبادة مثلما أنَّه يظلم نفسه، والنفسُ مملوكة الحقّ سبحانه وعبدُه فهو يتعدّى على حقوق كمالات الكائنات ويظلمها أيضا. نعم، فكما أنّ الكفر استهانة بالموجودات واستخفاف بها، فتَرْك العبادة إنكارٌ لكمالات الكائنات وتجاوزٌ على الحكمة الإلهية، لذا يستحق تاركها تهديدًا عنيفا وعقابا صارمًا. ومن هنا يختار القرآن الكريم أسلوب التهديد والإنذار ليُعبّر عن هذا الاستحقاق وعن هذه الحقيقة المذكورة آنفا، فيكون الأسلوب حقًا ومطابقًا تماما لمقتضى الحال الذي هو البلاغة بعينها.[1]

ولِمَنْ أراد زيادة في التوضيح والبيان لسبب نذير القرآن الشديد لتارك العبادة فهو أنَّ ذلك الإعراض عن العبادة يؤثر على رؤية ذلك الغافل إلى الكون وإلى الموجودات، فعلاقة الإنسان بخالقه تنعكس على علاقته بالكون من حوله.

ويشبّه الأستاذ النورسي ذلك الغافل الذي حَرَم نفسه من عبادة خالقه والأُنسِ بالتقرب إليه حتى صار مُسْتَحقًّا للعقاب كالسلطان الذي يعاقب شخصًا ارتكب جريمة

[1] سعيد النورسي، اللمعات، ص263-264.

تمسُّ بحقوق الآخرين حتى يحافظ على حقوق رعاياه، كذلك سلطان الأزل والأبد – ولله المثل الأعلى- يعاقب تارك العبادة لأنّه ارتكب تجاوزًا صارخًا على حقوق الموجودات التي هي رعاياه –جلّ وعلا-؛ وقد جعلها الخالق سبحانه ذات كمالات تتظاهر على صورة تسبيح وعبادة في وجهها المتوجه إلى البارئ سبحانه، لذلك لا يليق أن يبخسها أي أحدٍ حقَّها ولا أن يُنْزلها من مكانها الرّفيع بسبب تقصيره وغفلته وجحوده، ولا أن يُجرّدَها من وظائفها التي أسندها إليها الخالق الحكيم، فكلّ تلك الإساءات والاستخفاف تعَدٍّ صارخ على مصداقية وجودها، لا يَسْلَمُ من أتَى بها وارتكبها من العذاب الشّديد.[1]

ولَئِنْ كان النورسي قد خصَّص رسائله لإنقاذ الإيمان وشَرْح أصول العقيدة وتجديد علم الكلام وتربية النّشْأ والدعوة إلى تمثيل الأخلاق الإسلامية الفاضلة..، فإنّه لم يَنْسَ أن يُنبِّهَ على كثير من مسائل الشريعة، ولكنّه لم يُكثر الحديث في تفاصيلها، لأنّ المجتمع الذي يفقد أسس الإيمان وحرارة الانتماء، لا فائدة أن تُحدّثهُ عن تفاصيل الشريعة، فالقاعدة الإيمانية إذا تكونت يأتي تطبيق شرع الله خطوة طبيعية نحو الوصول إلى المجتمع بحكمه نظام الإسلام؛ أي إن الأستاذ كان يريد أن يبدأ من الإيمان إلى التربية إلى الشريعة، ولكن ليس معنى ذلك أنّه طبق تلك الخطوات منفصلة دون ترابط جامع، ولذلك فإنه –رحمه الله- يدل المسلمين بين الحين والآخر إلى عظمة الشريعة الإسلامية في مصادرها وحكمتها وشمولها لحياة الإنسان.[2]

المطلب الثاني: أنواع العبادات وأبعادُها المقاصدية

تنقسم العبادات من حيث وجه تأديتها إلى: عبادات جسدية تشترك أعضاء الجسم البشري في القيام بها مثل الصّلاة والحجّ والصّيام، وعبادات مالية تقوم أساسا على العنصر المالي مثل الزّكاة والمعاملات المالية الأخرى التي أحلّها الشارع الحكيم، وعبادات قولية يؤدّيها الإنسان بشكل شفهي بلسانه تعبّدًا لخالقه، مثل الدُّعاء والذّكر. ورغم اختلاف الهيئة الخارجية التي تؤدّى بها هذه العبادات وغيرها فإنّ القصد منها مشترك وهو عبادة الله جلّ وعلا وإتّباع أوامره والانتهاء عن نواهيه. فكُلُّ مَا يَمْلكه الإنسان ظاهريا هو ملكٌ لخالِقه حقيقةً ولذلك وجب عليه أن يصرفه على الوجه الذي ارتضاه له. وسنورد مثالا عن كلّ نوع من هذه الأنواع حتّى يتبيّن وجه أدائها والغاية منها وأبعادها المقاصدية التي تعود على الإنسان وعلاقته بالله أو بأخيه الإنسان أو

[1] سعيد النورسي، اللمعات، ص 262.
[2] محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر، ص215.

بالكون إجمالا، فهذه العبادات وغيرها تُؤتي ثمارها وتجعل حياة الإنسان محفوفة بالرحمات والبركات والمقاصد والغايات.

الفرع الأول: حقيقة الصلاة وحاجة الإنسان إليها

يُعرّفها الأستاذ سعيد النورسي بقوله:

(وإنّها دعوةُ صانع الأزل إلى سرادق حضوره خمسَ دعواتٍ في اليوم واللّيلة لِمُناجاته التي هي في حُكْم المعراج. فمن شأنها أن يشتاقها كلُّ قلبٍ.. وفيها إدامةُ تصوُّرِ عظمة الصّانع في القلوب وتوجيه العقول إليها لتأسيس إطاعة قانون العدالة الإلهية، وامتثال النّظام الرّباني. والإنسان يحتاج إلى تلك الإدامة من حيث هو إنسان لأنّه مدنيّ بالطّبع.. فيا وَيْلَ مَنْ تركها! ويا خسارة من تكاسل فيها! ويا جهالةَ من لم يعرفْ قيمتها! فسُحقًا وبُعْدًا وأُفًّا وتُفًّا لِنفْسٍ مَنْ لم يَسْتَحْسِنْها).[1]

تحتاج النفس البشرية إلى التربية على التقوى والإيمان، وإلى إصلاح حالها بسبب ما يعترضها من شوائب تتراكم في أعماقها حتى تكاد تذهب بِصلاحها وتبعدها عن دروب الخير والطاعات. ويرى الأستاذ سعيد النورسي أنّ "الصلاة" هي: (مفتاح باب التقوى وراحة للنّفس في كُلّ وقت وحين، ولذلك لم يَتْركها حتّى في أحلك الأوقات وأصعب الظروف، في الأسْر والسّجن وأثناء نَفْيه المستمرّ ونقله إلى منفاه برًّا وبحرًا، وفي المرض والهرَم حتَّى وفاته –رحمه الله-)[2]

فالعبادة - حسب النورسي وتجربته - كفيلة بتحقيق السعادة للإنسان، والالتزام بها والحرصُ على حسن أدائها يشبهان المسطرة السلوكية التي تحفظ الإنسان –بتوفيق من الله- من الانحراف عن الصراط المستقيم، بل وتُحوّل قابليات الإنسان الفطرية إلى سجايا وأحوال، وتَبُثُّ فيه محبة الخير والغير، ويستبْصر الإنسان حكمة وجوده الإنساني لأنّ فكره وروحه يتوجهان نحو خالقه.

يقول الأستاذ النورسي:

(إنّ الصّلاة بذاتها راحة كبرى للرّوح والقلب والعقل معًا. فضلا عن أنّها ليست عملا مرهقا للجسم، وفوق ذلك فإنّ سائر أعمال المصلّي الدنيوية المباحة ستكون له بمثابة عبادة لله، وذلك بالنّية الصالحة، فيستطيع إذن أن يحوّل المصلّي جميعَ رأسِ مال عمره إلى الآخرة، فيكسبُ عمرًا خالدًا بعمره الفاني).[3]

---

[1] سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص50.

[2] آراس حمه أمين عثمان، مقال بعنوان: فقه الأولويات عند بديع الزمان سعيد النورسي، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، إسطنبول-تركيا، العدد17، يناير 2018، ص112.

[3] سعيد النورسي، كلمات صغيرة في العقيدة والعبادة، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط9، دار لوامع الأنوار، القاهرة-مصر، 2018، ص25.

إنّ الصّلوات الخمس التي تتوزّع على مدار اليوم واللّيلة بحكمة بالغة حتى في التوقيت الزمني المقاصدي، فُرصة يوميّة متكرّرة لتذكير الإنسان بغاية خلقه وتنبيهه عن السقوط في الغفلة التي تورث النّدم والخسران، فمهما كانت انشغالات الإنسان تأتي الصّلاة لتعيد الصلة بينه وبين الخالق – سبحانة وتعالى- حتّى إنْ كان ما يقوم به الإنسانُ عبادة أخرى كالعمل المشروع لكسب الرزق، أو طلب العلم، أو حتى الجهاد في سبيل الله، فإنّ الصلاة تبقى أوْلى العبادات وعلى اعتبار الظروف يُرخّص للإنسان بأدائها على هيئة أخرى لكن لا تؤجّل دون عذْر، ولا تسقط بأي حال إلا في الحالات التي استثناها الشارع الحكيم.

كما أنّ لها أبعاد اجتماعية أيضا فالإنسان كما تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر فإنها أيضا تقوي الروابط الأخوية والمحبة.

(ومن أجل تحقيق الوحدة بكلّ معانيها، فَرَضَ المولى تبارك وتعالى خمس صلوات في اليوم واللّيلة على كُلّ مسلم عاقل بالغ، لكي يتلاقى المسلمون فيها، ويتعارفون ويتوحّدون وتجتمع قلوبهم على محبّة الله وطاعته. بل ومن أجل تحقيق هذه الوحدة من خلال فريضة الصلاة، أجزل المولى –عزّ وجل- في العطاء ومنح من ينظمُّ لِقافلة الجماعة العديد من العطايا، فمنح من ينظمُّ للجماعة في الصّلاة سبعًا وعشرين درجة يفوز بها، أمّا منْ يصلّي منفردًا بعيدًا عن دائرة الجماعة، فلا يغنم بهذا الفضل الرّباني، وفي هذا إغراء شديد للانضواء في كنف الجماعة ونبذ العزلة والفُرقة، ودفع بالإنسان المسلم للاندماج والذوبان في دائرة الجماعة والوِحدة).[1]

ويبدو واضحًا في رسائل النور حرصُها وسعيُها إلى تحصيل معاني المحبة والأخوة ثم تمثّلها، وهكذا تمكّنتْ من تبليغها وإيصالها، فقد اهتمّت وحرصت على تكوين وإرساء أسُس عملية للمؤمنين، حتى ينتسب إليها كلُّ من سلك هذا المسلك الذي يؤسس لأسمى ما تطمح إليه الإنسانية السويّة.[2]

(ليست الصّلاة عبادة محضة، إنّها كانت –ويجب أن تكون من جديد- مدرسة الانضباط والتّآخي والتضامن. إنّ الصلاة طهارة وعمل ومشاركة. لقد اطّلع قائد جيش الفرس الوثنية على صفوف المسلمين المتراصّة أثناء أداء الصلاة قبل معركة القادسية فصاح:"هذا جيش عمر في حصّة التدريبات").[3]

---

[1] أمل عبد الظاهر، مقال بعنوان: "العبادات وأثرها في بناء الفرد وإشعاره بالمسؤولية تجاه وحدة الصّف والترابط والإخاء" منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي: فكر الإمام بديع الزمان سعيد النورسي وأثره في وحدة الأمّة الإسلامية 26-27/ 02/ 2013، بالقاهرة، ط1، دار سوزلر، القاهرة-مصر، 2013، ص657-658.

[2] عمار جيدل، مرجع سابق، ص219-220.

[3] علي عزّت بيوجوفيتش، عوائق النهضة الإسلامية، ط1، دار كتابك، الجزائر العاصمة، 2019، ص38.

ومن اللّمعات النورانية التي تسطع من رسائل النور على قُرّائها هي الحكمة الإلهية لأوقات الصّلوات والتي استكشفها الأستاذ سعيد النورسي من تأمّلاته في رحلاته وسياحته الكونية وخلواته التفكّرية؛ إذْ رأى أنّ لكلّ وقت من أوقات الصلوات التي يؤدّيها المسلمون حكمة كونية كبرى تنعكس آثارها على الإنسان ورحلته العُمرية. يقول -رحمه الله-:

(كما أنّ الإنسان هو مِثال مصغَّرٌ لهذا العالم الكبير، وأن سورة الفاتحة مِثال منوَّر للقرآن العظيم، فالصّلاة كذلك فهرس نوراني شامل لجميع العبادات، وخريطة تشير إلى أنماط عبادات المخلوقات جميعا).[1]

في حكاية تمثيلية كتلك التي عهدناها في رسائل النور، يشبّه الأستاذ النورسي دوران اللّيل والنّهار بعقارب السّاعة التي تعدّ الثواني والدقائق والساعات، كذلك فإن دوران الليل والنّهار الذي هو بِحُكْم الثواني للسّاعة، والسنواتِ التي تعدُّ الدقائق، وطبقات عمر الإنسان التي تعدُّ السّاعات، وأدوارَ عمر العالم التي تعدُّ الأيّام، فإن كُلاّ من هؤلاء يناظر الآخر، ويتشابه معه، ويماثله، ويذكِّرُ كلٌّ منها الآخر، ويأخذ حُكْمَهُ، فإذا نظرنا إلى وقت الفجر إلى طلوع الشمس فإنّه يذكّرنا ببدايات كثيرة وينبّهنا إلى ما فيها من الشؤون الإلهية العظيمة، فهو يذكرنا مثلا ببداية الربيع وأوّله، وبسقوط الإنسان في رَحِم الأمّ، وباليوم الأول من الأيام الستة في خلق السموات والأرض.

أمّا إذا نظرنا إلى وقت الظهر فإنّه يذكرنا أيضا بمنتصف الصيف، ويشير إلى عنفوان الشباب، ويشبه فترة خلق الإنسان في عُمر الدنيا، وكلّ ذلك ينبّهنا إلى ما تعكسه تلك الأوقات من الشؤون الإلهية العظيمة. أمّا وقت العصر فإنّه يشير إلىموسم الخريف، وزمن الشيوخة، و عصر السّعادة الذي هو عصر خاتم الأنبياء والمرسلين محمد – صلى الله عليه وسلم-، ويُذكّرنا بما يحمله ذلك كلّه من الشؤون الإلهية والآلاء الرحمانية.

ثم يأتي بعد وقت المغرب ليحمل معاني الأفول والفراق والوفاة، فيذكّرنا بغروب أكثر المخلوقات نهاية الخريف، وبوفاة الإنسان، ودمار الدنيا عند قيام الساعة، وتظهر مع كُلّ ذلك التجلّيات الجليلة لتُوقظ الإنسان من الغفلة. وآخرها وقت العشاء الذي تغلب عليه مظاهر الظلمة التي تغشى العالم وتستر ما خلَّفَهُ عالم النّهار من آثار بكفنه الأسود، كما أنّه يجعلنا نستحضر مشهد الكفن الأبيض الذي يغطي الأرض في الشتاء، ويذكّرها بمن توفي ونُسِيَتْ آثاره ودخل تحت ستار النسيان، وأنّ أبواب امتحان الدنيا قد سُدَّت

[1] سعيد النورسي، رسالة: حقائق الإيمان، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط06، دار سوزلر، القاهرة-مصر، 2013، ص12.

آثاره ودخل تحت ستار النسيان، وأنّ أبواب امتحان الدنيا قد سدَّت أبوبه وأغلقت فما عاد شيء ينفع. وفي كلّ ذلك يعلن هذا الوقت تصرفاته جلالية للقهار ذي الجلال.

أمّا الليل إجمالا فإنّه يذكّرنا بكلّ من الشّتاء والقبر والبرزخ، ويذكر روح الإنسان بحاجتها إلى رحمة الرحمن الرحيم. وضياؤُه التهجد وقيامُ اللّيل ليكون ضياءً لتلك الظُّلمة، ويذكّرنا في كلّ ذلك بنِعم غير متناهية يمُنُّ بها المُنعم الكريم عبر هذه الانقلابات، فهو سبحانه وحده أهل للحمد والثناء. وبعد هذه الرحلة المظلمة التي تستنير بنِعم الكريم عزّ وجل، يأتي الصباح ليذكرنا بصباح الحشر وقيام الساعة، وكما أنّ مجيء الصباح لهذا اللّيل، ومجيء الربيع لهذا الشتاء من المعقولية والضرورة والحتمية، فكذلك مجيء صباح الحشر وربيع البرزخ بالقطعية والثبوت نفسيهما. ولذلك كلّه فإنّ أوقات الصلوات الخمسة لها دلالة انقلابية، إذ هي بدايات انقلابات عظيمة، وتذكّرنا بأخرى مُشابهة، وأيضا بهدايا الرحمة الإلهية والقدرة الصمدانية بإشارات تصرفاتها اليومية العظيمة، وبذلك فإن الصلوات المفروضة هي وظيفة الفطرة وأساس العبودية مناسبة جدا في تقسيمها على هذه الأوقات بحكمة إلهية عظيمة.[1]

إنّ توجّه الإنسان بالصّلاة لخالقه الكريم في هذه الأوقات يحفظه من الضعف الذي فُطِرَ عليه، والحزن والألم الذي ينغّص عليه، ويمنحه القوّة لمواجهة الأعداء والمصائب، ويرفع عنه الكَسَل والركون إلى الرّاحة حتى يقدر على أداء تكاليف الحياة، فيبدأ يومه بصلاة الفجر التي شحن فيها نفسه بالدعاء وطلب المعونة من الخالق الذي يمنُّ عليه بالبركة في يومه والحفظ من بين يديه ومن خَلفه، ثم في ذروة الانشغال في وقت الظهيرة يمنُّ عليه الرحمن الرحيم بنداءٍ إلى الوقوف بين يديه رحمة به وإشفاقا عليه، فهو العليم بعباده مُطَلعٌ على أحوالهم وحاجاتهم وتطلعات أرواحهم ونفوسهم إلى الاستراحة من متاعب الحياة وتكاليفها، فيجد أنّ باب خالقه مفتوح أمامه ليسجد بين يديه فتسقط كُلّ همومه ومتاعبه ويقوم بعدها وكأنّ نفسًا جديدًا نفخَ فيه، فَيَنْصَرف ليكمل يومه ساعيا إلى رزقه بتوفيق من ربّه حتى يحين وقت العصر فيرى ثمار يومه الذي أمضاه في كلّ دروب الحياة ساعيا ذاكرًا مسترشدًا بنور ربّه مستمدًّا قوّته من صلاته ودعائه، فيسجد مرات أخرى بين يديه شاكرا على نعمه وتوفيقه وتسخيره كُلّ شيء لأجل منفعته في هذه الدنيا، ويجد بعدها نصيبا من الراحة والسكون، وفرصة للعودة إلى الذات بعد كثرة الانشغالات حتى يحين المغرب الذي ينطفئ فيه مصباح دار السعي والامتحان والمعاش، فيصرف وجهه عن دار الفناء نحو دار البقاء، وعن السعي في

[1] سعيد النورسي، رسالة: حقائق الإيمان، ص13-15.

المعاش إلى الاجتهاد للنجاة، ومن توفير الحاجات الدنيوية إلى الإكثار من المدخّرات الأخروية.

وتغيب آثار النهار وتختفي كلية عند وقت العشاء، وتحضر بَدَلاً عنها معاني الحيرة من ظلمات المستقبل فتدفع عنه صلاة العشاء هذا الوَجَل وتحفظه من مخاطر الأفول لأن معبوده لا يزول، ويمتد الوقت الذي يناجي فيه ربّه فيطمئن قلبه وتسكن روحه، ويخلد فيه إلى قسط من الراحة والنوم فيرتاح بدَنُه، ليستأنف بعدها يوما جديدا كسابقه في علاقة دائمة مع خالقه تُوجّهه في يومه وتعينه عليه، وتُطَمْئِنُه في ليله وتبسط تجليات الرحمة الإلهية عليه.

إن الصّلاة بهذه المعاني وأكثر نجدها عند النورسي تجربة ودرسًا، فكان هذا هو حاله، وهذا ما علّمه لِطُلاّبه المباشرين أو اللاّحقين الذين يقرؤون رسائل النور، فالصّلاة معراج المؤمن الذي يرفعه من زينة الدنيا وزخرفها والسّعي الدائم والمضني وما يعتَرِضه فيها، إلى آفاق السُّمو الروحي والنقاء الوجداني والسكينة القلبية. فيعود بعدها إلى رحاب الدنيا بعزم ويقين واستناد واستمداد لا ينقطعان.

هذا هو الإيمان الذي أفنى الأستاذ النورسي حياته في إنقاذه في القلوب وإحياءه في النّفوس، وتصفيته من الكدر والشبهات التي أُريد إلصاقها به، وقدّم الترجمة العملية للعقائد الإيمانية التي لم تنجح محاولات إخمادها إلا في زيادة بيانها في أقواله وأعماله ورسائله.

الفرع الثاني: المعاملات المالية وآثارها على النفس والمجتمع

إنّ المعاملات المالية في الإسلام ترتبط ارتباطا وثيقا بتفاصيل الحياة اليومية للمسلمين، وقد فَصَّل الشارع الحكيم أحكامها وأبعادها على الإنسان وعلى المجتمع؛ لأنّ المعاملات المالية الحاصلة قد تزرع المحبّة والأُلفة والرحمة بين النّاس إذا طُبّقت كما أرادها المولى – عزّ وجل - وقد تزرع الحقد والكراهية والتّنافر إذا غلبتْ عليها الأنانية المفرطة أو لم تُراع فيها الضوابط الشرعية.

وقد حذَّرنا الأستاذ سعيد النورسي من خطر تدهور العلاقات الاجتماعية بين الناس بسبب تدهور المعاملات المالية. فيؤدّي ذلك إلى خلل في العلاقات وفي المشاعر، وفي ذلك قال:

(اعلمْ أنّ شرط انتظام الهيئة الاجتماعية أن لا تتجافى طبقاتُ الإنسان، وأنْ لا تتباعد طبقةُ الخواص عن طبقة العوام، والأغنياء عن الفقراء بدرجة ينقطع خيطُ الصِّلة بينهم.

مع أنّ بإهمال وجوب الزكاة وحُرمة الرّبا انفرجت المسافة بين الطبقات، وتباعدتْ طبقات الخواص عن العوام بدرجة لا صلة بينها. ولا يفورُ من الطبقة السفلى إلى العليا إلا أصداء الاختلال، وصياحُ الحسد، وأنينُ الحقد والنّفرة بدلا عن الاحترام والإطاعة والتحبّب. ولا يفيض من العليا على السفلى بدَلَ الرّحمة والإحسان والتلطيف إلاّ نار الظّلم والتّحكّم، ورَعْدُ التحقير. فأسفا! لأجل هذا قد صارت "مزية الخواص" التي هي سبب التواضع والترحم سببًا للتّكبّر والغرور. وصار "عجز الفقراء" و "فقرُ العوام" اللذان هما سبَبَا المرحمة عليهم والإحسان إليهم سببًا لأسارتهم وسفالتهم.. وإنْ شئت شاهدًا فعليك بفسادِ ورذالة حالة العالم المدنيّ، فلك فيه شواهد كثيرة ولا ملجأ للمصالحة بين الطبقات والتقريب بينها إلاّ جعل الزكاة التي هي ركنٌ من أركان الإسلام -دستورًا عاليا وإسعافيُ تدوير الهيئة الاجتماعية).[1]

لقد اختلت الموازين، وانقلبت المفاهيم، وحُمِلَتْ الألفاظ على غير وجهها، واغترَّ المالك الوهمي حتّى ظنّ، نفْسَهُ مالكا حقيقيا، واستصغر المتَبلى نفسه حتى غلبت عليه الأحقاد وتملَّكه الحسدُ والنفور. إنّ المَالُ هو رزق يسوقه اللهُ لمنْ أراد ليبتَليه، ويصرفه عمَّن يشاء ليمتحنه أيصبر أم يكفر. فمن فهم هذه الرّسالة أدرك معنى الزكاة وأبعادها وثمراتها الزكية على البلاد والعباد، وأمّا مَنْ غفل عنها وادّعى لنفسه الملكية الخالصة للمال ومنَعَ أداءها، حُرِم من لذائذها وتدنّستْ نفسه بدل أن تتطهر وتتزكّى، فلا مالٌ يزيد بالمنع ولا نفس تسمو بالحرمان، بل إنّ المال يزيد بالإخراج والعطاء والزكاة والصدقة والنفس تسمو وترتقي بالخضوع لأوامر ربّها والإحسان إلى غيرها وملاحظة أثر ذلك عليهم..

إنّ عدم إتباع الأوامر الإلهية في معاملاتنا المالية قد يكون سببا للغضب الإلهي والوقوع في الحسرات والحرمان من البركات، لأن نظرة الإنسان إلى المال إذا كانت نفعية محضة قد توصله إلى الهلاك والخسران؛ فإن هو توهّم أنَّ منْع الزكاة يوفّر عليه صرف المال في غير محله دون فائدة مرجوّة يكون قد غاب عنه أنّه يتعامل مع الله ويتاجر مع الله وتلك هي التجارة التي لن تبور، فهو مستخْلَفُ في مال الله، مأمور بأوامره، فإن خضع لأوامره جمع بين حسن الاستخلاف وحسن الأداء، أمّا إذا اكْتَنَزَ الأموال وحرم من دونه منها "صدقة أو زكاة" يكون قد نسب لنفسه ما ليس لها، وحَرَم من أُمِرَ أن يعطيهم، وعَصَى من استخلفه على ماله وشرع له الوجه الصحيح للتصرف فيه، وذلك هو الخسران المبين، فالفقير إذً مبتلى ليصبر، والغني أيضا مبتلى ليُنْفق.

[1] سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص52.

(فحين يستأثر الأغنياء بالمال ولا يُؤدّون زكاته، وحين يكون الرّبا هو المسيّر لشؤون الناس المالية فستنقلب الحياة جحيما، إنّ البشرية حين لم تُصْغِ إلى هذا الكلام تلقّتْ صفعة قوية. وعليها أن تصغي قبل أن تتلقى صفعة أخرى أقوى وأمرُّ في الدنيا قبل الآخرة).[1]

إن الابتعاد عن تعاليم الدين وإقصاء الضوابط الشرعية من المعاملات الإنسانية بشكل عام هو الذي أوصل الإنسان إلى هذا الضياع والانحراف عن الصراط المستقيم، فالإسلام يشمل بنظامه كل جوانب الحياة، وحيث استُبْدِلَت المعاملات المالية التي أحلّها الله بأخرى فرضها الميل الغريزي للسلطة والسيطرة والتملّك والاستزادة حتى بِغيْر ما أحل الله، وقع الإنسان في هذه الدّركات التي صَارَ من الصّعب الخروج منها إلاّ بإرادة وعزم وجهاد للنّفس والعودة إلى الله وتقديم التنازلات اللاّزمة لذلك، إذ من الصعب العودة إلى الطريق الصحيح محمَّلا بدرن المعاصي والآثام.

(إنّ الزكاة ليست صدقة، بل هي أشْبَهُ بضريبة، أو إلزام بإخراج جزء من المال لصالح المحتاجين. إنّ مؤسسة الزكاة في الإسلام تتضمّن مقومات راسخة ليس لمحاربة الفقر فقط، بل ولتنمية شعور التفاهم والاحترام في المجتمع الذي يعيش أزمة هذه المبادئ).[2]

يعتبر الأستاذ النورسي الزّكاة مثل الجسر الذي يغيث به المسلم أخاه بالعبور عليه، هي أيضا واسطة للتعاون وانتظام الهيئة الاجتماعية ورابطة لجريان مادّة الحياة بينهم، بل إنها تشبه في مفعولها الترياق للسموم الواقعة في ترقيات البشر. وفي وجوب الزكاة وحُرمة الربا تكمن المصلحة العظيمة والحكمة العالية، والرحمة الواسعة، ويرجعُ أُسَّ أساس الاختلالات والفساد في المجتمع، ومنبع الرذيلة الاجتماعية إلى كلمتين يردّدُها الإنسان، فالأولى: إنْ شبِعْتُ فلا عليَّ أن يموت غيري من الجوع و "الثانية" اِكتسبْ أنتَ لآكُل أنا، واتعبْ أنتَ لأستريحَ أنا. فالكلمة الأولى هي التي أدَّتْ إلى زلزلة العالم الإنساني حتى أشرف على الخراب، ولا يقدرُ على قطع عرقها إلاّ "الزكاة". أمّا الكلمة الثانية فهي التي تقطر بالظلم وبها انهارت ترقيّات البشر وليس يقدر على استئصالها سوى "حُرمة الرّبا".[3]

(نعم، إنّه لا يمكن العيش بسلام ووئام في مجتمع إلاّ بالمحافظة على التوازن القائم بين الخواص والعوام، أي بين الأغنياء والفقراء، وأساس هذا التوازن هو رحمة الخواص وشفقتهم على العوام، وإطاعة العوام واحترامهم للخواص.

---

[1] زياد خليل الدغامين، مرجع سابق، ص176.

[2] علي عزّت بيجوفيتش، عوائق النهضة الإسلامية، ص39.

[3] سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص51-52.

فالآن، الكلمة الأولى قد ساقت الخواص إلى الظُّلم والفساد، ودفعت الكلمة الثانية العوام إلى الحقد والحسد والصّراع، فَسُلبتْ البشريةُ الراحة والأمان لعصور خلت كما هو في هذا العصر، حيث ظهرت حوادث أوروبا الجِسام بالصراع القائم بين العاملين وأصحاب رأس المال كما لا يخفى على أحد.

فالمدينة بكل جمعياتها الخيرية ومؤسساتها الأخلاقية وبكلّ وسائل نظامها وانضباطها عجزت عن أن تُصلح بين تينك الطبقتين من البشر كما عجزت عن أن تضمد جرحيْ البشرية الغائرَيْن.

أما القرآن الكريم فإنّه يقلع الكلمة الأولى من جذورها، ويداويها بوجوب الزكاة، ويقلع الكلمة الثانية من أساسها ويداويها بحُرمة الرّبا).[1]

وكما حرص الأستاذ على بيان أهمية "الزكاة" وفوائدها الكثيرة في حياة الفرد والمجتمع، والتحذير من سلوك طريق "الربا" الذي غلب على معاملات البشر المالية فصار المال يجلب المال وليس العمل والاجتهاد فترسّخت معه معاني الجشع والأنانية واللامبالاة بالآخر، فإنه أيضا –رحمه الله- قد أفرد رسالة خاصة سماها "رسالة الاقتصاد" وهي تتركز أساسا على بيان حُرمة الإسراف والتبذير في الاستهلاك مع بيان نتائجه السلبية مسترشدا بقول الله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ - الأعراف 31. فهذا السلوك وهذا الخُلق مذموم شرعا ويأثم صاحبُه، وقد نهينا عن الإسراف جملة وتفصيلا حتى ولو كنّا على نهرٍ جارٍ، لنقيس عليها النّعم الأخرى التي قد تكون من الاحتياجات المصطنعة أو الرّغبات غير المبرَّرَة.

(تسعى الضوابط التي جاء بها الإسلام لتنظيم سلوك المستهلك، مستنِدًا إلى قواعد القرآن والسنّة المطهّرة، فتقدّمُ النموذج الأمثل للإنسان المسلم، وقد أورد الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي هذه الضوابط في "رسالة الاقتصاد" بعبارات موجزة متناولا الموضوع وموضّحًا إياه وفق المسلك الآتي:

الإنسانُ موظَّفٌ بالشُّكر، إبّان استخدامه واستهلاكه النِّعم التي وهبها إياه خالقُه الكريم. وعلى الإنسان الشاكر أن يستخدم ما وهبه خالقُه من النّعم حسب حاجته وبِقدْر احتياجه ويقدرها حقّ قدرها، مُفكّرًا ببني جنسه من الناس، مُرتّبًا الاستفادة والإفادة من

[1] محمد سعد عبد المجيد قاسم، مقال بعنوان: علاج أهم المشكلات السياسية والاقتصادية في العالم الإسلامي من خلال فكر الإمام النورسي وأثره في وحدة الأمّة، مقدم ضمن أعمال المؤتمر الدولي: فكر الإمام سعيد النورسي وأثره في وحدة الأمة الإسلامية، ص550.

النّعم بحسب حاجة الإنسانية إليها، فالنّعم ليست من رُتبة واحدة، لهذا يحسُن التوقف عند أقسام ما يحتاجه الإنسان من سلع).[1]

وللاقتصاد وعدم الإسراف والتبذير منافع جمّة، وما أمَرَنَا الله به إلاّ لتلك الفوائد التي يحصّلها الإنسان من هذا السلوك في التعامل مع النِّعم الإلهية، وفي بيان ذلك يقول الأستاذ:

(إنّ الخالق الرّحيم سبحانه يطلب من البشرية شكرًا وحمدًا إزاء ما أغدق عليها من النِّعم والآلاء، إلاّ أنّ الإسراف مُنافٍ للشكر وهو استخفاف خاسر ووخيم تجاه النّعمة، بينما الاقتصاد توقير مُربحٌ إزاء النعمة. أجل إنّ الاقتصاد كما هو شكر معنوي، فهو توقير للرحمة الإلهية الكامنة في النِّعم والإحسان.. وهو سببٌ حاسم للبركة والاستكثار.. وهو مدار صحّة الجسد كالحمية.. وهو سبيل إلى العزّة بالابتعاد عن ذُلِّ الاستجداء المعنوي.. وهو وسيلة قوية للإحساس بما في النّعم والآلاء من لذّة.. وهو سبيل متين لتذوُّق اللذائذ المخبّأة في ثنايا نِعم تبدو غير لذيذة.. ولِكوْن الإسراف يخالف الحِكم المذكورة آنفًا باتت عواقبهُ وخيمةٌ).[2]

وهكذا يتبيّن لنا أنَّ الأستاذ سعيد النورسي يعتبر المال مجرّد وسيلة من وسائل تبادل المنافع وقضاء الحوائج بين النّاس، وهذا هو الوجه الذي يكون فيه المال خيرًا في يد صاحبه، لكن إذا اكتسب المال قيمة فوق قيمته الحقيقية وصار غاية أو لذّة أو متعة تزيد صاحبها نشوة أو عزّة أو قدْرًا، أوقع صاحبه في المهالك والمفاسد. فهو من المنظور الإسلامي روح الحياة الدنيا وزينتُها ووسيلة تحقيق الاحتياجات والمصالح الدنيوية دون الغلوّ في رَفْع شأنه من أداةٍ إلى مقصد أسمى، فينزل الإنسان بذلك إلى أدنى الدّرجات المعنوية حتى إن كان في أرفع الدرجات المادّية.

لقد نَفَذَ نَظَرُ النورسي الثاقب إلى الآثار الاجتماعية للمعاملات المالية على الإنسان والمجتمع، فَحَذَّرَ من كلّ ما من شأنه أن يعمِّق الهوّةَ بين الأغنياء والفقراء، وحذّر أيضا من كلّ ما من شأنه أن يسبّب الحسرة في قلب الفقير بسبب عوزه وفاقته، وقد يؤدّي ذلك إلى عدم الرضا عن حاله أو قد تزرع في نفسه الحقد اتجاه الغني. وقد تتعاظم الأنانية والاستعلاء عند الأغنياء فيُؤْذون الفقراء بالقول أو بالفعل أو حتّى دون قصد. فيؤدّي كلّ ذلك إلى انقسامٍ في المجتمع واضطراب في العلاقات يعلوه نفورٌ وتغشاه فُرقة. ومداواة هذه الأمراض الخطيرة كُلُّها في الاحتكام إلى الضوابط الشرعية

[1] صباح الدّين زعيم، مقال بعنوان: الرؤية الحضارية من خلال رسالة الاقتصاد، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد05، يناير2012، ص130.

[2] سعيد النورسي، اللمعات، ص191.

للمعاملات المالية التي تفيضُ بالرحمات والبركات على الفرد والمجتمع. فكل العبادات في الإسلام تُحقّق ثمارًا مادية ومعنوية تتدلّى من شجرة الإيمان.

(إنّ المجتمع في الإسلام مجتمع معنوي، بمعنى أنّ العلاقات الاجتماعية فيه تُبْنَى على الرّوابط من توَادٍّ وتراحم لا على أساس العلاقات المادية فقط).[1]

جـ/الدُّعَاءُ رُوحُ الْعِبَادَةِ

إنّ "الدُّعاءَ" عند النورسي ليس مجرد عبادة قولية، وهو أكثر من نداءات قلبية تُتَرْجَمُ باللسان إلى كلمات، إنّه يَعُدُّهُ روح العبادةَ ومظهر إيمان الإنسان بوجود الله وتصرّفه المطلق في الكون، وهو ترجمة قولية للاعتقاد الراسخ أنّ الخالق – جلّ وعلا - سامع مُطلعٌ على عباده وما يرفعونه من نداءات وأدعية في كلّ الأوقات، فهو عبادة ودليل اعتقاد في آن واحد.

يقول الأستاذ النورسي:

(إنّ الدعاء روحُ العبادة ومُخُّها، وهو نتيجةُ إيمان خالص، لأنّ الدّاعي يُظْهِرُ بدُعائه أنّ الذي يهيمن على العالم كلّه ويطّلعُ على أخْفَى أموري ويحيط بكلّ شيء عِلْمًا هو القادرُ على إغاثتي وإسعاف أبْعدَ مقاصدي وهو البصيرُ بجميع أحوالي والسميع لندائي، لذا فلا أطلبُ إلاّ منه وحدهُ، فهو يسمع أصوات الموجودات كُلّها، ولابدّ أنّه يسمع صوتي وندائي أيضا.. وهو الذي يديرُ الأمورَ كُلّها فلا أنتظرُ تدبيرَ أدقّ أموري إلاّ منْهُ وحده. وهكذا أيّها المسلم! تأمّلْ في سعة التوحيد الخالص الذي يَهَبُهُ الدُّعاء للمرء، وانظُرْ مدى ما يُظْهِرُه الدُّعاءُ من حلاوةٍ خالصة لِنُور الإيمان وصفائه، وافْهمْ مِنْهُ حكمةَ قوله تعالى:ﭐ□□□□□□□□□...□ﭐالفرقان :٧٧واستمع إلى قوله تعالى:ﭐ□نمني□□□...□ﭐغافر: ٦٠[2]

لقد كان الأستاذ النورسي رَجُلَ دَعوةٍ ودُعاء، فَنَجدُ في رسائل النور تضرعات ومواجيد وأدعية وقد بلغت من الكيف والكم ما لا نكاد نجده في غيرها من المؤلفات لأئمة المسلمين ودُعاتهم فقد أبدع الأستاذ سعيد النورسي في تأليفها حتى صارت ناطقة بحَالِه ومَقَاله في حِلّهِ وترْحاله، لأنّها لم تكتب بقَلَم عادي، بل بقَلَمٍ نوراني مَحْبَرَتُه دَمُ قَلْبٍ توّاقٍ دائم الذّكر والدُّعاء. وليس ذلك بمستَغْربٍ لأنّ رسائل النُّور مَرَايا عاكسة لشؤون القرآن ولمقاصده وهو كلُّه كتاب دعوة وتوحيد وذِكْر وثناء.[3]

---

[1] سيّد قطب، في ظلال القرآن، ط17، دار الشروق، القاهرة-مصر، 1992، ج1، ص159.

[2] سعيد النورسي، المكتوبات، ص668.

[3] أديب إبراهيم الدبّاغ، في آفاق النور، ص26.

يرى الأستاذ النورسي أنّ كلّ المكتوبات الربّانية في كتاب الله المنظور تدعو رَبَّهَا حسب الاستعدادات التي أودَعها فيها، أَوْ بلسانها أو فطرتها، ولكن اختلاف الوسيلة لا يعني اختلاف القصد. فَكُلّها محتاجة إلى رحمة ربّها وعنايته ولُطفه الدّائم.

فالدّعاء عند الأستاذ النورسي تعبير عن حاجة المخلوقات إلى خالقها، ونداء ينبعث بقوّة ليظْهِرَ مدى العجز والضعف والحاجة والافتقار إلى الخالق - جلّ وعلا - ولذلك فقد قسّم الدعاء إلى ثلاثة أنواع هي:

(النوع الأول: دُعاءٌ بِلسان الاستعداد والقابلية المودَعة في الشيء. فالحبوب والنُويّات جَميعُها تسأل فاطرها الحكيم بلسان استعدادها وقابليتها المودَعة فيها قائلة: اللّهم يا خالقنا هيّئْ لنا نُمُوًّا نتمكّنُ به من إبراز بدائع أسمائك الحسنى، فنعرِضَها أمام الأنظار.. فَحَوِّل اللهمّ حقيقَتنا الصغيرة إلى حقيقة عظيمة.. تلك هي حقيقة الشجرة والسُنْبُل).[1]

إنّ هذا النوع من الدّعاء لهذه الفئة من المخلوقات بِصِغرِ حَجْمِها وقلّة حِيلتها يُظهر تطلُّعاتها السّامية لتؤدّي وظيفة كونية رفيعة في الدلالة على خالقها ولتكون مرآة عاكسة لبدائع أسمائه الحُسْنى في معرض الدنيا الرّحب إلى جانب إخوتها من المخلوقات الأخرى، فثمرات دعائها متوجهة إلى خالقها وخالق هذا الكون وهذه الكائنات أولاً، أمّا ما يتوجَّه إليها بالذّات من ثمراته فيكتسب قيمته حسب الوظيفة الرفيعة التي تطمح وتتطلع لأدائها هذه الجزئيات والحُبَيْبات.

(وثَمَّة دُعاءٌ مِن هذا النّوع – أي بلسان الاستعداد- هو اجتماع الأسباب. فاجتماع الأسباب دُعاءٌ لإيجاد المسبَّب، أي أنّ الأسباب تتّخذُ وضْعًا معيّنًا وحالة خاصة بحيث تكون لسان حال يطلب المسبّب من القدير ذي الجلال، فالبذور مثلا تسأل بارئها القدير أن تكون شجرة، وذلك بلسان استعدادها فيتّخذُ كلٌّ من الماء والحرارة والتراب والضوء حالة معينة حول البذرة حتى تكون تلك الحالة كأنّها لِسانٌ ينطق بالدعاء قائلا: اللّهم يا خالقنا اجعل هذه البذرة شجرةً.

نعم إن الشجرة التي هي معجزةُ قدرة إلهية خارقة لا يمكن بحال من الأحوال أن يُفوّض أمرُها ويُسْند خَلْقُهَا إلى تلك المواد البسيطة الجامدة الفاقدة للشعور، بل مُحال إحَالتُها إلى تلك الأسباب.. فاجتماع الأسباب إذن إنّما هو نوع من الدّعاء).[2]

إنّ الأسباب التي يظنُّ البعض أنها قادرة وفاعلة، بل واغترَّ الكثير من الناس بها ونَسَبوا لها ما ليست أهلا له، حتّى ظلّوا وأظلّوا، لا تعدو كونها ستائر رحمة أمام القدرة الإلهية، بل إنها باجتماعها وتعاونها لا تتمرّدُ على أوامر ربها، بل تتخذ تلك الأوضاع

[1] سعيد النورسي، المكتوبات، ص364
[2] المصدر نفسه، ص364

وتلك الحالات لتسأل خالقها وموجدها والمتصرف فيها وحدَه سبحانه وتطلب منه المسبّب الذي يتوقف وجوده وحدوثه على أمر الخالق – جلاّ وعلا- فيقول له "كنْ" فـ "يكون".

أمّا النوع الثاني من الدعاء فهو:

(الدُّعاء الذي يُسأل فيه بلسان الفطرة، فالكائنات الحيّة جميعُها تطلبُ مطاليبها وتسأل حاجاتها -الخارقة عن طوقها واختيارها - مِنْ خالقها الرحيم وتُستَجابُ لها مطاليبُها وحاجاتُها في أنسبِ وقت مِنْ حيث لا تحتسب، إذْ إنَّ أيديها قاصرة عن أن تصل إلى ما تريد أو دَفْع حاجة لها، فإرسالُ كلّ ما تطلبهُ إذن ممَّا هو خارجٌ عن طوْقِها واختيارها وفي أنسب وقت ومن حيث لا تحتسب إنّما هو مِنْ قِبل حكيم رحيم. وإغداقُ هذا الإحسان والإنعام ما هو إلاّ استجابة لدُعاء فطري).[1]

إنّ هذا النوع من الدّعاء الفِطري تشترك فيه جميع الكائنات ولعلَّه من مظاهر تجليات الرحمة الإلهية على كلّ المخلوقات الناطقة وغير الناطقة أن جعل لها لسانا ينطلق بالدّعاء وتنطق حاجة الفطرة لِتسأل الخالق الكريم في كلّ وقت وحين. فهي محتاجة على الدوام إلى لطفه وعنايته، والدُّعاء وسيلة اتصال دائم بين الخالق والمخلوق، فلا حجاب بينها وبينه ولا شيء يمنعها أن تطمع في استجابته لسُؤالاتها ومطالبها.

أما النوع الثالث من الدعاء فهو:

(الدُّعاء الذي يسألُه ذَوُوا الشعور لتلبية حاجاتهم. وهذا الدعاء نوعان أيضا:

فالقسم الأول: مُستجابٌ على الأغلب إنْ كان قد بلغ درجة الاضطرار، أو كان ذا علاقة قوية مع حاجة الفطرة ومتوافقا معها، أو كان قريبا من لسان الاستعداد والقابلية، أو كان خالصا صافيا نابعا من صميم القلب. إنّ ما أحْرَزَهُ الإنسان من رُقيّ، وما نال من كشوفات ما هو إلاّ نتيجة هذا النّوع من الدُعاء، إذْ ما يطلقون عليه من خوارق الحضارة والأمور التي يَحسبونها مدار افتخار اكتشافاتهم ما هو إلاّ ثمرةُ هذا الدّعاء المعنوي الذي سَأَلَتْهُ البشرية بلسان استعداد خالص فاستُجيب لها، فما من دعاء يُسْأَل بِلسان الاستعداد وبلسان حاجة الفطرة إلاّ اسْتُجيب إنْ لم يكن هناك مانع، وكان ضمن شرائطه المعيَّنة.)[2]

لعلَّ أنواع الدعاء هذه مجهولة لدينا، أو أنّنا لم نَنْتَبِه لها أو لم يشغل بالنا وفِكْرَنَا يوما إنْ كانت هذه الموجودات أيضا تقوم بهذه العبادة الفطرية بأي شكل أو هيئة تتناسب

[1] سعيد النورسي، السنّة النبوية مرقاة ومِنهاج، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط06، دار سوزلر، القاهرة- مصر، 2013، ص50-51.

[2] سعيد النورسي، المكتوبات، ص51.

مع استعداداتها وأَلْسِنتها. لكنّ الأستاذ النورسي سمع دُعاءات هذه المخلوقات ونداءاتها وأعارها اهتمامه وعنايته حتى سبَرَ أغوارها وعَرف حاجاتها واطَّلع على مضامين سُؤَالاتها، فقد كان الدّعاء بالنسبة إليه حالةً دائمة لا تفارقُه، وكانت تطول جلساته التي ينشغل فيها بالدُّعاء والتضرع والمناجاة، حتّى تقرّحت أصابع قدمه من جرّاء إطالة الجلوس في الدُّعاء، وكان إذا سُئل عن سبب تلك الإطالة يقول: إنّ الظّفر بحياة أبدية في جنات النعيم يستحق هذا ويتطلّبه، فالعمر قصير والحياة الدنيا قصيرة، ومن غَلَبَهُ هواه فيها لا يليق أن يجرؤ على طلب الجنة ولذلك فهو –رحمه الله- لا يجرؤ على العيش حسب الهوى، بل اختار الطريق الموصل إلى الجنة.

(في داخل "النورسي" عالم إيماني صلب لا يُقهر، أقام صَرْحَهُ وشدَّ أزره فيوض روحه بالمواجيد والتضرعات والأدعية إلى الربّ المعبود صاحب القوّة والجبروت. وعلى الرغم من أنّ الأحزان والمصائب كانت قد همّتْ باتهامه أكثر من مرّة والقضاء على روح الحياة والتحدّي فيه إلاّ أنّها لم تنجحْ، وخرج من ليل الخطوب والأتراح سالما معافى ليستأنف عملَهُ الرّسالي في الدّعوة إلى إنقاذ الإيمان وإنقاذ الإنسان من بوائق الكفر والإلحاد).[1]

كانت هذه أنواع الدّعاء التي نغفل عنها أو لا نعرفها، وها قد نبّهنا إليها الأستاذ النورسي بنوع من التفصيل، أمّا القسم الثاني من النوع الثالث من الدّعاء فهو المعروف لدينا، وقد قسّمه الأستاذ إلى قسمين أحدُهما "فعليٌّ" والآخر "قَوْلِيٌّ":

(فعليٌّ: مثلا الأخذُ بالأسباب هو دُعاءٌ فعليٌّ، علمًا أنّ اجتماع الأسباب ليس المراد منه إيجاد المسبّب، وإنّما هو اتّخاذ وضع ملائم ومُرضٍ لله تعالى لِطلب المسبّب منه بلسان الحال).[2]

وعن هذا النّوع من الدّعاء يقول الأستاذ النورسي:

(حرث الأرض نوعٌ من دُعاء فعلي، يطلب الإنسان الرّزقَ مِن رَزّاقِهِ الحكيم، يطلبُه منه، لا مِنَ التراب، فالتراب بابٌ لِخَزينة رحمته الواسعة ليس إلاّ، يطرقُه الإنسان بالمحراث).[3]

أمّا القسم الآخر فهو الدّعاء القولي:

(وهو الدّعاء باللّسان والقلب، أي طلبُ الحصول على المطالب غير القابلة للتحقيق، والحاجات التي لا نصلُ إليها. وألطفُ غايات هذا الدعاء وألذُّ ثمراته أنّ الدّاعي يدركُ أنّ هناك من يسمع خواطر قَلْبِه،

---

[1] أديب إبراهيم الدباغ، في آفاق النور، ص33.

[2] المرجع نفسه، ص80.

[3] سعيد النورسي، السنة النبويّة مرقاة ومنهاج، ص52.

وتصلُ يدُه إلى كلِّ شيء، وهو القادر على تلبية جميع رغباته وآماله، ويرحمُ عجْزَه ويواسي فقْرَه).[1]

إنّ ثمار الدّعاء لذيذة وكثيرة، ولكنّ الأستاذ النورسي يعتبر أنّ أطيب ثمرة حاضرة يجنيها الإنسان من الدّعاء وألذّها هي أنّ الدّاعي يعلم يقينا أنّ هناك من يسْمعُهُ عند ندائه، ويُسْعفُه بالدواء المناسب لِدائِه وأسقامه، ويستشعر أنّه ليس وحيدا في هذا الوجود، لأنّ عين الرّقيب تحفظه وكَرَمُهُ يغمُره، فلا تجد المخاوف سبيلا إلى قلبه الذي اطمئن بعد خوف من كلّ أنواع البلايا التي كان يتوجس منها ويستصعب مواجهتها، فإذا بها تنهار وتتهاوى في حضرة الإيمان التحقيقي والدّعاء الحقيقي الذي غَمَر فؤاد العبد الضعيف بالفرح والانشراح، وألقى عن كاهله عبئا ثقيلا.[2]

(وحيث إنّ الإنسان مُعرَّضٌ لما لا يُحْصَى من أنواع البلايا والمصائب ومهاجمة الأعداء لِمَا يحمل من عجز مطلق. ولَهُ مطالب كثيرة وحاجات عديدة مع أنَّه في فقر مُدْقع لا نهاية له؛ لِذا تكون وظيفتُهُ الفطرية الأساس "الدعاء" بعد الإيمان، وهو أساس العبادة ومُخُّها).[3]

كما يؤكّد الأستاذ النورسي أن "الدعاء" إلى جانب كونه عبادة فهو أيضا دليل على الاعتقاد، فقال:

(اعلمْ أنّ الدُّعاءَ أنموذج الأسرار التوحيد والعبادة؛ إذْ الدّاعي في نفسه خُفْيةً، لابُدّ أن يعتقد سماع المدْعُوِّ لهواجس نفسه وقدرتَه على تحصيل مطلبه، فيسْتلزم هذا الاعتقادُ، اعتقادَ أنَّ المَدْعُوَّ عليم بكلّ شيء وقدير على كلّ شيء).[4]

لقد اختار الأستاذ سعيد النورسي الدُّعاء ليكون من المظاهر الحقيقية التي يتجلّى فيها الإيمان والاعتقاد الراسخ بوحدانية الخالق وإحاطته بكلّ شيء وقدرته على إحداث التغيير في اللّحظة والحين فأمره سبحانه إذا أراد شيئًا أن يقول له كُن فيكون، واختارَه أيضا كمعنًى يتحقق به كمال الإيمان لأنّه يرتكز على قواعد متينة، إذْ صَارَ عجز الإنسان وفقره وضَعْفه أسبابا لتَنَزُّل الرّحمات وإجابة الدعوات. وقد جعل الله الأرزاق غير خاضعة ولا تابعة لقوّة الكائنات الظّاهرية، ولا ضعف المخلوقات مانعًا لأرزاقها وحُظُوظها، بل إنّ سعة العيش أو ضيقه، أو سوق الأرزاق ومَنْعَهُ قد يأتي متناسبا تناسبا عكسيا مع الاختيار والقدرة الموهومة للكائنات، وكلُّما زاد اعتماده على خالص قدرته ومحض إرادته ابْتُلِيَ بضيق العيش وكثرة التكاليف والابتلاءات.

---

[1] الشفيع الماحي أحمد، مرجع سابق، ص80.
[2] سعيد النورسي، المكتوبات، ص368.
[3] سعيد النورسي، الكلمات، ص352.
[4] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص183.

فالإنسان قد أنْعم الله عليه بقوّة واقتدار على السّعي في طلب الرزق وتحصيل المراد ونيل المُبْتَغَى، ولكنَّه قد يغفل عن استشعار فقره وعجزه وحاجته إلى خالقه، وهذا الشعورُ هو الذي يدفعُ الإنسانَ إلى التضرّع والتوجه بالدّعاء إلى الله سبحانه وتعالى، فينقلب ذلك الفقر والعجز والضعف إلى سبب للاعتزاز ومدخل للتلذّذ، وهذا وذاك عين الدُّعاء، ويخاطب النورسي الإنسان قائلا: (واعلمْ أنّ قدرتك وقوَّتَك في الدعاء والبكاء لدى مالكك)[1]

ثمّ بعد كلّ ما تقدّم من أنواع الدّعاء وماهيته، يلتفت الأستاذ النورسي إلى جانب آخر يتعلق بهذه العبادة ألا وهو إجابة الدّعاء.

فهل يُنتَظَرُ حتما إجابة الدّعاء وتحقّق السؤال لتكون الإجابة علامة على القبول، أمْ أنّ عدم تحقق الدعاء دليل على عدم الاستجابة، أو ربّما يظُنّ العبد أن ذلك علامة أو إشارة على الغضب الإلهي أو عدم استحقاق العبد للعطاء الربّاني؟؟؟

إنّ هذه المخاوف قد تصدر من قلب متعطش للإنعام الإلهي، وقد تنبعث من الشكوك والريبة والاستسلام لوساوس الشيطان لتكون ذريعة للإعراض والابتعاد عن هذه العبادة التي يُرْجى منها الكثير من الثمار.

يجيب الأستاذ عن هذا الانشغال ويوضّح معاني الاستجابة بقوله:

(اعلمْ يا منْ يَدّعي أنّه يدعو ولا يُجاب! إنّ الدُّعاء عبادة، وثمرة العبادة في الآخرة. وأمّا المقاصد الدنيوية فأوقاتُ تلك الأدعية التي هي عبادات مخصوصة.

فكما أنّ الغروبَ وقتُ صلاة المغرب. والخسوف والكسوف وقتُ صلاة الكسوفين لا غاية لهما، وانقطاع المطر؛ وقتُ صلاة الاستسقاء، لا أنّ الصلاة وُضِعَتْ لنزول المطر، بل هي عبادةٌ لوجه الله تدوم ما دام لم ينزل، وإذا نزل المطر انقضى وقتُها.

وكذا تَسَلُّطُ الظالمين ونزولُ البلايا أوقاتٌ لأدعية مخصوصة تدوم مادامت هي، فإنْ رُفعتْ بها فنُورٌ على نور، وإنْ لمْ تُرْفَعْ لا يقال: "لم يُقبَل الدعاء"، بل: "لم يَنْقَضِ وقتُ الدعاء".

وأمّا وعد الإجابة في: "أدعوني أستجب لَكُم"* فالإجابة غيرُ قبول الدعاء بعينها، بل الجواب دائمي، وإسعاف الحاجة تابعٌ لِحكمة المجيب)[2]

ويزيد مسألة الإجابة تبيانا وإيضاحًا حتى يستيقن المؤمن، ويرتدع الشاك المتوجس، ويخُصُّ مسألة استجابة الدعاء القولي الاختياري التي تتعلق بالإنسان تحديدا

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص438.
[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص368.

دون سائر الكائنات، ويروي ظمأه ويُبَشِّرهم أن الدّعاء إمّا أن يُسْتَجابَ بِعَيْنِهِ، أو بما هو أفضلُ منه وأولى.

وكعادته في رسائل النور، يضرب لنا الأستاذ النورسي مثالا لبيان هذه المسألة بقوله: (يدعو أحدُهم أنْ يرزقَه اللهُ مولودًا ذكرًا، فيرزقُه اللهُ تعالى مولودةً كـ "مريم" عليها السلام، فلا يُقالُ عندئذٍ: إنّ دُعاءَهُ لمْ يُسْتَجَبْ، بل قد استُجيبَ بما هو أفضلُ من دُعائه. ثمّ إنّ الإنسانَ قد يدعو لنيْل سعادة دنيوية، فيستجيبُ الله لهُ لِسعادةٍ أخروية، فلا يُقَالُ: إنّ دعاءَهُ لمْ يُسْتَجَبْ، بل قد استُجيب بما هو أنفع لَهُ... وهكذا.

فنحن إذن ندعوه سبحانه ونسأل منه وحدَه، وهو يستجيب لنا، إلاّ أنّه يتعامل معنا على وِفْق حكمته لأنّه حكيم عليم.. فلا ينبغي للمريض أن يتّهم حكمة الطبيب الذي يُعالجه، إذْ رُبّما يطلبُ منه أن يداويه بالعسل، فلا يُعطيه الطبيب إلاّ دواءً مُرًّا علقمًا، لِعِلْمِه أنّه مصاب بالحمّى. فلا يحقّ للمريض أن يقول: الطبيب لا يستجيب لدعائي، بل قد استمع لأناته وصُراخه، وأجابه فعلا، وبأفضل منه).[1] ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد...

إنّ الأستاذ النورسي يفرّق بين تلازم الدعاء والإجابة كما أرادها الإنسان وسألها، فالإنسان ينظر إلى الأمور بذاتية مفرطة ويرى من زاوية نظره فحسب، ولذلك قد تغيب عنه حِكَم عظيمة وفوائد جليلة لا يرقى لتوقّعها وقد لا يجرؤ على طلبها حتّى. ولكن الله عزّ وجل يُنعمُ على الإنسان بالإجابة كما أنعم عليه بالدّعاء وجعلها عبادة يتقرب ويتوجه بها العبد إلى ربّه دون وسائط أو حتى دون ألفاظ أحيانا إذ تكون الكلمات عاجزة عن التعبير عن المراد ولكن الله مُطّلع على أحوال عباده وأقوالهم وما أرادوه وما قصدوه، ولذلك فإنه – جلّ وعلا- يُبهرهم حتى بِصُور الإجابة، فقد يعطيهم أكثر ممّا سألوه، ويغدق عليهم بأكثر ممّا طمعوا فيه وأرادوه، أو قدْ يدَّخِرُه لهم في الآخرة ليأتيهم في صورة نعيم دائم.

ويكشف الأستاذ النورسي عن جانب آخر يتعلق بـــ "الدعاء" وعلاقته بوظيفة الإنسان الفطرية، وذلك في معرض حديثه عن حال الإنسان عند قدومه إلى الدنيا وحاجته المتزايدة إلى تعلّم قوانين الحياة وشرائطها التي سيستغرق سنوات طويلة في تعلّمها وتفهُّمها، فضلا عن أنّه يخرج إلى الدّنيا وهو في غاية الضعف والعجز، ولا يتمكّن من التمييز بين النفع والضرّ ولا مِنْ قضاء مصالحه ومنافعه وحاجاته إلاّ بعد سنوات واحتياج إلى التعاون مع الآخرين والانخراط في جوانب شتّى من الحياة الاجتماعية، وكلُّ ذلك لحكمة يعلمها الله، فقد كان قادرًا على إخراج الإنسان إلى الدّنيا مكتفيا مستغنيا

[1] سعيد النورسي، السنة النبوية مرقاة ومنهاج، ص55-56.

غير محتاج إلى أي شكل من أشكال التكمل بالتّعلّم، ولكن هذه الهيئة كانت ستحجُبُ عنه منافع كثيرة، ولهذا يقول الأستاذ النورسي، إنّ:

(وظيفة الإنسان الفطرية هي "التّكَمُّل" بـــ "التّعلُّم" أي الترقي عن طريق كسب العلم والمعرفة، والعبودية بـــ "الدعاء". أي أنْ يُدْرِكَ بنفسه ويَسْتَفْسِرَ: "برحمة مَنْ وشفقته أُدارى بهذه الرعاية الحكيمة؟! وبِمَكْرُمَةِ مَنْ أُرَبَّى هذه التربية المفعمة بالشفقة والرحمة؟ وبألطاف منْ بِجودِه أُغَذَّى بهذه الصورة الرّازقة الرّفيقة؟! "فيرى أنّ وظيفتهُ حقًّا هي الدعاء والتضرع والتوسل والرّجاء بلسان الفقر والعجز إلى قاضي الحاجات ليقضي له طلباته وحاجاته التي لا تصِلُ يدُه إلى واحدة من الأَلْفِ منها. وهذا يعني أنَّ وظيفَتَهُ الأساس هي التحليق والارتفاع جَناحيْ "العجز والفقر" إلى مقام العبودية السّامي).[1]

وقد كان النورسي - رحمه الله- أنموذجا فريدًا في الدّعاء، ومَنْ يطالع رسائل النّور يسمع لسان قاله وكأنه لا يزال ناطقا يلهج بالذكر والدّعاء الذي حرَّره من أغلال الأحزان فحوَّلَها من أسباب يأس إلى طاقة للعطاء، لذلك نجد جلَّ أدعيته تنطلق في أولى خطواتها من مواجع روحه المتألّمة ثم تتوجَّه تلقاء كلَّ من يقرؤها أو يسمعها وكأنَّها تستنهض ما هو كامنٌ فيه وترفعه إلى حالة سامية من التضرع، فتنْزِل على القلب كأنّها بلسم شاف، وعلى الرّوح كأنّها طاقة إيمانية تفيض من خزائن الرحمة الإلهية، وقد كانت أدعيته تلك من أعظم دروس الإيمان التي أملاها على تلاميذه وضَمَّنْهَا رسائله، فقدّم لنا درس "الدعاء" في حلّة عملية رائعة.

(مِنْ أَجْلِ ذلك فإنَّ التشريعات المرتبطة بحالة الوعي لدى المسلم كذلك المَعْنِية بالشعائر الإسلامية لا تستدعي تأديتها كمجرد ممارسات شخصية بحْتَة، أي كأنشطة تتوقف غايتها عند حدِّ تغيير خالة الوعي لدى مُمَارِسها(...) فالغاية العامَّة لكلِّ التشريعات الإسلامية هي التدخل في حياة الأشخاص الآخرين على نَحْو يُؤَثِّر عليها و يوجهها نحو الأفضل).[2]

المبحث الثالث: وظائف الإنسان

إنّ العبادة قد سبق بيانها وتبيان أهمّيتها ومحوريتها في رسائل النّور لأنّها مدار الوجود الإنساني والغاية من خلق الإنسان. وهو بجانب قيامه بواجب العبادة يقوم بوظائف أخرى مكمّلة لذلك الواجب، وترتبط هذه الوظائف بمكانة الإنسان في الكون والوجود حتّى صار قادرًا على القيام بعدّة وظائف في آن واحد لأنّه المخلوق المكرّم من ربّ

[1] سعيد النورسي، الكلمات، ص352.

[2] إسماعيل راجي الفاروقي، التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، ترجمة: السيد عمر، د ط، 2010، ص 374.

العالمين والذي يحظى بشرف الاستخلاف وقدرة المظهرية لتجليات الأسماء الإلهية، وغيرها من الوظائف السّامية التي يؤدّيها في الحياة الدنيا.

المطلب الأول: الوظيفة الفطرية

إنّ العبودية مستمدَّةٌ من العبادة، بل إنّها امتداد مظهري لها، ولا تنفك إحداهما عن الأخرى، بل هناك من يجعلهما شيئا واحدًا، حتّى إنّ الأستاذ نفسه قد يعبّر عن إحداهما بلفظ وهو يريد الأخرى لشدّة التقارب بينهما وقد ورد ذلك في مواضع كثيرة منها قوله:

(ثم إنّ فطرة الإنسان وما أودع اللهُ فيه من أجهزة معنوية تدُلاّن على أنّه مخلوق للعبادة لأنّ ما أودع فيه مِن قدرات وما يؤدّيه من عمل لحياته لا تبلُغه مرتبة أدنى عصفور – الذي يتمتع بالحياة أكثر منه وأفضل- بينما يكون الإنسانُ سلطانَ الكائنات وسيّدَ المخلوقات من حيث حياته المعنوية والأُخروية بِما أودع الله فيه من علم به وافتقار إليه وقيام بعبوديته).[1]

أمّا إذا ابْتَغيْنَا معرفة الفرق الجوهري بينهما فإنّ العبودية هي: (انعكاسُ أثر العبادة على السلوك الظاهري للإنسان، لأنّ العبادة بلا عبادات ظاهرة هي روح بلا جسد، كما أنّ العبادات الظاهرة إنْ لم تَكُن نتيجة يقين باطني وطهارة نفسية وقلبية كانت صورة بلا روح، وحيث إنّ الإسلام هو دينُ الظاهر والباطن فلا غنى لأحدهما عن الآخر، ليكونا معًا برهانا على صدْق دعوى العبودية الّتي يتعيّنُ أن يكونَ عليها الإنسانُ في علاقته بربّه).[2]

إنّ آثار العبادات وثمراتها التي تعود على الإنسان لا تتوقف على العامل الزمني الذي يحدّد زمن القيام بها، أو دخول وقتها وانقضائه لأنّ ذلك مرتبط بوقت يتوجب فيه ترك ما سواها من الأعمال والانشغالات والتفرغ لها وإعطائها حقّها، ثم إذا انقضى ذلك الوقت المحدد انصرف إلى باقي شؤون حياته وباشرها، أمّا انعكاسات تلك الأعمال التعبّدية وتجلّياتها على السلوك فإنها غير متعلقة بالعامل الزّمني، بل إنها تتجاوزه تجاوزا مطلقا وتترسّخ بالتدريج على سلوك الإنسان حتّى تغيّرَه من صورة إلى صورة أخرى أحسن وأجمل. فيلاحظ ذلك التغيير المحمود عليه حتى لا يَجدَ لَهُ مَرَدًّا إلاّ تلك العبادات التي لَزمها وحافظ عليها وتذوّق لذّتها فأنعم عليه المعبود – سبحانه وتعالى- بدوام ظهور آثارها عليه، ولا يتأتى ذلك إلاّ بالمجاهدة والمثابرة والانشغال بها والتّرقّي في درجاتها، فتعطيه بقدر ما أعطاها، وتغدق عليه بقدر إقباله عليها. أمّا من لم تتجاوز

[1] سعيد النورسي، الكلمات، ص20.
[2] سراج الدين محمد نبيه، مرجع سابق، ص132.

العبادة عنده كونها نوعًا من الممارسة الجسدية الفارغة من أيّ بُعدٍ روحاني وحضور وُجداني، فإنها تبقى – من زاوية نظره القاصر- مشقّة وتكليفًا يتوجب عليه القيام به في وقت محددة وبهيئة مخصوصة وتفاصيل جامدة لا يستشعر شيئا من آثارها على سلوكه وأخلاقه، ولا يتذوّق سوى متاعب أدائها، وعند الفراغ من ذلك لا يجد راحة في القيام بها. بل يرتاح لأنها فرغ منها. فما أبعده من حِرمانٍ!

إنّ حقيقة العبودية عند الأستاذ النورسي هي:

(تلك الحالة التي تجعلُ المسلمَ يستسلم لله وحدَه، ويُسلّمُ قياده له لا شريك له، لِيُخْرِجَ من قلبه كُلَّ الأرباب، ولتفقدَ كُلّ الربوبيات بريقَها أو سطوتَها، فيغدو القلب العامر بِذِكر الله خاليا مِنْ كُلّ خوف أو رجاء إلاّ منه سبحانه، فمن كان عبدا لله لا يكونُ عبدًا للعبيد، ومن أراد العبودية الخالصة لِرَبّ العالمين لا ينبغي له أن يُذِلَّ نفسه فيكون عبدًا للعبيد، وإنّ جَنْيَ فوائد الحرية الحقّة والاستفادة منها استفادة كاملة منوطٌ بالاستمداد من الإيمان).[1]

وقد حثَّ الأستاذ سعيد النورسي الإنسان على الانشغال بوظيفة العبودية وعدم الانشغال بـ "الربوبية"، فقال مُبْتَدِئا بِنَفْسِهِ ومُذكّرًا إياها ليكون أسوة لغيره:

(اعلمْ أيّها السعيد الغافل الفضولي! إنّك تتركُ وظيفتَك، وتشتغل بوظيفة ربّك. فَمِنْ ظُلْمك وجَهْلك وتركك العبودية الخفيفة التي هي في وسعتك .. وحملُك على ظهرك ورأسك وقلبك الضعيف وظيفة الربوبية التي تختصُّ بمنْ "□□□□□□" الانفطار: ٧ – ٨فالتزمْ وظيفَتَك، وفوّضْ إليه وظيفَتَه لِتَسْعَدَ وتستريح.. وإلاّ صِرْتَ عاصيًا شقيًا وخائنًا غويًا).[2]

إنّ وظيفة العبودية مظهر من مظاهر العناية الإلهية بالإنسان الذي أودع الله فيه الجوع والعطش ليعرف لذّة المطاعم والمشارب، وركّب فيه الفقر والضعف والعجز والاحتياج إليه – جلّ وعلا- لينظر بمنظارها إلى كمال الخالق المبدع القادر المقتدر –سبحانه وتعالى- وليرى بمقياس فقره غنى مالك الملك وخزائن رحمته، وبميزان عجزه وضعفه تتجلى أمامه قدرة ذي الجلال والجمال وكبريائه وعظمته، ويكشف له احتياجُه وفقرُه نعَمَهُ وإحسَانَه –تبارك وتعالى- فيدرك أنّ وظيفة العبودية هي التي تليق به وترفَعُه وهي غايةُ فطرته.

يقول الأستاذ النورسي:

---

[1] محمد عبد النبي، مقال بعنوان: "أذواق وأشواق في الطريق إلى الله" ، أنظر: سعيد النورسي عملاق الفكر الديني في العصر الحديث، ص89.

[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص367.

(والعبوديةُ أن تعلنَ عند باب رحمته: قُصُورَك بـ "أستغفر الله" وبـ "سبحان الله". وفقرك بـ "حسْبنا الله" وبـ "الحمد لله" وبالسؤال. وعجزَك بـ"لا حول ولا قوّة إلاّ بالله" وبـ "الله أكبر" وبالاستمداد.. فتُظْهِرُ بمرآة عبوديتك جمالَ ربُوبيتِه).[1]

إنّ "العبودية" عند النورسي ومن منظوره هي الأولى باشتغال العبد لأنّها تليق بماهيته وهي مرآة "الربوبية" بالضّدية، منْبَتُهَا "المَحَوِية"، ومُنْتَهاها "المحبوبية" وهذا ما عبّر عنه بقوله:

(يا أيّها الإنسان! ماهيتُك إنَّما هي العبودية التي على "المَحَويَة" تنَبَّتَتْ، ومنها ابتدأتْ وإلى المحبوبية انتهتْ وإيَّاها أثمرتْ، والعبودية ضدُّ الربوبية والمالكية...فبِدَرجةِ عِلمك بِبُعدك عن الربوبية والمالكية تصيرُ عبدًا...إذ العبودية مرآة الربوبية بالضّدّية ككتابة حروف النّور على صحيفة الظُّلمة، بمعنى أنّه مثلما يكون الظلام مرآة للنّور بحيث كلّما اشتدَّ الظلام ازداد سطوعُ النّور؛ فبالعبودية تقومُ الموجوداتُ بمقام المرآة بإظهارها قدرة الله بعَجْزِهَا وبيان غِناه بِفَقْرها، وكذلك تدُلُّ بفنائها على بقائِه).[2]

والمقصود من وظيفة "العبودية" عند الأستاذ النّورسي هو أهمية الاشتغال بها لأنّه المعنيُّ بها، وأمّا الانصراف إلى ما لا يليق به وليس أهلاً له ففيه تضييع لثمرات يانعة ودرجات رفيعة يسمو فيها الإنسان الفقير الضعيف المحتاج إلى ربّه ليبلغ مرتبة المحبوبية. أمّا تعليم شؤون دائرة الربوبية فإنّه مقصد قرآني جامعٌ تستند إليه كلُّ المقاصد وتستمد شموليتها منْهُ ولذلك كان هذا هو الهدف الأعظم والأهم للقرآن الكريم، والوظيفة الأساسية تدور في فلك "تعليم شؤون دائرة الربوبية". وما ورد في القرآن الكريم يندرج ضمن أحد الأقسام الثلاثة وهي: الإرشاد إلى معرفة الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسُنّته مع عباده. وهذا ما ينتفع الإنسان بمعرفته ولذلك اعتبر الأستاذ النورسي "معرفة الله" هي المقصد الكلّي للقرآن وصاغ هذا المقصد في قوله: "إنّ القرآن بمجموعه قَوْتٌ للقلوب" لأنّ حياة القلوب تتعلق بمعرفة الله، وشؤون ربوبيته.[3]

إنّ الطبيعة الثنائية في تركيب الإنسان بما يحمله من جانب ملائكي مشدود إلى الأعلى وجانب حيواني مشدود إلى الأسفل تُؤهّلُهُ إمّا لأنْ يرقى إلى أعلى علّيين أو يتردّى إلى أسفل سافلين، وهذين النّجدَين اللّذين فُسِحَا أمامَهُ لا نهاية لكليْهما من حيث الصعود والترقّي في الدّرجات أو الهبوط والتردّي في الدّركات حسب ما يختاره العبْد من أعمال تنعكس آثارها على سلوكاته وتتحدَّدُ بها مكانتُه. فإذا غلّبَ جانب العبودية

[1] سعيد النورسي،المثنوي العربي النوري، ص360.
[2] سعيد النورسي، المكتوبات، ص123.
[3] زياد خليل الدغامين، مرجع سابق، ص83.

المتوجهة إلى الحياة الباقية نجا وأفلح، وأمّا إذا غلَّب جانب الأنانية والحيوانية المتوجهة إلى الحياة الدنيا خاب وخسر.

وإدراك حقيقة العبودية والقيام بها يحملُ الإنسان على مقابلة الألوهية والربوبية بالشُكر والحمد والخضوع والعبادة، مع استشعار خطر أولئك الذين يتربّصون به ويشتّتون الأنظار لإبعاد النّاس عن التوجه إلى خالقهم وصرْف شُكْرِهم وامتنانهم إليهم أو إلى غيرهم، فالإنسان بطبيعته الخَلْقية المركبة مرتبط بالسماء بجانبه الروحاني دون الانقطاع عن الأرض بجانبه الجسماني، ووجودُه على هذه الأرض مرتبط بأداء وظائف شتّى لا يليق به أن ينساها أو يغفل عنها.

المطلب الثاني: الوظيفة المَظهرية

إنّ وظيفة الإنسان الفطرية هي العبودية كما سبق وأسلفنا، وهي مرتبطة أساسًا بالعبادة وبمقدار تحقّق مقاصدها وانعكاسها على السلوك تكون درجة العبودية. أمّا وظيفة المرآة العاكسة، فهي قائمة أساسا على "الأسماء الحسنى" وبمقدار قيام الإنسان بوظيفة المظهرية لتجليات الأسماء الحسنى يكون نقاء وصفاء المرآة العاكسة.

ويخاطب النورسي نفسه أولا لتحذيرها من مغبّة الغفلة عن هذه الوظيفة والاقتصار على الاهتمام بتوفير الحاجات الدنيوية للنفس والبدن وعدم إدراك الغاية من إدراج الحواس والأجهزة والجوارح والأعضاء والآلات واللطائف والمعنويات في ماكنة حياة الإنسان، فقال:

(أيُّها السعيد المسكين! أتحسَبُ أنَّ وظيفةَ حياتك حُسْنُ محافظة النفس والتربية البدنية وخدمة البطن والهوسات؟ أم تحسب أنَّ غاية إدراج هذه الحواس والحسّيات والجوارح والجهازات، والأعضاء والآلات، واللطائف والمعنويات في ماكنة حياتك استعمالُها في هويات النّفس الدنية في هذه الحياة الفانية؟ كلاّ! بل ما حكمةُ إدراجها في فطرتك إلاّ إحساسُك جميعَ أنواع نِعَمِهِ تعالى، وإذاقةُ معظم أقسام تجلّيات أسمائه. فما غاياتُها إلاّ أنْ تزن بتلك الموازين مدَّخرات خزائن رحمته، وأن تفتح بتلك الجهازات مَخْفيات كنوز جلوات أسمائه جلّ جلالُه؛ بل ما غاياتُ حياتك إلاّ إظهارك وتشهيرُك بين إخوانك المخلوقات ما في حياتك من غرائب جلوات أسمائه.. ثمّ إعلانك بحالِك وقالِك عند باب رُبوبيتِه عبوديتَك.. ثمّ تَبَرُّجُكَ وتزيُّنُكَ بمرصَّعات جواهر جلوات أسمائه للعرْض والظهور لنَظَر شهود الشاهد الأزلي.. ثمّ فهمُكَ لتحيَّة ذوي الحياة بالتسبيحات لواهب الحياة، ومشاهدتُك لها، وشهادتُك عليها.. ثم فَهْمُكَ لتحية ذوي الحياة بالتسبيحات لِواهِبِ الحياة، ومشاهدتُكَ عليها.. ثم فَهْمُكَ بِمقياسية جزئيات صفاتك وشؤونِك لصفات خالقك

وشؤونه المطلقة المقدسة.. ثمّ فهمُكَ الكلمات الموجودات الناطقات بتوحيده وربوبيته.. ثم تفطّنُك بأمثال عجزك وفقرِكَ لدرجاتِ تجليات قُدرته وغناه).[1]

يلفتُ الأستاذ سعيد النورسي نظر الإنسان إلى الكنوز المخفية لتجليات الأسماء الحسنى ويشد انتباهه إليها، فهي موجودة فيه، ومتجلّية من خلال مرآته العاكسة ولكنّه قد يغفل عليها أو يوجّه أنظاره واهتمامه إلى الحاجيات الدنيوية ومتطلبات النّفس وينشغل بها حتّى يعمى عن متعة استيعاب وإدراك هذه الوظيفة المظهرية إذا خَفَتَتْ الومضة الإيمانية فيه وسوف يبقى مطموسا في عتمة الظُّلمات فلا تنكشف هذه المعجزات ولن يقوم بوظيفة إظهار تجليات الأسماء الحسنى ولن يكون مرآة عاكسة. أمّا إذا تحقّق فيه الانتساب الإيماني تألقت مكوناته الجمالية وصار فهرسا لتلك الأسماء والنقوش البديعة.

ومن أظْهر ما يتجلّى ويتلألأ على مرآة الإنسان العاكسة لتجليات الأسماء الحسنى هو تلك المظاهر الجمّة للرّحمة والعناية الإلهية، وفي ذلك يقول النّورسي:

(نظرتُ إلى نفسي وتأملت فيها ورأيت أنّ الذي خلق الحيوانات مِنْ قطرة ماء خَلَقَني أيضا منها. وبرأني معجزة من معجزاته. وشَقَّ سمعي وبصري ووضع دماغًا في رأسي وقلبًا في صدري ولسانًا في فمي، بحيث خلق في ذلك الدماغ والقلب واللّسان مئاتٍ من الموازين الدقيقة والمقاييس الرقيقة التي تتمكّنُ من أن تزن وتعرف جميع هدايا الرحمان المدّخرة في خزائن الرحمة الإلهية وعطاياه الكريمة، وأدْرَجَ في تلك الأعضاء ألوفًا من الآلات التي تتمكّنُ من أنْ تفتح كنوزَ تجليات الأسماء الإلهية التي لا نهاية لها، وأمدَّ تلك الآلات والأجهزة معرّفاتٍ معيّنة مساعدة بعدد الروائح والطعوم والألوان)[2]

ويُعتبر الأستاذُ النورسي الإنسانَ العاكس الأكمل للأسماء الحسنى، وذلك لازم عن كونه "فهرسًا" فما دام الكون كُلُّه مجالاً واسعًا ومعرضًا رحبًا لتجليات الأسماء الحسنى وأنوارها، من حيث أنّه مخلوق ومرتبط في كينونته واستمراره بهذه الأسماء، فيكون الإنسان، وهو فهرسته الكون، أكثر إظهارًا لتلك
التجليات وأكملُ، من حيث مخلوقيتُه.[3]

(ولمّا كان الإنسانُ يتبوَّأ تلك المكانة العليا بما يمتلكُه من العقل والإدراك والبصيرة فكان مطلبا أصليا ومقصدًا أساسيا بين خلق الكائنات الأخرى. ومن هنا صار خليفة الله في أرضه ومخَاطَبًا له بين خليقته وكان معكسًا مَجْلُوًا ومرآة صقلية لكثير من

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص377-378.
[2] سعيد النورسي، الشعاعات، ص72.
[3] فريد الأنصاري، مرجع سابق، ص102.

الأسماء الإلهية استحقَّ من بين كلّ الكائنات الأخرى أن يُخصَّ بالذِّكر ويستجلب النَّظر إلى ما في خَلْقهِ ويسلّط الضوء على ما في كيانه المادي والروحي والنفسي والعقلي من أسرار عظيمة وإجراءات عجيبة يَنعكس منها كثير من تجليات الأسماء الإلهية وتصرّفات حكيمة كلٌّ منها مظهر من مظاهر الرحمة الإلهية والإكرام الربّاني. ومن هنا ركّز النورسي نظرهُ على خَلْقِ الإنسان وقابلياته واستعداداته وخواصه ومميّزاتهِ ولَعَمْري لقد أُدْرِجَ في البِنْيَةِ الإنسانية وأُدمج فيها حسب قراءة النورسي لها مِنَ الأعضاء العزيزة، والآلات اللطيفة، والأجهزة الغزيرة، والمواد الكثيرة بحيث استحقَّ أن يُسَمَّى "عالَمًا صغيرًا" على حدّ تعبير النورسي.)[1]

إنّ الإنسان هو أعظمُ مقْصَد من المقاصِد الإلهية، اختاره واصطفاه الله سبحانه وتعالى ليكون خليفة في الأرض وأهَّلَه ليدرك الخطاب الإلهي، وزاده على ذلك أنْ خَصَّه من بين الجميع بِخِلْقةٍ خارقة، وصَيّرَهُ مظهرًا لتجليات أسمائه الحسنى، فهو العالم الأصغر وفهرس الكون.

(ويَرُدُّ النورسي سِرّ امتياز الإنسان وتميُّزه إلى أنّه أكمل مظهر من مظاهر تجليات الأسماء الحسنى، وهي التي جعلتْ منه عمودًا ساندًا للكائنات كلّها، ومركزًا للكون ومحورًا له، ومُسَخَّرًا من أجله. فعلى سبيل المثال هو وحده الذي يمكنُه إدراك جميع الأسماء الحسنى ويتذوّقها بِما أودع الله فيه من مزايا وحقائق جامعة، فهو يدرك كثيرا من معاني تلك الأسماء لِما يتذوّق من لذائذ الأرزاق المنهمرة عليه، بينما لا تبلغ الملائكة إلى إدراك معاني الأسماء بتلك الأذواق الرزقية لافتقارهم إلى ما عند الإنسان من حواس.)[2]

وقيامُ الإنسان بوظيفة المرآة العاكسة لصفات الحيّ القيوم الجليلة والمحيطة يكون حسب الأستاذ

النورسي بثلاثة وجوه:

فالوجه **الأول** يتعلق بالناحية الشعورية لدى الإنسان من خلال عجزه وضعفه وفقر وحاجاته إلى خالقه، فهي تُعرِّفُه قوة خالِقِه وقدرته وغِناه ورحمته، فكما أنّ الظّلامَ سببُ لِرؤية النّور، كذلك يصير الضعف والعجز والحاجة الملحّة والافتقار الدائم إلى القوي الغني الكريم صفة إيجابية يتذوّق من خلال الإنسانُ ثمرات العطاء الإلهي ويتمتع بمنازل الإحسان، فيؤدي وظيفة المرآة العاكسة لمرآة قياسية صغيرة لإدراك صفات

[1] محمد خليل جيجك، مقال بعنوان: منهج النورسي في التعامل مع الأسماء الحسنى، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، إسطنبول-تركيا، العدد01، يناير2010، ص104.

[2] الشفيع الماحي أحمد، مرجع سابق، ص49.

خَالِقه الكاملة، وذلك بما يملك هو مِن صفات قاصرة ناقصة، تماما مثلما يقوم الظّلام بإظهار أنوار المصابيح.

وأمّا الوجه **الثاني** فيتعلَّق بالصفات الجزئية التي يتمتع بها الإنسان والتي تكون مرآة عاكسة للصفات المطلقة لِلّه سبحانه وتعالى. فالإرادة الجزئية والعلم القليل والقدرة الضئيلة والتَملُّك الظاهر والإعمار الجزئي - في بيته مثلا- كلُّها صفاتٌ جزئية وأمثالها أيضا كثيرة تجعله يدرك الصفات المطلقة والعظيمة التي لا حدّ لها لخالق هذا الكون فيفهم مالكيته الواسعة وقدرته العظيمة وعِلْمَه المحيط وإتقانَهُ العظيم... فيكون بذلك مُؤَدِّيًا لمهمّة مرآة عاكسة صغيرة لِتلك الصفات المطلقة العظيمة، ويصبح قادرًا على إدراكها واستيعابها.

وفي الوجه **الثالث** يكون الإنسان قائمًا ومؤديًا ومُطهرا لوظيفة المرآة العاكسة للأسماء الحسنى ويكون أيضا مرآة عاكسة لها من حيث نقُوشها الظاهرة عليه، فهو من خلال ما يملك من صفات جامعة يكون بمثابة فهرس مصغّر للكون كلّه، فنرى في الإنسان –العالم الصغير- تجليات الأسماء الحسنى التي نراها في الكون عامّة –العالم الكبير- كما أنَّه يؤدّي مهمّة المرآة العاكسة للشؤون الإلهية، فيشير "بحياته" إلى "حياة" الحي القيوم، كما يؤدي أيضًا بواسطة ما ينكشف في حياته الدنيا من حواس مثل: السمع والبصر وأمثالها يفهم ويُبيّنُ للآخرين صفات "السمع" و"البصر" وغيرها من الصفات الجليلة المطلقة للحي القيوم، وغيرها من الصفات الأخرى التي تُظهر المشاعر الدقيقة والمعاني التي تتفجّر لدى الإنسان مثل: الحبّ والرضا والانشراح والسّرور و... فإن الإنسان يؤدّي مهمّة الإشارة إليها ولكن بما يناسبُ
قُدسية الذات الإلهية وما يليق بالله عزّ وجلّ.[1]

صَارَ من الجليّ في ثنايا هذه الدراسة أنّ الرؤية النورسية قرآنية وقاعدة انطلاقه أيضا قرآنية ومَشْرَبُه قرآني ومَسْلَكُهُ قرآني، وابتعد الأستاذ عن عوامل التأثير المشوبة بالأخلاط التي إذا أُقْحِمتْ في فِكره قد تُفْسِدُه أو تشوّشُه، وهذا كان منطلقهُ في عرض وتفصيل رؤيته لمهمة المرآة العاكسة فقدَّم الإنسان في هيئة مرآة تنعكس عليه الأسماء الحسنى، فتظهر تجلياتها، وإنّ الإمعان في هذه المسألة يبيّن أن:

(هذه الرؤية التي يكاد "النورسي" ينفردُ بها على هذا النحو التفصيلي والتطبيقي والتمثيلي الرائع، كان يُقدِّم رؤيَتَه لأسماء الله الحسنى رؤية تركيبية ذات إطار معرفي قرآني يُفسّرُ به حركة الإنسان... الإنسان كفَرد... الإنسان كمجموع (تاريخ وحضارة)... الإنسان وحركة وكَون... وأمّا الآثار أو ما يُسمِّيه المنظِّرون لفلسفة

[1] سعيد النورسي، اللمعات، ص534-535.

التاريخ بالعامل الاقتصادي أو العامل الاجتماعي، أو الروحي أو النفسي... أو الفردي (الصفوة –النخبة) أو(الجماعي- الاشتراكي)... أمّا كلّ هذه العوامل فليستْ إلّا بعض مظاهر لفاعلية الأسماء الحسنى في حركة الإنسان والكون، فاعلية رحمة من "الرحيم الرحمن" فتنتهي إلى سعادة وصعود... أو فاعلية نقمة من "المنتقم الجبار" فتنتهي إلى شقاء وسقوط !!

إنّ الله هو الفاعل في التاريخ، وإليه يجب أن تُعْزى حركة الإنسان والحضارة والكون... و"الإنسان" هو المرآة العاكسة لتجليات الأسماء الحسنى...وهو بالتالي المأمور بنقل صورة هذه الأسماء إلى الحياة، إبداعا وإرادة وقوة وعَدْلًا وقدرة ورحمة...إنّه المستَخلَفُ، وليست حقيقته الكبرى الأنانية "أنا" إلّا في القيام بوظيفة نقل أسْماء الله الحسنى إلى عالَم الأرض والكون...لأنّه الوحيد من بين كلّ الكائنات – حتى الملائكة - الذي يملك الإرادة والحرية وعصيان الله وأيضا –طاعة الله- بطريقة اختيارية.)[1]

لقد قدّم لنا الأستاذُ النورسي "الإنسانَ" في حُلّة جديدة، ولم يتَعرض لموضوع الأسماء بطرح تقليدي مألوف، بل أقام العلاقة بينهما بشكل مثمر وفعّال وأبان عن ملامح المهمة المظهرية التي جعلها مرآة
عاكسة مُنوّرة للعالم الأصغر والعالم الأكبر.

ليس هذا فحسب، فالأستاذ النورسي يرى أنّ "الأسماء والصفات" تقدِّم حلًّا لِلغْز العالم وجوابا على الأسئلة المهمة التي حيَّرت العقول وشغَلَتْها عبر العصور، وأهمها: ما هي الحكمة من الخَلق؟ وما هي الغاية من الوجود؟ ولماذا وُجِد هذا العالم...؟؟ ولكن الأستاذ النّورسي يرى أن هذا الكون وهذا الوجود كاللّوحة الفنية، ولله – المثل الأعلى- التي يرسمها الرسّام ليعبّر عن فيض الجمال الذي يغمره، وليُريَ ذلك الجمال لأولئك الذين يقدرون على تذوُّقِه وفهمه والتأثر به. فمن فَهِم ذلك واستوعب الحقيقة استحى من سخافة السؤال؛ فالأسئلة الوجودية الكبرى التي تكررت عبر الزّمن وحاول المفكرون والفلاسفة والباحثون الإجابة عنها، اهتدى الأستاذ النّورسي إلى الإجابة عنها في كنف الأسماء والصفات الإلهية. كما بيّن علاقتها بـــ "الحياة" وغاياتها وأهميتها. ورأى أنّ مَظْهريَّتَه لتجليات أسماء خالق الموت والحياة وإظهاره بِلسانه وأحواله لتجليات أسماء من قامت السماوات بأمره واستقرت الأرض بإذنه، وأنّ علمَه بكونه صَنْعَته الخارقة ومملوكه وعبده والفقير إليه وكونه أنموذجا وفِهْرِسْتةٌ لآثار تجليات الأسماء الحسنى، هُوَ ذَا حسْبُهُ من الحياة وغايتها ولذّتها.

[1] عبد الحليم عويس، رجُل القرآن وصناعة الإنسان، ط2، دار النيل، القاهرة-مصر، 2013، ص32-33.

كلُ ذلك وأكثر مِمّا قاله الأستاذ النّورسي عن "الكون" و"الحياة". وعلاقة الإنسان بهما، والغاية من خلقها و... سَيحملنا على فتح صفحات كتاب الكون لننظر فيه ونقرأه من خلال لمعات وشعاعات وإضاءات رسائل النور.

المطلب الثّالث: الاستخلاف وظيفة وجودية

قبل الخوض في تفاصيل هذه المهمة ارتأينا أن ننطلق من بداياتها، ثم نُبيّن ما يتعلق بها من مسائل وجوانب. ولعلّ أحسن ما يعيدنا إلى أصل هذه المهمة هو إجابة الأستاذ النورسي عن سؤال يتعلق بالحكمة من إخراج آدم عليه السلام من الجنة؟ وهذا ما فصّل فيه الأستاذ وربط إخراج آدم عليه السلام من الجنّة بالوظيفة التي خُلِقَ من أجلها الإنسان قائلا:

(الجواب: حِكْمتُه: التوظيف.. فقد بُعثَ إلى الأرض موظَّفًا موكولاً إليه مهمة جليلة، بحيث إن نتائج تلك الوظيفة هي جميع أنواع الترقّي المعنوي البشري، وانكشاف جميع استعدادات البشر ونمائها، وصيرورة الماهية الإنسانية مرآة جامعة للأسماء الإلهية الحسنى كلّها. فلو كان سيّدُنا "آدم" عليه السلام باقيا في الجنّة لبقي مقامُه ثابتا كمقام المَلَك، ولما نمَتْ الاستعدادات البشرية. بينما الملائكة الذين هُم ذَوُو مقامٍ ثابت مُطَّرِد كثيرون فلا داعي إلى الإنسان للقيام بذلك النوع من العبودية فاقتضت الحكمة الإلهية وجود دار تكليف تلائم استعدادات الإنسان التي تتمكن من قطع مقامات لا نهاية لها. ولذلك أُخْرج "آدم" عليه السلام من الجنة بالخطيئة المعروفة التي هي مقتضى فطرة البشر خلاف الملائكة. أي إنّ إخراج آدم عليه السلام من الجنة هو عينُ الحكمة ومَحْضُ الرّحمة).[1]

إنّ استرجاع البدايات وعرض كلّ الحيثيات ومراعاة الاعتبارات تُسَهِّل علينا استيعاب المقاصد وإدراك الغايات. فَخَلْقُ آدم (عليه السلام) لم يكُنْ للبقاء في الجنّة وإنّما للنزول إلى الأرض، والمهمّة لم تكن العبودية بتلك الحالة الملائكية وإنما الاستخلاف في الأرض وتحقّق أنواع التَّرَقِّي وجميع الاستعدادات التي أودعت في الإنسان وهُيّئ لممارستها، والمُقَامُ في الجنة يقتضي الثبات الذي لا يتماشى مع نموّ هذه الاستعدادات وإنّما يتحقّق ذلك في دار التكليف، فكانت الخطيئة من مقتضيات الفطرة البشرية بخلاف الطاعة المطلقة التي هي من مقتضيات الملائكية فتناسبت الفطرة مع الغاية ومع الحكمة.

وفي تفسير الآيات 30 – 33 من سورة البقرة

[1] سعيد النورسي، المكتوبات، ص 52-53.

يقول الأستاذ سعيد النورسي:

(إنّ خلافة الله تعالى في أرضه لإجراء أحكامه وتطبيق قوانينه تتوقف على عِلْمٍ تام. وكذا إنّ انصباب الكلام في الآية الأولى ينجرُّ إلى: فَخَلَقَهُ وسوّاهُ ونفخ فيه من روحه وربّاه ثم علَّم الأسماء كلّها وأَعَدَّهُ للخلافة...ثمّ لمّا اصطفاه على الملائكة وميّزه بعلْمِ الأسماء في مسألة الرجحان واستحقاق الخلافة اقتضى مقامُ التحدّي عَرْضَ الأشياء عليهم وطلب المعارضة منهم...ثمّ لمّا أحسُّوا بالعجز من أنفسهم أقرُّوا بحكمته تعالى واطمأنّوا. ولهذا قال: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا -البقرة، الآية 31. أي متبرّئين ممّا دَسَّهُ في استفسارهم أنانيةُ إبليس قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ -البقرة، الآية 32. لمّا ظهر عجزهم لعَدَم جامعية استعدادهم اقتضى المقامُ بيان اقتدار "آدم" حتّى يتمَّ التحدّي فقال: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ -البقرة، الآية 33. ثم لمّا امْتثل وظهر سِرُّ الحكمة فيه اقتضى المقامُ استحضار الجواب الإجمالي السابق وجعلَه كالنتيجة لهذا التفصيل فقال: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ -البقرة، الآية 33).[1]

لقد صار للإنسان دَوْرٌ فعّال في التاريخ البشري والكوني، وزَادَهُ الأستاذُ النورسيُّ عمقا إذ أظهر بُعْدَه الحضاري، وكشف حقيقة العلاقة بين الإنسان وخالقه، واكتسب الاستخلافُ معنًى أكثر ألقًا، وتَجَلَّتْ ملامح الوصال بين الإنسان والخالق الحكيم، وأسبَغَ النورسي إضافات جديدة على معنى "تعليم الله آدم الأسماء كلّها" فلم تَعُدْ تلك الأسماء من منظور النورسي مجرّد مفردات عادية تخص عالم الأشياء أو القيم أو المعنويات، بل قد تسمو لتتّصل ببيض المواهب والقدرات الفطرية القادرة على تفعيل دافعية الإنسان ليفتح ويفقه مغاليق السُّنن الكونية والاجتماعية وتوظيفها لتحقيق مهمة الاستخلاف ومهمة المَظْهَريّة كمرآة عاكسة لتجليات الأسماء الحسنى، وهكذا يكون الإنسان قد حظيَ بِمَكْرُمة عظيمة، ومهام جليلة تشرّف بها حين أسنِدتْ إليه.[2]

إنّ الإنسان في فكر النورسي ومن زاوية نظره، مخلوق رساليٌّ بامتياز، تحمّل الأمانة واستحقَّ تلك المكانة ليقوم بـــ "الاستخلاف". فهو إنسان متكاملٌ بتركيبه العقائدي والنّفسي والسلوكي العملي والاجتماعي والثقافي؛ فجانبه العقائدي يضبط ويحفظ علاقته بالله ويجعل العبادات أساس حياته ويستشْعِرُ معاني الاستناد والاستمداد بفعل الانتساب الإيماني إلى الله عز وجل. كما تتضح رؤيته الكونية إلى الوجود والحياة والإنسان وتصفو من الغَبَش، فيدْرك الحكمة من خَلْقِها وينتظم فِكْرُهُ ومعرفتُهُ ويستقيم عقله مع الغايات والمقاصد ويلتزم حُدوده فلا يغترُّ ولا يتجرّأ على الخوض في ما وراء حدوده وإمكاناته وبذلك يصُونُ نفسَه من المهالك، ويتحقّق له ذلك بالتكوين

[1] سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص233-234.
[2] عبد الحليم عويس، مرجع سابق، ص37.

الفكري والمعرفي المنضبط بعقيدة التوحيد. كما تنعكس أيضا على الجانب النّفسي الذي تتكوّن به تطلّعات الإنسان وإرادته بطريقة تجعلُهُ قادرًا على حمْل الأمانة وأداء الرسالة كما يجب، فيملك بداخله القدرة على العطاء والبذْل والتضحية من أجل حُسْن أداء مشروعه الاستخلافي والوجودي في هذه الحياة. ويُترجمُ كلَّ ذلك بتكوينه السلوكي الّذي يُعبّرُ به حقيقة عمَّا استقرَّ في قلبه من اعتقاد راسخٍ فَيُخرجه في حُلَّة سلوكية بهيّة منضبطة بأحكام الشريعة ومبادئ الدين ورسالته السامية، فيتحقّق التوازن والانسجام بين ظاهره وباطنه، ويتوافق القول مع الفعل والسلوك مع الفِكْر وهذا ما يضمنُ له التوافق والتناغم الذي يدفعُه أكثر نحو الرقيّ والتطوّر والسّمو في أعلى المدارج. وكُلُّ ذلك لابُد أن يكتمل بالجانب الاجتماعي ليعطي أزكى الثمار، فالتكوين الاجتماعي والثقافي يعزّزُ فيه روح الجماعة والاندماج في المجتمع لأنّه من الضروري أن يتفاعل مع الوعي العالمي ويمارسَ كُلَّ ذلك باعتزاز وفخرٍ بانتمائه وتراثه وتاريخه. فهذه الوحدة المنهجية الشاملة قادرة على بناء الإنسان الرّسالي في هيئته وصورَته المرْجُوَّة.[1]

وهذه الرؤية للتركيب البشري تدل دلالة واضحة على التقدير الكبير الّذي حَظِيَ به الإنسان في فِكر الأستاذ النورسي، والقيمة الرفيعة التي يتمتع بها لأنّ الأستاذ النورسي ينظر إلى الإنسان بعيْن قرآنية خالصة ولذلك ثمَّن قيمَتَهُ بقراءة آياته التكوينية سواء تلك التي تتجلّى فيها الصّنعة الربّانية، أو ما خَفي من استعدادات ولطائف وأجهزة وآلات، ورفع الحجاب عن صِلَتها بالموجودات الأخرى فأبان عمّا تفرّق في الآفاق واستُجمع فيها، وكذا من حيث توافقُها الكوني مع باقي الموجودات من ناحية العنصر والكيف، وهو يسعى في كلّ ذلك للكشف عن المغزى القيمي والوجودي لهذا الإنسان الذي تبرهنُ آيات تكوينه على مكانته العليا بين الموجودات ولذلك أُوكلتْ إليه وظائف عظيمة في هذا الكون، وهو يقوم بها في آنٍ واحد نظرا لما حظي به من تكريم وتشريف.

(يعتبر الأستاذُ "الاستخلافَ" مفهومًا أساسيا في حياة الأمّة الإسلامية والإنسانية جمعاء. فنظرته إلى مفهوم الاستخلاف شمولية تتضمّنُ جملة مرتكزات منها:

أ-المرتكز التوحيدي للاستخلاف وذلك بربط الإنسان الخليفة بخالقه وجعْله متّصلاً بالله سبحانه وتعالى.

[1] عبد العزيز برغوث، موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف والتحضّر عند الأستاذ بديع الزّمان سعيد النّورسي، مجلّة النور للدراسات الحضارية والفكرية، إسطنبول -تركيا، العدد2، يوليو 2010، ص118-119.

ب- المرتكز الكوني للاستخلاف وذلك بربط حركة الإنسان الخليفة بالكون ودعوته إلى التأمّل والسّير في الأرض واستعمارها وتسخيرها وتحقيق الأمانة.
ج- المرتكز الحضاري للاستخلاف وذلك بتوجيه الإنسان الخليفة إلى الجمع بين متطلبات الجسد والروح، والواقع والمثال.
د- المرتكز الأخروي للاستخلاف وذلك بربط حركة الإنسان الخليفة بالجزاء الأخروي المضمون في حالة استقامته على الطريقة وحَمْله الأمانة على وجهها الصحيح، وهذا المرتكز هو الذي يقدّم الدعم النفسي والمعنوي للإنسان عندما يضمن له ثمرة جهاده ونتيجة عمله للصالحات).[1]

فهذه المداخل التأسيسية الكبرى تشحن الإنسان لأداء وظيفته الاستخلافية على أكمل وجه؛ إذ توفّرُ له القاعدة الصلبة للانطلاق والأُفق الرّحب لِحُسْن القيام بها لأنّه ينظر إلى حياته الدنيوية والأخروية بعين الرّضا والارتياح فهو يدرك تماما حقيقة وجوده والغاية منه، ويعرف أيضا مَصْدَرَهُ وتاريخهُ، وهو في سعي دائم للتجهيز لمستقبله، كما أنَّ الروح المتطلّعة إلى كُلّ خير تزيده دفْعا عكس الرّوح الانهزامية التي تُثْقِلُ كاهل الإنسان حتَّى يركن ويستسلم لأدنى الدَّرَكات بَدَلَ أن ينشغل بإصلاح الذّات والتّرقي في مَدَارج الرّفْعة والسُمو عن كلّ ما يُسيءُ إلى مظاهر تكريمه وآيات تفضيله، لأنّ الإنسان إذا استهدف القيام بوظائفه الرفيعة اشتغل بإصلاح حَالِهِ ونفْسِهِ وذلك حتْمًا سينعكس على البنية الاجتماعية كُلِّهَا، وبذلك ستكون البشرية في أحسن أحوالها؛ لأنّ ماهية الإنسان حرفية دالّةٌ على معنى في غيره، ووجودُه تَبَعيٌّ قائم بوجود غيره وإيجاده، ومالكيته مؤقتة ظاهريّة بإذن المالك الحقيقي وحقيقتُه ظِلّية تعكس تجليًا لحقيقة واجبة، وهذه المعرفة وهذا الإدراك وهذا المنطلق تترتب عليهم آثار معرفية واجتماعية وحياتية نظرًا لشموليتها وقوّة تأثيرها.

(القارئ لتراث بديع الزمان النورسي متمثّلاً في مؤلّفاته ورسائله وخُطبه وتأمّلاته، يلحظ اهتماما كبيرة بقضية الإنسان، فهو وإنْ لم يكن حسب علمنا قد خصّص مؤلّفا مستقلاً لهذا الموضوع، فإنّه تناوله بالبحث في مواطن عديدة ومناسبات مختلفة، ويشعرُ القارئ بأنّ ذلك التناول كان تناولا مقصودًا بالأصالة، وليس عَرَضيًا طارئًا، إذْ هو بالإضافة إلى كثرة المواطن التي تعرّض فيها بالبحث لقضية الإنسان، تراه في بحثه يُفَصِّل القول تفصيلاً، ويتناول فيه الموضوع بشمول، ويُؤصِّل فيه رُؤاه في تعاليم

الوحي، ويدافع مخالفات الرأي من الثقافات الأخرى بالاستدلال، وكلُّ ذلك دالٌّ على أنّ النورسي كان ينزع إلى تأسيس رؤية إسلامية متكاملة لحقيقة الإنسان.)[1]

وحسب منهج الأستاذ النورسي فإنّه غالبا ما يُؤَصِّلُ للأحداث والتصوّرات انطلاقا من بدايتها، وهكذا تعامل مع وظيفة الاستخلاف إذ اعتبر أنّ الآية 31 تُبيّنُ أنّ المعجزة الكبرى لآدم عليه السّلام في دعوى خلافته الكبرى، تعليم الأسماء، وهي حسب الأستاذ النورسي –ترمزُ إلى خارقة بشرية مثل كلّ معجزات الأنبياء، وتشير إشارة قريبة من الصّراحة إلى منتهى الكمال البشري وذروة رُقيّه وإلى أقصى أهدافه، وكأنّها تخاطب بني آدم وتُعرّفهم أنّ سبب تفوق أبيهم آدم في دعوى خلافته على الملائكة راجعٌ إلى الأسماء كُلّها التي علّمهُ إيّاها ربُّ العالمين، وما دمتم أنتم البشر بَنُوه ووارثون لاستعداداته ومواهبه وجَبَ عليكم تعلُّمها كُلّها حتى تقوموا بحمْل الأمانة في هذه الأرض التي سُخّرت لكم حتى تبلغوا المراتب العليا في هذا الكون عند القيام بوظائفكم الرفيعة مسْتمسكين بكل اسم من الأسماء الحسنى، ومعتصمين به، غير غافلين في كلّ ذلك عن محاولات الشيطان لإغوائكم كما سبق وفعل مع أبيكم في الجنّة، واحذروا من اتّباعه أثناء رُقيّكم وتقدّمكم فيكون ذلك الإتباع مُهْلكًا لكم، لأنّ ما يليق بكم حقًّا هو أن ترفعوا رؤوسكم عاليا وتُنْعمُوا النّظر في الأسماء الحسنى ومعانيها وتجلّياتها وتجعلوا علومَكم سُلّمًا إلى تلك السموات، فيصير بإمكانكم أن تبلغُوا حقائق العلوم والكمال وتصلوا إلى منابعها الأصلية فتنظروا بمنظار تلك الأسماء ببصيرة قلوبكم إلى ربّكم عزّ وجلّ.[2]

(لقد تعلّم آدمُ الأسماء كُلّها، إنّه التعليم الكامل منّةٌ من الله وتفضيل للإنسان الذي كرّمه ربُّه، فألقى في روع آدم عِلْم الأسماء كلّها، وهنا يمكننا أن نتبصّر بفكرنا المحدود في حكمة الله الذي جعل عِلْم الأسماء كاملا غير منقوص، إعدادًا لخليفته في الأرض، ذلك الخليفة الذي سيسعى في أرض الله عاملاً متصرّفا، لابدّ وأن يكون مدرّبا مُتعلّما مُهيَّئًا لطبيعة المهمة المنوطة به.

وضّحنا من قبل أن الأسماء هي المدخل إلى معرفة الوجود، والتعليم الكامل للأسماء يعني اكتمال الإدراك للوجود، وعلى هذا فالإنسان متوافق في داخله من حقيقة الوجود كُلّه حوله، وإنْ هو إلاّ يستخرج جزءًا من هذه المعرفة ليسعى بها في حياته،

---

1 عبد المجيد النجار، البعد العقدي لبنية الإنسان في فكر النورسي، مجلة النور لدراسات الحضارية والفكرية، إسطنبول-تركيا، العدد5، يناير 2012، ص91.

2 سعيد النورسي، الكلمات، ص287-288.

ولكن داخله مملوء بالحقيقة كاملة، وموقفه من أمور الدنيا يحكمه إدراك كامل لمفردات الخليقة، فهو متوافق مع الوجود كلّه، مسلَّح لهُ مُعِدٌّ لمسائله).[1]

لقد كشف النورسي الحجاب عن مقاصد عظيمة لمعجزة آدم عليه السلام، إذ صارت قراءتنا واستشعارنا لمعاني تلك الآية التي تقصُّ علينا تعليم الأسماء لآدم مختلفة؛ وصرنا ندرك بها ومن خلالها أنّنا خُلقنا مزَوّدين باستعداد كامل للتلقّي عن ربِّ العالمين وللتفاعل مع هذا الكون العجيب والتأمّل والتفكّر في هذا الوجود ومُكلَّفين بتحصيل الترقي الروحاني والبرّاني والقيام بالبناء الحضاري من أجل السّيْر في طريق الاستخلاف الذي يجاوزُ حدود الزمان والمكان حتى ينفذ إلى ما وراءهما إنْ هو تنوّر بنور القرآن واستمسك بالوحي الرشيد وهَدْي النبوّة الذين ينضبط ويسترشد بهما الفكر الإنساني، لأنّ ذلك الطريق يشجع على العلم ويرفع شأنه عاليا، وزيد على ذلك أن ارتبط بموضوع الأسماء فصار مؤثِّرا في حياة الإنسان وكلّ نواحي ثقافته وفكره ووُجوده أيضا، وقد فتح الأستاذ النورسي أمامنا بابًا مُشوّقًا عَمِيَتْ عنه القلوب قبل الأبصار، إذ يليق به أن نسعى جاهدين إلى تجسيده في حياتنا الواقعية لأنّ الأسماء وما تحمله من دلالات عملية يُقدّمُها لنا النموذج النبوي في عملية التطبيق الواقعي لمفهوم تعليم الأسماء وفي ذلك يقول الأستاذ النورسي موضّحًا:

(أمّا المعجزة الكبرى للرسول الأعظم -صلى الله عليه وسلّم- وهي القرآن الكريم ذو البيان المعجز، فلأنّ حقيقة تعليم الأسماء تتجلّى فيه بوضوح تام، وبتفصيل أتمّ، فإنّه يُبَيّنُ الأهداف الصائبة للعلوم الحقّة وللفنون الحقيقية، ويُظْهر بوضوح كمالات الدنيا والآخرة وسعادتهما، فيسوق البشر إليها ويوجّهُهُ نحوها، مُثيرًا فيه رغبة شديدة فيها، حتّى إنّه يبيّنُ بأسلوب التشويق أنْ أيّها الإنسان! إنّ المقصد الأسمى من خَلْق هذا الكون هو قيامُك أنت بعبودية كلّية تجاه مظاهر الربوبية، وإنّ الغاية القصوى من خَلْقِك أنتَ هي بلوغ تلك العبودية بالعلوم والكمالات).[2]

ونستخلص مما سبق أن الإنسان قد ترقَّى بنور الانتساب الإيماني لأن صَارَ لُبَّ العالم وجوهرَه وانتقل من حضيض الحيوانية إلى أَوْج الخلافة، ومِنْ مَلْعبة التصادف والعبثية إلى مرآة عاكسة لتجليات الأسماء الإلهية، وتحوّلت الكائنات في هذا الكون إلى مكتوبات ربّانية وصار العالم مَعْرِضا مدهشا يمكن مشاهدته وكتابا يمكن قراءتُه؛ إذ تتجلى فيه الصفات الجمالية والكمالية وصفات القدرة و... في كلّ مظاهر الخَلْق والإيجاد، وارتسمتْ في مرآة الوجود، وانسكبتْ محاسنُهَا وألوانُها على صُور كُلّ

[1] محمود فرج الدمرداش، وعلّم آدم الأسماء كلّها، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1996، القاهرة، ص57.

[2] سعيد النورسي، الكلمات، ص290-291.

الكائنات، حتى يراها الإنسان فيتفكّر فيها ويتأمّلها، فتشُدُّه ويُعجَبُ بها ويصبح جديرًا بالفهم أنّه حَظِيَ بعناية فائقة أحاطتْ به من كلّ الجهات، وقُدِّر له أن يكون خليفة في هذه الأرض التي خُلقتْ بهذا الإبداع وبهذه الروعة لتكون مثل الرّسم تدلُّ على الرسّام، ونقشًا تَدُلُّ على النقّاش،و لله المثل الأعلى من قبل و من بعد...

لقد نظر الأستاذ سعيد النورسي إلى الإنسان من زاوية مختلفة تماما عن النّظرة الفلسفية باختلاف مشاربها واتجاهاتها، فالإنسان عنده يتمتع بمكانة عالية ويدور في فلك واسع من المعاني الرّاقية والسّامية، وخصّهُ الله عزّ وجلّ بمميّزات كثيرة انفرد بها دون سائر المخلوقات، ولذلك كانت تعريفات "الإنسان" عند النورسي وفي رسائله كثيرة، وقد ركّز في كلّ منها على سمة خاصة أو جانب محدّد في محاولة منه لاستيعاب هذا الكائن المكرَّم المستخلَف، كما أنّ وجود الإنسان في هذا الكون على هذه الأرض ليس عبثيا بل هو مقصود وله غايات عظيمة فربط النّورسي بينها وبين مقاصدها وأبعادها الكونية وآثارها في هذا الوجود. وهو أيضا يحرص على بيان العلاقة الوطيدة بين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان والكون الذي يعيش فيه، حتّى إنّه وَصَفَه بـــ "العالم الأصغر" لما اجتمع فيه وفي ماهيته وفطرته، ولكنّه من الناحية المعنوية "عَالَمٌ أكبرُ"، ولذا حاولنا في هذا الفصل أن نستوعب أهم جوانب هذا "الإنسان" سواءً من الناحية التكوينية أو من النّاحية المقاصدية لخَلْقه ووجوده أو من الناحية الوظيفية التي يؤدّيها في حياته الدنيا على هذه الأرض تمهيدًا لحياة ثانية أبدية وأخروية.

وما دام هذا المخلوق الرّفيع قد حَظِيَ بتكريم إلهي رفعه عاليا فوق مجموع المخلوقات، واستجمع في تكوينه ما تفرّق في الآفاق من العناصر والهيئات، وحازَ على تلك المحورية التكوينية للكون كُلّه وعلى تلك المركزية بالنسبة لباقي المخلوقات، حتى غدا ما في الكون مسخّرًا له، صارّ لزاما أن نتوجه لبيان حقيقة هذا الكون ونَعْرِضَ نظرة الأستاذ النورسي لَهُ لأنّه يكتسب أهمية بالغة في فكره ورُؤيته بعد فراغنا من الإنسان الذي وُصف أنّهُ هو العالم الصغير، لننتقل إلى الكون الذي وُصف أنّه هو الإنسان الكبير.

الفصل الرابع: مشاهدات سائح يستنطق الكون ويستشعر الحياة

المبحث الأول: النورسي بين الفلسفة والدين

المطلب الأول: موقف النورسي من الفلسفة الغربية

المطلب الثاني: أسباب تأليف رسالة الطبيعة

المطلب الثالث: مضمون رسالة الطبيعة

المطلب الرابع: الطبيعة من الفاعلية الوهمية إلى المفعولية الوظيفية

المبحث الثاني: النورسي بين الكتابين: المنظور والمسطور

المطلب الأول: الكون كما يراه النورسي

المطلب الثاني: من القرآن المسطور إلى فقه الكتاب المنظور.

المطلب الثالث: مكانة الإنسان في الكون

المبحث الثالث : الأسماء الحسنى في الكون والحياة.

المطلب الأول: مكانة الأسماء الحسنى في الرؤية النورسية

المطلب الثاني: الحياة آية توحيد ساطعة

المطلب الثالث: الحياة مرآة لتجليات الأسماء الحسنى

المطلب الرابع: حقيقة الموت وحب البقاء

الفصل الرابع: مشاهدات سائح يستنطق الكون ويستشعر الحياة

يدور هذا الفصل في فَلَك الكون الرَّحب الواسع الذي أولاه الأستاذ سعيد النورسي أهمية بالغة في رسائله وفي فكره إجمالا، وقد ارتأينا تقديم الفصل الذي خُصِّصَ للإنسان ثمَّ أعقبنَاهُ بفصل حول الكون، ولذلك جاءت فصول الدراسة بهذا الترتيب تقديمًا للأهمّ على المهمّ، خاصّة عند تدقيق النّظر في آيِ القرآن الكريم يتّضح لنا جليًّا أنَّ غايةَ هذا الكون وثمرتَه هي الإنسان.

ويحظى مصطلح "الكون" بأهميّة بالغة في المنظومة الفكرية النّورية، ومن أراد دخول هذه المنظومة والسياحة في أرجاءها على أكمل وَجْه، كان لِزامًا عليه أن يحيط بمفهوم "الكون" حتى يتحقق له ذلك، لأنّ النورسي –رحمه الله- كان مُهتَمًا به اهتمامًا بالغًا وقارئًا حاذقا لكتاب الكون، وقد حَمَلت سياحته الكونية ورحلاته التأملية وخلواته التفكرية إشارات ومَعَانٍ عظيمة قَلَّمَا تجِدها عند غيره من المفكّرين، اسْتَقَاها من ذلك "المعرض"، "المضيف"، "القصر"... الذي كَثُرَت أوصافه في رسائل النّور، ولكنّه في نهاية المطاف "كتاب" قابل للقراءة حتَّى يؤكد الأستاذ النّورسي على تكاملية العلاقة بين القرآن والكون، فالأول كتاب صفة "الكلام"، والآخر كتاب صفة "القدرة"، ولذلك عمل على لفت الأنظار إلى هذه العلاقة الوطيدة بين الكتابين لأنّه أراد لنا أن نقرأ كتاب الكون المنظور على الطريقة القرآنية، أي كما أراد لنا القرآن الكريم أن ننظر إليه ونسْتَرشِد به ونستخرج الدروس والمعاني التي يشير إليها القرآن الكريم بتأمل وتدبّر.

وقد ارتسمت ملامح وسمات وتقاسيم الصفحات الكونية وتوضّحت حروفها وتيسّرت قراءتها أمام النورسي على هذا النّحو الذي تلاه علينا في رسائله والجهاد الفكري والصراع الإيديولوجي مع كُلّ تلك التحديات التي عاصرها وعايشها والتي طفحت بأفكار خبيثة مهلكة تتعارض مع جوهر الدين الإسلامي ومقاصد الشريعة والعقيدة.

المبحث الأول: النورسي بين الفلسفة والدين

إنَّ النّظر إلى الكون إذا كان قائما على الأُلْفة فإنَّه يحرم أصحابه من استبصار القدرة الإلهية والإقرار بها ويفتح أمامهم طريقا مظلما للنكران وتهميش كلِّ النعم والأفضال الظاهرة في الكون. وإذا أعمل هؤلاء عقولهم فإنَّهم يستغربون تلك الآثار

الظاهرة على الكون والكائنات ولا يستعجبونها، فيُحرمون بذلك من الأسئلة المقاصدية والأجوبة المُرضية لأنَّهم فقدوا سرَّ التوحيد وحُرموا من التحقق به، ويعقب هذا فقدان الشعور بالسعادة لأنَّهم أُعدِموا الإجابة، أمَّا إن توهَّموا إيجادها فإنها لا تبعث الأمل والطمأنينة نبل توقعهم في عبادة الأسباب والإفراط في التعلق بالذات وينظرون إلى دواتهم بالمعنى "الاسمي" قاطعين حبل الوصال مع الخَلْق والخالق.

المطلب الأول: موقف النورسي من الفلسفة الغربية

كان للأستاذ سعيد النورسي موقف صريح وواضح ومنصِف من الحضارة الغربية ومن فلسفتها، فهو لم يبخَسْهما حقّهما ولم يَغْتَرَّ بهما أيضا، بل حفِظَ لهما الجانب المفيد للبشرية، واعترض على الجانب المضرّ الذي يتعارض مع تعاليم القرآن ويتجاوز على الحقائق الإيمانية ويزيّفها، وحذّر من المهالك التي أوقعها ذلك الشقّ من الفلسفة المادية على الإنسان والكون والوجود، بل تطاول إلى حدّ الإساءة إلى الخالق الحكيم، وأوقع الإنسان في حضيض الحيوانية والصدفة العمياء والأسباب.

وقد عَرَفتْ الحقبة الزمنية التي عاش فيها النّورسي وخاصّة بعد سقوط الخلافة رَواجًا كبيرًا للأفكار الغربية والفلسفة المادية وصارت تُدَرّس في المدارس والجامعات وصار لها أنصار ومدافعين، فلم يكن يتقبّل أَنْ تُزَجَ تلك السموم في عقول الطلاّب وغيرهم دون أن يتصَدَّى لها ويُبْطِل مفعول سُمومها الذي سَرىَ وانتشر حتى نطقت الألسنة بالكفر.

إنَّ اطّلاع الأستاذ سعيد النورسي على الحضارة الغربية وأسرارها جَعَله يتعامل معها ومع أفكارها وما يَرِدُ منها بِحذر شديد، وبعقلية الناقد الذي يعرض ما يأتي من الغرب على أحكام الشريعة وجوهر العقيدة، فقد كان يرى أنَّ نهرَ العلوم الحديثة والثقافة والفلسفة الغربية يجب أن تتم تصفية مجاريه من الشوائب والرواسب التي نَمتْ في مستنقع العطالة واختنقتْ بِسموم الاستبداد، ولذلك صار مثل الماء الآسن الذي يحتاج إلى تصفية بمصفاة الشريعة.

يُعبّر الأستاذ النورسي عن موقفه من الفلسفة ويحدّد نوع تلك التي يرفُضها ويهاجمها في رسائله، فيقول:

(إنّ الفلسفة التي تهاجمها رسائل النور وتصفعها بصفعاتها القوية، هي الفلسفة المضرة وحدَها، وليست الفلسفة على إطلاقها، ذلك لأنّ قِسمَ الحكمة من الفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتُعينُ الأخلاق والمُثُل الإنسانية، وتُمَهّدُ السُبُل للرُّقي

الصناعي، هي في وفاق ومُصالحة مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لِحكمة القرآن ولا تُعارِضها، ولا يَسَعُها ذلك؛ لذا لا تتصدّى رسائل النور لهذا القسم من الفلسفة).[1]

هذه الفلسفة التي قَبِلهَا النّورسي وكان مَرْجِعهُ هو القرآن، فهو ينطلق منه، ويعود إليه، فقاعدته قرآنية ومقصِده قرآني، يشجّع ويقبل كُلّ ما يقْبَلُه القرآن، ويعرضُ عليه كلَّ فِكْرٍ واردٍ فيُبقي منه ما يتوافق مع كتاب الله، وأمّا خلاف ذلك فيطرحه جانبا ويتفرغ لكشف قُصُورِه وفَسَادِه ومخاطِرِه. وأكثر ما حزّ في نفسه هو إقبال المسلمين عَلَى الأخذ من الغرب دون قيد أو شرط منبهرين مفتونين، حتى بلغوا حدّ الجرأة على مخالفة الدّين وأحكام الشرع بحجج واهية وفهم قاصر، وخاصة في تركيا وبين المثقفين آنذاك. فقد وَجَدتْ الأفكار الماديّة من يتبنّاها وينشُرُها في أنحاء تركيا خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وامتدت إلى ما بعده وقِوِيَتْ شوكتُها، حتى صارت تلك الفلسفة وأفكارها تُعرَضُ في جوّ فكري متكدِّر هُلاَمي، وأخذت بعدها في التبلور أكثر فأكثر حَتَّى سيطرت على الحياة العلمية، ووجدت أرضية صلبة من الدّعم والدفاع عنها لتقف عليها وتتقوّى بها، وصار العِلمُ هو القيمة العُليا وصارت المناهج العلمية في حُلّتها الأوروبية في ذلك العصر هي السبيل إلى معرفة الإنسان والطبيعة. أمّا الدّين وما يحكم المجتمع من عادات وتقاليد موروثة عن الأجداد فقد صارت أسباب ركود وتَخلّف في نظر هؤلاء، وكُلّ من يسعى إلى التقدم وفق النموذج الغربي وجب عليها أولا أن يعاديَ الدّين وينسلخ من عاداته وتقاليده، ويخالِفَ فطرتَه، لأن الغرب قد نجح في إرساء دعائم التقدم والتحضر بعد الصراع مع الدين والتقاليد.

ولذلك فقد انبرى النورسي لمحاربة ذلك النوع من الفلسفة وتلك الأفكار التي تَحملها، وخاصة أنها تُهلك الإنسان في الدنيا والآخرة. ووصفها قائلا:

(أمّا القِسم الثاني من الفلسفة، فكما أصبَح وسيلة للتردّي في الضلالة والإلحاد والسقوط في هاوية المستنقع الآسِن للفلسفة الطبيعية، فإنّه يسوق إلى الغفلة والضلالة بالسفاهة، وحيث إنّه يعارضُ بخوارقه التي هي كالسِّحر الحقائقَ المعجزة للقرآن الكريم، فإنّ رسائل لنّور تتصدّى لهذا القسم الضالّ من الفلسفة في أغلب أجزائها وذلك بنَصْبِها موازين دقيقة ودساتير رصينة، وبعَقْدِها موازنات ومُقايسات مُعَزَّزة ببراهين دامغة، فتصفعها بصفعاتها الشديدة، في حين أنّها لا تمسُّ القسمَ السديد النافع من الفلسفة.)[2]

لقد حَمَل النورسي مُنْذ سنوات شبابه الأولى هَمَّ الحاجة الملحّة والضرورية إلى القيام بتجديد شامِل وجِذري في المناهج التعليمية لأنه كان يحسُّ أنَّها تفرق بين العلوم

[1] سعيد النورسي، الملاحق: ملحق أمير داغ1، ص259.
[2] سعيد النورسي، الملاحق: ملحق أمير داغ1، ص259-260

الحديثة والعلوم الشرعية، بل إنّها لم تَكُن تولي اهتماما للعلوم الحديثة، وكانت المدارس تسير على النهج التقليدي، وربّما كان هذا استشعارًا قبْليًا منه لما سيحدث لاحقا، وضرورة تحصين الأجيال من الأخطار الواردة من الغرب.

وقد ألفّ في بداياته رسائل ركّز فيها على المشاكل التي يواجهها الإسلام حسب رأيه، واقترح حلولا لها، وقدّم بدائل ومقترحات فعّالة، وتم طبع تلك الرسائل آنذاك، ومنها كتابه "المحكمات" سنة 1911م، الذي ذكر فيه أنّ التناقض المزعوم بين بعض مسائل العلم الحديث وبين بعض ظواهر الإسلام هو أهمُّ عائق يحول بين العالم الإسلامي والتخلص من التخلف الشديد الذي يعيشه، وقد تناول فيه أيضا إبطال التناقض المزعوم بين العقل والمكتشفات العلمية من جهة، وبين بعض الآيات القرآنية من جهة أخرى، وكان هدفه من ذلك الرّد على أعداء الدّين وخاصة الفلاسفة الماديين وبعض علماء الدّين الشّكْلِيّين. وفي رسالة أخرى أدرجها في كتابه "ختم التصديق الغيبي" الذي كان متداولا بشكل سرّي بين طُلّابه ثم طُبع بهذا العنوان، عَبّر وكشف عن ردّ فعله تجاه المطاعن التي يتم توجيهها نحو القرآن الكريم والمجتمع الإسلامي ووظّف كُلّ العلوم والمعارف التي حَصَّلَها والمخزونة في ذهنه وجَعَله مدارج للوصول إلى إدراك معاني القرآن وإثبات حقائقه، وصار القرآن الكريم هو هدف عِلمه وغَاية حياته، والمعجزة المعنوية للقرآن دليله ومرشده وأستاذه، واستشعر حينها –بسبب ضميره الحي ووجدانه المرهف- أنّه تأخّر في حَمْل هذه الأمانة والقيام بهذه الوظيفة، وذلك من فرط إحساسه بالمسؤولية تجاه دينه وأمّته، ولم يتوقف بعد ذلك عن التأليف والمُضي في مهمته الدفاعية عن دينه وكتاب ربّه حتّى وهو في ثغور الحرب العالمية الأولى في الجبهة الروسية حيث كتب "إفادة المرام" وهو مقدّمة تفسيره المشهور "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" وتبيَّن أنّه صار من الضروري وضع تفسير شامل للقرآن يكشف معانيه، ويجمع محاسنه المتفرقة في التفاسير الأخرى وتثبيت حقائقه، بتشارك هيئة من العلماء المتخصّصين، والمختلفين في وجوه الاختصاص، وذلك إيمانا منه أنّ شرح الحقائق القرآنية يحتاج إلى معرفة العالم المادي في ضوء ذلك التقدّم العلمي الهائل. ومن كلّ ما سبق يتبيّن أنّ النورسي كان مُدْرِكًا لحقيقة عصره وتحدياته وانْبرى لمواجهة الفاسِد منها، وتقديم الإسلام ورؤيته الكونية في حُلّة نقية صافية منقذة للبشرية من الضياع والهلاك.[1]

لقد وَجَدَ النورسي نفسه في موقع التحدّي لمبادئ الفلسفة الغربية التي كرّست مفهوم "مادية الإنسان" ولم تفرّق بينه وبين الحيوانات، فهي بذلك من منظور النورسي

[1] شكران واحدة، كتاب الكون: قراءاته وموقعه وتطوره في فكر بديع الزمان، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، إسطنبول_تركيا، العدد 2، يوليو 2010، ص70-71.

تكون قد ارتكبت جناية في حقّ هذا الإنسان المكرّم من ربّ العالمين، فقد حظي بضروب متنوعة من مظاهر التكريم إذ نفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وعلمه الأسماء كلّها، وجَعَلَهُ خليفة في الأرض وحَمَّله الأمانة وأنزل إليه الوحي والرسالات، وهذه المظاهر كُلّها تزيد من استشعار الإنسان بقيمته الوجودية ومكانته الكونية فتتجلى ثمراتها على نفسيته وتزيد فاعليته وترفع سقف طموحاته ومقاصده، وزاده عن ذلك أنْ سخّر له الكون الواسع، وجعله أسمى المخلوقات. وإذا بهذه الفلسفة المادية تضرب بهذه المظاهر التي رافقتْ الإنسان منذ بداية وجوده ضرب الحائط، وتُرْديه حيوانا أو شبيها بالحيوان في التكوين والقيمة والهدف، فأرهَقَتْه روحيًا ونفسيا، وأفْسَدَتْه أخلاقيا، وجَعَلَت هَمَّه وأسمى غاياته السعادة المادية بكلّ الطرق والأساليب ولكن لم تتحقّق في الواقع إلاّ لفئة قليلة، أمّا السّواد الأعظم من البشر فقد عانى من ويلات هذه الفلسفة حتى هلك، لأنّها لم تحفظ كرامته، ولم تحترم كينونته، وحرصت على توفير الرخاء المادي وسَحَقَتْ التّطلع الرّوحي، ووضعت له نهاية مأساوية حزينة كئيبة، فخسر الدنيا والآخرة.

ولذلك فإنَّ الرؤية التي تنبثق عن هذه الفلسفة رؤية مادية اختزالية، فهي ترى أنَّ المادة هي مركز الكون والإنسان مجرد كائن طبيعي يتم اختزاله في العناصر المادية الداخلة في تركيبه ولا يوجد اختلاف كبير بينه وبين الحيوانات و لا يحظى بمكانة خاصة و مهمة في هذا الكون، فالأولوية في هذه الرؤية للمادة، وتفسير كل الظواهر يكون تفسيرا ماديا بما في ذلك الظواهر الإنسانية و الاجتماعية لأنَّ الماجة هي الجوهر الكامن في كل الموجودات و الجزئيات في الكون و منها الإنسان أيضا. وهي رؤية تفكيكية لأنها تعمل على تفكيك الإنسان، ويوصف الخطاب الذي يتبنى هذه الرؤية بأنه "لا إنساني" لأنه يُنْزل الإنسان إلى دونية لا تليق به و يُجَرِّدُه من جوهره الحقيقي).[1]

لذلك كان من البَدَهيّ أن يتصدّى النورسي لهذه الفلسفة ويدحضها ويُعرّف الإنسان قدره ومكانته ووظيفته، ومَصْدره ومصيره، ويُزوّده بوسائل تحصين نفسه من هذه الرّيح الخبيثة.

وما دام النورسي قد تصدّى للمذهب الطبيعي الذي قدّم الكون في صورة مشوّهة، سنحاول عرض تفاصيل هذا المجهود الذي قدّمه الأستاذ، وكيف ردّ على الطبيعيين وكيف أبطل أصول مذهبهم.

المطلب الثاني: أسباب تأليف رسالة الطبيعة

[1] الشريف طاوطاو، روجيه غارودي والفكر العربي المعاصر: جدل الفلسفة والإيديولوجيا، ط1، منتدى المعارف، بيروت-لبنان، 2014، ص212.

اجتمعت عدّة أسباب جعلتْ الأستاذ سعيد النورسي يؤلّف "رسالة الطبيعة"، التي كانت في البداية رسالة باللغة العربية ومختصرة نوعًا ما، وهذا ما جعل الأستاذ غير راضٍ عن تأثيرها الذي بدا له قليلا رغم أنّ البرهان كان ساطعًا، وأرجع ذلك إلى قلّة الدّين يتقنون العربية في تركيا آنذاك وندرة المهتمين بها، ممّا اضطره إلى إعادة كتابتها باللّغة التركية حتى يتمكّن الجميع من قراءتها وزادَها تفصيلا وبيانا وتوضيحًا حتى تقوى على محاربة تلك الأوهام التي انتشرت بين النّاس وموجه الإلحاد التي فُرِضَتْ بشتَّى الوسائل.

(وكان الّذي حزَّ في نفس النورسي هو أن يرى شباب الأُمَّة من طلبة المدارس والمعاهد والجامعات يقعون في فخّ هذا المذهب الجارف. لقد ظنّوا ظنّ السّوء أنّ ما يشاهدون من مظاهر الخَلْقِ والإيجاد والإحياء إنّما هو منْ فعل الطبيعة لا مِنْ خلقِ الله وهذا التصوّر يُفْضي لا محالة إلى القضاء على الاعتقاد، وإذا قُضيَ على الاعتقاد قُضيَ على الإسلام...)[1].

وصرّح هو نفسُه أنّ أشدّ ما دعاه وألحّ عليه لتأليف هذه الرسالة هو الهجوم الصارخ على القرآن الكريم وتزييف الحقائق الإيمانية والتجاوز الشنيع عليها، حتى تمَّ ربْط أواصر الإلحاد بالطبيعة، وصار كُلّ ما لا تدركه العقول القاصرة منعوتًا بـــ "الخرافة". ففجّر ذلك غيضا شديدًا في قلبه تطايرت منه حِمَمٌ نزلت كالصفعات على أولئك الملحدين ودعاة المذاهب الباطلة، فكانت "رسالة الطبيعة" قاسية في أسلوب الرّد على المخالفين الذي لم يكن من أدب "رسائل النور" التي عُرفت بالقول اللّين في الخطاب.[2]

لقد حبَس الإنسانُ المادّي نفسه في سِجن الطبيعة وأوصد على نفسه داخله، وأعمى عينَه وقلبه عن كلّ ما سواها حتى صارت معبودَتَهُ بصفة أو بأُخرى، إذ نسَبَ إليها كُلّ ما يُنْسَبُ إلى الخالق عزّ وجلّ من صفات الخَلْق والإيجاد والعلم والقدرة ... وكلَّ سنن وقوانين ونواميس هذا الكون، فانقطعتْ صلتُه بخالقه، بل إنّه لم يَعُدْ يرى غيرها ولا يعترف بسواها، وحظيتْ عنده بِكُلّ صفات التعظيم. ولكنّها بمقدار ما أعطاها، أخَذَتْ منه حتّى أفْرَغَتْه من كلّ عناصر رُقيّه وسُمُوّه التي زُوِّدَ بها ليعيش رحلة حياته الدنيا مكرّما مصانًا من الذّل والهوان ومحفوظا من الصّراع، فأفرغ قلبه من مواجيده، وغدا عقله آليا، وفقد التناغم والانسجام مع باقي الكائنات ولذّة النّظر ومتعة التأمّل في الموجودات، واستمرّ في التنازل وتقديم القرابين لهذه الطبيعة حتى صار تائها في هذا

[1] محمد خروبات، قراءة في كتاب الطبيعة، أنظر: جهود سعيد النورسي في تجديد الفكر الإسلامي، ص146.
[2] سعيد النورسي، اللمعات، ص242.

الكون جاهلا بنفسه وخالقه ومصيره والغاية من وجوده، وبقي يتجرّع مرارة الخواء الرّوحي والصّراع الدائم مع كلّ ما حوله.

ويتّضح ممّا سبق أنّه قد اجتمعت أسباب خطيرة اسْتدعت التدخّل السريع والفعال لإخماد نار الفتنة الإيديولوجية التي سيطرت على المشهد العام آنذاك، وانتشرت انتشارًا رهيبا رغم كُلِّ السموم التي تنفثها والمهالك التي تؤدي إليها إلاّ أنّ عين الإعجاب والانبهار عمِيت عن كلّ ذلك. فَلَبّى الأستاذ النورسي نداء الفطرة من داخله وسَعى جاهدًا لتجديد المناهج التعليمية وإظهار حقائق القرآن والعمل على إيجاد الدواء الفعال لأمراض الأمّة وخاصة التخلف والجهل، ولنداء الواقع الذي كانت الأمّة فيه تكاد تهوي إلى الاندثار والزّوال بفعل الانبهار بالغرب والتقليد الأعمى لها في كُلّ صغيرة وكبيرة.

(ولا يكتفي النورسي بإيراد الأدلّة المتنوعة على وجود الله ووحدانيته، وإنّما ينزلُ إلى ميدان الصّراع الفكري، فَيَرُدُّ الملاحدة ويناقش شبهاتهم، ويفنّدُ اعتراضاتهم من خلال ردود رضية وأدلّة واضحة.

وعلى الرغم من أنّ كثيرا من رسائل النور تتعرض إلى الشبهات غير أنّ النورسي قد خصّص رسالة كاملة – رسالة الطبيعة- لمناقشة هؤلاء الذين يعترضون فيقولون:

- إنّ الشيء أَوْجَدَتْهُ الأسباب.
- إنّ الشيء تشكَّل بنفسه أي بالصُّدفة.
- إنّ الشيء أَوْجَدَتْهُ الطبيعةُ).[1]

المطلب الثالث: مضمون رسالة الطبيعة

"رسالة الطبيعة" صغيرة في حجْمها، كبيرة في قيمتها وأهمّيتها، لأنّها خُصِّصَتْ للردّ على تلك الكلمات والعبارات التي تفوح منها رائحة الكُفر النّتنة الّتي بات النّاس يردّدونها ويتباهَوْنَ بها وحتّى صَارتْ رائحتُها خانقة لأهل الإيمان، وزبدة كلامهم كما قال الأستاذ النورسي:

(اِعلمْ أنّه كبُرَتْ كلمةً تخرُجُ من أفواه النّاس؛ إذ يقولون: "تشكَّل بنفسه" و "اقتضتْهُ الطبيعة".. و "أوجَدَتْهُ الأسباب". فهذه الجُمَل الثلاث باطلة، ومن ظروف المُحالات: إذْ إنّكَ موجود، فإمَّا أنتَ مصنوعُكَ بالنّظر إلى الجملة الأولى.. وإمّا مصنُوعُ أسباب العالم كما اقتضَتْهُ الثانية.. وإمّا مصنوعٌ بطبيعة

[1] محسن عبد الحميد، النورسي متكلّم العصر، ص140، 141.

موهومة، وقوّةٍ عمياء كما تدلُّ عليه الثالثة.. وإمّا مصنوعُ الله كما يستلزمه الحق والحقيقة).[1]

إنّ كلَّ الموجودات القائمة أمامنا لا يمكن إنكارُها مُطلقًا، وكُلُّها تأتي إلى هذا الوجود في غاية الإتقان والانتظام والتناسق والتعاون وتؤدّي وظائف كثيرة ومختلفة في هذا الكون، وهي ليست قديمة ولا أزلية، بل محْدثة وجديدة، ولذلك فإنّ بطلان القول بأنّ الموجودات اكْتسبتْ وجودها نتيجة اجتماع الأسباب، أو إنّها تشكّلتْ من تلقاء نفسها، أو إنّها وُجدَت بتأثير الطبيعة، يفضي إلى الاعتراف والإقرار أنّ الموجودات كُلّها قد وُجدت بقدرة الخالق الحكيم، إذْ لا يبقى احتمال آخر بعد بطلان الادّعاءات الثلاث السابقة، فيثبت طريق الوحدانية بالضرورة والبداهة ويقين قطعيّ لا يعتريه شك.

وقد أبطل الأستاذ النورسي تلك الادّعاءات تباعًا، فقال عن زعمهم "إنّ الشيء تشكّل بنفسه".

(أمّا الأوّل: فمُحَالٌ بوجوهٍ غير محصورة. منها: لابُدّ أن تعطي لكلّ ذرةٍ من ذرّاتك عينًا ترى كُلّك، بل كُلَّ الكون وشعورًا كذا، وهكذا ممّا يستلزمه كمالُ صنعتك لِنظر نِسَبِ الجزء إلى نقوش الكُلّ. ومنها: لابدّ أن توجَد فيك عدَد المركبات المتداخلة المتصاعدة المتنازلة في ذرّاتك قوالبُ كقوالب الطّبع من الحروف الحديدية المصنوعة أيضا، لو لَمْ تُكْتَبْ بِقلم القدير الأزلي الواحد.

ومنها لابدّ أن يكون كُلُّ ذرّة بسرّ وحدة الأثر الحاكمة على الكُلّ ومحكومة للكُلِّ كالأحجار في البناء المعقّد بفرض نفْي الباني.. وكذا ضِدًّا ومثلا، ومُطلقةً ومقيّدة، ومصدَرًا ومَنْبَعًا لصفاتٍ تستبعد وجودها حتّى فيمن يطوي السماء كطيّ السِجل!).[2]

وأمّا عن زَعْمهم أنّ الموجودات قد أوجَدَتْها الأسباب فإنّ الأستاذ النورسي يردُّ عليهم بقوله:

(وأمّا الثاني: فمُحالاتُه لا تُحْصى منها أنّ المواد التي صُنِعَتْ منها كلُّ زجاجات الأدوية في "صيدلة" فإن أمكن عندك أنْ يخرجَ بانْضباب وسيلانٍ بلا مداخلة أحدٍ من كُلِّ زجاج مقدارٌ معيَّن بميزان حسَّاس، ثم تجتمع المقاديرُ المتفاوتة لتشكيل علاج الحياة أو تركيب معجون حيويّ، أمكن لك أن تتوهّم صُدُورك من أسباب جاهلة.

ومنها: صُدُور شيء واحد بِكمال الانتظام من أسباب محدودة جامدين متشاكسين عُمْيًا صُمًّا متردّدين بين الإمكانات. تزداد بالاختلاط أعميتُها وأصَمِّيَتُهَا، ومع أنّ

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص253.
[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص253.

مباشرتها بظاهر الشيء. والحالُ أنّ باطنهُ ألطفُ وأكمَلُ صنعةً، فمُحالية صُدورك منها أظهرُ مِنْ أنْ يَخْفى.

ومنها: أنّ اجتماع تلك الأسباب الغير المحصورة بكمال الاتفاق والانتظام بميزان الحاجة في حُجيرةٍ من حُجيرات عينك ليس بأسهل من اجتماع أركان العالم بوجوده الخارجي بأجرامه العظيمة في كفّكَ، بل في ظُفرِك، بل في حُجَيْرةٍ منه، إذْ من يعمل في بيت، جاز اشتمالُ البيت عليه إن كان العامل ماديا، فما دام العالَمُ بأجزائه عاملاً في جُزئك جاز دخوله في ذرّتِك. وهذه سفسطة يخجل منها السفسطائي.. وهكذا من المحالات المتسلسلة والممتنعات العقلية والأباطيل التي تمجُّها الأوهام).[1]

لم يكتف الأستاذ النورسي بإبطال ادّعاءات الطّبيعيين من وجه واحد، بل من عدّة وجوه، حتى لا يبقى مجال للشك لمن أراد أن يبْصر الحقيقة بعد أنْ عميَ عنها. ويكمل النورسي في دَحْض تلك الادّعاءات، فيقول عن الاحتمال الثالث ألا وهو تأثير الطبيعة إنّه:

(فأبطلُ وأفسدُ. إذْ الطبيعةُ لها ظاهرٌ عُرفي موهومٌ ظنَّتْهُ الغفلة والضلالة حقيقةً، ولها باطنٌ هو الصنعةُ الإلهية والصنعة الرحمانية. وأمّا القوّة فحقيقتها تجلّي قدرة الحكيم العليم الخبير المريد.. وأمّا ما يصوّرُهُ نظرُ الغفلة والتغافل من الصّانع الواحد وما اتّصل به منْ جَنَاحَيْ التّصادف الأعمى والاتفاقية العوراء.. فمن مخترعات الشياطين بالاضطرار الناشئ من الضلالة).[2]

وأمَّا القول الثالث له مُحالاتُ كثيرة جدًا، ذكر الأستاذ النورسي بعضها على سبيل المثال لا الحصر، وهي كالآتي:

(المحال **الأوّل**: ومَدَارُه هو الإتْقان والإيجاد الّذين يدُلان على الحكمة الظّاهرة في كلّ الموجودات وبخاصّة في كُلّ الأحياء، فلو أُسْند ذلك إلى الطبيعة بَدَل القدرة الإلهية، فإنّه يتحتّم أن توجِدَ تلك الطبيعة العمياء الصمّاء الجاهلة مطابعَ ومكائن معنوية غير محدودة في كلّ شيء، وإما أنْ يحوز كلُّ شيء على حكمة وقدرة، تكون الأولى مُدبّرة لإدارة كلّ شؤون الكون، وتكون الثانية قادرة على خلق الكون كُلّه قبل ذلك).

وأمّا المحال **الثاني**: فمَدَارُه هو الانتظام والاتّزان والإتقان الذي يظهر على كلّ الموجودات، يجب أن تُسْند إلى القدير الحكيم، أمّا إذا أُسْندت إلى الطبيعة فإنه يلزم أن توفّر في كلّ حفنة تراب ما لا يحصى من المعامل والماكينات حتى تتمكن تلك الحفنة من أن تكون مشتلاً صغيرًا للأزهار أو الثمار. أمّا إسناد ذلك إلى الخالق الحكيم فإنّه

[1] المصدر نفسه، ص254.
[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري ، ص254.

يجعل في تلك الحفنة من التراب قابلية فعلية حتى تقوم باستنبات وتصوير كُلّ البذور التي تُلْقَى فيها من جميع الأزهار والثمار، بمختلف الأشكال والألوان والأذواق.

فما أصعب ذلك المحال الذي يستدعي وجود ماكنة معنوية طبيعية خاصة لكلّ زهرة حتى تخرج في شكلها وحُلّتها التي نراها!

ولذلك فإنّ إسناد خلق كُلّ الموجودات وتدبيرها وتصريف شؤونها وإخراجها في حلّتها البهيّة يكون في السهولة المتناهية بدرجة الوجوب إذا أُسْنِدَ إسنادًا مباشرًا إلى الواحد الأحد، لأنّه وحده سبحانه القادر على إيصال وتوفير كُلّ ما يلزم لتلك الموجودات بكل سهولة ويُسْر، وذلك بالانتساب والتجلّي. أمّا قطع ذلك الانتساب فإنّه يؤدّي إلى ظهور مشكلات ومعضلات لا حدّ لها بدرجة الامتناع، حتى يصبح خلق ذبابة صغيرة يقتضي أن تكون الطبيعة العمياء التي فيها مالكةً لقدرة مطلقة تكون بها قادرة على خلق الكون كلّه، ويقتضي أن تتصف بالحكمة البالغة حتى تكون قادرة على إدارة شؤونه، فالذبابة رغم صِغرها إلاّ أنّها بديعة الصنع ولذلك ضربها الله مثلاً□□ □□□□□□□□□□□...□ً البقرة: ٢٦ وتحدّى بها الكفار، فهي مثل فهرس مصغّر مختصر للكائنات الأخرى لأنّها تنطوي على أغلب مكوناتها.[1]

وفي دراسة معمّقة ودقيقة لـــ "رسالة الطبيعة" وما اشْتملتْ عليه من براهين فنّد بها الأستاذ النورسي ادّعاءات الطبيعيين وقولهم: "إنّ الشيء تشكّل بنفسه"، أو "أوجَدَتْهُ الأسباب"، أو "أَوْجَدَتْهُ الطبيعة"، يقول الأستاذ محمّد خروبات إنّ القول الأول الأول ظاهرُ البطلان، وقد فنّده الأستاذ سعيد النورسي بمحالات كثيرة، وكلّ محالة منها يمكن أن تكون نظرية متكاملة، ومنها أولا: "نظرية الحركة والثبات" ومن منطلقها فنّد النورسي هذه الدعوى، فالإنسان باعتباره كائن بيولوجي وبعدما اكتشف "الكيمياء" صار شاهدًا على نفسه بعملية الخلْق المتجسدة فيه.. فهو في هيئة مصنع حي متحرّك لأنّه يتكون من ملايين الذرّات التي تعمل في جسمه دون انقطاع، لكنّ صورته الخارجية الجسدية تبدو ثابتة، فهي ثابتة بعمل مستمرّ، وهذا ينقض القول بأن الأشياء قد وُجِدَت من مادّة بسيطة جامدة غير متغيّرة، وتخضع لنفسها بنفسها دون سلطان ولا رقيب يرى ما لا تراه العين المجرّدة، وثانيا: "نظرية بناء الذات": ومقصوده هو ذات الإنسان التي شبّهها النورسي بالقصر الفخم لأنّها عبارة عن بناء هندسي متكامل يُزيّنُه الانسجام والتناسق، ورغم كُلّ ما يتميز به ذلك القصر الفخم بقُبابه المتراصة الأحجار في بناء محكم، إلاّ أنّ ذات الإنسان أجمل وأروع من ذلك، فقط يحتاج الإنسان إلى تأمّل ذلك الإبداع الذي حَظيَ به فيدرك حينها أنَّ روحَهُ وحْدَها

[1] سعيد النورسي، رسالة الطبيعة، ترجمة حسان قاسم الصالحي، ط5، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2012، ص20-25.

معجزة بحدّ ذاتها، ناهيك عن ذرّاته التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، والتي يستحيل أَنْ يكون لكلٍّ منها عقلٌ مفكّر وإرادة حُرّة تتصرف بمقتضاها بخلاف بعضها البعض فلا نحصل على هذا البناء العجيب الّذي لا يمكن إلاّ أن يكون أحد آثار الواحد الأحد سبحانه وتعالى عمّا يقولون عُلُوًا كبيرًا).[1]

وقد كان اختيار "جسم الإنسان" مقصودًا من طرف الأستاذ النورسي لأنّ الإنسان يُحسُّ بما هو ألصقُ به، وهنا نستحضر قول الله عزّ وجلّ:ٱ□□□□□□□□□□□□□□□ ّ يس: ٧٨ " فهذا منهج قرآني في لفت نظر الإنسان إلى ذاته أولا لعلّ ذلك يكون سببا في تقريب المعنى والمغزى إليه أكثر، وحتى لا ينشغل بما هو أبعدُ ويعمى عن ذاته ونفسه. فهو يحمل من الآيات الكثيرة ما يكفيه ليعرف خالقه، فقد جعل فيه معملا عظيما لا يتوقف عن الحركة ولكن دون أدنى جهد منْه ولا شعور بالتعب، وذلك يكفل له سير التفاعل في جسمه دون انقطاع، وجعل منه قصْرًا عظيمًا فخمًا بقبابه وأحجاره المتراصّة التي لا تنفصل عن بعضها أبدًا ولا تعصي أمر ربّها. وهو كالكتاب العظيم المليء بالعبر والحكم ويعْلُوه الإعجاز في ظاهره وباطنه. فيستحيل أن يتشكّل بنفسه دون علم عليم وقدرة قدير وحكمة حكيم، ولا أن يُحْفَظ وجودُه دون تدبير ذلك الخالق العليم القدير.

فالنورسي في كُلّ حديثه سواء عن الإنسان أو الكون وكُلّ الكائنات لا يقطع صِلتهم بخالقهم ولا يتحدث عنهم حديثا جامدًا، ولذلك عاب على المادّيين ذلك المنهج السّقيم الذي تحدّثوا به عن الكون الّذي نسبُوا خَلْقَه وإيجاده لنفسه أو للصدفة أو للأسباب... وردّ على ذلك بأدلة متنوّعة علمية وعقلية، محسوسة أو مجرّدة، حسب ما يقتضيه مقام الرّد وكشف الخطأ وإبطال الدعوى.

أمّا عن أسباب ضلال المادّيين فإنّ الأستاذ سعيد النورسي يرُدُّها إمّا إلى الجهل بمصدر ذلك التجلّي الأعظم للخلاّقية الإلهية والقدرة الربّانية في تحوّلات الذرّات المنتظمة رغم أنهم يشعرون في أعماقهم بذلك التجلّي، وإمّا أنّهم عاجزون عن إدراك من أين تتم إدارة تلك القوّة العامّة النابعة من تجلّي القدرة الصمدانية. وهذا ما أوصلهم إلى الجرأة على إسناد تلك الآثار العظيمة للألوهية إلى الذرّات نفسها وإلى حركاتها فزعموا وتوهّموا أزلية المادة. وإنه لَدَرَكٌ سحيق من الجهالة والخرافة أن يُسْندُوا الآثار البديعة والأفعال الحكيمة للخالق الحكيم الذي أبدع كلّ شيء إلى ذرّات مضطربة بتيارات المصادفة العمياء، بل إنّهم أوغلوا في الضلالة حتى وقعوا في عبادة آلهة كثيرة لا نهاية لها لأنّهم لم يستوعبوا بعقولهم القاصرة أزلية الذات الأقدس وخلاّقيته،

[1] محمد خروبات، قراءة في كتاب الطبيعة، ص152-153.

فصاروا بحكم مسلكهم الضالّ مُجْبرين على قبول أزلية ذرّات جامدة، بل وقبول ألوهيتها. كلّ ذلك لأنهم لم يؤمنوا بالله الواحد الأحد.[1]

(فيا سبحان الله! ويا للعجب! إنّ الماديين الزنادقة الكفرة لمّا أنكروا الله الواجب الوجود، اضطرّوا حسب مذهبهم للاعتقاد بآلهة باطلة بعدَدِ الذرات، ومن هذه الجهة ترى أن الكافر المُنْكر لوجود الله سبحانه وتعالى مهما كان فيلسوفا وعالما فهو في جهل عظيم، وهو جاهل جهلا مطلقً).[2]

فهؤلاء حسب – النورسي- قد انحدرت عقولُهم إلى عيونهم التي لا ترى ولا تُبصرُ سوى "المادة" وربطوا تحوّلات "الذرّات" بالمصادفة التي جعلوها قاعدة عامّة لدساتيرهم ونسبُوا إليها إيجاد المخلوقات التي جعلها الخالق الحكيم مزدَانَةً بحِكمٍ عظيمة وغايات كثيرة ووظائف متكاملة متناسقة فيما بينها، فكيف لهذا الخَلْقِ العجيب أن يُسْنَدَ إلى شيء مختلط عشوائي تنعدم فيه الحكمة ويفتقد للمعنى، إلاّ أن يَصْدر ذلك ممَّن عَميَ عقله وقلبُه وبصَرُه.

فكيف بلغ هؤلاء تلك الدركات السَّحيقة وما هو منشأ الوهم في قولهم بـ "أزلية المادة" والأسباب؟

هذا ما ورد على الأستاذ النورسي من قبل وأجاب عنه بقوله:

(إنّ النظر التّبعيّ قد يرى المُحالَ مُمْكنًا، كالمُسْتهلّ الّذي رأى الشعرة البيضاء من أهدابه هلالَ العيد، لأنَّ الإنسانَ بسبب جوهره العالي وماهيّته المكرّمة إنما يدور حول الحق والحقيقة. وإنما يقع الضلال والباطل في يده بلا اختيار ولا دعوةٍ ولا تحرٍّ، بل بنَظرِه السّطحي التّبعيّ فيقْبَلُهُ اضطرارًا؛ لأنّه لمّا تغافل عن النّظام الذي هو خيطُ الحِكم، وتعامى عن ضِدّية الحركة والمادة للأزلية، احتمل عند نظره التّبعيّ إسنادُ هذا النّقش البديع والصنعة العجيبة إلى التصادف الأعمى والاتفاق الأعور).[3]

ومن مظاهر التكريم الإلهي للبشر، أنْ جعلهُم يبحثون عن الحق ويبتغون الحقيقة بفطرتهم، ولكن خلال هذا البحث يتعثّر بعثرات الباطل فيتسلّلُ إلى صدْره، وقد يكون عُرْضة لوقوع الباطل على رأسه دون اختيار منه أثناء تنقيبه عن الحقيقة حتى يتلبس عليه ويظُنُّه حقًّا فيلبِسُه كالقلنسوة على رأسه –حسب تعبير النورسي.[4]

وحتى يُحترز من الوقوع في تلك الضّلالات أو ينزلق إلى مهاويها وجب على الإنسان أن يحتاط لنفسه ويحصّن عقله من خطورة النظر السطحي التبعيّ، وأن يمزّق

---

[1] سعيد النورسي، اللمعات، ص517-518.
[2] سعيد النورسي، الكلمات، ص645.
[3] سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص147.
[4] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص418.

حجاب الألفة في النّظر إلى الكون، لأنّ آيات التوحيد المثبوثة في كلّ هذا السكون الواسع وعلى وجه الكائنات لا تعد ولا تُحدُّ، ولا يعمى عنها إلاّ كُلّ محروم من نعمة العقل ونقاء القلب ونداء الفطرة.

كما أنّ الرابط بين كُلّ الأسباب والمسبّبات هي المشيئة والإرادة الإلهية، والتأثير ليد القدرة الربانية، وأمّا الأسباب فهي حجابُ العزة وستائر العظمة؛ لئلا تباشرَ يدُ القدرة بالأمور الخسيسة في ظاهر نظر العقل، ولذلك وَجَب زجْرُ النّاس عن الابتلاء بالأسباب والانغماس فيها، والأولى لهم أن يُعْمِلُوا عقولَهُم لرؤية يد القدرة خلف كُلّ الأسباب. وهكذا يحفظ الإنسان نفسه من كلّ الضلالات والسّفاهات وينظر إلى هذا الكون بمنظار التوحيد، ويستيقن أنّ كلّ ما يتراءى إنّما هو من صُنع الله الخالق الحكيم، فتتهاوى كلّ الشبهات، وتثبتُ الحقائق المفضية إلى الإيمان بدل الشك، وإلى السعادة بدل اليأس، وإلى النّجاة بدل الهلاك.

(يظهر جليا أن البُعد الذي يكتسبه إنتاج بديع الزمان لا ينحصر في تركيا حيث آثار الفلسفة "الكانطية" قد فعلت فعلها وبدَّلت قيم أهلها تبديلا، ولا هو ينحصر في الأمَّة الإسلامية التي تفككت أوصالُها وفقدت وجهتها، وإنَّما يتعدى ذلك إلى العالم بأسره لينقذ الإنسان، خاصيّه وعاميّه، مِن سلطان فِكر فلسفي أضرَّ بوجوده في هذا العالم؛ ومن كان هذا عمله، فما أجدر به أن يُعَدَّ من حكماء العالم الذين رفعوا همة الإنسان إلى الاضطلاع بأمور روحه كاضطلاعه بأمور جسمه، ومهدوا الطريق إلى تجديده، فاستوى إنسانا آخر في عالم آخر).[1]

المطلب الرابع: الطبيعة من الفاعلية الوهمية إلى المفعولية الوظيفية

بعد أن ردّ النورسي على شبهات المذهب الطبيعي، كان لابد أن يقدم المعنى الصحيح الخالي من العيوب حتى يستقر في الأذهان، لأنّ الإنسان يحتاج إلى تصوّر واضح عنها، ولذلك فإن الأستاذ النورسي قد فصَّل في ذلك بقوله:

(إنّ الطبيعة هي شريعة إلهية كُبرى أوقعتْ نظامًا دقيقًا بين أفعال وعناصر وأعضاء جَسَد الخليقة المسمى بعالم الشهادة. هذه الشريعة الفِطرية هي التي تُسمّى بـ "سنّة الله" و"الطبيعة" وهي محصّلةُ وخُلاصة مجموع القوانين الاعتبارية الجارية في الكون.

[1] طه عبد الرحمان، فصل المقال فيما بين فلسفة البشر وحكمة القرآن من الانفصال عند الحكيم بديع الزمان، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، إسطنبول، تركيا، يناير2010العدد1، ص 42

أمّا ما يُسمُّونه بـــــ "القوى" فكلٌّ منها هو حُكْمٌ من أحكام هذه الشريعة و"القوانين" كُلٌّ منها عبارة عن مسألة من مسائلها (...) فالطبيعة مطبعةٌ مثالية وليست طابعة، نقْشٌ وليستْ نقَّاشة، قابلة للانفعال لا فاعلة، مِسْطَرٌ لا مَصْدر، نِظامٌ لا نظَّام، قانون لا قدرة، شريعة إرادية لا حقيقة خارجية).[1]

وقوله إنّ الطبيعة شريعة إلهية كبرى مبْنيٌّ على تقسيمه للشريعة إلى الشريعة الآتية من صفة الكلام وهي التي تُنظّم أفعال العباد الاختيارية، والثانية هي الشريعة الآتية من صفة الإرادة التي تسمى بالأوامر التكوينية، والشريعة الفطرية هي مُحصّلة قوانين عادات الله الجارية في الكون. فالشريعة في نوعها الأول عبارة عن قوانين معقولة والشريعة في نوعها الثاني عبارة عن قوانين ولكنّها اعتبارية، وأُطْلِق عليها خطأ "الطبيعة هي لا تملك قوة التأثير ولا الإيجاد.[2]

إنّ اهتمام النورسي الواضح برفع الوهم عن هذه المفاهيم، وكثرة المواضيع التي تهتم بالطبيعة وبالموجودات لأنه لا يراها شيئا عاديا عابرًا قائما بذاته، بل هي من الطرق المؤدية إلى معرفة الله، ولذلك جعل "الكون" من براهين التوحيد مثلما أسلفنا في فصول هذه الرسالة بما يعلوه من مظاهر الإتقان والنّظام والتعاون والجمال و...كما أنّ ملامح رؤيته الكونية ترتسم بإدراك مفهوم الطّبيعة والكون عمومًا.

ويقول الأستاذ النورسي إنّه:

(قد ثبت ببراهين متعدّدة ناصعة وفي عديد من "رسائل النور" أنّ الطبيعة ما هي إلاّ صنعةٌ إلهية ولا تكون صانعا، وهي كتابٌ ربّاني ولا تكون كاتبا، وهي نَقْشٌ بديع ومُحالٌ أن تكون نقَّشًا مُبْدِعًا، وهي كُرّاسٌ ولا تكونُ واضعَة القوانين وصاحبة الكراس.)[3]

ولذلك رفض الأستاذ فكرة "الطبيعة" المبنية على الجهل المطبق بسلطان الكون الذي يليق به أن يُعظّم ويُعبد فهو الذي أبدع هذا العالم وجعله مثل المسجد العظيم وكُلُّ الكائنات تسبّح بحمده. فلا يليق أن نتصور تلك القوانين المعنوية النابعة من الحكمة البالغة والتي نشاهد آثارها في هذا الكون الواسع وفي حفظ نظامه وترابط عناصره، لذا لا يليق أن تُعامل معاملة الأشياء الجامدة.

وقد تكون الإساءة أكبر إذْ يتجرأ "الطبيعيُّ" على طرح سؤال مفاده: ماذا يضرُّ عظمته سبحانه أن نتوجّه ببعض المدح إلى بعض الأسباب الجزئية في إيجادها الأشياء الصغيرة التافهة؟ لأنّ ذلك من منظور لا يُنقِصُ شيئا من سلطانه سبحانه وتعالى.

---

[1] سعيد النورسي، سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص418-419.
[2] المصدر نفسه، ص419.
[3] سعيد النورسي، اللمعات، ص517.

(بكامل السهولة يطرح الطبيعي هذا السؤال وهو يطرحُه من موقع أرضية انتقالية، فهو إله في المرحلة الوسطى لكن إلى أن أطلّ الوحدانية من موقع البرهان اتّضح له أنّ مدح بعض الأسباب والثناء عليها لا يُنقص من وحدانية الله. وهذا معتقد منطقي صائب. فلو أُشْرك العالمُ كُلُّه والكون كلُّه لما أضرَّ هذا بوحدانية الله شيئا، لكنّه من وجه آخر هو منتهى الخسارة. فإذا كانتْ وحدانية الله عزّ وجلّ منزَّهة عن البعض حتّى ولو انتقص العبادُ فإنّ هذه الخسارة هنا تعود على المخلوقات لا على الخالق).[1]

إنّ إشراك أي جزء من أجزاء الطبيعة، أو هي كُلُّها مع الله مرفوض بصفة كلّية من طريق العقل ومن طريق الشرع، فالله قد أنعم على الإنسان بالعقل ليحميه منَ الوقوع في الخطأ ويميّز به بين الحق والباطل ويستدلّ به على الصراط السوي، أمّا الشرع فمقصده الأسمى هو حفظ مصالح البشر وأوّلها وأولاها حفظ دينهم وإيمانهم بالله وحده لا شريك له لأنّه مفتاح النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة.

ولذلك فإنّ من نظر إلى الكون بمنظار الشرك والكفر والغفلة رآه مَأْتما حزينًا، أو حلبة للصراع، فتكون علاقته به سلبية مُؤذية، ويكون الاستغلال والاستنزاف في أبشع صُوره وأساليبه مع الكون والكائنات.

أما من نظر إلى الكون بمنظار التوحيد رآه عابدًا مُسبّحًا لله، خاضعًا له في كلّ تفاصيله، وأثرًا من آثار قدرته ومرآة عاكسة لتجليات أسمائه، وتربطه علاقةٌ سامية بالإنسان مبنية على التسخير.

كلّ هذه المعاني الإيجابية البنّاءة التي تدور في فلك الكون، سنحاول تفصيلها كما فصّلها الأستاذ النورسي الذي ميَّز بين قسْمي الفلسفة، فقبل القسم الذي لا يتعارض مع حقائق القرآن ويحقّق النفع للبشر في أمورهم الدنيوية وعلاقاتهم ومجالات حياتهم، ورفض القسْم الذي يتعارض مع حقائق القرآن وأهلك الإنسان وأذاقَهُ الويلات، وأدْخل البشر في صراعات شتى، وقَلَبَ كلَّ الموازين. ولكن الأستاذ النورسي عرضها على مصفاة الشرع، وميزان العقل، ولذلك كانت "رسائل النور" مليئة بالأدلة المنطقية والعلمية والتجريبية، كما اعتمد الأستاذ على الحس والعقل باعتبارها مَصْدرين من مصادر المعرفة في هذا الوجود، ووظّف كلّ ذلك لإثبات حقائق القرآن.

المبحث الثاني: النورسي بين الكتابين: المنظور والمسطور

إنّ قاعدة انطلاق النورسي قرآنية محضة، وزاوية نظَرِه كذلك، فهو ينظر إلى كلّ ما حَوْله بمنظار القرآن، ويعرضُ كلّ ما يردُ عليه على ميزان القرآن ويحتكمُ إليه

[1] محمد خروبات، قراءة في كتاب الطبيعة، ص159-160.

في كلّ شيء. وكذلك نظرته إلى الإنسان والكون، منطلقها قرآني مبنيٌّ على ما ورد في الكتاب الحكيم. وكما سبق وفصّلنا في "الإنسان" من أهم جوانبه، كذلك يجب أن نفصّل في "الكون" من ناحية أهم النقاط والمسائل التي تعرّض لها الأستاذ النورسي في رسائله.

وقد جمع بين نظرته للكتاب المنظور والكتاب المسطور إذْ جعلهما متكاملين ويدُلاّن على خالقهما وكِلاهُمَا يُمكنُ قراءتُه والاستدلال به على الخالق الحكيم ولذلك جعَلَهُمَا من براهين التوحيد الباهرة كما أسلفنا في هذه الرسالة. وقد حظي مصطلح "الكون" باهتمام الأستاذ النورسي ولذلك أدْرجه الأستاذ فريد الأنصاري في المعجم الشامل للمصطلحات المفتاحية لكلّيات رسائل النور، وقد مهّد له بقوله:

(يُعتبرُ مصطلحُ "الكون" عند الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي أحد القرائين الثلاثة، التي خاطب بها الله الناس أجمعين، وذلك بعد قُرآن الوحي، وشخْص الرسول صلى الله عليه وسلّم الذي كان خُلُقهُ القرآن. فالكون إذن خِطَابٌ إلهي للعالمين. ومن هنا كان كلُّ شيء فيه آية مُبصرةً، ونورًا يعكسُ جمال الأسماء الحسنى. إنّ وجودَ المخلوقات كُلّها من سماوات وأرضين وما بينهما من الأجرام السيارات، وأفلاك المدارات، وما يَحْمله كلُّ جرم من ذوات الحياة والشعور، ممّا نعلم أو لا نعلم، كلُّ ذلك أحرفٌ في كتاب الكون، الذي خاطب به ربُّ العالمين الخليقة كُلَّها).[1]

إنّ الأهمية الاصطلاحية لـــ "الكون" والدلالات التي يحملها وحُضُوره القويّ والمؤثر ضمن أصول الرؤية النورسية يدعونا إلى بيان معناه وكشف نظرة النورسي له.

المطلب الأول: الكون كما يراه النّورسي

إنّ للكون في رسائل النور صورَة متكاملة ولكن أجزائها متفرقة على تلك الرسائل والصفحات، فمن أراد أن يرى تلك الصورة في شكلها الأتمّ والأجمل وجب عليه أن يستجمع كلّ أجزائها، وهذا ما حاولنا القيام به لنقدم صورة الكون التي رسمها النّورسي بتفاصيل دقيقة ورقيقة وعميقة. فهو تارة يحدّثنا عن دلالة الكون على الخالق، وتارة يصف لنا التشابه بين التركيب البشري والتركيب الكوني، وتارة أخرى يصفه أنه كتاب منظورٌ وهذه استعارة ملائمة لأنه يلفت قلوبنا وأبصارنا إلى الآيات الكونية. وقد انبثقت نظرته تلك من الآيات القرآنية التي تحث على التفكر في جنبات الكون وأرجائه الواسعة.

[1] فريد الأنصاري، مرجع سابق، ص151.

يتحدث الأستاذ النورسي عن الدلالات العميقة التي تحملها كلّ أجزاء هذا العالم لتدُلّنا على الخالق سبحانه وتعالى، وبدائع صُنعه، فيقول:

(هذا العالم.. خطوطُ قدَره.. نقوشُ قَلَمِهِ.. زيناتُ كَرَمِه.. أزاهيرُ لُطفه.. بالحدس وبالعيان. أثمار رحمته.. لمعانُ جماله.. جَلَواتُ جلاله.. مرايا كَمَاله.. بالحق والإيمان.

ما يُشْهدُ من جمال.. ما يُشْهِرُ من كمال.. مظاهرُ سيَّالة.. مرايا جوّالة.. ظلالُ أنواره.. آيات كماله.. ويشهد لهذا كمالُ آثاره.

فالأثر المكمّل، يشهدُ لذي العقل، على الفعل المكمّل. ثم الفعل المكمّل يدُلُّ لذي الفهم على الاسم المكمّل. والفاعل المكمّل، والاسم المكمّل يدلُّ بالبداهة على الوصف المكمّل. والوصف المكمّل يدلُّ بالضرورة على الشأن المكمّل. ثم الشأن المكمّل يدُلّ باليقين على كمال الذات: ممّا يليق بالذات، وهو الحق المبين رفيع الدرجات، خلاّقُ العالم. يشهد لذي العين: أنّ الجمال الظاهر ليس مُلْكَ المظاهر).[1]

إنّ كلّ ما خُطّ ورُسم وكُتب على صفحات هذا الكتاب، وكلّ أنواع النقوش والزينات من أزهار وأثمار وأشجار، وكلّ ما يلمع على صفحاته الساطعة كوجه المرآة، وكلّ ما يتلألأ عليه من النقاط كالحبات الناصعة إنما ينطق بالجمال والكمال، ويشهد على وحدانية الخالق الذي اتّصف بصفات

الجمال والكمال وإليه يرجع مُلْك كلّ ما يظهر على صفحات الكون.

إنّه كتاب يستحق أن نقرأهُ بعناية وبإعجاب، وإنّه كتاب لا يليق أن ينسب إلى غير خالقه، وهذا هو الكون الذي يليق بالإنسان المكرّم أن يعيش فيه ويمارس فيه وظائفه ويقوم فيه بمهمة الاستخلاف، كما أنّ الله عزّ وجل خلق هذا الكون وجعله بمثابة شجرة وثمارها الكاملة هم أرباب الشعور، وحظي الإنسان بشرف التكريم لأنّه أجمع ثمرة من أرباب الشعور، وأفضل ثمرة لحياته هي العبادة الخالصة لخالقه العزيز القدير، لأنها غاية فطرته ونتيجة خِلْقته.

ويحرص الأستاذ النورسي على بناء العلاقة الوطيدة بين الإنسان والكون اعتمادا على عناصر التكوين والتشابه بينهما، فيقول:

(كما أنّ الإنسان عالَمٌ صغير، كذلك العالَم إنسان كبير. فهذا الإنسانُ يُمثّل خلاصة الإنسان الكبير وفهرسته. فالنّماذج المصغّرة في الإنسان لابدّ أنّ أصولها الكبيرة المعظّمة موجودةٌ في الإنسان الأكبر بالضرورة).[2]

ويوضح هذه العلاقة الضرورية بقوله:

---

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص364-365.

[2] سعيد النورسي، اللمعات، ص115.

(اِعْلم أنَّ مَنْ خَلَقَكَ لا يبْعُدُ منْهُ ولا يُسْتغربُ أن يخلق العالَم بجميع ما فيه لأنّه فيك ما فيه أ_ي لأنّ فيك ما في العالم _بل يجب أن يكون خالقُك هو الخالقُ لكلّ شيء).[1]

ومن أمثلة العناصر الموجودة في الإنسان والتي تشير إلى عناصر الكون، يذكر أن عظام الإنسان تُنبّئ عن الأحجار والصخور، والأشعار تخبرُ عن النباتات والأشجار، والدماء التي تدور في جسم الإنسان وكلُّ السوائل التي تترشح من أنفه وفمه وتقطرُ من عينيه تشير إلى عيون الأرض وينابيعها وما في جوفها من مياه، أمّا روح الإنسان فتُخبر عن عالم الأرواح، كما أنّ حافظته التي هي بمثقال حبّة خردل تحفظ تاريخ حياته وكلّ أحداث عُمْره، فإنّها توحي إلى اللوح المحفوظ، وهكذا كل جهاز في جسم الإنسان وكلُّ عنصر داخل في تكوينه سواء أكان ظاهرًا أم باطنًا يُخبرُ عن ما يقابله في هذا العالم وفي
كتاب الكون ويشهد شهادة قاطعة على وجوده، وإنْ كُنّا أحيانا لا ندرك ذلك ولا نَنْتبه إليه.

فالإنسان مقياس مُصغّرٌ يُظْهرُ لنا الحقائق الإيمانية من خلال الآيات التكوينية المندرجة فيه وفي الكون عيانًا وبدرجة الشهود، فمن ذا الذي ينكرها أو يجْحدُها أو يختار أن يعمى بصرهُ عنها ويحرم نفسه لذَّة النظر إليها ليعرف قيمته في هذا الكون وتزول كُلُّ معاني الخيفة منه بعدما تبيّن أنّهما متشاركان في تقاسيم التكوين!!

ويرى الأستاذ سعيد النورسي أنّ "الأرض" تحديدا قد اكْتسبتْ قيمة عظمى لارتباطها بالإنسان بشكل مباشر، وذلك هو سبب ذِكْرها مقرونة بالسماوات في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

لقد صارت الأرض مهدًا للإنسان الذي هو ألطف ثمرة في هذا العالم وأعزُّ المخلوقات وألطفها وأبْدعها، مع أنّه أعجزها وأضعفها، ولكن صار ضعفه وعجزه وفقره باستناده إلى خالقه قوة وغنًى، وكذلك صارت الأرض بين الكواكب، فرغم صغرها قياسا بالسماوات والأفلاك والمجرّات إلاّ أنها نالت شرف التفضيل وصارت صنْوًا للسماوات، وصارت بالمنظور القرآني موضع تجلّي الأسماء الحسنى ومرآتها، ومعرضٌ هائل تتجلى فيه الخلاّقية الإلهية المطلقة للنباتات والحيوانات والنماذج المصغّرة لمصنوعات عالم الآخرة والمناظر المتبدلة و... فنالت هذه الأرض عظمة معنوية في هذا الكون لأنها اختيرت لتكون مهدًا للإنسان بحكمة إلهية.[2]

---

[1] المصدر نفسه، ص300.

[2] فاروق حمادة، بحث بعنوان: الكون والطبيعة في فكر الإمام النورسي، أثرا ودلالة وهدفا، أنظر: جهود سعيد النورسي في تجديد الفكر الإسلامي، ص226-227.

إنّ اهتمام النورسي بـــ "الكون" كان سمةً بارزة في مشروعه التجديدي ولم يَكُنْ أبدًا تابعًا في تحديد معناه إلاّ إلى انتمائه الإسلامي والقرآني. وهذا ما تجلّى بوضوح في "رسالة الطبيعة" التي كانت ردًّا على فتن ذلك الزمان وسعْيًا منه إلى إنقاذ الإيمان ورفْع الوهم الذي لبس لبوس العلم، ففنَّد أقوال الطبيعيين، وبرهن أن الخالق الحكيم هو خالقُ الأسباب وخالق المسبّبات، وهو القادر على الرّبط بينهم بحكمته البالغة، وهو الذي جعلها بإرادته مرآة تعكس تجليات الشريعة الفطرية الكبرى بالقوانين والسُّنن الجارية في هذا الكون لتنظيم شؤونه.

وبَعْدَمَا كانت نظرة النّورسي إلى "الكون" تتوضّح أمامنا بجملة المقارنات التي أقامها بين نظرة الماديين والطبيعيين، ونظرة القرآن إلى الكون، ها هو يروي لنا تفاصيل تجربة سياحية كونية حدثت له في مرحلة لاحقة بعد تأليفه لرسالة الطّبيعة وبعد فراغه من الرّد على أصحاب تلك الادّعاءات.

لقد انتهج الأستاذ مسلك التفكّر الذي يأمر به القرآن الكريم في مواضع كثيرة منها قول الله تعالى: "لعلّكم تتفكّرون"، "لعلّهم يتفكّرون"، "أولم يتفكّروا في خلق السماوات والأرض"، "لآيات لقوم يتفكّرون": وغيرها كثير.

يقول الأستاذ النورسي: (لقد امتزج قلبي بعقلي منذ ثلاثين سنة ضمن انتهاج مسلك التفكّر (..) ولقد تواردتْ في غضون هذه السنوات الثلاثين على عقلي وقلبي ضمن انتهاج مسلك التفكّر، أنوار عظيمة وحقائق متسلسلة طويلة. فوضعتُ كلمات من قبيل الإشارات –لا للدّلالة على تلك الأنوار، بل للإشارة إلى وجودها ولتسهيل التفكّر فيها وللمحافظة على انتظامها.

وكنتُ أردّد بيني وبين نفسي تلك الكلمات لسانًا بعبارات عربية في غاية الاختلاف. وعلى الرغم من تكراري لها آلاف المرّات خلال هذه الفترة الطويلة وأنا أنتهج هذا التفكّر لم يطرأ عليَّ السّأم ولم يعْتَرِ تذوُّقَها النقص، ولم تنْتَفِ حاجة الروح إليها، لأنّ تلك السلسلة من التفكّر لمعاتٌ تلمَّعتْ من آيات القرآن الكريم فتمثَّلتْ في مرآتها جَلْوَةً من خصائص الآيات، تلك هي عدم الاستشعار بالسأم والملل والحفاظ على حلاوتها وطراوتها. وقد رأيتُ في الآونة الأخيرة أن العقدة الحياتية والأنوار الساطعة التي تحتويها رسائل النور ما هي إلاّ لمعات سلسلة ذلك التفكّر، فَنَوَيْتُ كتابة مَجْموعها في أُخريات أيام عمري، على أمل تأثيرها في غيري مثلما أثَّرتْ فيَّ).[1]

لقد ساهمتْ عوامل عديدة في ظهور "سعيد الجديد" الذي انفتح أمَامَهُ الطريق القرآني بعد صِراع عنيف كانت تعترضه فيه مكالمات فُجائية مع نفسه في وقت

[1] سعيد النورسي، رسالة التفكّر الإيماني الرفيع والمعرفة التوحيدية السامية، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط2، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2004، ص17-18.

مدهش، كأنها صراعٌ بين الأنوار والنيران تجعل الرّأس يتدحرج في آن واحد من الأوج إلى الحضيض، ومن الحضيض إلى الأوج، إذ سلك طريقا غير مسلوك – كما وصفه- في برزخ بين العقل والقلب.[1]

إنّ ذلك المسلك التفكّري الذي امتزج فيه العقل مع القلب قاد الأستاذ النورسي إلى قراءة مُقَرْأَنَة لِكتاب الكون، وبعدها تواردت عليه أنوار عظيمة من شمس القرآن، فصارت العلامة الفارقة لهذا الطريق.

وتجدُر الإشارة هنا إلى فرق جوهري بين رسائل النّور عموما والرسائل الأولى التي كتبها الأستاذ باللغة العربية والتي جُمعت لاحقا في "المثنوي العربي النوري" وقد عبّرت عن ذلك الصّراع الداخلي بين الروح والنّفس وكانت موفّقة في فتح طريق خلال القلب والروح، ولذلك يوصف "المثنوي العربي النوري" بأنّه "مشتل رسائل النور وغراسها". وقد سعى إلى "المعرفة الإلهية" وتطهير "الأنفس" والجانب الداخلي للإنسان. أمّا باقي أغلب الرسائل فهي بساتين يانعة تفتّحتْ من ذلك الغِراس، وقد وُفّقتْ في فتح طريق واسع إلى "معرفة الله" ولكن بطرقٍ جهرية متوجهة إلى الآفاق الكونية دون إغفالها لجهاد النفس، حتّى صارت تفجّر الماء الزّلال أينما ضربتْ.[2]

إنّ أي حديث عن "الكون" في سياقٍ مُنفصل عن "القرآن" ومسلك "التفكر" القرآني الذي سار عليه الأستاذ النورسي بات مرفوضا ومردودًا، لأنّ نظر النورسي إلى الكون رغم نقائه وصفاء صورته التي رسمها، إلاّ أنّه اكتسب معانٍ عظيمة وجليلة بعد السّيْر في هذا الطريق، وهذا ما يدعونا إلى النّظر إليه من منظار القرآن الكريم لنتبيّن ملامح صورته الحقيقة.

المطلب الثاني: القرآن المسطور مَسْلك إلى فقه الكتاب المنظور.

إنّ التعريفات التي سبق ذِكْرُها في ثنايا هذه الرسالة تختلف عن التعريفات المألوفة، فقد كان للأستاذ النّورسي معجم يعُجُّ بمصطلحات أضفى عليها مسحة نورانية، لأنّها كُلّها فَاضَت من خلواته وتأمّلاته وسيّاحته ومسلك التّفكر، ولأنّه تحاشى التعريفات المنطقية التقليدية المألوفة للمصطلحات والمفاهيم، فكانت التعريفات الواردة في رسائل النّور ّذوقية". وهذا ما ينطبق أيضا على تعريف القرآن في رسائل النّور.

إنّ هذا التعريف مُخالف ومُغاير لما هو مألوف ومُتوقّع، إذ أبدع فيه الأستاذ النورسي، وجاد بما فاضت به أذواقه وأشواقه وأعماقه، قائلا:

---

[1] سعيد النورسي، المثنوي، ص35.

[2] شكران واحدة، كتاب الكون: قراءته وموقعه وتطوره في فكر بديع الزمان، ص74-75.

(هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والتُرجُمان الأبدي لألْسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومُفسّرُ كتاب العالم.. وكذا هو كشّاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض.. وكذا هو مفتاحٌ لحقائق الشؤون المُضْمرة في سطور الحادثات.. وكذا هو لسانُ الغيب في عالم الشهادة.. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية، والالتفاتات الأبدية الرّحمانية.. وكذا هو أساسٌ وهندسةٌ وشمسٌ لهذا العالم المعنوي الإسلامي.. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي.. وكذا هو قولٌ شارحٌ وتفسير واضحٌ وبرهانٌ قاطعٌ وتُرْجُمانٌ ساطعٌ لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه.. وكذا هو مُربٍّ للعالم الإنساني. وكالماء والضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية.. وكذا هو الحكمةُ الحقيقية لنوع البشر، وهو المُرشد المُهدي إلى ما خُلق البشرُ له.. وكذا هو للإنسان كما أنه كتابُ شريعة، كذلك كتاب حكمة. وكما أنه دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنّه كتاب ذِكْر، كذلك هو كتابُ فكْر. وكما أنّه كتاب واحد، لكن فيه كُتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية، كذلك هو كَمَنْزِل مقَدَّس مشحون بالكُتب والرّسائل، حتّى إنّه قد أبرز لمَشْرب كُلّ واحد من أهل المشارب المختلفة، ولِمسلك كلّ واحد من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصدّيقين ومن العُرفاء والمحقّقين، رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسْلك وتصويره حتى كأنه مجموعة الرسائل.)[1]

إنّ هذا التعريف للقرآن الكريم كما فصله الأستاذ النورسي ليس هو الوحيد، إذ نجد في رسائل النور تعريفات أخرى للقرآن الكريم، ولكنّها شارحة لهذا التعريف في بعض الجوانب أو مختصرة مقارنة به. ليبقى هذا التعريف هُو المُنْطلق لباقي التعريفات وكُلّها منْبثقة عنه.

إنّ هذا التعريف الفريد والذي يبدو طويلا ومُفصّلا ينقسم إلى ثلاثة مقاطع معنوية كبرى، وكُلٌّ منها يتألف من إشارات تعريفية تُشكل وحدة موضوعية متكاملة في كلّ مقطع. وهذه الوحدات الثلاث هي: كونيةُ القرآن الكريم، ورسالية القرآن الكريم وغايته التعبّدية، وعَرْضُه الكثرة من عين الوحدة وكُلّ هذه الوحدات تتلاقى في جوهر التعريف الذي صَدَر عنه كُلُّ هذا التّوصيف للقرآن الكريم هي أن القرآن كلام ربّ العالمين". فهي بمثابة جملة معنوية كبرى، وأمٌّ للوحدات الثلاث ومنْبَع العبارات التعريفية الذّوقية الواردة في التعريف. لقد فجّرتْ هذه القضية طاقات الأستاذ النورسي الوجدانية، فهو لم يزعم أنه يعرِّف القرآن على سبيل "الحد الجامع"، بل يَعتبر ما قدّمه فيضًا من أنوار قلبه، وهذا القلب قَمَرٌ من الأقمار السيّارة يعكس تجليات الأسماء الحسنى، وغاية

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص84.

الأقمار أن تقتبس من فَلَكه ولذلك عبّر النورسي عن تعريفه للقرآن بأنه مجرّد "لمعة". وحسْب ما يراه الأستاذ النورسي فإن مخاطبة الإنسان بهذا الكلام الإلهي العظيم من أعظم مقامات التكريم، وهي قضية تحمل من العظمة والرّهبة ما لا يتحمّلُه القلب البشري، فكيف تتحمّل خفقاته المعدودة وأنفاسُه المحدودة وَقْع الكلام الرباني الخارق للزمان والمكان. وهذا ممّا زاد انبهاره بالقرآن الكريم من حيث هو كلام ربّ العالمين، وكان هذا منبع فيوضات الأستاذ النورسي التفسيرية والمفهومية نتيجة تدبّره لهذه الحقيقة. فوجدان النورسي الذي صدر عنه هذا التعريف وجدان مُنبهرٌ بالربوبية العظمى، ورغم أنّ هذه الجملة متداولة بين المسلمين إلاّ أنّ آفة التعوُّد قَتَلَتْ فيهم حاسّة التدبّر حتى فقدتْ القلوب إحساسها بالقرآن، الذي لم تُطقْه الجبال الشامخات*. وكان الهدف الأساس من هذا التعريف هو تعريف الناس بخالقهم ولذلك سلك إليه الأستاذ من باب الربوبية التي تشير عنده إلى تجلي الأسماء الحسنى على الكون كلّه من حيث الخلق والقيومية، وما يتعلق بهما من أسماء وصفات ربّانية. فالقرآن الكريم كمفهوم تعريفي عند الأستاذ النورسي مُوصلٌ إلى معرفة الله جلّ وعلا. وهذه هي الحقيقة الكبرى عنده، وعليها يعتمد في تحقيق مهمّة إنقاذ الإيمان التي نذر حياته لأجلها، وأكّد أن تعليم شؤون دائرة الربوبية، وكمالاتها، ووظائف دائرة العبودية وأحوالها، هي الوظيفة الأساسية للقرآن الكريم.)[1]

إنّ بُغية النّورسي من خلال رسائله ومن خلال هذا التعريف خاصة أن يثبت أُسْتاذية القرآن الكريم في الكون كلّه، لأنّ كُلّ رسائل النور منبثقة من هدْي القرآن الكريم، ولذلك كانت شارحة للعقائد الإسلامية والحقائق الإيمانية بالأدلّة القاطعة، وقدّم من خلالها الرؤية الإسلامية التوحيدية الشاملة للإنسان والحياة والكون الذي نظر إليه بوجدان حيّ، وتدبّر آياته وفق المنهج القرآني الذي يدعو إلى التفكّر، فكان أسلوبه ذوقيا شاعريا خِصْبًا، تحرّر من القيود التي تفرضها المصطلحات الكلامية، والجمود الذي يعلو المقدمات الفلسفية التي لا تسقي الظمآن ولا تُدخل على روحه لمعات الرّوحانية الإسلامية الرفيعة المتّزنة والتي يترافق فيها القلب مع حكمة العقل، فيقطُر من الذّوق الرفيع عسلٌ مصفّى من الشوائب، ولذلك كان أسلوبُه قرآنيا يخاطب القلب السليم والعقل الفطري المودَعَيْن في الجِبِلَّة البشرية، فكانت تعريفاته مختلفة عن ما سبقها ممّا كان ملائما لعصور مضَتْ.

---

[1] عبد الكريم عكيوي، القرآن العظيم مصدرًا للتربية السلوكية، مجلة النور للدراسات الحصارية والفكرية، ع3، ص83-87.

*إشارة إلى قول الله تعالى: "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك المثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون". سورة الحشر، الآية:21.

ويلفتُ الأستاذ النورسي أنظارنا إلى حكمة التكرار في القرآن، وهي حكمة عظيمة نظرًا لِمَا تحقّقُهُ في القلوب والنفوس، فقال:

(ومَنْ كان له عينٌ في بصيرته، يرى في التنزيل عينًا ترى الكون، كصحيفة مُبْصرة واضحة.. وقد جاء مُكرّرا ليقرِّر.. ومُردّدًا ليحقّق قِصَصًا وأحكامًا مع أنّه لا يُملُّ تكراره، ولا يزيل عَوْدُه ذوقَهُ ولا يُسئِمُ تِردادُه، كلما كرّر حقّق وقرّر، بل ما كررته تحلو وتفوح أنفاس الرحمان منه "إنّ المسك ما كرّرته يتضوّع". وكلّما استعدْته استلذْته؛ إن كان لك ذوق سليم بقَلْبٍ غير سقيم. والسرُّ فيه: أنّه قُوتٌ وغذاء للقلوب، وقوّة وشفاء للأرواح، والقوت لا يُمِلُّ تكراره.. فمألُوفه آنسُ وألذُّ، خلاف التّفكُّه الذي لذّته في تجدّده، وسآمته في تكرُّره).[1]

إنّ حاجة الإنسان المُلحّة وغير المنقطعة إلى التّداوي بالقرآن منْ كلّ الأمراض والأسقام، ودفْع الوساوس والقلق، هي التي تجعله يقْبلُ عليه ويقرؤه ويتلو آياته آناء اللّيل وأطراف النّهار. وكذلك العقول تسترشدُ به وتستنيرُ بتلاوة آياته الكونية والتفكّر فيها، فهو كتاب كبيرٌ في سَعَته ورَحَابته ولا محدوديته، وكبير في معانيه ودلالاته على خَالقه ومُبدعه، حتّى إنّ كُلَّ ما سُطر على صفحاته يفوق الوصف من حيث الإبداع والمعنى الّذي يؤدّيه، فالحرفُ الواحد منْ حروفه بمائة كلمة، والكلمة منهُ بمئات الأسطر، وفي كلّ سَطْرٍ منه ينفتح ألْفُ باب، وفي كلّ باب منه ألوف الكُتب الصغيرة.. ففيه نشاهد الجمال بلا
نظير.

فمن أراد أن يرى ذلك فلينظر إلى "البستان" مثلا فهو بمثابة سطر من صحيفة الكون، وقد نُظِمتْ فيه قصائد بديعة، وهي مكتوبة بحروف الأزهار والأشجار والأثمار، والأحرف كلها قد تداخَلَتْ في سطور ذلك البستان في غاية الانتظام والإتقان والإبداع والجمال، ومثال ذلك تجدهُ في كلّ صفحات الكون.

وكذلك من أراد أن يفهم المعنى الحقيقي للكون وأن يقرأ آياته الكونية وخاصة تلك المتعلقة بالظواهر الطبيعية وتغيّراتها الغائية ونظامها، فإنّه يحتاج إلى القرآن الذي اعتبره الأستاذ النورسي تُرجمان الكون، لأنه يرشد الناس إلى ما سَطَرَتْه يدُ القدرة الإلهية من آيات كونية على صفحات هذا الكون، فكلّ حرف مكتوب عليها إنما ينظر إليه من حيث دلالته على الخالق، ولا ينظر إليه من ناحية ما يؤدّيه في نفسه. وهذا هو السبيل لكشف معاني الجمال الذي تتمتّع به الكائنات على اختلاف أنواعها.

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص234.

فالأستاذ النورسي كأنه يستمع إلى القرآن و هو يتلو على الإنسان ما كَتَبَتْهُ القدرةُ الإلهية في صحائف الكائنات منْ آيات فصار كأنّه قراءةٌ لما دُوّن في كتاب الكائنات.

ولذلك اعتبر الأستاذُ النورسي تلك الكائنات بمثابة مُفسرات لآيات الكتاب الحكيم. بل رأى أن القرآن (يبين بالإعجاز نفسه "الكونَ" الذي يراه الغافلون فضاءً موحشا بلانهاية، وجمادات مضطربة بلا روح تتدحرج في دوامة الفراق و الآلام يُبيّنه القرآن كتابا بليغا،كَتَبَهُ الأحد الصمد، ومدينة منسَّقة عمَرَها الرحمن الرحيم، ومعرضا بديعا أقامه الرب الكريم لإشهار مصنوعاته؛ فيبعث بهذا البيان حياةً في تلك الجمادات)[1]. ولذلك يرى الأستاذ النورسي أنّ الكائنات تشبهُ كلمات مجسّمة أو كلمات أُلبستْ أشكالا خارجية.

هذا هو منهج القرآن الكريم في النظر إلى الكون وقد جعله الأستاذ النورسي من الفروق الجوهرية التي بينه وبين منهج الفلسفة التي توصل إليها الإنسان فمنعتْه من الوصول إلى رؤية دلائل الوحدانية، والسّبب يعود إلى حجْب دلائل الوحدانية ومعجزات القدرة الإلهية وخوارق الرحمة الإلهية في منهج الفلسفة التي عَمِيَتْ عن رؤية ما كُتب على صفحات كتاب الكون بستار العاديات- كما وصفه الأستاذ النورسي فلا ترى دلائل الوحدانية المثبوثة على صفحاته لأنها صارت بمنظار الفلسفة مُضْمَرة تحت تلك العاديات وتحت تلك النّعم الجليلة، فلا تُبيّنها ولا تدُلّ عليها، بل إنّها توجه نظرها واهتمامها إلى ما هو خارج عن العادة في جزيئات صغيرة، فتهتم به وتُصوّب أنظارها نحْوه. أمّا الحكمة القرآنية فإنّها تمزّق ذلك الحجاب الذي ضُرب على وجوه المخلوقات بفعل التعوّد والأُلفة، حتى تُرشد البشر إلى رؤية ما أنعم الله به على الكائنات من معجزات ونِعَم، فتُعرّفها بربِّها وهذه المعرفة تُكلّل بالخضوع والعبودية والشكر للخالق الحكيم.

ويقول الأستاذ موضّحًا هذه النقطة الجوهرية:

(اِعلمْ أنّ أكثر معلومات البشر الأرضية ومسلّماته، بل بديهياته مَبْنيَةٌ على الأُلْفة، وهي مفروشة عن الجهل المركّب. ففي الإنسان فسادٌ أي فساد. فلهذا السّر توجّهُ الآياتُ أنظارَ البشر إلى العادات المألوفة، وتثقُبُ نجوم القرآن حجاب الألفة، ويأخذُ القرآن بأذُنِ البشر ويُميل رأسه، ويُريه ما تحت الألفة من خوارق العادات في عين العاديات).[2]

ولم يستثنِ القرآن الكريم في خطابه حتى الأشياء الصغيرة ولَفَتَ الانتباه إليها لأنّها مخلوقة في غاية الإبداع والإتقان، ويعجز البشر – ولو اجتمعوا-عن الإتيان

[1] سعيد النورسي، رسالة الثمرة، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط 1، مؤسسة دار الأنوار، إسطنبول تركيا، 2018، ص 147، 148

[2] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص321.

بمثلها. ويذهب البعض إلى حدّ استغراب سبب البحث عن هذه الأشياء البسيطة والعادية كأسلوب لمخاطبة البشر.

ويعتبر الأستاذ النورسي أن هذه مغالطة لأنهم نسَوْا أو تَنَاسوْا أنّ الكلام ينظُر إلى المخاطب به بجهات عِدّة، كما ينظر إلى متكلّمه بجهة، وهذا بناءً على المقتضى البلاغي للتطبيق على مقتضى حال المخاطب. ولذلك امتزج الخطاب القرآني بهذا الأسلوب لأنّ المخاطب بشرٌ وكان المقصَدُ هو إفهامُهُ، وقد اعتمد هذا الأسلوب للتأنيس الذي تحقق من ورائه غايات عظيمة. ولا فرق في الخطاب القرآني الذي يلفت الأنظار ويوجّهها لقراءة كتاب الكون بين الذرّات والمجرّات، لأنّها كُلّها آيات عظيمة تدلّ على خالقها، وعظمته وعِلْمه وقدْرته. ولكن عقول هؤلاء الذين ينظرون إلى كلّ شيء بمرآة مألوفهم حتّى إنّهم يترفّعون عن إسناد أمر بسيط أو شيء يزعمون أنّه حقير إلى شخص يتبوّأ مكانة مهمة أو مقاما رفيعا ضنًّا منهم أنّه لا يتفرغ للاشتغال به ولا يتنزّل للاهتمام بمثله بل يحيلُه إلى من هُم دونه أو تحت سُلطته ثم يتمادون وينظرون بهذا النّظر المثبط إلى الواجب الوجود –سبحانه وتعالى- فيستغربون من أسلوب القرآن في مخاطبة البشر لأنه في زعمهم لا يليق أن يتنزّل الله بعظمته وجلاله للتكلّم مع البشر بمثل مُحاورة الإنسان، كما أنّهم لا تتقبّل عقولهم اهتمام القرآن بالبحث عن أمور يصفونها بأنّها جزئية ولا سيما تلك التي تبدو لهم في غاية البساطة. إنّه لمن العجب أن يغيب عن هؤلاء الذين انشغلوا بهذه الاعتراضات أو الاستفهامات أنّ الله قد أحاط كلّ مخلوقاته بعلمه وقدرته وإرادته، فهي شاملة محيطة. فمجموع آثاره هو مقياس عظمته، وكافّةُ كلماته هي ميزان تجلّيه هي التي لو كان البحر مِدَادًا لها ما نفدَت. أفيستغربُ عاقلٌ أن تُلْقي الشمس ضياءها على ذرّة مُلوّنة فيسألها –بعد فرض أنها مختارة عاقلة –كيف تنزّلت بعظمتك للاشتغال بهذه الذرّة؟ ولله المثل الأعلى.[1]

إنّ دعوة القرآن الكريم للتفكر الإيماني في المخلوقات جميعها، صغيرها وكبيرها، توصلُه إلى معرفة خالقه وخالق هذا الكون وخالق كلّ شيء، فتتحقق ثمرات عظيمة يجدُ لذّتها في السّكينة والطمأنينة التي تغمره، واللّمعات التي تردُ عليه عقب ذلك التأمّل الإيماني، فلا يفكر إلا في حضور الخالق الحكيم ورؤيته له، فهو ناظرٌ إليه مُطّلعُ على حاله، ولا يخفى عليه شيء من أمور عباده ولا مخلوقاته، فلا يلتفت بعد ذلك العبدُ إلى غيره، ولا يستمدُ من سواه، لأنّ ذلك المسلك الإيماني القائم على التأمّل وعبادة التفكّر يُحصّنه من الالتفات إلى ما سواه من الأغيار الموهومة والمزعومة لأنّه مُخلٌّ بأدب الحضور ومُذْهبُ لسكينة القلب وسلامة العقل، كما يفتح هذا المسلك الباب

[1] سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص194-196.

أمام سلّم الدرجات والمراتب التي ينال كلّ إنسان منها حظّه حسب قابليته وقدراته، فما عليه سوى الاجتهاد حتى ينال أعظمها وأرفعها ويقطف ألذّ ثمارها.

وزبدة ما يمكن أن نقوله عن الأستاذ النورسي في تعريفه للقرآن:

(إنّ القارئ لَيَشْعُرُ أنّ آيات الكتاب المسطور "القرآن الكريم" تفاعلتْ في كيانه مع آيات الكتاب المنظور "الكون" فأبدع أروع الأفكار وأهمّ الرُؤى والآثار ومن تتَبُّعِ ما كتب نجدُ أنّ أكثر ما أثّر فيه "منظرُ الرّبيع" بما يضُمُّه ويبتدئ فيه من حياة، و"منظرُ الخريف" وكيف يتغيّرُ فيه وجهُ الأرض ويستعدُّ للموت لذلك أكثر جدًّا من وصْف هذا المنظر المؤثّر البليغ، علما بأنّه تأمّل في صغير المخلوقات وكبيرها من الأرض والسماء انتهاءً إلى صغيرها كالأرضة والبعوضة والنحلة والذُّباب، وتأمّل في النافع والضارّ وبيّن حكمة الأضْداد في مخلوقات الله وضرورتها وفائدتها)[1]

من أجل ذلك ردّد في رسائله في أكثر من موضع هذا البيت:

تأمَّلْ سُطُور الكَائنَات فإنَّهَا مِنَ المَلإِ الأَعْلىَ إليك رَسَائِلٌ*

فالكون كتاب، والكائنات رسائل، والإنسان مَدْعُوٌّ لتَأَمُّلها حتى تتفتح أمامه معاني حروفها وكلماتها فيستشعرها ويتذوّقها ويأنس بها ويطمئن ويعرف ربّه فيعْبده مُخْلِصا له الدين، ولا يلتفت إلى ما يشوّش عليه رؤيته ويُفسِدُ نظرته.

كان الأستاذ النّورسي يخشى على الإنسان أن يقرأ الآية القرآنية مُنْفكَّة عن الآية الكونية، وأنّ يقرأ الكتاب المسطور بعيْنٍ واحدة ويغْمِضُ الأخرى عن قراءة الكتاب المنظور وتأمُّل صفحاته، وكان جلُّ جُهْدِهِ مُنْصَبًّا في توجيه الإنسان إلى الجمع بين القراءتين، وقد صارت هذه ضرورة مُلحّة في زماننا هذا خاصّة، فإذا نظرنا إلى ما كان سائدًا في عصر النورسي من أفكار وفلسفات زادته دافعية للردّ على الشبهات والأباطيل التي أُلْصقَتْ بالإنسان والكون، وأفرغتهما من سُمُّوهما وشوّهت صُورتيهما إلى أبشع الحدود. أمّا اليوم فقد أغمض الإنسان المسلم عينيه عن آيات الكون وعلومه، وصَار من يقرأ القرآن لا يجاوز حُنجُرته، ومازال الانبهار بالآخر عمومًا وبالغرب خاصة في أَوْجه، إذ انسلخ المسلم من أصوله وانصرف لتلبية ملذات الدنيا التي كبّلته واسْتَعْبَدَتْه. ولكنّ الخير باقٍ في أمّة محمد – صلى الله عليه وسلّم-إلى قيام الساعة وإنْ قلَّ أتباعُه، إذْ تُبدل جهود مباركة ممّن حَبَاهم الله بِحُبِّ كتابه المسطور وفتح أعينهم وأبصارهم على آفاق الكتاب المنظور، فسلكوا طريق الدعوة إلى الله وإلى بَعْثِ صلة

[1] فاروق حمادة، الكون والطبيعة في فكر الإمام النورسي: أثرا ودلالة وهدفا، أنظر: جهود سعيد النورسي في تجديد الفكر الإسلامي، ص220.

*يُنْسَبُ إلى نَحَويّ مشهور، يُعرف باسم "ركن الدّين القَوْبع" (ت 738ه). أنظر: المثنوي العربي النوري، حبة من ثمرات جنان القرآن.

المسلمين بالقرآن الكريم الذي يضبط كلّ جوانب حياتهم، خاصّة أنّ تحديات الواقع وأسئلته الملغومة تستدعي تلك العودة بإلحاح.

(حين تقوم عقُولنا بصَرْمِ ونقضِ الصّلة والعلاقة التناظرية بين آيات الوحي المنزّل، وآيات الكون من سُن وقواعد فكرية ينضبطُ بها الكونُ، فإنّنا ننْسِفُ بأيدينا الصّلة بين "الأحكام التكوينية" التي تعمر الأكوان، وتلك "الأحكام التكليفية" التي تصلح الإنسان.

بين الكتابَيْن تشارُكٌ وتآلُفٌ: فكِتاب الكون يُعلّمِ الإنسان، من خلال انتصار الأُمم زمنا وانكسارها تارة أخرى: سُنن الحضارة وأسبابها، ويُعلّمُه قوانين التكاثر والتزاوج، وأسباب البقاء ومتتالية الفساد؛ فكتاب الكون يُمِدُّنا بآيات كونية تحمل في ذاتها أحكاما تكوينية.

وأمّا كتاب الوحي فيرشدنا، بآيات تكليفية وأخرى كونية، إلى شفرة إعمار النفس، وإصلاح الكون).[1]

المطلب الثالث: مكانة الإنسان في الكون

إنّ هذا الكون العظيم الذي يعتبرُه الأستاذ النورسي برهانا ساطعا وقاطعا على وجوب وجود الخالق الحكيم الذي لا إله إلّا هو، وما بَثَّ فيه من مخلوقات وموجودات تتفاوت في أشكالها وأحجامها ومظاهِرها، وتتفق في أسمى مقاصِدها وهي فتح الطريق أمام الإنسان للاستدلال على الخالق المبدِع الذي أبدَعها وصَوّرها في أبهى حُلّة. كُلّ هذا الجمال الذي ينطق به الكون، وكُلّ هذه الآيات، قد خلَقها الله – عزّ وجلّ- من أجل الإنسان المستخلف في هذه الأرض والمكرَّم من ربّ العالمين على المخلوقات أجمعين.

وفي تفسير الأستاذ النورسي لقول الله عز وجلّ:ﭐ□□□□□□□...□ﭐ البقرة: ٢٢ يجيب على سؤال افتراضي قد يطرحُه كثير من النّاس مِمَّن غَفَلوا عن إدراك قيمتهم الوجودية في الكون، فيقول:

(إن قُلْتَ: إنَّ الإنسان ذَرَّةٌ بالنسبة إلى أرضِه، وأرضُه ذرَّةٌ بالنسبة إلى الكائنات، وكذا فردُه ذرَّةٌ إلى نوعِه، ونوعُه ذرَّةٌ بالنسبة إلى شركائه في الاستفادة في هذا البيت العالي. وكذا جهةُ استفادة البشر بالنسبة إلى فوائد وغايات هذا البيتِ ذرّةٌ، والغايات التي تُحِسُّ بها العقولُ ذرّة بالنسبة إلى فوائده في الحكمة الأزلية والعِلم الإلهي، فكيف جُعلَ العالَمُ مخلوقًا لأجْلِ البشر واستفادتُه علّة غائية؟ قيل لك، نعم، ومع كُلِّ ما مَرَّ، لِأجل وُسعة روح الإنسان وتبسُّط عقلِه وانبساط استعداد وكثرة استفادته من الكائنات... وأيضا لأجل عدم المزَاحمة والتجزّي والمدافعة من جهة الاستفادة كنِسبة الكلّي إلى

[1] طه كوزي، مرجع سابق، ص90-91.

جزئياته –إذ الكليّ بِتَمامه موجود في كُلٍ من جزئياته لا مزاحمة ولا تجزّي- جعل القرآنُ جهة استفادة البشر التي هي غايةٌ فذَّة من ألوف غايات السماء والأرض في منزلة العلّة الغائية، كأنها هي العِلّة بالنظر إلى الإنسان، أي أنّ الإنسان يستفيد من الأرض عُرصَةً لِبَيْتِه والسماء سقفًا له والنُّجوم قناديل والنباتات ذخائر، فَحقٌّ لِكُلّ فرد أن يقول: شمسي وسمائي وأرضي، فتأمَّل وَعَقلك معك !)[1]

لقد اكتسب الإنسان هذه القيمة ونال هذا العطاء نظرا لمكانته المعنوية التي تتعزَّزُ بمظاهر التكريم الأخرى التي أنعمَ بها الخالق الحكيم سبحانه وتعالى عليه، فمعيار النّظر المعتمد على الجانب المادي مرفوض هاهنا.

إنّ الإنسان أصغرُ حَجمًا ووزنًا من أغْلَب ما خُلِقَ من أجله من الموجودات، ولكنّ ذلك لم يمنَع من تسخير كُلّ ذلك له، وحتّى الأرض التي يعيش عليها صارت هي قلب الكون واحتوتْ على أكثر المخلوقات ومالا يحصى من أنواع ذوي الحياة. فَقَد وُضِعَ الإنسان في المركز الذي يليق به في هذا الكون، وصار في هذا الكون الجميل أَلَذّ ثمرة، وبناءً على ذلك صار يتصرّف في ما حوله من المخلوقات التي سُخِّرَتْ له، ونظمها واستفاد منها حسب حاجاته الفطرية، وقام بِالتّعمير والتنسيق بين الأنواع العجيبة التي تزيّن الكون، فنال أهمية عظمى بما أظهر من عِلم ومهارة فتبيّن أنّه هو: (المقصود من حكمة خَلق الكائنات، وأنه هو نتيجتها العظمى، وثمرتُها النفيسة ولا غَرْوَ فهو خليفةُ الأرض).[2]

إنّ سطح الأرض مائدة رحمانية بَسَطها الخالق ذو الجلال تكريما للإنسان، وكُلّ ذوي الحياة من الحيوانات والطيور يَنْعمون بما بُسط عليها لأنهم أيضا سيكونون مُسَخَّرين للإنسان وتحت خِدمته، فترى مظاهر استفادته من أصغر الحيوانات والحشرات، وانتفاعه بها، من وجوه شتّى. فاستخدم مثلا النحل ودودة القزّ والحمام الزاجل و...، كما استفاد من الحيوانات الأليفة في مأكله وملبسه وحرثه وسَفره و...، ويمكنه أن يستفيد أكثر وأكثر من الحيوانات بشتى أنواعها إذا ما عَلِم لسان الاستعداد الفطري لها وقابليتها.[3]

فهذا الإنسان الذي يعتبره الأستاذ النورسي ذا حقيقة كونية عظيمة، لأنّ الله – سبحانه وتعالى-قَد خَلَقَهُ مُظهِرًا لتجليات أسمائه الحسنى، قد استحق أن يكون ثمرة شجرة الخلقه التي هي أبْعدُ أجزائها وأجمعُها لخصائصها، كما استحقَّ أن يتبوّأ مكانة مركزية في الكون، فسخّر له ما فيه من مخلوقات وكائنات وآيات. وأحاطه بعنايته

---

[1] سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص152.
[2] سعيد النورسي، الشعاعات، ص222.
[3] سعيد النورسي، الكلمات، ص287.

ورعايته، ونظَّم أنواع النّعم المنتشرة في الأفاق والمبثوثة في الكائنات وجعلها مرتبطة بأوامر المنافع التي تعود على الإنسان.

(إنّ علاقة الإنسان بالكون – مع أنها علاقة تسخير-بين "فاعل" هو الإنسان و"موضوع" هو الكون، إلّا أنّ التسخير في الرؤية الإسلامية ليس تسخير إذلال وصراع، بل هو تسخير ودود كريم استثنائي، فالرسول كان يحب جبلَ أُحد، كما أنّ جذع الشجرة كان يَحِنُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم.)[1]

ويؤكد الدكتور عمّار جيدل في دراسته المقاصدية حول "رسائل النور" أنّ النّظر إلى الكون في إطار المقاصد يُظْهر أن كُلّ عناصر الكون ومظاهرها إنّما جُعِلَتْ لِخدمة الإنسان سواء المادية منها أو المعنوية.[2]

إنّ نظرة النورسي إلى الكون قائمة كما أسلفنا على التفكّر والتأمل، إضافة إلى ما يتمتع به من إحساس مرهف، ووجدان حيّ، ولِسان عّذْب، وقد وظّف كُلّ ذلك في وصف جماليات الصورة الكونية بكلّ تفاصيلها، وفاضتْ نباهةُ فِكرِه الذي امتزج بقلبه لعقود طويلة بأفكارٍ وحقائق ودُررٍ ولآلي في غاية الجمال. فهو لا يغفل عن أدنى التفاصيل ويُوجّه نظره الثاقب نحو كلّ الموجودات ليدرك ماهيتها وحِكَمَها ووظائِفها، فتزداد أفكاره عمقا وذوقا.

إنّه إكسير الإيمان الذي ينقي القلب من الشوائب والعقل من الدّسائس، وإنّه حصن القرآن لذي تتهاوى أمامه أعتى الفلسفات والمذاهب، بهذا نظر النورسي إلى الوجود حوله، وعليه عرض جملة أفكاره وما وردَ على عقْله وخطر على قلبه.

أمَّا مَنْ نظر إلى الكون من زاوية أخرى وأخضع نفسه لجبروت وطغيان الأعداء وانْقَاد لأهواء النَّفس وزَلاَّت العقل، فإنّ الأستاذ النورسي يخاطبه واعظا مُذكِرًا ومرشِدًا:

(فيا أيها الإنسانُ المسكينُ المخلوقُ لعالم الخلود والمبتلَى بهذه الدنيا الفانية! أمعنْ النظر في الآية الكريمة وأنصِتْ إليها:ﭐ□□□□□...□ﭑ الدخان: ٢٩ وانظر ماذا تفيد... إنها تعلنُ صراحةً أنّ السموات والأرض التي لها علاقة بالإنسان لا تبكي على جنازة أهل الضلالة عند موتهم، أي إنّها راضية بفراقهم مرتاحة بموتهم.)[3]

إنّ هذا الإنسان الذي أنعم الله عليه وجعل له الأرض دار ضيافة تليق بِه وأسبغ عليه نِعمَه ظاهرة وباطنة، يرتكب كُفرانا عظيما فَيَنسى أن يشكر ربّه، وقد يزيغ قلبُه أو تنطمس فِطرته فيُسْنِدَ كلّ ذلك الإحسان والإكرام إلى المصادفة أو الطبيعة أو

[1] عبد الحليم عويس، مرجع سابق، ص78.
[2] عمّار جيدل، مرجع سابق، ص241.
[3] سعيد النورسي، اللمعات، ص119

الأسباب، وهو بذلك يفتَحُ بابًا لِجهل مطلق ينافي كُلّ معاني التكريم للإنسان الذي خَلَقَهُ رَبَّه سبحانه في أحسن تقويم.

فَحَريٌّ بالإنسان أن يتمتع بهذا القصر المنيف الذي هيأهُ الخالق الحكيم لِضيافته فجعل رزقَه يأتيه
رغَدًا من كلّ مكان، وأحاطه بكل هذه الآيات الكونية لِتَدُلَّه على خالقه فلا يضل ولا يشقى، فهي ليست مطلوبة لِذَاتها، بل لمن تدلُّ عليه.

وهذا هو سبب خوف النورسي على الإنسان، ولذلك عاش مجاهدًا لتحريره من سِجْنَيْن دُنيوِيَيْن رهيبيْن هما "أنا" في النفس، و"الطبيعة" خارجها. فمن اغترَّ بأحدهما أو بِكِلَيْهمَا حُرِمَ من السّمو الرّوحي ولذة الأذواق التي ينالها ويجدها في المراتب العليا التي تَنْعَمُ بها الرُّوح، وقد يغترُّ وينسبُ إلى "أناه" مالا يليق بها من الصفات العليا. وأمّا "الطبيعة" فقد سُجِنَ فيها كثيرون ولم يستطيعوا تجاوزَها كما أسلفنا سابقا. فهذان السّجنان هما أصل الهلاك الذي وقع في كثيرون ولا يزالون...

وتستقيم نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى ما يحيط به من موجودات وكائنات في الكون الفسيح الذي ترعاه العناية الإلهية إذا لم يَفْصِلهما عن النّاظم الكلّي الذي يمنحهما الوضوح والسَّداد، وهذا الناظم هو جوهر عقيدة التوحيد لكن المقصود به تحديدا هو:

(التوحيد مفهومًا، لا بالمعنى الميتافيزيقي المنفصل عن الزمان والمكان، وإنما التوحيد باعتباره مضمونا معياريا، أو ك "معيّة إلهية"، وقانون كلّي لعناصر الثقافة الأخرى، أي إنه رؤية إدراكية لتفسير العالم وتدبيرات إلهية من أجل إصلاح المملكة الإنسانية.)[1]

المبحث الثالث: الأسماء الحسنى في الكون والحياة

لقد خَلَق الله الإنسانَ في أحسن تقويم وكَرَّمَهُ ونفخ فيه من روحه وأنزله إلى الأرض واستخلَفَه فيها، وجَعَلَهُ مِرآةً عاكسة لتجليات الأسماء الحسنى، ومحورًا للكون وثمرتَهُ الشاعرة. وقد حذّرنا الخالقُ عزّ وجلّ من الكفر وطريق الضلال والشِرك لأنّه تجاوزٌ شنيع وتعَدٍّ رهيب وجريمة يستحقُّ عليها العذاب الأبدي، كما يتحمَّل تِبَعًا لهذه الضلالة عواقبَ رفض الغاية السامية لِخَلقْ الكائنات التي تتوجَّهُ إلى خالقها بالعبودية والطاعة والانقياد لربوبيته المطلقة.

[1] عبد الرزاق بلعقروز، مرجع سابق، ص86.

ويعتبرُ الأستاذ النورسي أنّ إنكار أهل الشرك والضّلال لهذه النتيجة العظمى للكون -التي يعتبرها العلّة الغائية وسبب بقاء الموجودات- تعَدٍّ صارخ وجريء على حقوق المخلوقات التي تتجلّى فيها الأسماء الحسنى حتَّى إنها صارت بِكلِّ أجزائها مرايا تعكس أنوار تلك التجليات للأسماء المقدسة، وهذا هو سببُ رِفعتها وعُلوِ منزلتها، ومن أنكرها فقد أنزَل تلك الموجودات دون منزلتها التي تليق بها، وحَرَّف تلك المعاني العظيمة للأسماء الحسنى، وأهان المخلوقات إهانة لا تُغتَفر.

المطلب الأول: مكانة الأسماء الحسنى في الرؤية النورسية

يقول الأستاذ سعيد النورسي:

(نعم، إنّ الذي يُدبّر أمورَ الكون ويهيمن على شؤونه بسهولة ويُسر كإدارة قصرٍ أو بيت... والذي يحرّك النجومَ وأجرامَ السماء كالذّرات بمنتهى الحكمة والسهولة والذي تنقادُ إليه الذّرات وتأتمِرُ بأمره وتخضع لحكمه... إنّ الذي يفعل هذا كُلَّه هو الله القدوس سبحانه... فكما أنّه مُنَزَّهٌ ومقدسٌ عن الشرك، فلا شريك له ولا نظير له، ولا ضدَّ له ولا نِدّ، فليس له قطعًا مثيل ولا مثال ولا شبيه، وذلك بنص الآية الكريمة: "ٱ...□□□ □□□□□□ الشورى: ١١ إلا أن شؤونه الحكيمة وصفاته الجليلة وأسماءه الحسنى يُنْظر إليها بمنظار التمثيل والمَثَل حسب مضمون الآية الكريمة:ٱ...□□□□□□□□□□□□ الروم: ٢٧ أي إنّ المَثَل والتمثيل واردٌ في النّظر إلى شؤونه الحكيمة)[1]

ويؤكِّدُ الأستاذ النورسي أنّ حقيقة كُلّ شيء مرآة عاكسة لأنوار اسم من الأسماء الحسنى وتتوجه إليه وترتبط به في كُلِّ الأوضاع الجميلة التي يتَّخذها ذلك الشيء ومظاهر ذلك الجمال التي تتبدّى عليه تعود إلى شرف ذلك الاسم وسُمُوّه، ويتجلّى من هذه الحقيقة طرف من قانون "التحسين والجمال".[2]

إنّ أهمية هذا المبحث المتعلق بتجليات الأسماء الحسنى تتكشف من خلال مطالعة رسائل النّور والتعمّق فيها، وبعدها سَيَتَبَيَّنُ سعة أفق نظر الأستاذ النورسي حين تعرّض لهذا المبحث الذي يَصِفُه الدكتور محسن عبد الحميد – المتخصص في رسائل النور وفكر الأستاذ النورسي- في أحد ردودِه على من وصف فِكر الأستاذ النورسي بـــ "الضيّق" جُزافا ودون أدنى عناء في الإطلاع على رسائله، وينقل لنا الأستاذ إحسان قاسم الصالحي نَصَّ جواب الدكتور محسن عبد الحميد:

(إنّ أفضل من كتب عن الأسماء الحسنى هو الإمام الغزالي بلا منازع، وذلك في كتابه "المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى" رغم وجود كتب أخرى نفيسة في

[1] سعيد النورسي، اللمعات، ص138.
[2] سعيد النورسي، الكلمات، ص647.

هذا الباب. فالإمام الغزالي فاق الآخرين لتناوله كل اسم من الأسماء بالشرح والإيضاح ونصيب الإنسان من هذا الاسم، وهذا هو سِرّ تفوق هذا الكتاب على نظائره".

والآن لننظرْ كيف تناول النورسي تجليات الأسماء الحسنى؛ لقد أخذ النورسي كل اسم من الأسماء ونصيب كلّ موجود من الموجودات من هذا الاسم وليس الإنسان وحده؛ بمعنى أنه بيّن أن تجليات الأسماء تستولي على الوجود كلّه، فأينما تولِّ وجهكَ تجِدها وأينما تنظرْ تَرَهَا مثلما قيل:

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحدُ.

فهل هذا أفقٌ ضيّقٌ؟ أم واسعٌ سعةَ الوجود كلِّه بِبَركة القرآن الكريم).[1]

ويرى الأستاذ النورسي أنّ النّظر إلى الدّنيا يكون من عدّة وجوه وليس من وجه واحد، فلا يليق أن نُبصر منها الوجه الذي ينظر إلى أهواء الإنسان فقط، لأنه يكون ستارًا للغافلين ومُبَرّرًا لتقصير الإنسان وتلاعباته وتنازلاته، وهذا الوجه مذموم لأنه قائم على كلّ ما هو فانٍ وقبيح. وهناك من يُبْصِر فيرى منها ذلك الوجه الذي يتوجه إلى الآخرة والحياة الباقية والسعادة الحقيقية، أين يجد النعيم المقيم والثوابَ الجزيل، وتنعدم فيه مُنَغّصات الألم والفراق، بل هو موعد للقاء الأحبة ودوام اللّذة، وهذا الوجه جميل ومحبوب يستحقُ البذْل والصَّبر وهناك وجه ثالث ينظر إلى تجليات أسماء الله الحسنى وآثارها ونقوشها، وهذا الوجه يؤدي وظيفة مرآة لتلك الأسماء بالمعنى الحرْفي –أي في غيرها- وهذا الوجه يفوق سابقَه الحَسَن فهو أكثر حُسنًا ويستحق المحبة والإعجاب والانبهار، بل والدهشة أيضا !!- فهو في غاية الحسن والجمال ومجال واسع للمشاهدات والسياحات.

ولذلك فإن ذِكْر الدنيا بصيغة الذَّم والتحذير يكون لمن اكتفى بالوجه الأول وغفل عن غيره عمدًا أو سهوًا، أمّا ذكرُها بصيغة المدح والثناء فمقصوده الوجهين الآخريْن.

(والحق أنّك لو تَعَمَّقت في فهم رسائل النور لوَجَدتَ أنّ أفرشتها الواسعة هي تحقيقات معاني الأسماء الحسنى، حيث يجعلها النورسي نوافذ يطِلُّ منها على الكون وأسراره، والخالق وصفاته، والإنسان والغاية من وجوده، وذلك من خلال فهم دقيق ورؤية شهودية مستغرقة في السريان النافذ والذوبان الكامل، فهي المرآة التي تُظهر على صفائها عظمة الصنعة الربّانية في الوجود، وإدراك حقائق هذه الأسماء وتجلياتها إنّما هو مدارج السالكين إلى الله تعالى أو فهم عميق لِنظامه الكوني وشريعته الاجتماعية. ولو اجتمعتْ هذه المعاني السامية السامقة كلُّها، فكوَّنَت أسُسًا كليّة متناسقة لبناء المجتمع والحضارة، لحقّقَ الإنسان معنى وجوده في هذا الكون، ولاتّصلتْ أسبابه

[1] إحسان قاسم الصالحي، رحلتي مع رسائل النور، ص87.

بأسباب خالقه، فما ضلَّ وما شقيَ، ولقَامَتْ الحضارة على مقوّمات متوازنة من المادة والرّوح، فلم تنحرف ذلك الانحراف المهين الذي أردى البشرية إلى الحضيض للأسف.)[1]

لقد أفصح الأستاذ النورسي عن التجليات المنعكسة عن الأسماء الحسنى من خلال قراءاته ومشاهداته لِظلالها بمنظار التوحيد الصافي الذي لا تشوبُه شوائب الفلسفات المزخرفة في الظاهر، ولا تكدِّره تحليلاتها ولا نقاشاتها الغامضة، ولا تُعقِّده خلافاتُها التي لا يقوى الجميع على مجاراتها، بل إنّه يعرض تلك المعاني والتجليات مِمَّا فاض به قلبه وفكره وانطلق به لسانه بألفاظ سليمة من احتمالات التأويل والعناء، ونقية من أدران السمعة والرّياء، بل هي مشبعة بمعاني الإخلاص والشكر ومحبة الله والوقوف بانكسار وافتقار بين يديه أثناء تلك المشاهدات التي أثمرَتْ فتوحات عظيمة بشهود تجليات الأسماء الحسنى، وكانت هذه سِمة بارزة في رسائل النور زادتها جاذبية وإقبالا على قراءتها وتدارسها.[2]

المطلب الثاني: الحياة: آية توحيد ساطعة

تحظى الحياة بأهمية بالغة في فكر الأستاذ النورسي ورسائله، وقد أولاها عناية كبيرة، كيف لا وكل ما سبق ذكره وتفصيله في مدار الفكر النورسي وأصول الرؤية الكونية عنده ينبض بالحياة التي تسطع بالتوحيد، فالكون بكل أرجائه والإنسان بكل أجزائه صغيرها وكبيرها يسري فيها هذا السِرّ العظيم. ويعرّفها الأستاذ بقوله:

(إنّ الحياة آية توحيد ساطعة تسطع على وجه الكائنات، وإنّ كلّ ذي روح –من جهة حياته- آية للأَحَدِيَّة وإنّ الصّنعة المتقنة الموجودة على كل فرد من الأحياء ختم للصَّمَدية، وبهذا فجميع ذوي الحياة يُصَدِّقون ببصمات حياتهم رسالة الكون هذه ويعلنون أنها من "الحي القيوم" "الواحد الأحد"... فكلٌّ منها ختم للوحدانية في تلك الرسالة (...) نعم إنّ الحياة بعدد جزئياتها وبعدد أفرادها الحيّة أختام وبصمات حيّة تشهد على وحدانية "الحي القيوم" مثلما أن فعل البعث –الإحياء- أيضا يختم بأختام التصديق على التوحيد بعدد الأفراد من الأحياء.)[3]

---

[1] محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر الحديث، ص136

[2] محمد خليل جيجك، منهج النورسي في التعامل مع الأسماء الحسنى، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد01، ص97

[3] سعيد النورسي، اللمعات، ص 511-512.

ويرى الأستاذ النورسي أنّ الحياة طراز من تجلِّي الوحدة وهي نورُها وأنّ التوحيد يتجلّى بالحياة في هذه الكثرة (...) ويصير هذا الوجود كالعدم إذا لم توجد فيه حياة، بل إنه يصبح غريبا ويتيما حتى لو كان قمرًا.[1]

إن كل ما ينشر ويظهر في أجزاء الكائنات والمخلوقات وما يتجلى على صفحات الكتاب الكوني في كلّ أرجائه من أشكال الحياة يتضمن حكمة وعناية ورحمة بالغة، وصيغة دقيقة ونقوشا رقيقة وإتقانا واهتماما تترشح بتجليات قصد وعلم وإرادة وتدبير وإحاطة تبلغ كلّها درجة التمام والكمال، فتدل تلك الحياة على وجوب وجود الواحد الأحد، الحيّ القيوم، المُحي المُميت، القادر على كلّ شيء وبِيَده مقاليد كلّ شيء، فيصير كل شيء واحدًا بما يتجلّى عليه من نور الحياة وأنوار الأسماء الحُسنى، ويثبتُ قطْعا أنّ هذا الكُلَّ خالِقُهُ واحِدٌ، ويتأكد أنّه: (لا يمكنُ أنْ يَخْلُقَ أدنى ذِي حياة إلّا مَنْ يأخذ في قبضة تصرُّفِه جميعَ الكائنات).[2]

وكما أنّ الحياة آية توحيد وختم للأَحَدِيَّة مَسْكوك على جميع ذوي الحياة ومجموع الكائنات، فإنّها أيضا تردُّ الشِّرك وتُبْطلُهُ، فهي برهان ساطع ضمن ماهيات الكائنات، وصورة بليغة للصنعة الربّانية الحكيمة، وتجلٍّ لطيف للرحمة الإلهية، وهي مرآة جامعة تعكس الشؤون الإلهية للأنظار.

(إذْ تجْمَعُها تجليات اسم "الرحمان، الرزاق، الرحيم، الكريم، الحكيم... وأمثالها من الأسماء الحسنى، وتجعل الحقائق الكثيرة والمشاهدة كالرزق والعناية والرحمة تابعة لها، فتقودُها، مثلما هي منشأ جميع المشاعر ومعدن الحواس العامّة كالبصر والسمع والشعور..).[3]

كما أنّ كلّ الدلائل الشّاهدة على العِلم الإلهي الذي تظهر آثاره عل كلّ الكائنات في انتظامها، وجميع البراهين التي تثْبِتُ قدرة الحكيم القدير الذي يتصرف في الكون، وأيضا كل الحجج التي تُثبِتُ صفات الإرادة والمشيئة في تنظيم شؤون الكون وإرادتها وتدبيرها وتصريفها، ومعها كلَّ المعجزات والإشارات التي تثبت الرسالات السماوية وهي مدار الكلام الإلهي والوحي الذي خَصَّ به بعضًا ممن اصطفاهم من عباده المرسلين.. كلُّ هذه الدلائل والبراهين تشهدُ على الصفات الإلهية العظيمة، وتدلُّ بالاتفاق على حياة "الحي القيوم"؛ فوجود الرؤية في شيء يلزمه وجود الحياة فيه، ووجود السَّمع كذلك أمارة على وجود الحياة فيه، وكذلك إن وُجِد الكلام فهو إشارة

---

[1] سعيد النورسي، رسالة اللوامع، ترجمة، إحسان قاسم الصالحي، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2013، ص24-25

[2] سعيد النورسي، المثوي العربي النوري، ص57

[3] سعيد النورسي، اللمعات، ص500-501

أيضا إلى وجود الحياة، ومِثْلُها وجود الاختيار والإرادة يُعدُّ مَظْهرًا من مظاهر الحياة.. وهكذا يتبيّنُ أنَّ جميع دلائل تلك الصفات الجليلة التي نَنْعَمُ بمشاهدة آثارها ونَعْلَمُ بداهة بوجودها الحقيقي، مثل العلم المحيط والقدرة المطلقة والإرادة الشاملة، تدُلُّ كلُّها على حياة "الواحد الأحد، الحي القيوم، المُحْيِ المُمِيت" ووجوب وجوده، كما تشهد أيضا على حياته السّرمدية التي تَنَوّرَ جميعُ الكونِ بشعاعٍ منها.

إنّ "الحياة" مخلوقٌ متميّزٌ وخاصٌّ جدًّا، لا يشبهها أيُّ خَلْقٍ آخر، فكل المخلوقات الأخرى جُعلت لها أسباب ظاهرة والتي يرى الأستاذ أنها حُجُبٌ وستائر لتصرفات القدرة الإلهية، أمّا الحياة فإنّ صدورها يكون من يد القدرة الإلهية مباشرة وتنعدم فيه الوسائط والستائر.

وهذا هو السبب الذي أوقع العلماء الذين حاولوا الوصول إلى سرّ الحياة في حيرة، ورغم كثرة المحاولات إلّا أن إجاباتها كانت حذرة وغير محدّدة لأن العلم وحدَهُ لا يمكن أنْ يدرك معنى الحياة ولا أن يقدم تعريفًا دقيقا وكاملا لها.

(إننا لا نستطيع تفسير الحياة بالوسائل العلمية فقط، لأن الحياة معجزة وظاهرة معًا، والإعجاب والدهشة هما أعظم شكل من أشكال فهمنا للحياة).[1]

إنّ "للحياة" شيء يستعصي على التفسير إذا نُظِر إليها من منظور علمي بحت، بل توقع في الحيرة والعجز إذا أريد التعبير عنها بصيغ كيميائية صرفة، وإذا كان العلم قد أخفق في تحديد معنى الحياة وتفسيرها، فإنّه أخفق أيضا في محاولة إنتاجها رغم العناد الشديد الذي يُبْديه بعض المغرورين بأنفسهم أو المُغَرّرِ بهم باسم العلم في محاولاتهم المستمرة لتحقيق ذلك.

إنّ الحياة تسري فجأة بأمر الله من حيث لا يحتسب الإنسان الضعيف، وهذا ما يؤكد أنّها برهان على وجوب وجود مُوجِدِها ووحدانيته، وهو حُجَّة قاطعة لأيدي الأسباب.

وليس فقط وجود الشيء وحياتُه برهان بَاهرٌ على وجود الله ووحدانيته بل (كذلك فناء الشيء وموته في تجدُّدِ الأمثال برهانٌ ظاهرٌ على بقاء المُبْدِيء المُعيد الوارث الباعث، ودليل واضح على أنّه لا شريك له، أي ليس لشيءٍ من الأشياء شيءٌ من الأشياء من جهة الخلق والإيجاد، وحُجَّةٌ قاطعة لأيدي
أَنْفَسِ الأشياء من التأثير في أنْفُسِها.

[1] علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة، محمد يوسف عدس، ط2، مؤسسة بافاريا، ميونخ-ألمانيا، 1996، ص80.

الحاصل: أنّ الحياةَ تقول: "لا إله إلّا هو وحده"، وترُدُّ الأسباب... وأنّ الموت يقول: "لا إله إلا هو لا شريك له"، ويَرُدُّ الأنْفُس).[1]

ولنَنْظُر إلى خاتم الواحدية الذي أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:ُّ□□ □□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□نهَّ الروم: ٥٠

إنّ هذا "الإحياء" الذي يحدث للأرض بمثابة حَشْر عجيب، ونَشْر غريب، إذْ يُحْشَرُ فيه ما يَصْعُبُ عَدُّه من الأنواع مِمَّا سوى الإنسان، وتساوي أفراد نوع واحد – من تلك الأنواع الكثيرة- في السَّنَة الواحدة مجموع أفراد الإنسان في الدنيا، ولكن تلك الأفراد لا تعادُ في الأكثر بأعيانها، بل تكون إعادتها بأمثالها العيْنِيّة، فيكون إحياؤُها – رُغم الكثرة والاختلاط والتشابك الذي يبلغ منتهاه- وإعادتُها في كمال التمييز، مع انعدام الخلط والسَّقط، خَاتَمًا خاصًا بالذي ضرب على مجموع العَالم سَكَّة الأَحَدِيَّة بصورة جليلة وعظيمة.

وللحياة قيمة عظيمة اسْتَشَفَّها الأستاذ النورسي من قيمة ذوي الحياة في أرجاء الكون، فهو يرى أنها:(صَنْعَةٌ إلهيةٌ خارقةٌ؛ تُكَبّرُ الجزءَ الضّئيل إلى أكْبَرِ كُلٍّ، حتّى إنّها تجْعل الفردَ يُحكم العالَم وكأنّه كُلّي. وتَعْرِضُ الكونَ – من حيث الربوبية- في حكم الكُلّ والكلّي لا يقبل التجزئة والاشتراك والانقسام..)[2]

وهي من هذا الوجه أعْظَمُ النِّعم، لأنّ الجسم الذي ينبض بالحياة تحصل له مناسباتٌ مع كلّ الكائنات والأنواع ولو كان صغيرًا كالنّحل. أمّا الجسم الذي لا حياة فيه فيبقى وحيدا يتيما لا يخالط غيره ولا يَبْرَحُ مكانه الذي له مناسبة معه فقط ولو كان هذا الجسم كبيرا كالجبل. ولذلك نرى المخلوق الصغير الذي سَرَت فيه الحياة – ولو كان حشرة أو حيوانا -يعيش تلك الحياة الحيوانية فيجول بحواسه وفطرته التي جُبِل عليها وينصرف بين أنواع الكائنات ويحدث تبادل وتنشأ علاقات وربّما محبّة أو صداقة.. أمّا من أكرَمه الله بالإنسانية ونور العقل ومحبّة القلب ورفعه إلى هذه الطبقة حتى يرى العالم قد خُلق لأجله بفضل الله.. فالحياة إذن هي التي تعطي لذوي الحياة من الكائنات فرصة التعرّف وإمكانية
الأُنس والتبادُل.[3]

وما يقوم من علاقات وينشأ من اتصالات بين ذوي الحياة من مخلوقات يحكمها دستور التّعاون، أمّا من زعم أنها قائمة على الصراع فقد وقع في مغالطة يكذّبها الواقع والحقيقة، وهو مذْهَبٌ ضَالٌ مُضِلٌ، وفي ذلك يقول الأستاذ النورسي:

---

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص344.
[2] سعيد النورسي، اللمعات، ص500.
[3] سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص208-209.

(نعم، تجاوبُ أعضاء الكائنات بِشمسها وقمرها لمنفعة الحيوانات، وتسارعُ النباتات لإمداد أرزاق الحيوانات، وتسابق مواد الأغذية لترزيق الثمرات، وتَزيُّنُ الثمرات لجلب أنظار المرتزقات، وتعاونُ الذرات في الإمداد لِغذاء حُجيرات البَدَن؛ دليل قاطع ساطع على أنَّ الدستور العام هو التعاون وما الجِدال إلا ستور جزئي بين قسم من الحيوانات).[1]

لقد نظر النورسي إلى "الحياة" بمنظار مختلف، واستعمل أدوات إيمانية لاستكشاف معناها، ولم يغرق في البحث عن ظَاهر حركة الحياة، بل استعمل كُلّ ما أودعه الله في ماهيته البشرية من عقل وقلب ووجدان ولطائف. للوصول إلى من حَرَّكَها فاستدلّ بها على وجوب وجود الواحد الأحد وأعلن أنّها آية توحيد ساطعة على وجوه كلّ ذوي الحياة، فَمَنْ عَمِيَ عن رؤيتها فَلْيُغَيِّر منظاره وأدواته.

المطلب الثالث: الحياة مرآة لتجليات الأسماء الحُسْنى

إنّ الذي يُحيي هو الذي يهب "الحياة"، ومادامت الحياة هي روح الكون ونُورُه وخميرتُه، فَمَنْ وهب الحياة وجعلها تسري في المخلوقات فهو خالق الكون وهو خالق كُلِّ شيء وهو الحيّ القيُّوم.[2]

ويذكر الأستاذ النورسي من خصائص "الحياة" أنّها ما إنْ تَنْفُذُ في شيء حتّى تُصَيّرَهُ عالمًا بِحَدّ ذاته؛ فهي بما تمنحه من الجامعية تجعله كُلًّا إنْ كان جُزْءًا، وكُليّا إن كان جُزئيا؛ فهي لها من الجامعية ما يجعلها تعرض في نفسها أغلب الأسماء الحسنى التي تتجلّى على كلّ المخلوقات، فهي ليست مجرد مرآة عاكسة للأسماء الحسنى، بل إنها كمرآة جامعة تعكس تجليات الأَحَدِية. فالجسم يتحوّل إلى عالم مُصغَّر حالما تدخُله الحياة فكأنه يتحول إلى بذرة تحمل فهرس شجرة الكائنات، وهذه البذرة هي حتمًا أثر قدرة الخالق الحكيم الذي خلق الشجرة، فخالق أصغر كائن حي هو خالق الكون كلّه قطعًا، وبهذه الجامعية
تُظْهِرُ "الحياة" أخفى أسرار الأحدية وأدقَّها.[3]

(وبذلك تظهر مقاصد الربوبية في الكون كلِّه، حيث تُعلن الذرات كُلُّها انتسابها لله المالك الواحد؛ لأنّ مقاصد الربوبية في الكون تتجمع في الأحوال الجزئية، وغاياتها تتمركز فيها، وتجليات أكثر الأسماء الحسنى وظهورُها وتَعَيُناتها تجتمع فيها، ونتائج

[1] سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، ص346.
[2] سعيد النورسي، المكتوبات، ص290.
[3] سعيد النورسي، اللمعات، 510-511.

خلق الموجودات وفوائدها تبرزُ فيها، لذا فإنّ كلّاً منها تقول انطلاقا من نقطة التمركز والتجمع هذه: أنا مُلْك مَنْ خلق الكون بأسره، أنا فِعله وأثره).[1]

ينطلق الأستاذ النورسي في قراءة صفحات الكون وتستوقفه مظاهر الإتقان في الخلق والدقة في التدبير والعناية في التصريف وتَشُدُّه مظاهر التّجدد والتبدّل التي تحدث نتيجة لعملية الإحياء والإماتة، وهي عملية مستمرة تتجدّد فيها الموجودات، أحياءٌ قادمون وأموات مغادرون من كلّ أنواع المخلوقات والموجودات، وهذه تجليات لآثار اسم الله "المُحْيِي" واسم "المُمِيت" التي تمنح للحياة والكون حيوية من خلال ذلك التجدد. ولنا أن نتخيّل ماذا يترتّب عن توقف أحد الاسمين عن التّجلي، والخلل الذي سينتج، إمّا بتصوّر الفرد أنّ جميع الأجداد بين يديه مع الهرم والشيخوخة والمرض وأحيانا العجز مع ما يجدُه من حاجة دائمة وملحّة إلى السّعي والتكسّب، إنها حياة عسيرة لكِلا الطرفين. وكذلك الأمر لو تصورنا توقف تجلّي اسم الله "المحيي" وما يترتب عنه ذلك من زوال الموجودات دون أن تتجدّدَ!! من يمكنه استيعاب نتائج ذلك التوقف ولو لمدة قصيرة من الزّمن؟؟ ولذلك رأى الأستاذ أن تلك التجليات للأسماء الحسنى التي تتلألأ على صفحات الكون تمنحه جَمَالًا لأنّ الموت والحياة ستائر للتجديد، وما يظهر أمام أعيننا من دواعي الموت والحياة التي تتكرر في كلّ وقت وحين تشير إلى الحي القيوم الذي بيده مقاليد كل شيء وهو خالق الموت والحياة أيضا.[2]

إنّ الحياة التي هي تَجَلِّ أعظم لاسم الله "الحيّ" واسم "المُحْيِي" تحوي على فهرس مُطوّل، فكما أسلفنا ذكر أهم ما يتعلق بها نختم ذلك بما قاله لأستاذ النورسي عنها:

(وهي وسيلة يُنوّر بها "الحيُّ المُحْيي" سبحانه عالَمَ الدنيا المظلم الفاني ويمنحُه نوعًا من البقاء، ويجعلُه بماكنة الحياة لطيفا مُهَيّئًا للمُضِيّ إلى العالم الباقي...).[3]

إنّ الله الواحد الأحد، الحيّ القيوم، الذي خلق الإنسان بتركيب عجيب، ونفخ فيه الرّوح، وأودع فيه سِرّ الحياة، قد فطره أيضا على رغبة حب البقاء، فهل يُتوقع أو يَقْبَلُ أن ذلك التكوين الجسماني يحمل بُعدًا دنيويا مؤقتا وزائلا؟ أمْ أنّ تلك الرغبة وُجدت في الإنسان لِتُؤجّج نارَ الفراق فيه وتزيده حُزْنًا على حُزن بسبب انتظار الأجَل وتبعث فيه الخوف من الموت أكثر فأكثر، أم أنّ هذه الرغبة في البقاء والخلود سَتَجدُ

---

[1] فريد الأنصاري، مرجع سابق، ص171.

[2] عبد الكريم عكيوي، منهج النورسي في إحصاء الأسماء الحسنى، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد 01، ص58-59.

[3] سعيد النورسي، اللمعات، ص501.

بابا يُفتَح لها لتتحقّق في أبهى صورها في حياة أخرى باقية؟؟ نعم إنه باب سيفتحُ بمفتاح التوحيد.

المطلب الرابع: حقيقة الموت وحب البقاء

إنّ صورة الموت وحقيقته كما يصورها الأستاذ النورسي تختلف عن تلك الصورة المخيفة التي تغلب على أذهان السواد الأعظم من الناس، إذ يتبين أن الأستاذ النورسي يعتقد يقينا الحياة الحقيقية تأتي بعده، لأنّ قدوم الأجَل معناه أنّ خالق الموت والحياة (يُسَرِّحُكَ من وظيفة الحياة، ويُبَدِّل مكانَك في الدنيا الفانية، وينقذك من عِبْء الخدمة، ويُحرِّرُك من مسؤولية الوظيفة. أي يأخذك من هذه الحياة الفانية إلى الحياة الباقية).[1]

فمن يقرأ رسائل النور ما ورد في رسائل النور حول هذا الموضوع بتدبر شريطة إتباع طريق التوحيد والإيمان الذي ينير دربه وحياته مع الإقبال على العمل الصالح والاستزادة منه؛ ستتغير صورة الموت لديه وتزول من نفسه الرهبة وتكون رغبته في الحياة الدنيا للإكثار من الصالحات والتنعم برؤية تجليات الأسماء الحسنى في هذا الوجود.[2]

فلم يَعُدْ الموت بعد ذلك في نظرِ المؤمن الذي عرف خَالقَهُ ولم يكتف بالتوحيد التقليدي الذي يكتسِبُه بالتلقين، بل تَرقَّى في التلقي حتى وصل إلى التوحيد التحقيقي الذي يحفظ به نفسه من ظلمات الأوهام ودرن الشبهات، وعرف قيمته في هذا الوجود وبأنه ثمرة شجرة الخلقة وأنّه في هذه الدنيا مأمور بأداء وظائف جليلة، وأطلق بَصَرَه مستنيرا بنور القرآن فعرف أن ما حوله من كائنات ومخلوقات تسبّح بحمد ربّها وقد جعلها الخالق الحكيم مُسخّرة للإنسان، وأبصر تجليات الأسماء الحسنى على صفحات الكون، وسطعت"الحياة" وهي تجلٍّ عظيم لاسم الله "الحي" واسم "المُحي" وظهرت أنها أعظم تجلٍّ للأحدية، وتمزّق قناع الزوال والخوف الذي توهّم الإنسان أنّه حقيقة يمضي إليها، وأنّ الموت الذي ينتظره هو العدم الذي يقضي على رغبة حبّ البقاء.

(كلّا فالموت ليس عدما ولا مصادفة، ولا انعداما ذاتيا بلا فاعل.. بل هو تسريح من لَدُن فعّال حكيم، وتبديل مكان، وتغيير مقام، وسَوْق نحو السعادة الخالدة.. حيث الوطن الأصلي.. أي هو باب وصال لعالم البرزخ..)[3]

---

[1] سعيد النورسي، المكتوبات، ص275.

[2] مأمون فريز جرار، قضايا وتجليات في رسائل النور، ط 1، دار سوزلر للنشر، القاهرة مصر،2015،ص 149. (بتصرف)

[3] المصدر نفسه، ص275.

فهذا الجانب من الإنسان يتعلّق بالآمال والأشواق المضمرة في النفس البشريّة، وما يحقّقُه الإنسان من ذلك في الحياة الدنيا لا يتحقق منه إلّا قَدْر يَسير لا يتماشى مع مستوى تلك التطلعات والأشواق.

ولكن الأستاذ النورسي رأى (أن هذه الأقدار الواسعة من آمال الإنسان وأشواقه التي لا تجد لها في الحياة الدنيا تحقُّقًا ممكنا، إنّما تجمل في نفسها دلالة على أن حياة الإنسان ليست هي هذه الحياة التي تعجز عن تحقيق تلك المطالب والأشواق، بل هي حياة ممتدة بعد الموت إلى آماد الخلود، حيث يمكن هناك أن تتحقق كل الآمال والأشواق والتطلعات).[1]

وكذلك التركيب البشري في شقيه المادي والرّوحي أسمى وأرفع من أنْ تنْحَصِر دلالته الزمنية في العمر القصير الذي يقضيه الإنسان في هذه الحياة الدنيا؛ لأنَّ ما رُكِب في هذا الإنسان من أجهزة وأعضاء وحواس وما أودعه الخالق الحكيم فيه من لطائف ودقائق ووجدان و... وما يظهر عليه من إتقان وانسجام، وما يتفجّر منه من قدرة على الأداء والعطاء وغيرها من الاستعدادات التي جعلها الخالق الحكيم في الإنسان، فانطلاقا من (مبدأ عدم الإسراف في الفطرة الثابت بشهادة منافع الأعضاء، ولاسيما في العالم الأصغر –الإنسان- يدل على عدم الإسراف في الاستعدادات المعنوية للإنسان وآماله وأفكاره وميوله، وهذا يعني أنّه مُرشحٌ للسعادة الأبدية، ولولا هذه السعادة لتقلّصتْ كلُّ المعنويات. وإذا كان الاهتمام بالجسد إلى هذا الحدّ، فكيف تكون العناية بجوهر الروح نفسه! وعليه فهذا الجسد سيعود عبر الحشر إلى حياة ثانية.)[2]

ولمّا كانت غريزة حبّ البقاء مركوزة في الإنسان، فإن الأستاذ النورسي يُوجّه هذه الغريزة في ضوء تجليات اسم الله "الباقي"، فيخاطبه ناصحا واعظا بقوله:

(فيا أيها الإنسان! إنّ قلبك وهويتك وماهيتك مرآة، وما في فطرتك من حبّ البقاء ليس لأجْلها، بل لأجْل ما فيها من تجلٍّ لاسم "الباقي" ذي الجلال، الذي يتجلّى فيها حسب استعداد كلّ إنسان. ولكن صُرِفَ وجه تلك المحبّة إلى جهة أخرى نتيجة البلاهة. فما دام الأمر هكذا فقل: يا باقي أنت الباقي. فإذا أنتَ موجودٌ وباقٍ، فليفعل الفناء بنا ما يشاء فلا نبالي بِما نلاقي).[3]

إنّ الاطمئنان القلبي والراحة النفسية من ألذّ ثمرات تجليات اسم الله "الباقي"، إذ تحفظ الإنسان من التيه والسير إلى المجهول، فهذا أمر غيبي يؤرق الإنسان ويبعث

---

[1] عبد المجيد النجار، البُعد العقدي لبنية الإنسان في فكر النورسي، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد05، ص102.

[2] زياد خليل الدغامين، من قضايا القرآن والإنسان في فكر النورسي، ص88-89.

[3] سعيد النورسي، اللمعات، ص187.

فيه مخاوف وأسئلة مصيرية تُنَغِّصُ عليه حياته الدنيا وعمره القصير إن لم يجد لها إجابات تستجيب لتطلّعاته ورغبته في البقاء.

(تُعدُّ قضية النّفْس والبعث أو النّفْس والخلود من القضايا المحورية في كلّ الأديان، بل ولدى غير المتدينين، فقضية المصير شغلتْ ولا تزال تشغل كلَّ إنسان عاقل، فهو لا شك يسأل عن مصيره، وإلى ماذا سيؤول: هل إلى الفناء أم إلى البقاء؟ وفي ضوء ما يتوصل إليه من إجابة يكون سلوكه الأخلاقي في هذه الحياة الدنيا).[1]

ولَمَّا كان الفراق ومغادرة الأحباب من هواجس الإنسان وأشدّ مخاوفه دعاه الأستاذ النورسي إلى ربْط القلب بما هو باقٍ وإبعاده عن الفاني، وحذَّره من التعلّق بالمخلوقات الفانية لذاتها، فجعل ضابط محبّة الإنسان لها هو مَحَبُّتُها من خلال نور محبّة الله تعالى وضمن مرضاته، لأن الإسراف في المحبة مع توجيهها إلى الموجودات الفانية تشغل القلب عن محبّة من هو أوْلى بها، كما تُسَبِّبُ للقلب جراحات وآلام بقدر تلك المحبّة أو أكثر إمّا بسبب الفراق أو عدم الاستحقاق، وجعل الأستاذ النورسي المرافقة إلى الحياة الباقية شرطَ المحبّة في الحياة الفانية، ووَجَّه نظر الإنسان إلى أن فيه "لطيفة" لا بد أن يتدبَّرها ويتَّبِعها فهي التي تجعله لا يرضى إلّا بما هو باق ولا يتأثر بالفراق المؤقت، فقال:

(ألا ترى أنّ فيك لطيفة لا ترضى إلّا بالأبد والأبدي، ولا تتوجّه إلّا إلى ذلك الخالد، ولا تنزل إلى ما سِواه؟ حتّى إذا ما أُعْطِيَتْ لها الدنيا كلُّها، فلا تُطَمْأنُ تلك الحاجة الفطرية.. تلك هي سلطان لطائفك ومشاعرك.. فَأَطِعْ سلطان لطائِفك المطيع لأمر فاطره الحكيم جلّ جلاله، وانْجُ بنفسك..)[2]

وخاطب نفسه قبل ذلك مُذَكِّرا إياها، فقال:

(وحيث إنّ الموجودات فانية وستتركني ذاهبة إلى شأنها، فسأتركها أنا قبل أن تتركني، بترديدي: "يا باقي أنتَ الباقي". أي: أُومنُ وأعتقدُ يقينًا أنّه لا باقي إلَّا أنتَ يا إلهي، وبقاءُ الموجودات موْكول بإبقائك إياها، فلا يُوَجَّه إليها المحبّةُ إذن إلّا من نور محبّتك، وضمن مرضاتك، وإلّا فإنّها غير جديرة بربط القلب معها.)[3]

فالإنسان إذا نظر إلى جِسْمِهِ وتكوينه الجسماني ستظهر له أنواع كثيرة من آثار الإبداع والإتقان وأنماط النقوش والإعجاز ومظاهر الرحمة والشفقة وخزائن الرزق والعطايا، وكلُّها تجليات لأسماء الله الحسنى التي تَتَبَدَّى في الجانب الروحاني والمعنوي للإنسان أيضا، فتتهاوى كُلّ المُنَغِّصات والمكدّرات التي أرهقت قلب الإنسان ومشاعره خوفًا من الفراق والسير إلى العدم، فيُفْتح أمامه باب دار البقاء والسعادة الحقيقية

[1] مصطفى النشار، مدخل جديد إلى فلسفة الدين، ط3، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة- مصر، 2016، ص261.
[2] سعيد النورسي، المصدر نفسه، ص158.
[3] سعيد النورسي، المصدر نفسه، ص21.

بتجليات اسم الله "الباقي" الذي تُفْهَمُ في ضوئه رغبة حبّ البقاء التي فُطِر عليها الإنسان، كما تَنْضَبِط "المحبة" بضابط مهم، ألا وهو المرافقة إلى الدار الباقية فلا يتعلق بعدها الإنسان إلّا بمن تليق به تلك المحبّة في إطار ما يحبه الله ويرضاه.

يقول الأستاذ النورسي:

(فعرفتُ بنور الإيمان أنّ الذي خَلَقني ويديم حياتي هو في منتهى السخاء والرحمة واللّطف وفي غاية القدرة والإبداع، وعرفتُ ماذا يعني التسبيح والتقديس والحمد والشكر والتكبير والتعظيم والتوحيد والتهليل وأمثالُها من وظائف الفطرة وغاية الخلقة ونتائج الحياة. فعلمتُ بِعلم اليقين سبب كون الحياة أرقى مخلوق في الكون، وسِرَّ كون كلّ شيء مسخّرًا للحياة، وحكمةَ وجود شوق فطري لدى الجميع نحو الحياة، وأنّ روحَ الحياة إنّما هو "الإيمان.)[1]

وخلاصة ما توصل إليه الأستاذ النورسي أن "الحياة" كُلَّما توجهت إلى "الحيّ" وتجلّى ذلك الاسم من أسماء الله الحسنى عرف معناها وأدرك غايتها وفكّك طَلْسَمها، وكُلَّما توجهت إلى "الباقي" وتطلّعت إليه واستمدت من تجليات ذلك الاسم زالت المخاوف وتوضحت الحقائق وعرفت الطريق والمصير وفرحت بالثمار الطيّبة.

فالإيمان والنظر التوحيدي وإدراك تجليات أسماء الله الحسنى والترقي في مدارج السّالكين يجعل الإيمان "حياة" للحياة، بل روحًا لها، ولذلك فإن الإيمان بأنّ الله الواحد الأحد الذي له الأسماء الحسنى خلق الإنسان في أحسن تقويم واستخلفه في الأرض وجعل له في كلّ شيء آيات كثيرة وتجليات عظيمة لأسمائه الحسنى حتى يعرفه ويَعْبُدَه ويستمد من تلك المعاني ما يعطي قيمة عالية لكل ما يشاهده في نفسه وفي الآفاق، فهذه هي لذة الحياة الدنيا وسعادتها، وعليها تُبْنى أسباب سعادته الأبدية في الدار الباقية، لأنّ وظيفة الحياة الدنيا ليست فقط في حسن حفظ النفس وتوفير حاجات البدن وتلبية الرغبات، وليست الغاية من حُسْن خلق الإنسان وتركيبه وإدراج الحواس والجوارح والأجهزة والأعضاء واللطائف والمعنويات والوجدان و.. هو استعمالها فقط لحاجات النفس ومتطلبات الجسد بشكل مؤقت وزائل. إنّ الحكمة الحقيقية لكلّ ما خلقه الله في هذا الكون وكلُّ ما أودعه في الإنسان وكلّ ما أدرَجهُ في فطرته هي إحساس جميع أنواع تلك النّعم وتذوُّق معاني تجليات الأسماء الحسنى، ولذلك فإنّ سائر "ذوي الحياة" يشاركون الإنسان في بعض الغايات ولكنهم لا يُسَاوُونه.

إن بلوغ الإنسان هذه المراتب لا يتحقق إلا إذا كان منطلقه عقيدة التوحيد التي تحفظه من الزيغ والتيه وتفتح أمامه مغاليق الأمور وتفك طلسم الوجود وتحدد الغاية من الوجود وتضبط الوجهة والمسار وتريح الإنسان من منغصات العيش وتنشر فيه داخله الإحساس بالسعادة والسكينة فلا يخشى من العداء الموهومين ولا من المصير

[1] سعيد النورسي، الشعاعات، ص79.

المجهول، بل يجعل دنياه غراسا لآخرته التي تتحقق فيها رغباته وآماله وسعادته الدائمة.

الخاتمة

الخاتمة

وفي ختام هذه الدراسة يمكننا حوصلة أهم النتائج المتوصل إليها فيما يلي:

1. الاطلاع على سيرة الأستاذ النورسي يكشف عن تجربة إيمانية تتجاوز حدود الاكتفاء بمجرّد سرد الأحداث وقراءتها، بل تتعدى ذلك إلى بيان الثمار المباركة التي سُقيت بذرتُها برعاية الأهل وحُسن تربيتهم في الصّغر، فأثمرت تلك السُقيا

غِراسا مباركا لم تُفْسِده التقلبات الهوجاء في شؤون الدنيا والدين التي هبتْ في أنحاء تركيا آنذاك، بل أينع ثمرهُ وعَمَّتْ بركتُه ونفعُه.

2. قسَّم الأستاذ النّورسي أطوارَ حياته إلى مرحلة "سعيد القديم" و"سعيد الجديد" و"سعيد الثالث" استجابة منه لتقلبات الحياة وأولويات كلّ مرحلة، فقد كان تفاعلُه مع الأحداث حاسِما وجذريا، وكانت له مراجعات دائمة مع نفسه وبيئته ومتغيّرات زمانه.
3. كانت حياة الأستاذ النورسي حافلة بالأحداث المتسارعة ولكنّها لم تُرْهِقهُ ولم تُضعِفْ إرادته، بل زادتْه عزما وصبْرًا، كما أنّه لم يركن إلى الرّاحة والعزلة بشكل اختياري وإنّما نَذَر حياته في سبيل "الخدمة" ولم يلْتفت إلى المصالح الشخصية الزائلة، فجعل كُلَّ هَمِّه هو "إنقاذ الإيمان" وتحدّى بقلمه ورسائله أعداء الدّين بكل تياراتهم المخالفة لجوهر الإسلام والمُتعارضة معه في المنطلقات والغايات.
4. كان مُنطلق الأستاذ النورسي في رسائله "قرآنيا خالصا"، وقد اجتهد ليُبرهن للعالم أنّ القرآن شمس معنوية لا ينطفئ نورُها، وكان مَشْرَبَه قرآنيا ورسائله "تفسير معنوي" للقرآن، وألبسَها حُلَّة قرآنية خالصة من حيث الأساليب والمضمون والمصطلح، فكلُّ ما ورَد في رسائل النور يُفهم ويُقرأ في هذا السياق رغم أنّ ظروف تأليفها كانت صعبة ومتقطعة نظرًا للمضايقات والعقوبات التي تعرّض لها الأستاذ النورسي بشكل متتابع إلى حين وفاته، بل لاحقتْه حتى وهو في قبره.
5. اهتم الأستاذ النورسي بالجانب العقائدي في رسائله. وخاصة إثبات وجود الله ووحدانيته، وفصَّل في أقسام التوحيد وبراهينه وثمراته ومقتضياته للاعتماد عليها في رسم معالم رؤية كونية تستقرىء الكون بمنظار التوحيد وتستنطق الموجودات بلسان التوحيد.
6. استجمع الأستاذ النورسي في رؤيته الكونية التوحيدية كلّ الآيات والبراهين التي تتلألأ في هذا الوجود بأنوار التوحيد، ولولاه لانطفأتْ جذوتها ولم تُعْرَفْ قيمتُها.
7. طريق التوحيد سهل، أمّا طريق الشرك فصعبٌ؛ لأنّ الرؤية التي تنطلق من التوحيد تَفُكّ طَلْسَم الكون وترسم معالم الطريق بسهولة. ولكنّ الشِّرك والكثرة يوقِعان في الغموض والتناقض والصعوبة، ويزيدُ أتباعَهُ حيرةً ورَهقًا.
8. ما حازهُ الإنسانُ من عناية في فِكر الأستاذ النورسي يعكس عُلُوَّ شأنه ورفعة منزلته في هذا الكون، وتلك العناية مستمَدة من القرآن الكريم الذي فصَّل في كلِّ جوانب الإنسان من حيث الأصْل، والحكمة من خَلْقِه. وعلاقته بالله وبالمخلوقات، والمصير و... كما أسبغَ عليه معاني التكريم والتفضيل.

9. قدَّم الأستاذ النورسي "الإنسان" في صورة مشرقة ومُشرِّفة، فمن نظر إلى نفسه بمنظار رسائل النور ورأى الصورة البديعة التي تنعكس من تلك المرآة الساطعة أبْصَر في نفسه صنعَة عالية وقيمة غالية.
10. قيمةَ الإنسان في هذا الوجود ومن منظار الرؤية الكونية التوحيدية تتجلّى ـأكثَر من خلال الوظائف التي يقوم بها والتي تؤكِّدُ أنّه لم يُخْلَق عَبَثًا ولَن يُترك سُدًى. بل إنّه يؤدّي وظائف رفيعة تنضبط من خلالها علاقته بالله وبالمخلوقات.
11. يلفِتُ الأستاذ النورسي نظرَ الإنسان إلى مكنُوناته وما أُودِعَ فيه من أجهزة ولطائف وما يُظْهِرهُ من تجليات الأسماء الحسنى، فهذه الكنوز موجودةَ فيه ولكنه قد يغفل عنها ولا يدرك أنّه "فهرس" للكون وأنّه مُزوَّد بمزايا جامعة لإدراك معاني الأسماء الحسنى وتذوّق ثمرات تجلّياتها.
12. الصورة "المشوَّهة التي رُسِمَت "الإنسان" في بعض الرُؤى الأخرى أفزَعت الأستاذ النورسي لأنها تتعارض بشدة وبوضوح مع صورة "الإنسان" التي عَرَضها القرآن، ولذلك اعتنى الأستاذ النورسي عناية فائقة بهذا المبحث ونظر إلى الإنسان من منظور قرآني وقدّمه في صورة بهيّة تليق به وتبعث في نفسه كلّ المعاني الإيجابية البنّاءة.
13. امتدّتْ عناية الأستاذ النورسي - استمدادًا من منهج القرآن الكريم - لتشمل "الكون"، وأولاه أهمية بالغة، وانْطلق في سياحة كونية تفكريّة فجمع حروفَه ونظَّم كلماته وقرأ صفحاته.
14. النّظر التوحيدي إلى "الكون" يتعارض تماما مع الرؤية المادية الصِّرفة التي نَسَبَتْ لــ"الطبيعة" فاعلية طاغية ورفعت شعارات تعالتْ معها رائحة الكفر و أمواج الإلحاد.
15. استخدم الأستاذ النورسي مصطلح "الطبيعة" في سياق الردّ على الرؤى الفاسدة التي تتعارض مع الرؤية الكونية التوحيدية، فقد تمَّ رَبْط أواصِر الإلحاد بــ "الطبيعة" ونزل الأستاذ النورسي إلى ميدان الصّراع الفكري وردَّ على الملاحدة وفَنَّدَ مزاعمهم، ثمّ قدّم "الطبيعة" في صورتها الحقيقية.
16. سياحة الأستاذ النورسي الكونية وقراءته التفكريّة لصفحات الكتاب المنظور تتماشى مع قراءته للكتاب المسطور، وقد جمع بذلك بين القراءتين.
17. نال الإنسان في الرؤية النورسية شرف تسخير الكون له، وجَعلَتْ كُلُّ عناصِره لخدمة الإنسان في دار الضيافة التي تليق به وفُتِحتْ له فيها الخزائن الرحمانية التي تُلبّي حاجياته.

18. أدمج الأستاذ النورسي تجليات الأسماء الحُسنى في تفاصيل الرؤية الكونية التوحيدية، ونبَّه الإنسان إلى أنّه في حاجة إلى تلقّي معاني الأسماء الحسنى وتجلياتها في أسرار نفسه وفي صفحات الكون لِتُنَوِّر حَيَاته ويتقوَّى بها في مواجهة الرؤى الأخرى.

ولعل النتيجة الجامعة لكل ما وصلنا إليه هي أن الأستاذ النورسي لم يكتب في رسائله شيئا لم يره ولم يعشه ولم يتذوقه، وأن رسائله قد عنيت بمعالجة القلوب لذلك تميزت بعدم التركيز على ذكر الشبهات حتى لا تلتصق بالقلوب، أما من تعرض لها فسيعلم أن هذا هو جوابها.

وفي الختام نحمد الله العلي العظيم على التوفيق لإتمام هذا العمل الذي نرجو أن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن يتقبلَّه منا ويجعله نافعا مباركا. وصلى اللهم سلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

***القرآن الكريم**

أولا: المصادر

I-كلّيات رسائل النور:

1- سعيد النورسي، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط3، دار النيل، القاهرة-مصر، 2013.

2- سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط2، دار النيل، القاهرة-مصر، 2013.
3- سعيد النورسي، اللمعات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل، ط2، القاهرة-مصر، 2013.
4- سعيد النورسي، اللمكتوبات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل، ط1، القاهرة-مصر، 2008.
5- سعيد النورسي، اللّوامع، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط1، دار سوزلر، القاهرة- مصر، 2013.
6- سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، ط3، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة-مصر، 2013.
7- سعيد النورسي، الملاحق: ملحق أمير داغ2، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط3، دار النيل، القاهرة-مصر، 2003.
8- سعيد النورسي، سيرة ذاتية، ترجمة إحسان قاسم صالحي، ط3، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1434ه، 2013م.
9- سعيد النورسي، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم صالحي، ط3، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1434هـ-2013م.

II- بعض الرسائل المتفرقة من كلّيات رسائل النور للأستاذ سعيد النورسي :

1. أنوار الحقيقة، مباحث في التصوّف والسلوك، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، ط04، القاهرة-مصر، 2013.
2. الآية الكبرى، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط7، دار سوزلر،القاهرة-مصر،2012.
3. الإيمان وتكامل الإنسان، ترجمة: إحسان قاسم الصّالحي، ط7، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2011.
4. التفكّر الإيماني الرفيع والمعرفة التوحيدية السامية، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط2، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2004.
5. الثمرة، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي،ط1، مؤسسة دار الأنوار، إسطنبول تركيا، 2018.
6. حرف من كتاب "أنا" الكبير نقطة من بحر "الذرة" العظيم، ترجمة: إحسان قاسم الصّالحي، ط2، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2009.

7. حقائق الإيمان، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط06، دار سوزلر، القاهرة-مصر، 2013.
8. الطبيعة، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط5،دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2012.
9. القاهرة السنة النبوية مرقاة و منهاج، ط6، دار سوزلر للنشرن القاهرة-مصر، 2013.
10. كلمات صغيرة في العقيدة والعبادة، ترجمة : إحسان قاسم الصالحي، ط9، دار لوامع الأنوار، القاهرة-مصر، 2018.
11. اللوامع، ترجمة، إحسان قاسم الصالحي، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2013.
12. مجموعة الموازنات بين الإيمان والكفر، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط1، دار سوزلر، القاهرة-مصر، 2008.
13. مرشد الشباب للنجاة يوم الحساب، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط8،دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2013.
14. النوافذ: 33نافذة مطلّة على التوحيد، ترجمة، إحسان قاسم الصالحي، ط3، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2011.

ثانيا: المراجع

1. إحسان قاسم الصالحي وأديب إبراهيم الدباغ، سعيد النورسي.. عملاق الفكر الديني في العصر الحديث، ط1، دار النيل، القاهرة-مصر، 2011.
2.إحسان قاسم الصالحي، رحلتي مع رسائل النور، ط1، دار المأمون، عمّانْ، الأردن، 2017.
3.إحسان قاسم الصالحي، نظرة عامة عن حياة بديع الزمان سعيد النورسي، ط1، دار وزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2015.
4.أديب إبراهيم الدباغ، في آفاق النور، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة،-مصر، 2004.
5.إسماعيل راجي الفاروقي، التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، ترجمة: السيد عمر، دط، 2010.
6.إسماعيل راجي الفاروقي-لويس لمياء الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، دط، (مكتبة العبيكان الرياض-المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا)، 1998.

7.أشرف عبد الرافع الدرفيلي، البعد الإيماني في فلسفة الحضارة وعند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2015.
8.أشرف عبد الرافع الدّرفيلي، الحرية مفهومها وصُوَرُها عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر.
9.أورخان محمد علي، سعيد النورسي رَجُلُ القدر في حياة أمّة، ط3، دار موزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2006.
10.حسين عثمان وآخرون، سيرة بديع الزمان سعيد النورسي بلسانه وأقلام تلاميذته.
11.خديجة النبراوي، مشكلات عقلية وقلبية للإنسان، ط2، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2004.
12.خديجة النبراوي، مشكلات نفسية للإنسان، ط2، دار سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، 2002.
13.زياد خليل الدغامين، مِنْ قضايا القرآن والإنسان في فكر النورسي، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة – مصر، 2009.
14. سامي عفيفي حجازي وأحمد عبد الرحيم السايح، قضايا معاصرة في فكر الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، 2005.
15.سراج الدين محمد نبيه، السلوك الروحي في مفهوم سعيد النورسي، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر، 2015.
16.سليمان عشراتي، النورسي في رحاب القرآن وجهاده المعنوي في ثنايا رحلة العمر، دار سوزلر للنشر، ط2، القاهرة-مصر، 2010.
17. سليمان عشراتي، النورسي و منهجه في الدعوة إلى القرآن:سبر لروح رسائل النور، دط، مطبعة ميجا،إسطنبول –تركيا، د س ن.
18.سيّد قطب، في ظلال القرآن، ط17، دار الشروق، القاهرة-مصر، 1992، ج1.
19.الشريف طاوطاو، روجيه غارودي والفكر العربي المعاصر: جدل الفلسفة واللإيديولوجيا، ط1، منتدى المعارف، بيروت-لبنان، 2014.
20.الشفيع الماحي أحمد، معالم إيمانية أو البعد العقدي في فكر النورسي، ط1، دار سوزلر، القاهرة-مصر،2003.
21.شكران واحدة، الإسلام في تركيا الحديثة: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: محمد فاضل، مراجعة: إحسان قاسم الصالحي، دط، دار سوزلر للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007
22.ضابط تركي سابق (مؤلف مجهول)، الرّجُل الصّنم، أتاتورك حياة رجل ودولة، ترجمة: عبد الله عبد الرحمن، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان-الأردن، 2013.

23.طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، دط، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، تم طبعه من طرف: دار الهدى للطباعةوالنشر والتوزيع، عين مليلة-الجزائر، دتن.
24.طه كوزي، القرآن نسخة من الإنسان، ط2، دار كتابك، الجزائر العاصمة، 2019.
25.عاصم الحسيني ومحمد بسام حجازي، سيرة إمام مُجدّد: قبسات من حياة الإمام العلاّمة بديع الزمان سعيد النّورسي، ط1، دار الأنوار، اسطنبول، تركيا، 2018.
26. عبد الحليم عويس رجل القرآن وصناعة الإنسان، ط2، دار النيل، القاهرة-مصر، 2013.
27.عبد الرزاق بلعقروز، أزمة الحداثة ورِهانات الخطاب الإسلامي، ط1، منتدى المعارف، بيروت-لبنان، 2013.
28.علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة، محمد يوسف عدس، ط2، مؤسسة بافاريا، ميونخ-ألمانيا، 1996.
29.علي عزّت بيوجوفيتش، عوائق النهضة الإسلامية، ط1، دار كتابك ، الجزائر العاصمة، 2019.
30.عماد الدين خليل، قراءة في كتابات النورسي: رؤية جمالية "الكلمات"، ط1، دار سوزلر، القاهرة-مصر، 2011.
31. عمار جيدل، حقيقة مقاصد رسائل النور: استمداداتها وامتداداتها، ط2، دار النيلن القاهرة-مصر، 2009.
32.فريد الأنصاري، مفاتح النور، ط1، دار سوزلر-استانبول، د س ن.
33.ليث سعود جاسم، الإمام النورسي والتعامل الدعوي مع القوميات، ط1، دار سوزلر للنشر القاهرة-مصر، 2004.
34.مأمون فريز جرار، قضايا وتجليات في رسائل النور، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة-مصر،2015.
35.محسن عبد الحميد، النورسي متكلّم العصر، دط، دار سوزلر للطباعة والنشر، القاهرة-مصر، 2002.
36.محمد المبارك، نظام الإسلام العقيدة والعبادة، ط4، دار الفكر، بيروت-لبنان، 1975.
37.محمود فرج الدمرداش، وعلّم آدم الأسماء كلّها، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1996، القاهرة.
38.مصطفى النشار، مدخل جديد إلى فلسفة الدين، ط3، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة- مصر، 2016.

39.مصطفى حلمي، الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004.
40.مصطفى صبري، قوْلي في المرأة، إخراج بسّام عبد الوهاب الجابي، ط2، دار ابن حزم-الجفان والجابي للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، دسن.
41.مصطفى صبري، مسألة ترجمة القرآن، دط، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1351هـ.
42.مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من ربّ العالمين وعباده المرسلين، دط، دار إحياء التراث العربي، بيروت –لبنان، د س ن ،الجزء1.

ثالثا: الدوريات:

أعداد من مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية: مجلة علمية محكمة تصدر في تركيا:

1- إحسان قاسم الصالحي، دور رسائل النور في استعادة صياغة القرآن للإنسان، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد13، يناير 2013.
2- آراس حمة عثمان، فقه الولويات عند بديع الزمان سعيد النورسي، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد17، يناير 2018.
3- شكران واحدة، كتاب الكون: قراءاته وموقعه وتطوره في فكر بديع الزمان، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، إسطنبول_تركيا، العدد 2، يوليو 2010.
4- صباح الدّين زعيم، مقال بعنوان: الرؤية الحضارية من خلال رسالة الاقتصاد، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد05، يناير2012.
5- طه عبد الرحمان، فصل المقال فيما بين فلسفة البشر وحكمة القرآن من الانفصال عند الحكيم بديع الزمان، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، إسطنبول، تركيا، يناير2010العدد1.
6- عبد العزيز برغوث، موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف والتحضّر عند الأستاذ بديع الزّمان سعيد النّورسي، مجلّة النور للدراسات الحضارية والفكرية، إسطنبول_ تركيا، ال عدد2، يوليو 2010.
7- عبد الكريم عكيوي، القرآن العظيم مصدرًا للتربية السلوكية، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد3.
8- عبد الكريم عكيوي، منهج النورسي في إحصاء الأسماء الحسنى، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد 01.

9- عبد المجيد النجار، البُعد العقدي لبنية الإنسان في فكر النورسي، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، إسطنبول-تركيا، ع5، يناير 2012.
10- عثمان محمد غريب: أواصر العناصر الكونية من منظور الأستاذ بديع الزمان النورسي، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد 10، يوليو 2014.
11- محمد خليل جيجك، ملامح تجدُّد خطاب النورسي في مواجهة تحديات العصر، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد04، يوليو 2011.
12- محمد خليل جيجك، منهج النورسي في التعامل مع الأسماء الحسنى، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد01، يناير2010.
13- محمّد عبد النبيّ، مقال بعنوان: تربية النفوس عند بديع الزمان النورسي، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، العدد04، يوليو 2011.
14- محمد كنان ميغا، مقاصد الحياة وغاياتها في فكر بديع الزمان سعيد النورسي ، مجلة النور، العدد01، يوليو 2010.

رابعا:الملتقيات والمؤتمرات والندوات

I-أعمال حلقة دراسية بعنوان: البُعد الأُخروي في رسائل النور من تنظيم مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم بتاريخ 5-6/أغسطس/2006 في اسطنبول، ط1، دار سوزلر للطباعة والنشر، إسطنبول- تركيا، 2006.

1. أديب إبراهيم الدباغ، بحث بعنوان: سُجناء الوجود.
2. خالد الصمدي، بحث بعنوان: مقاصد الإيمان بالآخرة.

II-مختارات من الأوراق المقدَّمة في المؤتمر الدولي حول "التعليم والأخلاق في ضوء رسائل النور لسعيد النورسي، تحرير: تاج الدين المناني وآخرون، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة "كيرالا" الهند، فبراير 2018 :

1-محمد أفضل الوافي، مشروع مدرسة الزهراء: بحث تحليلي .

III-أعمال المؤتمر الدولي فكر الإمام بديع الزمان النورسي وأثره في وحدة الأمة الإسلامية، تحت رعاية الأزهر الشريف ومؤسسة اسطنبول للثقافة والعلوم، بتاريخ: 26-27/فيفري/2013 في القاهرة، ط1، دار سوزلر للنشر، القاهرة- مصر،2013:

1. أمل عبد الظاهر، بحث بعنوان: العبادات وأثرها بناء الفرد وإشعاره بالمسؤولية تجاه وحدة الصف والترابط والإخاء.

2. محمد سعد عبد المجيد قاسم، بحث بعنوان: علاج أهم المشكلات السياسية الاقتصادية في العالم الإسلامي من خلال فكر الإمام النورسي وأثره في وحدة الأمة.

IV-أعمال الندوة العلمية المنعقدة ما بين 17-18/مارس/1999 بمدرج الشريف الإدريسي جامعة محمد الخامس في الرباط، من تنظيم جامعة محمد الخامس ومركز بحوث رسائل النور، دط، دار سوزلر للنشر، اسطنبول-تركيا، د س ن:

1. الحسين آيت علي، بحث بعنوان: التجديد العقدي عند النورسي.
2. العربي بو سلهام، بحث بعنوان: من الأسس الفكرية والحضارية في كتابة النورسي.
3. عبد الكريم عكيوي، بحث بعنوان: جهود النورسي في إرساء أسس الوحدة الفكرية وتثبيت الحوار في عصره.
4. فاروق حمادة، بحث بعنوان: الكون والطبيعة في فكر النورسي أثرا ودلالة وهدفا.
5. محسن عبد الحميد، بحث بعنوان: من معالم التجديد عند النورسي.
6. محمد أمحزون، بحث بعنوان: عصر بديع الزمان النورسي: العثمانيون قراءة تاريخية.
7. الحسين آيت السعيد، بحث بعنوان: النورسية هوية الأُمَّة التركية

الفهارس

أولا: فهرس المحتويات

الرقم	الموضوع	الصفحة
	الإهداء	
	شكر وعرفان	
	مقدمة	1

الفهارس

الفصل الأول: ترجمة النورسي وظروف عصره 14		
المبحث الأول	سيرة النورسي ومراحل حياته	15
المطلب الأول	اسمه ونسبه ونشأته	16
الفرع الأول	هوية النورسي ودلالات ألقابه	16
الفرع الثاني	نسب النورسي ودور أسرته في تكوينه	19
المطلب الثاني	رحلاته في بحر المعرفة	22
الفرع الأول	إشراقات النّبوغ منذ الصّبا	22
الفرع الثاني	مسالك التحصيل العلمي وتفتّح المدارك	23
المبحث الثاني	ظروف وتحديات عصره	25
المطلب الأول	الظروف السياسية	26
الفرع الأول	أوضاع الحكم والخلافة.	27
الفرع الثاني	موقف النورسي من تعطيل دور المشيخة	28
المطلب الثاني	الحياة الثقافية والدينية والاجتماعية	33
المبحث الثالث	ماهية رسائل النور	36
المطلب الأول	رسائل النور من منظور مؤّلفها	36
المطلب الثاني	ظروف تأليف رسائل النور	39
المطلب الثالث	خصائص رسائل النّور	45
أولا	قرآنية المصدر	45
ثانيا	تفاوت مستويات الخطاب	46

ثالثا	التجربة والمشاهدة أساس الأفكار	47
رابعًا	تكاملية نهج الرسائل	48
خامسًا	عدم تعارض التواضع مع الفعالية	49
سادسا	مقاصدية الرسائل	52
سابعًا	رسائل النور مائدة للأذواق ونافذة للأفاق	53
المبحث الرابع	معالم الرؤية الكونية التوحيدية عند النورسي	59
المطلب الأول	إحاطة النورسي بتحديات عصره	59
المطلب الثاني	مدار الرؤية الكونية التوحيدية وأبرز انشغالاتها	65
الفصل الثاني: تجليات عقيدة التوحيد في الرؤية الكونية عند النورسي 71		
المبحث الأول	التوحيد من منظور رسائل النور	72
المطلب الأول	مفهوم التوحيد وأقسامه	72
المطلب الثاني	الواحِدية و"الأَحَدِيَّة من حيث الاشتقاق والدلالة	75
المبحث الثاني	براهين التوحيد عند النورسي	78
المطلب الأول	دلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم على التوحيد	80
المطلب الثاني	الكتاب المنظور برهان ساطع بالتوحيد	81
المطلب الثالث	الكتاب المسطور برهان ناطق بالتوحيد	84
الفرع الأول	دليل الاختراع	86
الفرع الثاني	دليل العناية والغاية	87
الفرع الثالث	دليل التمانع	88

المطلب الرابع	دلالة الإنسان على الوحدانية	89
الفرع الأول	الوجدان الحي	89
الفرع الثاني	الجانب الجسماني	91
الفرع الثالث	اِنسجام الإنسان والكون في الدلالة على الوحدانية	93
المبحث الثالث	ثمرات التوحيد عند النورسي	99
المطلب الأول	معرفة الله ومحبته	99
المطلب الثاني	إظهار مزايا الكون وكمالاته	99
المطلب الثالث	إظهار مكانة الإنسان وقيمته	103
المبحث الرابع	مقتضيات التوحيد	107
المطلب الأول	الحاكمية والآمرية	107
المطلب الثاني	السهولة و اكتساب القيمة	110
المطلب الثالث	عدم التّجزؤ	112
الفصل الثالث: الإنسان من منظور رسائل النور		**117**
المبحث الأول	الإنسان بين الماهية والوجود	118
المطلب الأول	تعريف الإنسان عند النورسي	118
المطلب الثاني	التركيب العجيب لِخَلْق الإنسان	124

المطلب الثالث	القوى الكامنة في ماهية الإنسان	127
المطلب الرابع	الحكمة من إدراج صِفَتَيْ العجز والفقر في ماهية الإنسان.	132
المطلب الخامس	الأنا في الإنسان	136
المبحث الثاني	الغاية من خَلق الإنسان	139
المطلب الأول	مفهوم العبادة عند النورسي وآثارها على الإنسان.	139
المطلب الثاني	أنواع العبادات وأبعادها المقاصدية.	150
الفرع الأول	حقيقة الصلاة وحاجة الإنسان إليها.	151
الفرع الثاني	المعاملات المالية وآثارها على النفس والمجتمع	156
الفرع الثالث	الدعاء روح العبادة.	160
المبحث الثالث	وظائف الإنسان	169
المطلب الأول	الوظيفة الفطرية	169
المطلب الثاني	الوظيفة المظهرية	173
المطلب الثالث	الاستخلاف وظيفة وجودية	178
الفصل الرابع: مشاهدات سائح يستنطق الكون ويستشعِر الحياة		**188**
المبحث الأول	النورسي بين الفلسفة والدّين	189
المطلب الأول	موقف النورسي من الفلسفة الغربية	189

المطلب الثاني	أسباب تأليف رسالة الطبيعة	193
المطلب الثالث	مضمون رسالة الطبيعة	195
المطلب الرابع	الطبيعة بين الفاعلية الوهمية والمفعولية الوظيفية	202
المبحث الثاني	النورسي بين الكتابين المنظور والمسطور	204
المطلب الأول	الكون كما يراه النورسي	205
المطلب الثاني	من الكتاب المسطور إلى فقه الكتاب المنظور	209
المطلب الثالث	مكانة الإنسان في الكون	217
المبحث الثالث	الأسماء الحسنى في الكون والحياة	221
المطلب الأول	مكانة الأسماء الحسنى في الرؤية النورسية	221
المطلب الثاني	الحياة آية توحيد ساطعة	224
المطلب الثالث	الحياة مرآة لتجليات الأسماء الحسنى	228
المطلب الرابع	حقيقة الموت وحب البقاء	240
خاتمة		235
قائمة المصادر والمراجع		239
فهرس المحتويات		249
فهرس الآيات القرآنية		253

ثانيا: فهرس الآيات القرآنية

الفهارس

السورة	رقم الآية	الآية	الصفحة
البقرة	21-22	يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ	145
البقرة	31	وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا -البقرة، الآية 31.	179
البقرة	32	قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۖ -البقرة، الآية 32.	179
البقرة	33	وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ -البقرة، الآية 33.	179
النساء	168	خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ	114
النور	35	۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ ۖ	43
الأحزاب	72	اِنَّا عَرَضْنَا اَلَامَانَةَ عَلَي اَلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَّحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا ۖ وَحَمَلَهَا ٱلِانسَٰنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوما ۙ جَهُولا ۙ	137
الشمس	09	قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا	138-137

ملخص

يتعلق موضوع هذه الدراسة بالرؤية الكونية التوحيدية عند بديع الزمان سعيد النورسي، وهو موضوع مهمّ جدًا لأنّه يرتبط بشكل مباشر بأهمّ الأسئلة الوجودية التي شَغَلتْ الفِكر الإنساني، ولا تزال تشْغَلُه إلى اليوم، حيث تسعى كلُّ فلسفة أو دين لصياغة رؤية للعالَم مِن مُنطَلَق مُحَدَّد. ولذلك ارتأينا تقديم النموذج التوحيدي في هذه الأطروحة لأنَّهُ ينطلق من عقيدة التوحيد النقيّة ويتحصَّنُ بها لمواجهة باقي الرُؤى التي تتعارض معه في الجوهر والمقصد؛ وذلك استجابة للتحديات والصّراعات الفكرية التي تحاول فرضَ العديد من الرُؤى المخالفة بكل الأساليب والوسائل حتى صار لِزامًا على الإنسان المسلم أن يَعرِف أصول هذه الرؤية الكونية التوحيدية والغايات التي تتحقق من خلالها، فيكون حينها قادرًا على التمييز بينها وبين باقي الرُؤى التي تتوافق معها. وقد عرضنا تفاصيل الرؤية الكونية التّوحيدية من منظور بديع الزمان سعيد النورسي الذي عَرَض هذه الرؤية بكلّ تفاصيلها في رسائل النور لتكون علاجا فعّالاً لأدواء العصر وحِصْنًا منيعا يحفظ المسلمَ من الضّلال والتّيه، ويدفع عنه الشك والشبهات، فهو العالِم الذي جاهد واجتهد من أجل إنقاذ الإيمان وترسيخ عقيدة التوحيد في القلوب، ودعا الإنسانَ للتّفكر في نفسه وفي الأفاق وليشاهد تجليات الأسماء الحسنى في هذا الكون لتكون براهين قاطعة على وجود الله ووحدانيته. فرَسَم للإنسان معالِم مسْلك نوراني يستنير بِسِرّ التوحيد، ويرى الجلال والجمال والقدرة والعِلم المحيط والعناية في كلِّ شيء، فيعْرف الإنسانُ خالقهُ الواحد الأحد الذي خَلَقَه في تركيب عجيب ورفع مكانَتَهُ في هذا الوجود، وتستقيم علاقته بالكون الذي جعله الخالق الحكيم مُسَخّرًا للإنسان، وتتوافق قراءة كتاب الكون مع الكتاب المنْزَل، ويرى أن الآيات الكونية والآيات القرآنية شارِحةٌ لبعضها. فيهنأ الإنسان بِعيْشِه وتستقِرُّ حياتهُ، ويؤدّي واجباته وعباداته بكلِّ أنواعها في سكينة وطمأنينة، ويزول عنه الخوف من الموت والفراق حين يُدْرِك أنَّ الحياة الدنيا مؤقتة، وأنَّ كُلّ ما أُودع في خَلْقِه وتركيب يليق به الخلود في حياة باقية وسعادة أبدية؛ إذا حَسُنَتْ رُؤْيَتُهُ فَعَرَف مَصْدَرَه ورَسَم مَسَارَهُ وعَمِلَ لِيَحْسُنَ مصيرُه.

الكلمات المفتاحية: الرؤية الكونية، التوحيد، الكون، الإنسان، الحياة، النورسي.

Summary:

This study delves into the monotheistic worldview as articulated by Bediüzzaman Said Nursi. It is a particularly significant topic as it addresses the profound existential

questions that have preoccupied human thought throughout history and continue to do so today. Every philosophy or religion strives to formulate a specific worldview, and thus, this dissertation aims to present the monotheistic model. This model is rooted in the pure belief in divine unity (Tawhid) and is fortified by it, standing in contrast to other worldviews that differ in essence and purpose. The study responds to the intellectual challenges and conflicts that seek to impose divergent perspectives through various means, making it essential for the Muslim individual to understand the principles of the monotheistic worldview and its intended objectives. This understanding allows one to discern between it and other compatible worldviews.

The dissertation delves deeply into the monotheistic worldview from the perspective of Bediüzzaman Said Nursi, who elaborated on this vision in his collection, Risale-i Nur, as a remedy for the maladies of the modern age. Nursi's approach serves as a fortified shield protecting the Muslim from misguidance and confusion, offering a defense against doubt and skepticism. He is a scholar who devoted his life to the preservation of faith and the reinforcement of belief in divine unity, urging humankind to reflect upon themselves and the universe, and to witness the manifestations of the Divine Names in creation. These reflections provide irrefutable evidence of God's existence and oneness.

Nursi charted a luminous path for humanity, illuminated by the secret of Tawhid, enabling one to perceive divine majesty, beauty, omnipotence, omniscience, and care in all things. Through this perspective, humanity recognizes its Creator, the One and Only, who fashioned them in a wondrous manner and elevated their status in existence. This understanding harmonizes humanity's relationship with the universe, which the wise Creator has subjugated for their benefit, aligning the reading of the cosmic book with the revealed book. The Qur'anic verses and the signs in creation complement one another, allowing humans to live in harmony and peace.

As a result, a person fulfills their duties and acts of worship in tranquility and contentment, free from the fear of death and separation, understanding that life in this world is temporary. Recognizing that everything inherent in their creation is designed for eternal life and everlasting happiness, their vision becomes clear. They come to know their origin, chart their path, and work towards ensuring a favorable destiny.

Keywords: Worldview, monotheism, Universe, man, Life, Nursi

Résumé :

Cette étude se penche sur la vision monothéiste du monde telle qu'élaborée par Bediüzzaman Said Nursi. Ce sujet revêt une importance majeure, car il aborde des questions existentielles profondes qui ont occupé la pensée humaine au fil des siècles

et qui continuent d'éveiller des réflexions contemporaines. Chaque philosophie ou religion s'efforce de formuler une vision cohérente du monde, et en ce sens, cette thèse vise à présenter un modèle monothéiste. Ce dernier s'enracine dans une foi authentique en l'unicité divine (Tawhid) et se renforce par celle-ci, se dressant ainsi en opposition à d'autres perspectives qui diffèrent tant par leur essence que par leur finalité. L'étude répond aux défis intellectuels et aux conflits qui cherchent à imposer des visions divergentes par divers moyens, soulignant l'importance pour l'individu musulman de comprendre les principes fondamentaux de la vision monothéiste et ses objectifs. Cette compréhension lui permet de distinguer cette vision parmi d'autres approches qui pourraient lui sembler compatibles.

La thèse explore en profondeur la vision monothéiste à travers le prisme de Bediüzzaman Said Nursi, qui a développé cette perspective dans son œuvre emblématique, le Risale-i Nur, qu'il présente comme un remède aux maux de l'époque moderne. L'approche de Nursi se dresse tel un rempart contre les égarements et la confusion intellectuelle, offrant une défense solide contre le doute et le scepticisme. Cet érudit a consacré sa vie à la préservation de la foi et au renforcement de la croyance en l'unité divine, exhortant l'humanité à réfléchir sur son existence et sur l'univers, tout en observant les manifestations des Noms divins dans la création. Ces réflexions constituent des preuves indiscutables de l'existence et de l'unicité de Dieu. Nursi a tracé pour l'humanité un chemin lumineux, illuminé par le secret du Tawhid, permettant à chacun d'appréhender la majesté, la beauté, la toute-puissance, l'omnipotence et la bienveillance divines dans chaque aspect de la création. À travers cette perspective, l'humanité reconnaît son Créateur, l'Unique, qui l'a façonnée de manière prodigieuse et l'a élevée dans l'ordre de l'existence. Cette compréhension harmonise la relation de l'humanité avec l'univers, que le Sage Créateur a soumis à son service, unissant ainsi la lecture du livre cosmique à celle du livre révélé. Les versets coraniques et les signes présents dans la création se complètent, permettant aux êtres humains de vivre en paix et en harmonie.

Ainsi, l'individu accomplit ses devoirs et ses actes d'adoration dans la sérénité et la satisfaction, affranchi de la peur de la mort et de la séparation, conscient que la vie sur terre n'est qu'un passage éphémère. En reconnaissant que tout ce qui découle de sa création est destiné à une existence éternelle et à un bonheur sans fin, sa vision s'éclaire. Il découvre son origine, trace son chemin et s'engage à garantir un destin propice.

Mots-clés : Vision du monde, le monotheisme, l ‘Univers, , la vie, Nursi.

People's Democratic Republic of Algeria
Ministry of Higher Education and Scientific Research
Amir Abd-el-Kader University of Islamic SciencesConstantine

Faculty of THEOLOY

Ordinal Number: ……

Identification Number: ……

Department: Doctrine and Comparative Religions

Branch: Creed (Akida)

The Monotheistic Worldview Of Badi'uzzaman Nursi

An Analytical and Critical Study

Thesis Submitted for Academic Doctoral Sciences

Specialty: Creed and Contoporary Islamic Thought

Elabortated by:

MIHOUB Hadda

Under The Supervision of

Pr. LAHLAHE Ezzohra

The discussion jury members

Name and First Name	Function	Scientific Rang	Original University
	President		
LAHLAHE Ezzohra	Supervisor	Lecturer	Emir Abdelkader University
	Member		
	Member		
	Member		

University year: 1445 -14436 h / 2024-2025